

مَجَالِسُ النُّوَيْسِيِّ

فِي تَذْكِرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفْسِيرِهِ

بِمَنْهَجِ عَمَلِيٍّ وَتَرْبُويٍّ جَلِيلٍ

لِلْمَجْلَدِ الرَّابِعِ

السَّيِّحُ الذَّكَتَوْرُ

مُحَمَّدُ عَمِيْدُ الْكَبِيْسيِّ

رَاجَعَهُ وَهَقَّقَ مَسَائِلَهُ وَفَرَّجَ أَهْوَائِهِ

د. وَلِيْدُ الْحُسَيْنِيِّ د. اِبْرَاهِيْمُ الْاَنْصَارِيِّ د. مُحَمَّدُ الْمُصْلِحِ



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مَجَالِسُ التَّوَكُّلِ

فِي تَذْكِرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفْسِيرِهِ

بِسَهْجِ عَيْنِي وَتَرْوِي جَلِيدِ

لِلْمَجْلَدِ الرَّابِعِ

الشيخ الدكتور

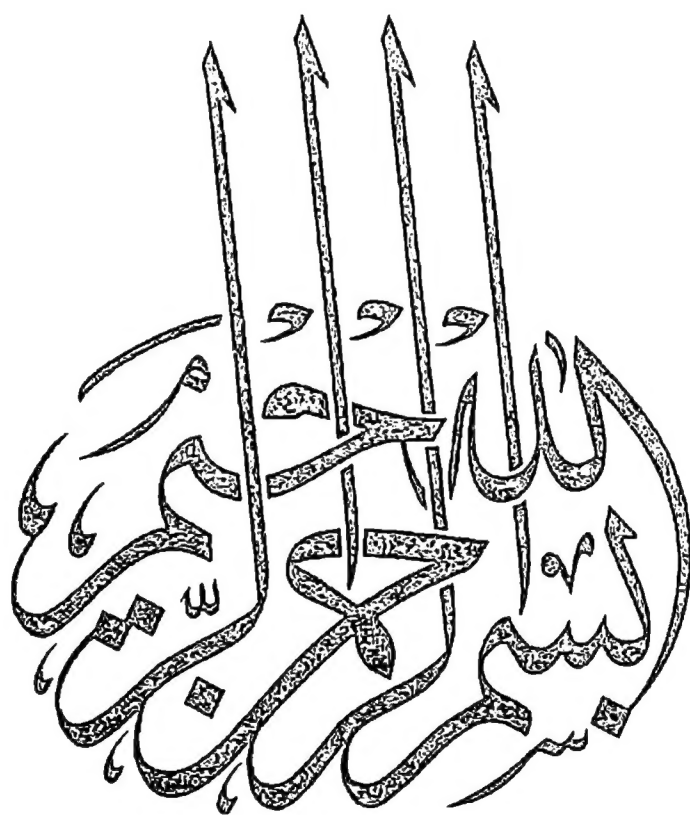
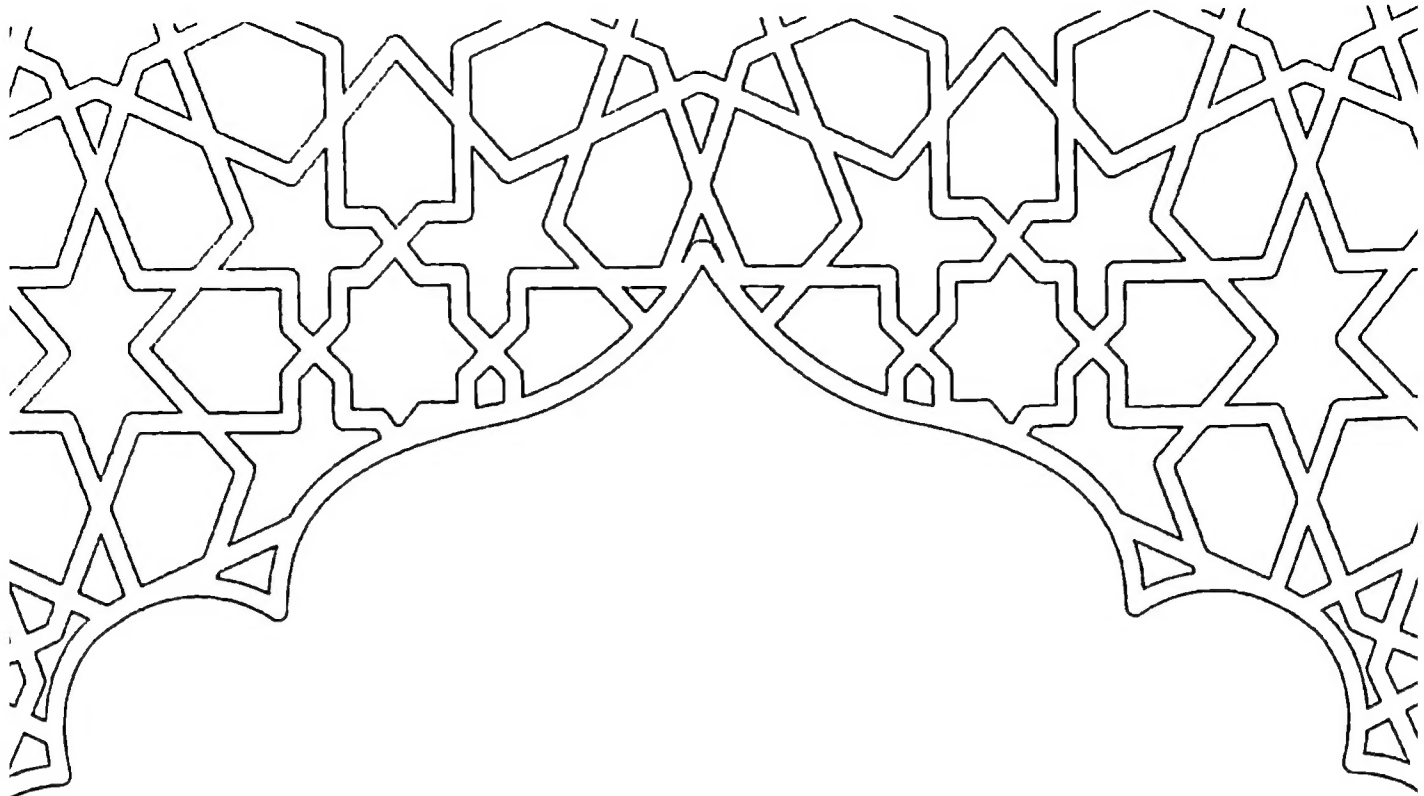
محمد عتيق الكبسي

راجعه ومحقق سائله وفتح أماريته

د. وليد الحسيني د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصليح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press



المحتويات

المجلد الرابع

سُورَةُ الدَّارِينَاتِ

١٥١١	المجلس السابع والثلاثون بعد المائتين	إنما توعدون لصادق
١٥١٨	المجلس الثامن والثلاثون بعد المائتين	من قصص النبيين
١٥٥٢	المجلس التاسع والثلاثون بعد المائتين	ففرؤا إلى الله

سُورَةُ الطُّورِ

١٥٥٧	المجلس الأربعون بعد المائتين	إن عذاب ربك لواقع
١٥٦١	المجلس الحادي والأربعون بعد المائتين	أم خلّقوا من غير شيء أم هم الخالقون

سُورَةُ النَّجْمِ

١٥٦٧	المجلس الثاني والأربعون بعد المائتين	وما ينطق عن الهوى
١٥٧٣	المجلس الثالث والأربعون بعد المائتين	وان ليس للإنسان إلا ما سعى

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

١٥٧٩	المجلس الرابع والأربعون بعد المائتين	فكيف كان عذابي ونذر
------	--------------------------------------	---------------------

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

١٥٨٩	المجلس الخامس والأربعون بعد المائتين	فبأي آلاء ربكما تكذبان
------	--------------------------------------	------------------------

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

١٥٩٩	المجلس السادس والأربعون بعد المائتين	إذا وقعت الواقعة
١٦٠٥	المجلس السابع والأربعون بعد المائتين	نحن خلقناكم فلولا تُصدّقون

سُورَةُ الْحَدِيدِ

١٦١٣	وَانْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ	المجلس الثامن والأربعون بعد المائتين
١٦٢٥	لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ	المجلس التاسع والأربعون بعد المائتين

سُورَةُ الْمَجِيدَةِ

١٦٣٠	مِنْ فَقْهِ الْأُسْرَةِ وَالْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ	المجلس الخمسون بعد المائتين
١٦٣٨	التَّحْذِيرُ مِنَ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ	المجلس الحادي والخمسون بعد المائتين

سُورَةُ الْخُشُرِ

١٦٤٢	وَضَنُّوا أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ	المجلس الثاني والخمسون بعد المائتين
١٦٥٢	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ	المجلس الثالث والخمسون بعد المائتين

سُورَةُ الْمُؤْتَفِكَةِ

١٦٥٨	فَقْهُ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ	المجلس الرابع والخمسون بعد المائتين
------	--------------------------------	-------------------------------------

سُورَةُ الْاَصْفِ

١٦٦٨	وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ	المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين
------	---	-------------------------------------

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

١٦٧٦	هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ	المجلس السادس والخمسون بعد المائتين
------	--	-------------------------------------

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

١٦٨٤	إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ	المجلس السابع والخمسون بعد المائتين
------	------------------------------------	-------------------------------------

سُورَةُ التَّغَابُنِ

- المجلس الثامن والخمسون بعد المائتين يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ١٦٩١

سُورَةُ الطَّلَاقِ

- المجلس التاسع والخمسون بعد المائتين فقه الطلاق ١٦٩٨

سُورَةُ التَّحْوِيمِ

- المجلس الستون بعد المائتين لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ١٧٠٨

سُورَةُ الْمَلِكِ

- المجلس الحادي والستون بعد المائتين ليبلوكم ايكم احسن عملاً ١٧١٧

سُورَةُ الْقَتَادِرِ

- المجلس الثاني والستون بعد المائتين وَأَنْتَ تَعْلَى كُلِّ عَظِيمٍ ١٧٢٧

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

- المجلس الثالث والستون بعد المائتين يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ١٧٣٨

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

- المجلس الرابع والستون بعد المائتين معارج القيم الإيمانية والتربوية ١٧٤٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

- المجلس الخامس والستون بعد المائتين نوح ﷺ ١٧٥٥

سُورَةُ الْحَجِّ

- المجلس السادس والستون بعد المائتين ملاقة الإنس بالجن ١٧٦٣

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

- المجلس السابع والستون بعد المائتين حاجة الدعاة إلى قيام الليل ١١٧٢

سُورَةُ الْمَدَّثِرِ

- المجلس الثامن والستون بعد المائتين قم فأنذر ١١٧٩

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

- المجلس التاسع والستون بعد المائتين يوم القيامة ١١٨٩

سُورَةُ الْإِنشَاءِ

- المجلس السبعون بعد المائتين وكان سعيكم مشكوراً ١١٩٦

سُورَةُ الْمُنَافِقَاتِ

- المجلس الحادي والسبعون بعد المائتين ويل يومئذ للمكذِبِينَ ١٢٠٥

سُورَةُ النَّبَاِ

- المجلس الثاني والسبعون بعد المائتين النبا العظيم ١٢١٢

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

- المجلس الثالث والسبعون بعد المائتين فإذا جاءت الطامة الكبرى ١٢١٩

سُورَةُ عَبَسَ

- المجلس الرابع والسبعون بعد المائتين قصة الرجل الأعمى ١٢٢٧

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

- المجلس الخامس والسبعون بعد المائتين إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ١٢٣٣

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

- المجلس السادس والسبعون بعد المائتين يا ايها الإنسان! ١٨٣٩

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

- المجلس السابع والسبعون بعد المائتين ويل للمطففين ١٨٤٤

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

- المجلس الثامن والسبعون بعد المائتين يا ايها الإنسان! ١٨٥١

سُورَةُ الْبُرُوجِ

- المجلس التاسع والسبعون بعد المائتين وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ١٨٥٧

سُورَةُ الطَّارِقِ

- المجلس الثمانون بعد المائتين إنه لقول فصل وما هو بالهزل ١٨٦٣

سُورَةُ الْاَغْلَى

- المجلس الحادي والثمانون بعد المائتين قد افلح من تزكى ١٨٦٧

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

- المجلس الثاني والثمانون بعد المائتين فذكر إنما أنت مذكر ١٨٧٣

سُورَةُ الْفَجْرِ

- المجلس الثالث والثمانون بعد المائتين إن ريك لبالمرصاد ١٨٧٧

سُورَةُ الْبَلَدِ

- المجلس الرابع والثمانون بعد المائتين لقد خلقنا الإنسان في كبد ١٨٨٦

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

- المجلس الخامس والثمانون بعد المائتين قد اقلح من زكّاهما ١٨٩١

سُورَةُ اللّٰتِ

- المجلس السادس والثمانون بعد المائتين اِنْ سَعِيْكُمْ لَشَتٰى ١٨٩٦

سُورَةُ الصُّحُحِ

- المجلس السابع والثمانون بعد المائتين ولسوف يعطيك ربك فترضى ١٩٠٢

سُورَةُ الشَّرْحِ

- المجلس الثامن والثمانون بعد المائتين ورفعنا لك ذكرك ١٩٠٧

سُورَةُ التِّينِ

- المجلس التاسع والثمانون بعد المائتين لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ١٩١١

سُورَةُ الْعَلَقِ

- المجلس التسعون بعد المائتين اقرأ باسم ربك ١٩١٥

سُورَةُ الْقَدَرِ

- المجلس الحادي والتسعون بعد المائتين ليلة القدر ١٩٢٠

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

- المجلس الثاني والتسعون بعد المائتين حتى تأتيهم البيّنة ١٩٢٤

سُورَةُ الزُّلْزَلَةِ

- المجلس الثالث والتسعون بعد المائتين ليروا اعمالهم ١٩٢٨

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

- المجلس الرابع والتسعون بعد المائتين إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ١٩٣١

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

- المجلس الخامس والتسعون بعد المائتين وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ١٩٣٥

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

- المجلس الخامس والتسعون بعد المائتين أَلْهَآكُمُ التَّكْوِيْنُ ١٩٣٧

سُورَةُ الْعَصْرِ

- المجلس السادس والتسعون بعد المائتين شُرُوطُ النِّجَاحِ ١٩٤٠

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

- المجلس السادس والتسعون بعد المائتين يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ١٩٤٣

سُورَةُ الْفِيلِ

- المجلس السابع والتسعون بعد المائتين أَصْحَابُ الْفِيلِ ١٩٤٦

سُورَةُ قُرَيْشٍ

- المجلس السابع والتسعون بعد المائتين أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ١٩٤٩

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

- المجلس الثامن والتسعون بعد المائتين عِلَاقَةُ الدِّينِ بِالْأَخْلَاقِ ١٩٥٢

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

- المجلس الثامن والتسعون بعد المائتين هَـصَلَ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ ١٩٥٥

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين - لكم دينكم ولي دين ١٩٥٨

سُورَةُ النَّصْرِ

المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين - نهاية الصراع مع قريش ١٩٦٠

سُورَةُ الْمُبْتَلَا

المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين - تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ١٩٦٢

سُورَةُ الْإِنْشَاقِ

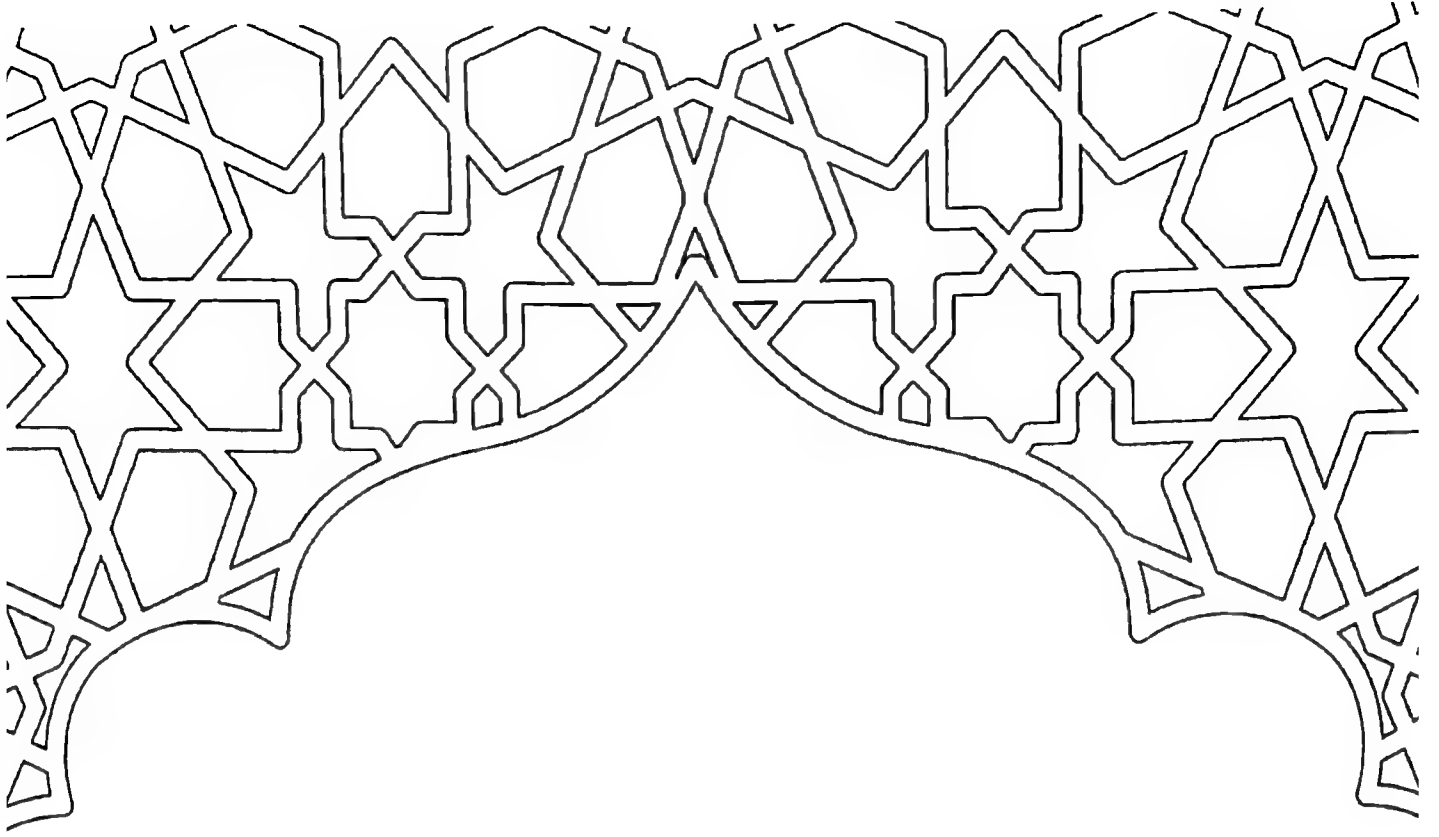
المجلس المئتم ثلاثمائة - حقيقة التوحيد ١٩٦٥

سُورَةُ الْفَلَقِ

المجلس المئتم ثلاثمائة - التَّعَوَّذُ مِنَ الشَّرِّ وَالْحَسَدِ ١٩٦٧

سُورَةُ النَّاسِ

المجلس المئتم ثلاثمائة - التَّعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ١٩٦٩



سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

المجلس السابع والثلاثون بعد المائتين: إنما توعدون لصادق

المجلس الثامن والثلاثون بعد المائتين: من قصص النبيين

المجلس التاسع والثلاثون بعد المائتين: ففروا إلى الله

﴿وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا ۝١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ۝٢﴾ فَلَجَرِيَّتِ بُسْرًا ۝٣﴾ فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا ۝٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُ ۝٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْحُبُّكِ ۝٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ۝٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّصُونَ ۝١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝١٢﴾
يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ ۝١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رِشْقًا ۝١٦﴾
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۝١٧﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٨﴾ وَيَلْأَنَّهُمْ يُسْتَغْفَرُونَ ۝١٩﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٠﴾ وَفِي الْأَرْضِ
آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢١﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ ۝٢٢﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ

﴿٢٣﴾

إنما توعدون لصادق

سورة الذاريات سورة مكية تناول أسس العقيدة؛ التوحيد والنبوة والمعاد، وقد ابتدأت بالمعاد؛ لتحفيز الأذهان وتحريكها باتجاه التفكير والنظر في دلائل الإيمان الماثلة في هذا الكون، وكما يأتي:

أولاً: أقسم الله ﷻ بالرياح؛ مُنبِّهاً إلى وظيفتها في هذه الحياة، والمُتَّصِلة بحاجة الناس إلى الغيث والزرع ﴿وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا ۝١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ۝٢﴾ فَلَجَرِيَّتِ بُسْرًا ۝٣﴾ فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا ۝٤﴾ وَأَمَّا الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ فَكَانَتْ عقيدة المعاد وما فيها من حسابٍ وجزاء ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُ ۝٦﴾

ثانياً: ثم أقسم الله بالسما وما فيها من أفلاكٍ مُحَكَّمة، وطرائقٍ مُتَّصِلةة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُّكِ ۝٧﴾ أما الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ وهو جوابُ الْقَسَمِ، فكان ما عليه المشركون من اختلافٍ وتناقضٍ؛ مثل: جمعهم بين الإيمان بالله خالقاً لهذا الكون مع عبادتهم للأصنام، وجمعهم بين بقايا التدين الإبراهيمي وإنكارهم للبعث والحساب، وقولهم في محمد ﷺ أنه ساحر، وأنه مجنون،

وقد جعل القرآن تخبطهم هذا دليلاً على أنهم مصرّوفون عن الحقّ زاهدون به ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

ثالثاً: أكّد القرآن أنّ مُنكري البعث لا يملكون حجة، وإنّما هو القول بغير علم مع سيطرة الهوى والغفلة ﴿قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وهو سؤال على سبيل الإنكار والسخرية.

رابعاً: توعدّ القرآن هؤلاء المكذّبين بما يستحقّونه من العذاب ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

خامساً: في مُقابل هؤلاء الأشقياء، يعرض القرآن حال المتّقين وهم ينعمون برضا الله والجنة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ ءِإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، ثم يفصّل في تقواهم وإحسانهم وما استحقّوا به كلّ هذا الثواب ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فهم يتّقون الله في عبادتهم، ويرجعون إليه ويستغفرونه عن أخطائهم، ويحسّنون إلى الخلق بأموالهم.

سادساً: ثم يعود القرآن لُنبّه العقول إلى ما في هذا الكون من آيات ودلائل ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَوَقِّينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

سابعاً: يُقسّم الله تعالى بنفسه المُقدّسة بعد أن أقسم بمخلوقاته أنّ الذي جاء به مُحمّد ﷺ هو الحقّ الذي لا شكّ فيه ولا شائبة ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا﴾ يُقسّم الله تعالى بالرياح، مُنبّهاً إلى دورها في إثارة السحاب ما بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].
فمِن معاني الذُّرو: الإثارة والنشر.

﴿فَالْحَمِيلَتِ وَقَرًا﴾ الرياح التي تحمل الوقر؛ والوقر هنا: السحاب المثلث بالماء.

﴿فَالْجَرِيَتِ يُسْرًا﴾ الرياح التي تجري يسير وهي محملة بالسحاب الثقيل.

﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾ الرياح التي تُوزع ماء المطر هذا على بقاع مختلفة، وهو من تقسيم الرزق

الذي هو بيد الله سبحانه، والرياح أداة وسبب لا غير.

وتلخص لنا من هذا القسَم: تكوين صورة بنسق واحد من إثارة الرياح للسحاب إلى

حملة بعد أن يتجمع إلى الجريان به، ثم تقسيمه على الأرض، وهذه ظاهرة كونية بديعة تدلُّ

على وحدة النظام في هذا الكون الذي أبدعه الله ﷻ.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: البعث والمعاد.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ الدين هنا: الحساب، وواقع أي: حاصل لا محالة.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوكِ﴾ أصل الحبك: النسج المتقن، والسماء منسوجة بأفلاكها ونجومها

وكواكبها ومساراتها الدقيقة التي لا يصطدم بعضها ببعض.

﴿إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْلِيفٍ﴾ متناقض ومضطرب.

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ يُصرف عن الإيمان من صُرف بعناده وتكبره.

﴿قُلِ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء بالهلاك على أصحاب القول المختلف، وهم الخراصون، أي:

الكذّابون الذين يقولون في الله ورسوله وكتابه ما ليس لهم به علم.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغارقون في الضلال والغفلة.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يسألون ازدياء وتمكثًا عن يوم الحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ أي: يُصلون في النار.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يقال لهم وهم في النار: ذوقوا عذابكم الذي

كنتم تسألون عنه استهزاء، وتستعجلونه تحديًا.

﴿إِنَّ الْمُسْقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ أَخْذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ ؕ﴾ من النعيم، وراضون به تمام

الرضا، فهذا الذي كانوا ينتظرونه ويعملون من أجله.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كان نومهم وهجوعهم في الليل قليلاً.
﴿وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بمعنى أنهم كانوا مشغولين في الليل ووقت السحر تحديداً بالعبادة والاستغفار.

﴿وَفِي أُمُورِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾ الذي يطلب العون.

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الفقير الذي يتعفف عن السؤال.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ دلائل على الإيمان.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ دلائل أيضاً.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: تقدير رزقكم.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من ثواب وعقاب، فكل ذلك مُقدَّرٌ ومحفوظٌ عنده سبحانه.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي: إن ما جاءكم به الوحي إنما هو

الحق الذي لا شك فيه كما لا تشكون بنطقكم، وهذا جارٍ على عادة العرب في التأكيد، كقولك: إنني على يقين كما أنني أراك وأسمعك.

﴿هَلْ أَنتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٢﴾ فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٣﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَاخْطُبُكُمُ أَيُّهَا الْمَرْسَلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٢٩﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٤﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٥﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَحْنُونُ ﴿٣٦﴾ فَأَخَذْتَهُمْ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٣٨﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٣٩﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٠﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصُّيُوفَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤١﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٣﴾

من قصص النبيين

بعد أن نبّه القرآن إلى ما في هذا الكون من دلائل على وحدانيته سبحانه، وصدق نبيه فيها أخبر عنه، وما ينتظر الناس من حسابٍ وجزاء، أخذ بعرض المشاهد التاريخية التي تجسّد عمق الصراع بين الحقّ والباطل؛ بين دعوة النبيين وبين أولئك الضالّين المكذّبين:

أولاً: يعرض القرآن قصّة إبراهيم عليه السلام؛ إذ جاءه ضيوفه المكرّمون، وهو لا يعرفهم ﴿هَلْ أَنتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٢﴾ فلما قدّم لهم القرى خاف منهم؛ لأنهم أبوا أن يأكلوا من طعامه، ثم كانت مفاجأته أنهم لم يكونوا من البشر، بل هم ملائكة الرحمن ﴿فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٣) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٥﴾.

إبراهيم على كبره لم يكن قد وُلِدَ له، وكانت امرأته تسمع تبشير الملائكة فاستغربت ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فأجابها الملائكة: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ

رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿﴾ بعدها أخذ إبراهيم يسأله عن المهمة التي جاءوا من أجلها: ﴿﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴿٣٣﴾ نُسَوِّمُهُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿﴾ وهؤلاء القوم الذين أذن الله بهلاكهم هم قوم لوط عليه السلام، بعد أن نجاه الله ومن معه من المؤمنين ﴿﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿﴾.

وفي هذه القصة دلائل على قدرة الله، وأنه سبحانه يخلق ما يشاء ويرزق من يشاء، وفيها أن علم الإنسان مهما بلغ فهو محدود، فهذا إبراهيم رسول من أولي العزم ولم يعلم من هم ضيوفه حتى تفاجأ أنهم لا يأكلون الطعام، وفي القصة أيضاً بيان لعاقبة الظالمين المكذبين. ثانياً: بعد قصة إبراهيم عليه السلام، لخص القرآن قصة موسى عليه السلام وهو يواجه فرعون وجنده وكيف كذّبوه، فأهلكهم الله كما أهلك أسلافهم ﴿﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ يُرْكِيهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿﴾.

ثالثاً: ثم ذكر القرآن بعاقبة عاد وهم قوم هود عليه السلام بعد أن ردّوه وكذّبوه ﴿﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿﴾.

رابعاً: وذكر كذلك بعاقبة ثمود وهم قوم صالح عليه السلام بعد أن ردّوه وكذّبوه ﴿﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حِقِّ جُنِّ ﴿٤٢﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٣﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنَ فَيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿﴾.

خامساً: وفي الختام أشار إشارة سريعة إلى ما أصاب قوم نوح عليه السلام، ومن المعلوم أنهم أسبق من كل الأقسام الذين تقدّموا، وكان ذكرهم ما جاء إلّا لبيان عمق هذا الانحراف عن فطرة التوحيد، وعمق ذاك الصراع ﴿﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿﴾.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وكانوا من الملائكة، والضيف يُطلق على الواحد، وعلى الجمع كذلك.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: غرباء لا يعرفهم، وهذا قاله في نفسه؛ لأنَّ الجهرَ به يُنافي إكرامهم وهم ضيوفه.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنَّهم لم يأكلوا من طعامه الذي صنَّعه لهم.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاق ؑ، بدلالة استنكار أمه سارة؛ لأنها كانت عجوزاً عقيماً.

﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَيقَةٍ﴾ أي: صاحت وهي مُقبِلَةٌ عليهم، والصَّرة: الصيحة، ومنه: الصَّيرير.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمته تعجباً، وهي حركةٌ كثيراً ما تُصاحبُ الاندهاش والتعجب.

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ بمعنى أننا لم نقل هذا القول من عندنا، وإنما هكذا قال الله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ والخطب: الأمر المهمُّ، وقد عرف إبراهيم ؑ أنَّهم مُرسَلون لأمرٍ عظيم؛ لأنَّ الملائكة لا تنزل إلا لذلك.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط ؑ.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ بمعنى أنه طِينٌ مُتحوِّل إلى حجارة بعد شَيْءٍ في النار كالآجُرِّ.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مُعلَّمة ومُخصَّصة لهم.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن إيمانهم هو الذي نَجَّاهم.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وصفهم بالإيمان أولاً، ثم وصفهم بالإسلام لإضافة

معنى استسلامهم لأمر الله، واستجابتهم له، والإيمان والإسلام من المعاني المتداخلة والمتكاملة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي: تركنا في قريتهم علامةً وعبرةً لكل مُستدَلٍّ ومُعْتَبِرٍ.

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ بحُجَّةٍ ظاهرة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي: أعرَضَ وصدَّ عن الحقِّ مُستندًا إلى مُلكه وسُلْطانه.

﴿ فَنبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ قَذَفْنَاهُمْ وأغرَقْنَاهُمْ في البحر.

﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ مُستَحِقٌّ للملامة.

﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ التي لا خير فيها.

﴿ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ وصفٌ للريح أنَّها لا تَمُتُّ على شيءٍ إلا أَهْلَكَتْهُ، والرَّمِيمُ: العَظْمُ الذي يَلِي وتفتَّت.

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: تَمَتَّعُوا في حياتكم حتَّى نَحِين آجَالُكُمْ، والصيغَةُ تأتي عادةً للتهديد.

﴿ فَتَعَوَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ تكَبَّرُوا عليه وأعرَضُوا عنه.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي: ينظرون إليها نظر العاجز الذي ليس له رأيٌ ولا حيلة.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل هؤلاء الهالكين جميعًا.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي: خارجين عن الطريق الصحيح، وفيه إطلاق الفسق على الكفر، بمعنى أنَّ هذه الكلمات فيها تداخلٌ وتقاربٌ، وقد يأخذ بعضها محلَّ بعض، فلا يصحُّ - والأمر كذلك - أن تُفسَّر الكلمة منها في كلِّ مواردِها بمعنى واحدٍ، بل لا بُدَّ من مراعاة السياق والقرائن.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ فَعِزُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٢٢﴾ أَنُؤَاصِيهِمْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٢٣﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ ﴿٢٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى لَنُفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٩﴾ قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فَعِزُّوا إِلَى اللَّهِ

في خواتيم هذه السورة المباركة وجه القرآن خطاباً للمشركين داعياً ومُنَبِّهاً ومُحَذِّراً، مُلْتَفِئاً إلى نبيه الكريم ﷺ مُعَلِّماً ومُوجِّهاً ومُطْمَئِنِّناً، وكما يأتي:

أولاً: نبه مرةً أخرى هذه العقول إلى ما في هذا الكون من آيات ودلالات ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانياً: ثم حذّر المشركين من مغبة عنادهم واستمرارهم في طريق الشرك، موجِّهاً لهم النداء الخالد الذي فيه النصح والجد والحزم ﴿فَعِزُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثالثاً: بيّن القرآن طبيعة هؤلاء الناس، وكأنها سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ عندهم قديماً وحديثاً ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٢٢﴾ أَنُؤَاصِيهِمْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ ولا شك أن في هذا تسليةً لرسول الله ﷺ ثم لئن معه من المؤمنين.

رابعاً: وجّه القرآن محمّداً ﷺ بترك أولئك المعاندين وعدم الانشغال بهم، وتوجيه الجهد إلى تربية المؤمنين وتوعيتهم وتذكيرهم ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ وَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿

خامساً: بيّن القرآن الغاية الكبرى لخلق الإنسان ومثله الجن، فهما مخلوقان مكلفان بمهمّة، وهي معيارُ نجاحهما أو فشلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿

فالله سبحانه هو الغني، وما التكليف بالطاعة والعبادة إلا ليتمايز الناس صالحهم عن مفسدهم، ومؤمنهم عن كافرهم.

سادساً: ختم القرآن هذه السورة بوعيدٍ شديد لمن كذب بالدين الحق، وتنكّب الصراط المستقيم ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿

دقائق التفسير

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة، كذا قال ابن كثير، وقد نقله عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغيرهم من أئمة السلف، ولم يذكر رأياً آخر^(١).

﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ السّعة ضد الضيق، بمعنى أنه تعالى قد جعل السماء واسعة، ولا يبعد أيضاً أن يُضاف إلى ذلك معنى التمدّد، وهو ما بدأ العلم الحديث يتكلّم عنه، بمعنى أن الكون في توسّع مستمرّ، والله أعلم.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهّدها للعيشكم.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٥) دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠-١٩٩٩م، تح سامي بن محمد السلامة.

﴿فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ﴾ أثنى الله تعالى على نفسه أنه هو من مهّد هذه الأرض وجعلها صالحة للعيش، وهذا يستلزم الشكر، ونسبة النعمة إلى المنعم ﷻ.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى؛ لتستمر الحياة، ولتتكاثر بتعدد أصنافها وألوانها.

﴿فَقُرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجأوا إليه ولوذوا به.

﴿أَتَوَصَّوهُمْ﴾ استفهام يفيد التعجب من تشابه قلوب المشركين ومواقفهم من أنبيائهم، حتى كأنهم قد تواصلوا على ذلك رغم اختلاف أزمته، وتباعد أمكنتهم.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ جوابٌ لذلك التعجب؛ فالطغيان هو الذي جمعهم وشابه بين قلوبهم ومواقفهم.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ولا تشغل بهم.

﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ على كفرهم وعنادهم بعد أن بلغتهم رسالة ربهم.

﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ المؤمن بحاجة إلى التعليم والتذكير، وكذلك من كان مُستعدًّا للإيمان بتجرُّده، ونقاء فطرته، ورغبته بالتعرُّف على الحق، وإطلاق المؤمنين على الأول حقيقة، وعلى الثاني مجاز باعتبار ما يكون، والله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لم يذكر الملائكة هنا مع أنهم مخلوقون للعبادة أيضًا؛ لأنَّ العبادة في هذه الآية عبادة الاختبار والامتحان، والتمييز والتمحيص، وهذه غاية مرتبطة بخلق الإنسان ومثله الجان، ففيهم الاستعداد الفطري للطاعة والمعصية، والنجاح والفشل، بخلاف الملائكة.

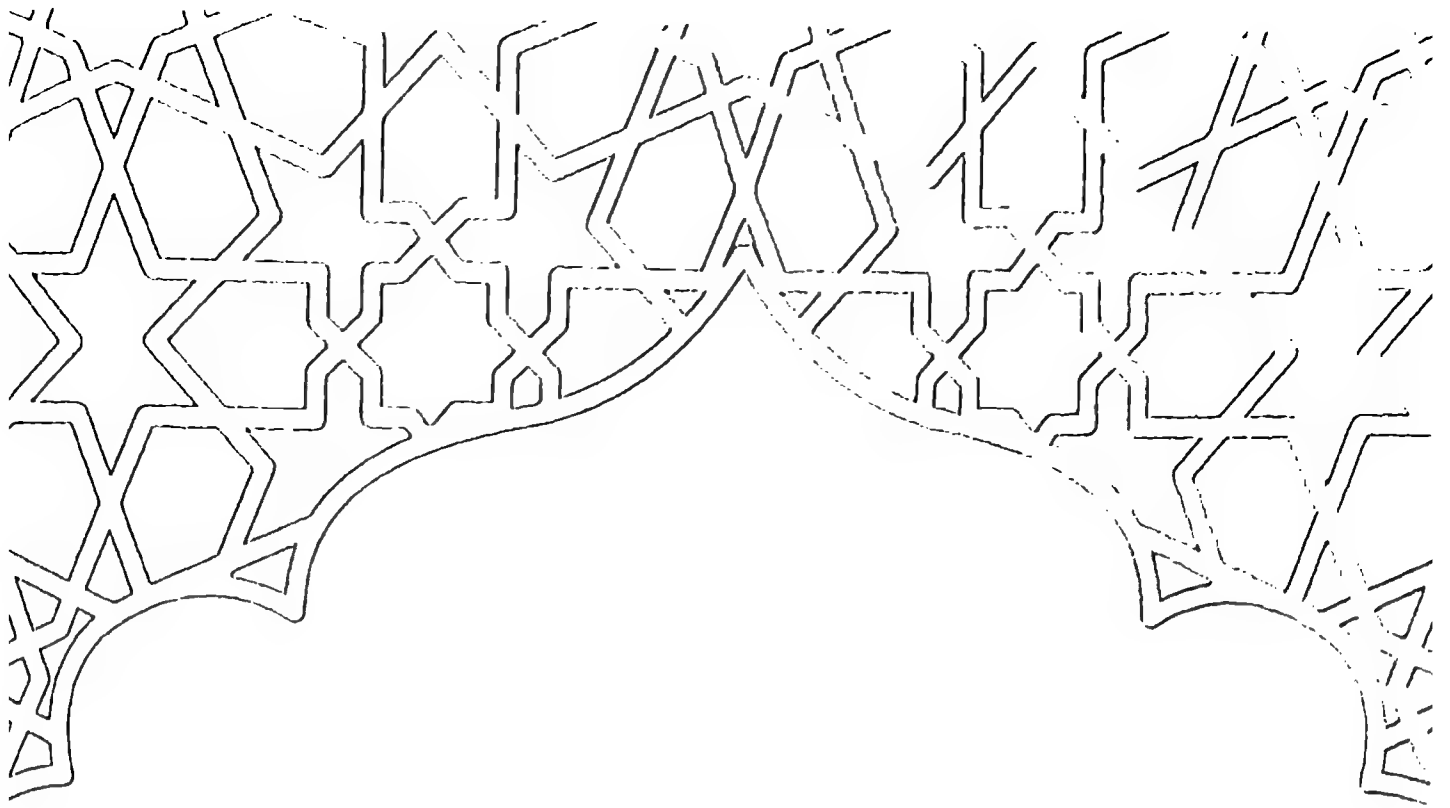
﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ فالله هو الغني عن كل من سواه، وهو ليس بحاجة للرزق والطعام أصلاً، وإنَّما هو تنبيهٌ لقدرته سبحانه، وتعريضٌ بالآلهة المزيفة وسدنتها الذين يأخذون القرابين من الناس ويُرغبونهم في ذلك.

﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الشديد.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي: نصيبهم من العذاب، وأصل الذُّنُوب: الدُّلُوكِ الكبيرة، فلكل ظالم ذنوبه، أي: مقداره الذي يستحقُّه من العذاب.

﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب مَنْ تقدَّمهم من الأمم السابقة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ خاتمة تأخذ بقلوب أولئك المجرمين بُغْيَةً دفعهم إلى التفكير والتصحيح قبل فوات الأوان.



سُورَةُ الطُّورِ

المجلس الأربعون بعد المائتين: إن عذاب ربك لواقع

المجلس الحادي والأربعون بعد المائتين: أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ

سُورَةُ الطُّورِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ قَوْلٌ بَوْمِيٌّ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧ فَكَيْفَ بِمَاءِ النَّهْمِ رُفْعٌ وَرَفْعُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا دُرَرَهُمْ بِإِيمَانٍ لِّلْحَقِّقَاتِ ٢١ وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢٢ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهٍ وَلَحْمٍ مَّائِشَتُونَ ٢٣ يَنْشُرُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأَنٍّ ٢٤ وَیَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُزْلُؤٌ مَّكُونٌ ٢٥ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٢٦ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّينَ ٢٧ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّوْمِ ٢٨ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ٢٩﴾

إن عذاب ربك لواقع

سورة الطور لا تختلف في مضمونها عن سورة الذاريات حتى كأنها مُتَمِّمَةٌ ومؤكدَةٌ لها، فهي تبدأ بإثبات اليوم الآخر وما فيه من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ، ثم توجيه الخطاب للمُشْرِكِينَ ومُحَاوِرَتِهِمْ بهذه العقيدة، وكما يأتي:

أولاً: يُقَسِّمُ اللهُ ﷻ بما له صِلة وثيقة بهذه العقيدة؛ لِيُؤَكِّدَ صحة العقيدة نفسها ﴿وَالطُّورِ

١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨.

ثانياً: يَصِفُ اللهُ ﷻ ذلك اليوم الذي تنقلب فيه الأكوان ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠.

ثالثاً: يَصِفُ اللهُ ﷻ حال أهل النار، مُبَيِّنًا السَّبَبَ الذي أوردَهم هذا المورد ﴿قَوْلٌ

بَوْمِيٌّ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣ هَذِهِ

النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١١﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَأَصْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبُرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

رابعاً: يصفُ الله تبارك وتعالى أهل الجنة والمقام الذي هم فيه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فِيكِهِنَّ يَمَآءٌ أَنهَمُ رَبُّهُمْ وَوَقَتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾، ومن إتمام نعيمهم أنه يلحق بهم ذرياتهم ولو كانوا بمرتبة أقل منهم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ثم يعرض لجوانب من الأنس فيما بينهم وما يتجاذبونه في مجالسهم، وما يتذكرونه من أيام دنياهم ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّاتَنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالطُّورِ﴾ هو الجبل المعروف الذي تلقى عليه موسى ﷺ كلام الله.
﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ الأظهر أنه كلام الله المنزل على سيدنا موسى ﷺ، وهو التوراة بقرينة الطور، والله أعلم.
﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ ما يُتَّخَذُ للكتابة؛ كالصحف والجلود ونحوها، وهذا مُتَّخِذٌ باختلاف الأزمنة، فالرَّقُّ الذي يُكْتَبُ عليه اليوم غير الرَّقِّ الذي كان يُكْتَبُ عليه بالأمس.
﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثَبَتَ في «الصحيحين» أن في السماء السابعة بيتاً يسمَّى البيت المعمور تعمَّره الملائكة بالعبادة^(١)، لكن هذا الحديث مع ثبوته ليس نصّاً في تفسير هذه الآية، وإنَّما هو

(١) ذكر البيت المعمور في حديث طويل حول عروج النبي ﷺ إلى السماء، وفيه: «فَرَفَعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، لَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ أَحَدٌ مَّا عَلَيْهِمْ»، والحديث مُتَّفَقٌ عليه من أنس بن مالك، عن مالك بن مَعْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١١٧٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ١٤٠٧، ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (١/ ١٠٤) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

وجهٌ في تفسيرها؛ إذ السياق يُرجّح أنّه هنا وصفٌ للكعبة؛ لأنّه جاء بعد ذكرِ الطور، فيكون الأنسب أنّه ذكر مكان نزول التوراة، ثم المكان الذي نزل فيه القرآن، والله أعلم.

﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ السماء؛ إذ هي مصدرُ الوحيين؛ التوراة والقرآن.

﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ يُحتمل أنّه الممتلئ بالماء، والمقصود به: البحر الذي أغرق الله به فرعون، فتكون سلسلة القسم مُتَّصِلة، أو أنّه المسجّر بالنار، وهو من علامات الساعة، فيكون التذكير به تذكيراً بالساعة، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، والله أعلم.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لنازل وحاصل على وجه اليقين.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ ليس بقدرة أحد أن يمنعه أو يؤخّره.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تضطرب اضطراباً.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ تتحرك من أماكنها فلا تستقرّ حتى تكون هباءً.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ تأكيد أنّ الذي يدفع هؤلاء المكذّبين إلى التكذيب بالبعث إنّما هو العبث واللعب، وليس النظر والتفكير الجاد.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ يدفعون إليها دفعاً.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يقال لهم هذا على سبيل التهكم والتوبيخ.

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى أنّ أصحاب النار لا ينفعهم صبرهم، ولا ينفعهم جزعهم.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، وأنّ الله سبحانه لا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رِيْهُمْ﴾ أي: مُتَنَعِمِينَ بما أعطاهم الله من أسباب النعيم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد أيضاً لعقيدة العدل الإلهي، فأعمالهم هي التي نجتّهم، وليست أنسابهم وأحسابهم، ولا أموالهم ومناصبهم.

﴿مُتَكِينِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مظهرٌ من مظاهر الأنس والبهجة بالأهل والأحباب.

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرَّناهم بالحور العين، وليس في الآخرة تزويجٌ بالمعنى

المعروف هنا في الدنيا، والحور العين: نساء المؤمنين في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بمعنى أن الله يُكرِّم المؤمنين ويُلحق

بهم أولادهم المؤمنين وإن كانوا في درجة أقل؛ إكرامًا لوالديهم، وإتمامًا لنعمة الله عليهم.

﴿وَمَا أَلَنَّا لَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ﴾ أي: ما نقصنا آباءهم شيئًا من ثوابهم، بل رفعنا أولادهم

إلى منزلتهم.

﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ جملةٌ معترضة لتأكيد العدل الإلهي المطلق، فكل إنسان مقترن

بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ زدناهم.

﴿يَنْتَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتبادلون ويتجاذبون كؤوس الخمر، والكأس هنا مفردٌ بلفظه

جمعٌ بمعناه؛ لأنه أراد به جنس الكؤوس لا واحدًا منها.

﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيْهُ﴾ فخمرة الجنة مختلفٌ عن خمرة الدنيا، فليس هناك إثم ولا لغوٌ

بالباطل.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَنُونٌ﴾ هؤلاء هم الغلمان الذين أعدَّهم الله لخدمة

المؤمنين في الجنة، وقد وصفهم بما يُشعرُ باللطافة والحسن والأنس، وإذا كان هذا حالُ

الخدم، فكيف بأهل الجنة وحورها؟ واللؤلؤ المكنون أي: المحفوظ عن كل شائبة.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ﴾ بعد أن فرغوا من أكلهم وشربهم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ إنهم يتذكرون الدنيا، وكيف كانوا فيها خائفين من

عذاب الله، فدفعهم هذا الخوف إلى اللجوء والضراعة إلى الله حتى استجاب الله لهم، وقبلهم

عنده ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا وَوَقَّتْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ (٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ

الرَّحِيمُ.

سُورَةُ الطُّورِ

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكٌ يَسْمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ نَسْنَأُهُمْ آجِرًا فَنُفِثَ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ام خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ

يتناول الشطر الثاني من هذه السورة حال المشركين وموقفهم من هذه الدعوة، ومحاججتهم بهذه العقيدة، ثم إنذارهم وبأل أمرهم إن هم أصرُّوا على عنادهم وكفرهم: أولاً: يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستمرَّ بالتذكير والدعوة إلى الله مهما قال فيه المشركون، ومهما ترَبَّصوا به ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ثم يُوصيه بالصبر واللجوء إلى الله؛ فإن الله ناصره ومحيطه بلطفه ومحبه وعنايته ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾.

ثانياً: يدحض القرآن تحرُّصات المشركين وأقاويلهم الباطلة بحقه ﷺ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا ﴾ بمعنى أن أقوالهم تلك لا يستسيغها العقل، فليس في القرآن ما يلتبس على أصحاب

العقول بالكهانة، أو الجنون، أو الشعر، ثم كيف تجتمع هذه التُّهم على شخصٍ واحدٍ؟ ثم أجاب القرآن بصيغة السؤال أيضًا: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ فالطغيان بها فيه من ضغينة وكبر وحسد هو الذي دفعهم إلى هذا.

ثالثًا: ثم يُحاججهم في تهمة أخرى ألصقوها به ﷺ لا تختلف في نتيجتها عما تقدّم من أباطيلهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٢) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صدّيقين ﴿ وهذا من أقوى الأدلة على بطلان دعواهم؛ إذ لو كان هذا القرآن من كلامه هو - حاشاه - ﷺ لكان بإمكانهم أن يأتوا بمثله.

رابعًا: ثم يُحاججهم في أصل الخلاف ونقطة الافتراق الأولى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣١) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُضِيِّطُونَ﴾ بمعنى: ما الأساس الذي يبنون عليه شركهم بالله وإنكارهم لقدرته ﷻ على بعثهم وإعادة الحياة إليهم؟ فوجودهم هذا لا يحتمل في القسمة الافتراضية إلا واحدة من ثلاث:

- أن وجودهم كان من لا شيء، وإنّما هو محض الصدفة والعبث، وهذا ما يُنكره المشركون أنفسهم، وهو مُستنكرٌ بالبداهة والفطرة؛ إذ وجود الشيء من لا شيء محال.

- أو أنّهم هم الذين خلقوا أنفسهم فهم أدرى بها وأدرى بقدرتهم على بعثها من جديد أو لا، وهذا لا يقول به المشركون أيضًا، وهو محالٌ بالبداهة؛ لأنّه يلزم تقدّم وجودهم على وجود أنفسهم.

- بقيَ الاحتمال الثالث، وهو أن نَمّة إلهًا حكيمًا عليًا قديرًا هو الذي خلقهم، والمشركون يقولون بهذا ولا يُنكرونها، لكنهم يرجعون عنه بمنطقٍ مقلوبٍ؛ فما يرونه مُحالًا عندهم بحسب قُدراتهم وتصوّراتهم البشرية يجعلونه مُحالًا على الله، وبذلك يُساوون قدرة الخالق بقدراتهم.

وتتمّة لهذه الاحتمالات، يذكر القرآن احتمالًا من الممكن أن يتفرّع عن الاحتمال الأخير: ﴿أَمْ لَمْ نَلْهَ إِلهَ غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا الاحتمال وإن كانوا يقولون به من حيث

الصورة؛ لأنهم يُؤثِّون أصنامهم، لكنهم يُنكرون في الوقت نفسه أن يكون لأصنامهم هذه شأنٌ في خلقهم، أو في خلق السماوات والأرض، وهذا من كبير تخبطهم وتناقضهم.

خامسًا: ثم يُطالبهم القرآن ببيان حجَّتهم إن كانت لهم حجة يستندون إليها ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُّوٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وفي ثنايا هذه النقطة يذكر القرآن مثالاً على جهلهم وقولهم على الله بغير علم: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ بمعنى أنه لو كان عندكم شيء من العلم لما قلتم هذا القول على الله.

سادسًا: ثم يسأل الله تعالى نبيه ﷺ - وهو أعلم به - عما إذا كان قد طلب منهم ما يشق عليهم وما يدفعهم لهذه النفرة عن الحق ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ وهذا السؤال قُصد به تنزيه الدعوة عن أي غرض مادي، وبيان أن المشركين لم يبقَ عندهم حجة ولا عذر إلا العناد والمكابرة.

سابعًا: وفي الختام يوجه القرآن تحذيره الشديد لهؤلاء المشركين المعاندين إن هم أصروا على طريق الكفر والكيد والعداوة لمحمد ﷺ ولدعوته ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۝١١﴾ فذرهم حتى يلقوا يومهم الذي فيه يُصْعَقُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ قدَّم الله تعالى عنايته بالحبيب المصطفى ﷺ، ثم نفى عنه اتِّهام المشركين له بالكهانة، والكهانة: ادِّعاء معرفة الغيب باحتكار الدين، كما هو عند بعض الفرق؛ حيث يدَّعون اتِّصالهم بالوحي عن طريق أئمتِّهم، أو بالتواصل مع الجن، وكان هذا شائعًا عند العرب في الجاهلية.

﴿نَرْبِّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ حيث كان المشركون يتمنون موته ﷺ بحادثة أو عارضة مما يعرض للبشر؛ كالمرض وغيره.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا وأنا مُنتظرٌ أيضًا، والصيغة تُوجي بالتهديد والوعيد كما لا يخفى.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا﴾ أي: عقولهم؛ لأن سلوكهم لا يتناسب مع مسلك العقول.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ أي: افتراه ثم نسبه إلى الله، والتقول: نسبة قولٍ إلى أحدٍ لم يقله.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيَّبُونَ﴾ ليطلِّعوا على حقائق الغيب وما فيه من عوالم وأسرار، بمعنى أنه يسألهم عن مصدر هذا الجزم بنفي المعاد.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعِمُّهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ تأكيد أن هؤلاء لا يملكون علمًا موثوقًا، وليست لهم القدرة على معرفة الغيب؛ إذ ليس لهم صلةٌ بالسماء التي هي مصدر الوحي.

﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: هل أثقلت عليهم يا محمد بما تطلبه منهم من أموالٍ لقاء دعوتهم ونصحهم؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: إن كانوا يسعون في هلاكك، فإنهم هم الهالكون.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطعًا نازلة من السماء مما يُعذَّبُ الله به الظالمين، وهذا على سبيل الافتراض؛ لأن قريشًا لم يهلكها الله بعذابٍ شاملٍ، كما أهلك عادًا وثمود ونحوهما.

﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: يستبشرون به، كأنهم في مأمنٍ من عذاب الله الذي أصاب أسلافهم المشركين، وهذا من عنادهم ومكابرتهم.

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: اتركهم حتى يصطدموا بالحقيقة الكبرى التي تنتظرهم، والأظهر أنها صعقة الساعة وانتهاء الحياة، والله أعلم.

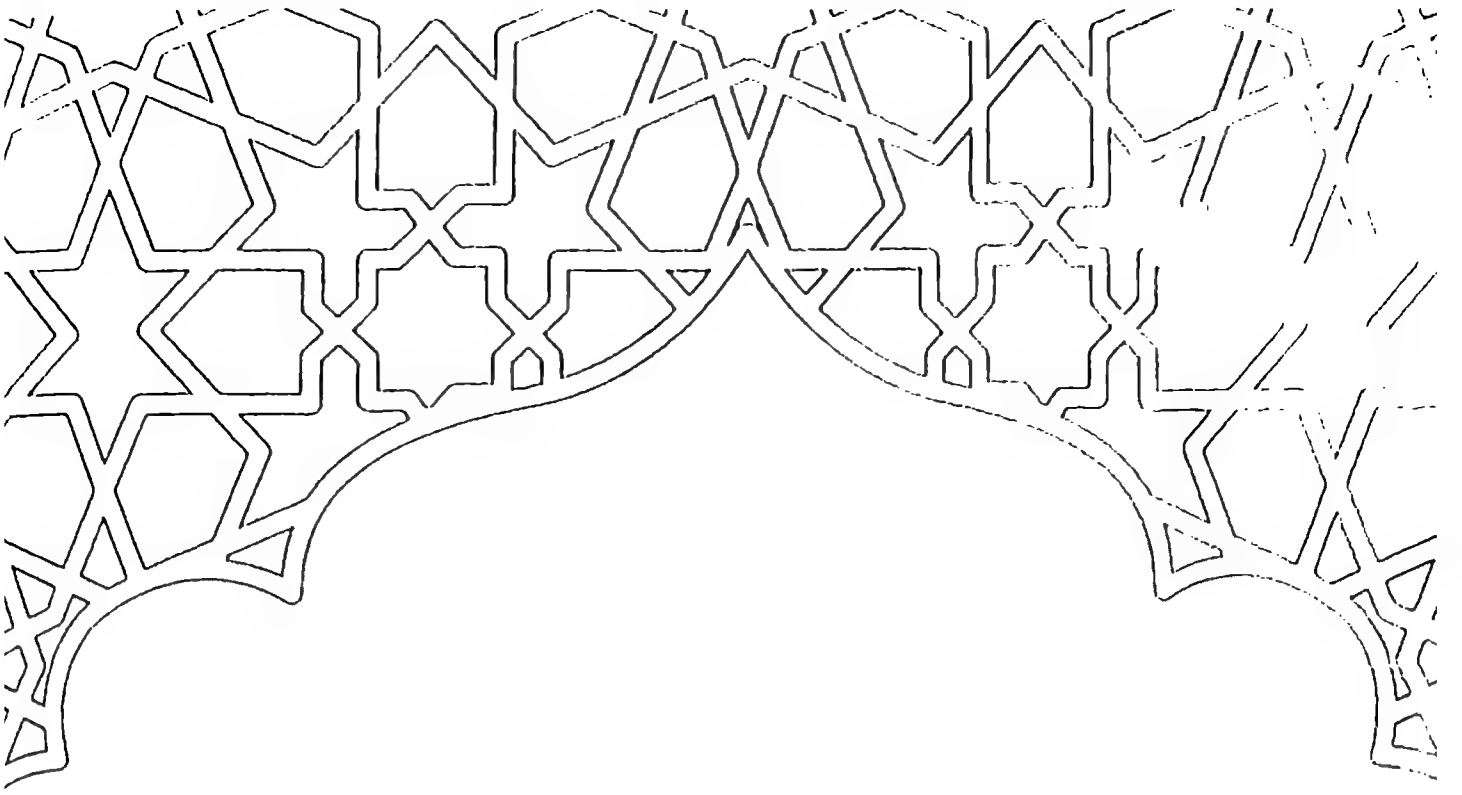
﴿وَلِإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل عذاب الآخرة، والإشارة هنا إلى معركة بدر، والله أعلم.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضائه سبحانه في الوقت المحدد لهم.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا ورعايتنا وتحت مَرَأَى مِنَّا.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُومُ﴾ أي: سَبِّح الله مُصْطَحِبًا حمده أول نُهوضك من النوم؛ ليكون الذكرُ باكورةَ عمل اليوم.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ أي: سَبِّحْهُ في الليل وعند غياب النجوم، وهو وقتُ يبدأ أول النهار؛ إذ هو بداية إدبار النجوم، ويتَّسَعُ إلى غروب الشمس وظهور النجوم مُجَدِّدًا، فهذا وقتٌ مفتوحٌ ومُطلقٌ للذكر في الليل والنهار، والمؤمن يختارُ منه ما يُناسِبُهُ ويُناسِبُ ظرفَه وعملَه، والله أعلم.



سُورَةُ النَّجْمِ

المجلس الثاني والأربعون بعد المائتين: وما ينطق عن الهوى

المجلس الثالث والأربعون بعد المائتين: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

سُورَةُ النَّجْمِ

من الآية

١٦ - ٣٠

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَنَّا ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَ حَاجَتِ الْوَارِثِ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنْوَةَ الْكَافَّةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذَا فُتِنَتْ ضِرَابِى ۝٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَا وَكُرَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ وَكَرَّمِ مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَاءِ لَا تَعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝٢٦ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۝٢٨ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾

وما ينطق عن الهوى

تستهل سورة النجم بتزكية الوحي الذي يُبلِّغه النبي الكريم ﷺ عن ربه، ثم تعرض لحال المكذِّبين به وتخبُّطهم في تصوُّراتهم عن الغيب، وكما يأتي:

أولاً: يُقسم الله ﷻ بالنجم إذا هوى على أنه ﷻ مُنَزَّهٌ عن الضلالة والغواية والهوى

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾

ثانياً: ثم يؤكد ﷻ حقيقة ما يُبلِّغه النبي ﷺ أنه الوحي الذي لا تشوبه شائبة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا

وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ وَأَنَّ هَذَا الْوَحْيَ نَزَلَ بِهِ مَلَكُ الْوَحْيِ صَاحِبُ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ عَلَى تَنْفِيزِ كُلِّ مَا

يأمره الله به، ومن ذلك: اتصاله بالأنبياء وتعليمهم رسالة الله ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾.

ثالثاً: فصل القرآن هيئة نزول ملك الوحي على رسول الله ﷺ بهذا الوحي من أفقه

الأعلى؛ حيث دَنَا شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى صَارَ قَرِيبًا مِنْهُ قُرْبَ الْجَلِيسِ مِنْ جَلِيسِهِ، أَوْ

قُرْبَ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مُعَلِّمِهِ ﴿٦٠﴾ ذُو مِرْقٍ فَاسْتَوَى ﴿٦١﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٦٢﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٦٣﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٦٤﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿٦٥﴾.

رابعًا: أكد القرآن حصول اليقين في قلب النبي ﷺ أن هذا الذي رآه إنما هو ملك الوحي، وأن الذي سمعه منه إنما هو الوحي ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفَتَعْتَبِرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾. خامسًا: أكد القرآن أنه ﷺ بعد أن اتقَى مَلَكَ الْوَحْيِ فِي الْأَرْضِ التَّقَاهُ فِي السَّمَاءِ أَيْضًا فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ؛ حَيْثُ رَأَى فِي رَحْلَتِهِ الْمُبَارَكَةِ تِلْكَ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَى الْأَوَّلَى ﴿١٥﴾ إِذِ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾.

سادسًا: شَرَعَ الْقُرْآنُ بَعْدَ هَذَا بِمُناقشة المشركين في أصل مُعتقدهم ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ أَوَسَّ صِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾.

سابعًا: وعلى صلة بما سبق، راح القرآن يدحض تخريصاتهم ومزاعمهم الباطلة في الملائكة ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسْكِنُونَ الْمَلَائِكَةَ نِسِيَةً الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾.

ثامنًا: ثم وَجَّهَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ الْمَكْذِبِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَهَذَا هُوَ أَصْلُ ضَلَالِهِمْ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِمْ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يُقَسِّمُ اللهُ تَعَالَى بِالنَّجْمِ فِي حَالَةِ هَوِيَّهِ؛ بِمَعْنَى: غُرُوبِهِ وَأُفُولِهِ، وَذِكْرُ هَذِهِ الْحَالِ مُنَاسِبٌ لِبَيَانِ أَنَّ النُّجُومَ لَا تَصْلُحُ آلِهَةً؛ لِأَنَّهَا تَهْوِي وَتَغِيبُ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى تَصَوُّرَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ بَعْضِ النُّجُومِ؛ كَنَجْمِ الشَّعْرَى الَّتِي ذَكَرَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَلَا يَمْنَعُ أَيْضًا أَنَّهُ أَرَادَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْرُوفَةَ، وَهِيَ: ظَاهِرَةُ الشُّهُبِ، وَالْمَقْصُودُ الْكُلِّي لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ ﷺ وَيَنْطِقُ بِهِ؛ فَهُوَ مَنْزَعٌ عَنِ الْهَوَى فِي كُلِّ ذَلِكَ، سِوَاءِ كَانَ مَا يَنْطِقُ بِهِ قِرَآنًا أَوْ تَعْلِيمًا أَوْ مَوْعِظَةً أَوْ أَيِّ كَلَامٍ آخَرَ، وَاجْتِهَادُهُ ﷺ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَمْ يَنْزَلْ فِيهَا وَحْيٌ، لَا يَكُونُ عَنْ هَوَى - حَاشَاهُ -، وَإِنَّمَا يَتَوَخَّى مُرَادَ اللَّهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْخَيْرِ.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ هَذَا خَاصٌّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَلَحَّقَ بِهِ السُّنَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ الْمُؤَكَّدَةُ لِلْقُرْآنِ، وَالْمُبَيَّنَةُ لَهُ، وَالْمُفَصَّلَةُ لِأَحْكَامِهِ.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ هُوَ جَبْرِيلُ ﷺ، وَالْقُوَى جَمْعُ قُوَةٍ، بِمَعْنَى أَنَّ لَدَيْهِ قُوَى مُتَنَوِّعَةً تُنَاسِبُ الْمَهَامَ الَّتِي يُكَلِّفُهُ اللهُ بِهَا.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ الْمِرَّةُ: الْقُوَّةُ الذَّاتِيَّةُ فِي تَكْوِينِهِ وَطَبِيعَةِ خَلْقِهِ.

﴿فَاسْتَوَى﴾ أَي: قَامَ مُتَهَيِّئًا لَتَلْقَى الرِّسَالَةَ عَنِ اللَّهِ، وَالْكَلامَ عَنْ جَبْرِيلَ، وَذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِهِ إِلَى الْأَرْضِ.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أَي: تَلَقَّى الرِّسَالَةَ عَنْ رَبِّهِ وَهُوَ بِالْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أَي: نَزَلَ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ أَعْلَى الْأَرْضِ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أَي: اقْتَرَبَ مِنْهُ قَدَرُ قَوْسَيْنِ، وَالْقَوْسُ: قَدَرُ ذِرَاعٍ تَقْرِيبًا، وَمَسَافَةُ الْقَوْسَيْنِ هِيَ مَسَافَةُ الْجَلِيسِ مِنْ جَلِيسِهِ إِذَا كَانَا مُتَقَابِلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ أي: أوحى الله إلى نبيه ﷺ ما أوحاه في ذلك اليوم عن طريق جبريل عليه السلام.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ بمعنى أنه قد حصل اليقين في قلب النبي ﷺ أن الذي رآه إنما هو جبريل، وأن الذي سمعه إنما هو الوحي.

﴿ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أفْتَكْذِبُونَهُ وتُجَادِلُونَهُ فيما رآه هو عياناً؟

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي: رأى جبريل مرة أخرى، والنزلة واحدة من النزول في المكان، بمعنى أنه كما لقيه في الأرض لقيه أيضاً في مكان آخر.

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ هو مكانٌ علويٌّ فوق السماوات السبع، وأصل التسمية مأخوذة من شجرة السدر، وإلى هذا المكان ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم ما بعده إلا الله، وهذا كله داخل في باب السمعيّات؛ أي: الأخبار الغيبية التي لا قدرة للعقل البشري على تصوّرها على حقيقتها أو إدراك كنهها وما يتعلّق بها إلا بما يتلقّاه عن الوحي.

﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ يعني أن الجنة في ذلك المكان، وهي الجنة المعروفة التي أعدّها الله لعباده المؤمنين وجعلها مأوى لهم.

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ أي: يُغْطِّيها ما يُغْطِّيها مما لا قبيل للعقل البشري بتصوره؛ لأنّ العقل إنما يقيس الأشياء التي يسمّع عنها بما هو مخزون في ذاكرته من الأشياء المعهودة عنده، ومن ثمّ كان هذا الإبهام المقصود في الآية؛ ليدرك العقل أنّه محدود المعرفة، كما أنّ عينه محدودة البصر، وأذنه محدودة السمع، والله أعلم.

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: ما أخطأ بصره ﷺ وما زاد على ما رأى؛ وهذا لتأكيد صدقه ﷺ ودقّة المعارف التي منحه الله تعالى إياها في تلك الرحلة المباركة.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ لم يُحدّدها القرآن، لكن المقصود منها ظاهراً في علو شأن نبينا وسيّدنا محمد ﷺ وتشريفه بكل تلك المقامات الجليلة، وفيها أيضاً فتح الآفاق الواسعة أمام الإنسان المؤمن ليستعلي على ما يُكدر صفوه من محن هذه الحياة وكدوراتها وضيق أفئتها.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴾ انتقل القرآن انتقالة سريعة من ذلك العالم العلوي إلى هؤلاء المشركين العاكفين حول أصنامهم الصغيرة الحقيرة: اللات والعزى ومناة، وقد وصف مناة بأنها الثالثة؛ أي: ثالثة الصنمين المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ معناه: كيف ترون أصنامكم هذه الصغيرة الحقيرة أمام ذلك العالم العلوي؟
﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ توبيخ لهم أن جعلوا لله البنات مما يزعمون من أصنامهم ومن الملائكة.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أي: قسمة جائرة، وهذا تنزل لمستوى عقولهم؛ لأنهم يحتقرون الإناث ثم ينسبون ما يحتقرونه إلى الله فارتكبوا بذلك خطيئتين، أما الحقيقة فإن نسبة الابن إلى الله لا تختلف عن نسبة البنت؛ فكلاهما بهتان وكفر وحقارة.

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ بمعنى أن هذه الأصنام لا حقيقة لها ولا اعتبار لها؛ لأنها ليست سوى كذبة كبيرة أطلقتموها أنتم وآباؤكم.

﴿ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من حجة أو دليل.

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أي: ما يتبعون إلا الوهم الذي هو نقيض العلم، والهوى الذي هو نقيض التقوى، وهذان هما أصل الضلال.

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ سؤال استنكاري متفرغ مما قبله؛ فالتمني ما يهواه الإنسان ويشتبهه، لكن الله يختار الأشياء ويقدر المقادير بناء على حكمته وإرادته المطلقة، وليس على رغبات البشر.

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾ يحكم فيهما بحكمه لا بما يتمناه البشر.

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَىٰ ﴾ هذا مثال على أن ما يتمناه هؤلاء المشركون من استشفاعهم بأصنامهم أو بالملائكة لن يجديهم نفعاً؛ لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله تعالى، وحاشاً للملائكة أن يشفعوا لمُشرك، فهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله شفاعتهم له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْأُنثَى﴾ أي: يقولون عنهم: إنهم بنات الله.
﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الظنُّ هنا معناه: الوهم؛ لأنه جاء مُقابلاً للعلم،
وقد يأتي الظنُّ بمعنى العلم وما يقرب من العلم، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

سُورَةُ النَّجْمِ

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِيْنَ اَسْتَوٰ بِمَا عَمِلُوْا وَيَجْزِيَ الَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا بِالْحَسَنٰى ۝٣١﴾ الَّذِيْنَ يَحْتَسِبُوْنَ كَثِيْرًا الْاِنَّمَا هُمْ وَالْقَوَاعِصُ اِلَّا اَللّٰهُمَّ اِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ اَعْلَمُ بِكُمْ اِذَا اَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ وَاِذَا اَسْتَأْجَنَتْهُ فِىْ بُطُوْنِ اُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوْا اَنْفُسَكُمْ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقٰى ۝٣٢﴾ اَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَدْعُوْكَ ۝٣٣﴾ وَاَعْطٰى قَلِيْلًا وَّاَكْثٰى ۝٣٤﴾ اَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرِىْ ۝٣٥﴾ اَمْ لَمْ يُبَيِّنْ لِّمَآ فِى صُحُفٍ مُّوسٰى ۝٣٦﴾ وَاَتْرَهَبَهُ الَّذِى وُقِّى ۝٣٧﴾ اَلَا نَزَّلْنَا وَزَرَ وَاُخْرٰى ۝٣٨﴾ وَاَنْ لِّسَ لِلْاِنْسٰنِ اِلَّا مَا سَعٰى ۝٣٩﴾ وَاَنْ سَعٰىهُ سَوْفَ يُرٰى ۝٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزٰىهُ الْجِزَآءَ الْاَوَّلٰى ۝٤١﴾ وَاَنْ اِلٰى رَبِّكَ الْمُنْتَهٰى ۝٤٢﴾ وَاَنْتَ هُوَ اَضْحَكَ وَاَبْكٰى ۝٤٣﴾ وَاَنْتَ هُوَ اَمَاتَ وَاَحْيَا ۝٤٤﴾ وَاَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْاُنْثٰى ۝٤٥﴾ مِّنْ نُّطْفَةٍ اِذَا تُمْتِى ۝٤٦﴾ وَاَنْ عَلَيْهِ النَّشَآءَ الْاُخْرٰى ۝٤٧﴾ وَاَنْتَ هُوَ اَغْنٰى وَاَقْنٰى ۝٤٨﴾ وَاَنْتَ هُوَ رَبُّ الشَّعْرِى ۝٤٩﴾ وَاَنْتَ اَهْلَكَ عَادًا الْاَوَّلٰى ۝٥٠﴾ وَتَمُوْدًا اَمَّا اَبْنٰى ۝٥١﴾ وَقَوْمَ نُوْحٍ مِّنْ قَبْلُ اِنتَهَمْ كَانُوْا هُمْ اَظْلَمَ وَاَطٰى ۝٥٢﴾ وَالْمَوْئِقَةَ اَهْوٰى ۝٥٣﴾ فَغَشَّيْنٰهَا مَا غَشٰى ۝٥٤﴾ فَبَايَآءَ اِلَآءِ رَبِّكَ نَسْمٰى ۝٥٥﴾ هٰذَا نَذِيْرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْاَوَّلٰى ۝٥٦﴾ اَرَفَتِ الْاَرْضَ ۝٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ اَفَمِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُوْنَ ۝٥٩﴾ وَتَضْحَكُوْنَ وَلَا تَبْكُوْنَ ۝٦٠﴾ وَاَنْتُمْ سٰعِدُوْنَ ۝٦١﴾ فَاتَّخِذُوا لِلّٰهِ وَاَعْبُدُوْا ۝٦٢﴾

وَأَنْ لِّسَ لِلْاِنْسَانِ اِلَّا مَا سَعٰى

بعد تلك المقارنة بين نور الوحي وما عليه المشركون من ظلمة وضلال، شرع القرآن في الشطر الثاني من هذه السورة المباركة بوضع ميزان العدل الذي تُوزن فيه أعمال الناس وما يقدّمونه لأنفسهم في هذه الحياة، وكما يأتي:

أولاً: أكّد القرآن الكريم أنّ الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه الذي يتصرّف في ملكه كيف شاء؛ بحكم أنّه هو الذي أبدع هذا الخلق، وأمدّه بأسباب الرزق، وقدر فيه الموت والحياة، فلا شيء إلا وهو خاضعٌ لربوبيّته وداخلٌ في ملكه، حتى تلك الآلهة المزيّفة ومن يعبدها ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ﴾، ﴿وَأَنْ اِلٰى رَبِّكَ الْمُنْتَهٰى﴾ وَاَنْتَ هُوَ اَضْحَكَ وَاَبْكٰى ﴿وَاَنْتَ هُوَ اَمَاتَ وَاَحْيَا﴾ وَاَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْاُنْثٰى ﴿مِّنْ نُّطْفَةٍ اِذَا تُمْتِى﴾ وَاَنْ عَلَيْهِ النَّشَآءَ الْاُخْرٰى ﴿وَاَنْتَ هُوَ اَغْنٰى وَاَقْنٰى﴾ وَاَنْتَ هُوَ رَبُّ الشَّعْرِى.

ثانيًا: أكد القرآن أن كل إنسان مجزي بعمله خيرًا كان أو شرًا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾، ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٢٢) ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (٢١) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ (٢٥) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٢٦) ﴿وَأَنبُرْهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢٧) ﴿أَلَا نَزَرُ وَأَزِرُّ وَزَرَ﴾ (٢٨) ﴿وَأَن لِّئْسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾. ثالثًا: فتح القرآن بابًا واسعًا للتوبة والمغفرة، مبيّنًا طبيعة الإنسان واستعداداته الفطرية للوقوع في الخطأ واقتراح اللّمْم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾.

رابعًا: أكد القرآن علم الله الشامل بحال الناس وما يكتسبونه أو يقترفونه من أعمال، فلا مجال للظلم أو الغبن ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

خامسًا: حذر القرآن أولئك المكذّبين المعاندين من مصير كمصير الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (٥٠) ﴿وَتَمُودًا إِثْقَى﴾ (٥١) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطَى﴾ (٥٢) ﴿وَالْمُؤَنَّفِكَ أَهْوَى﴾ (٥٣) ﴿فَغَشَّاهَا مَا عَشَى﴾ (٥٤) ﴿فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ (٥٥) ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ (٥٦) ﴿أَزِفَتِ الْأَافَاقُ﴾ (٥٧) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

سادسًا: ثم دعاهم في ختام السورة إلى النهوض من غفلتهم ولهوهم ولعبهم، مبيّنًا لهم طريق خلاصهم ونجاتهم، وما فيه خيرهم وعزهم ﴿أَفَمِن هَذَا الْحَدِيثِ فَعَجَبُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَتَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (٦٠) ﴿وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ﴾ (٦١) ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

دقائق التفسير

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ هذا وصفٌ للذين أحسنوا؛ فهم يعملون الحسنات، ويجتنبون المنهيات، وهذه هي حقيقة التقوى؛ فعل الحسنات، وترك السيئات. وكبار الإثم: كل ذنب استوجب عقوبةً محددةً، كموجبات الحدود والقصاص، أو

موجبات اللعن والفسق، ودخول النار، ونحو ذلك، وأما الفواحش: فهي الكبائر المغلظة؛ كالزنا والقتل والسحر، وقد شاع استعمال الفاحشة في انتهاك الأعراض خاصة، والله أعلم.

﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ والَّلَمَم: صفائر الذنوب ما بقيت في إطار الزلَّة والغفلة، أما المتهاون فيها والمُكثِرُ منها والمُصِرُّ عليها فمُعَرَّضٌ للتهلكة؛ لأنَّه لا صغيرة مع الإصرار والتكرار والإكثار، فالصفائر إذا اجتمعن صرْنَ من جملة الكبائر، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَنْتُمْ آجِنَةٌ﴾ جمع جَنِين.

﴿فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا تمدحوا أنفسكم، وقد تُطلق النفس على الجماعة التي ينتمي إليها الفرد؛ كالحزب والقبيلة ونحوهما، فهذا داخل في النهي أيضًا.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ عن الحق.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي: تصدَّق بالقليل ثم قطع.

﴿أَعِنْدَهُ، عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي: هذا الذي تولى عن الحق بعد أن أنفق ما يظنُّ أنه يُرى الذمَّة، أعنده شيء من الغيب يستند إليه؟ وهذا سلوكٌ مُتكرِّرٌ؛ فكثيرًا ما ترى ظالمًا لا يكفُّ عن الظلم ومُناصرة الظالمين، فإذا تذكَّر شيئًا من حديث الآخرة ذهبَ لبيني مسجدًا، أو ليكفل يتيمًا، أو يأتي لشيخ يطلب منه الدعاء، ثم يُصرُّ على نهجه الباطل مواليًا للكافرين مُعاديًا للمؤمنين، ولا شك أنَّ هذه الظاهرة تجمع بين فطرة مشوشة مضطربة وبين هوى غالب وشهوة طاغية.

﴿وَابْرَهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أتم ما أمره الله به وأدى كلَّ ما عليه.

﴿أَلَّا نَزِرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمِلُ حاملةٌ حِمْلَ غيرها، وفي هذا تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وحضُّ على تحمُّل المسؤولية، ودحضُ لمقولة الشفعاء والوسطاء الذين يتحمَّلون عن المذنب ذنوبه، وعن المجرم جرائمه.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ تأكيدٌ متكرِّرٌ لعقيدة العدل الإلهي.

﴿وَأَنْ سَعْيَهُ، سَوْفَ يُرَى﴾ وهذا من تمام العدل، فلا يعاقب الله الظالم والمجرم بناءً على

علمه سبحانه، بل بعد أن يعرّض له سجل أعماله حتى يراها كاملةً ويُقرّ بها.

﴿ثُمَّ يُجْزِئُهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي: يُكَافَأُ على عمله بآتم الجزاء وأكمله.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ فكل الأمور راجعة إليه سبحانه، وكلّ الخلائق عائدة إليه كذلك.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: خلق قوة الضحك في الإنسان كما خلق قوة البكاء، وخلق

أسبابهما أيضًا من السرور والحزن ونحوهما، وهاتان آيتان من آيات الله في خلق الإنسان.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: خلق الموت والحياة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ وهذا من دلائل قدرته وحكمته وعنايته بخلقه؛ إذ لا

يمكن تصوّر استمرار الحياة إلّا بهذه الثنائية: ثنائية الذكر والأنثى في كلّ الكائنات الحيّة،

ومعلوم أنّ الذكر لم يصنع لنفسه الأنثى ليكمل بها وجوده، ولا الأنثى كذلك، بل هناك من

خلّقهما لبعضهما، وهما غافلان لا يدريان.

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تَأَنَّى﴾ أي: إذا تُقَدِّف في الرحم.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي: كما أنشأكم أوّل مرة سيُنشئكم النشأة الأخرى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى﴾ أي: هو الذي أمدّ النّاس بأسباب الرزق، فأغناهم بالمال المتداول

بينهم؛ كالذهب، والفضة، والنقود، وأقناهم بالبيوت والمزارع الثابتة، فأقنى من القنّة

والاقتناء، وهو: تملّك الأصول الثابتة، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ والشّعري: كوكب عبّده بعض العرب في الجاهليّة واتخذوه إلهًا.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ إِذْ تَبَقَّى يُذَكِّرُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِأَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ

الله؛ كعادٍ وثمود فلم يُبقِ منهم أحدًا.

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى﴾ أي: القرى المؤنّفكة، والمؤنّفكة المنقلبة بما أصابها من العذاب، وهي

قُرى قوم لوط، و﴿أَهْوَى﴾ أي: أشدّ سقوطًا في العذاب من غيرها.

﴿فَفَشَّنَهَا مَا غَشَّنْ﴾ أي: فغطّاها من العذاب ما غطّاها.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ لَتَمَارَى﴾ الخطابُ لرسولِ الله ﷺ يُمنُّ عليه الله بنعمِهِ الجليّة، وعنايته

التامة، وتتمارى أي: تشك، وحاشا رسول الله من الشك، وإنما هو نفى بصيغة السؤال، أي: قد تحصل لك اليقين التام بهذه الآلاء وما فيها من الدلائل.

وصيغة السؤال أفادت التعريض بأولئك الذين يُنكرون حقائق الأشياء، ويتنكرون لنعمة الله عليهم.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، قُصِدَ به التذكير بما استهلت به السورة؛ فمحمداً ﷺ إنما هو نذيرٌ ورسولٌ من جنس الرسل السابقين، جاء برسالة الله وهو المؤمن عليها؛ إذ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾ أي: اقتربت الساعة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ بمعنى أنها واقعةٌ لا محالة، ولا يقدر على دفعها أحدٌ من الخلق.

﴿أَفَإِن هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ﴾ أي: أتعجبون من هذا الوعيد والتحذير الشديد.

﴿وَتَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهذا دليل غفلتهم وسكرتهم.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ لا هون غافلون.

﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ هذا أمرٌ صريحٌ للمشركين بالسجود والدخول في طاعة الله تعالى، وقد جاء بصيغة الحسم والجزم بعد سلسلة من المؤثرات العقلية والروحية التي اختصت بها هذه السورة.

وقد ورد في «الصحيحين»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ^(١)، ولا شك أن هذا دليلٌ على قوَّة القرآن الروحية القادرة على تحريك الفطرة السليمة مهما غشيتها ظلمة الشرك والجهل.

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ النَّجْمَ بِمَكَّةَ، فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَعَهُ، غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تَرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا)، ينظر: صحيح البخاري (١/٣٦٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م، وصحيح مسلم (٢/٨٨) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

المجلس الرابع والأربعون بعد المائتين: فكيف كان عذابي وتُذَرُ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِيرٌ ۝٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَعِيرٌ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۝٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَى ۝٨ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ كَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۝٩ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ دُوسِرٌ ۝١٣ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ قَرَّبْنَا مَا بَاقِيَ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝١٧ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّحْسٍ مُّسْتَعِيرٍ ۝١٩ تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْفَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا ابْنُوا لَنَا بُعْدًا وَجِدًا نَبْعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ لَهْلَفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَ تَبِعَهَا فَآتٍ يُبْعَثُ ۝٢٧ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ إِلَهَهُمْ إِلَهُهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ ذِرْبٌ مُّخَضَّرٌ ۝٢٨ فَادْعُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْبَةِ الْمَخْطَرِ ۝٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٣٢ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ فَطَسَّأْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بِكْرَةٌ عَذَابٌ مُّسْتَعِيرٌ ۝٣٨ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٤٠ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْدِرٍ ۝٤٢ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سُبُّهُمْ الْجَمْعُ وَيَوَلَّوْنَ الْاُدْبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ۝٤٦ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مُلْكٍ مُّقْدِرٍ ۝٥٥﴾

فكيف كان عذابي ونذري

سورة القمر سورة تلحُّ القلوب بوعيدها، وتزلزل الرواسي بتهديدها، تُخاطبُ الظالمين وكأَنَّها تطرُقُ على رؤوسهم بمطارق الحديد، وتضعُ أمامهم صورًا من العذاب الشديد، بما

ذاقه أسلافهم في هذه الدار، أو بما أعد لهم ولأمثالهم في تلك الدار.

السورة كأنها رسالة واحدة، وقد جاءت لغاية واحدة، مع ما فيها من صور متنوعة، وآماذ زمانية ومكانية متعددة، وهذه خلاصة مُركزة لخارطتها الكلية، وعناصرها الجلية، وبحسب تسلسل آياتها:

أولاً: تستهل السورة بالإعلان عن قُرب وقوع الساعة إعلاناً مقروناً بعلامة من علاماتها، وشرط من أشراطها ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وهذا الاستهلال هو المدخل الأنسب لموضوع السورة كلها الذي تتكرر فيه آيات الوعيد والتهديد.

ثانياً: يعرض القرآن حال المشركين وموقفهم من هذه النذر المتنوعة والمتكررة ﴿وَلِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (٢) و﴿كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ (٣) ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مُزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

ثالثاً: يوجه القرآن النبي ﷺ أن يعرض عنهم ولا ينشغل بهم حتى يلاقوا يومهم الموعود ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (٦) خُشَعاً أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿مُتَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

رابعاً: يُذكّرهم القرآن بيوم الطوفان، ذلك اليوم الذي أهلك الله به قوم نوح ﷺ بعد أن كذبوا نبيهم وكفروا برّبهم، وكيف نجّى الله نوحاً منهم وبما أصابهم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (١) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (١١) وفجرنا الأرض عيوناً فاللقى الماء على أمرٍ قد فُدر ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِ وَدُسرٍ﴾ (١٢) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (١٥) فكيف كان عذابي ونذر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

خامساً: ثم يُذكّرهم باليوم النّحس الذي أخذ الله به عاداً بعد أن سلط عليهم ريحاً صرصراً، فأحالتهم إلى جثث هامدة كأعجاز النخيل الخاوية ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يومٍ نحسٍ مُسْتَعْمِرٍ ﴿تَنْزِعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (٢٠)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾

سادساً: ثم يُذكّرهم بالصيحة التي أهلك الله بها ثمود حتى صاروا كهشيم المحتظر بعد أن كذبوا نبيّهم وكفروا برّبهم وعقرُوا الناقة التي جعلها الله آية لهم ﴿٢٣﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿٢٤﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدَا نَبِيعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٥﴾ أَمْ لَنَا الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٦﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ ﴿٢٧﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٨﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌّ ﴿٢٩﴾ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٣﴾

سابعاً: ثم يُذكّرهم بالحاصب الذي رمى الله به قوم لوط فصبّحهم بعذابٍ مُستقرّ بعد أن تجاوزوا كل حدٍّ وتمازوا بالنذر ﴿٣٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ﴿٣٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٦﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٣٨﴾ وَرَادُّوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٤٠﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٢﴾

ثامناً: ثم يُذكّرهم بفرعون، وما أدراك ما فرعون ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ ﴿٤٤﴾ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْدِرٌ ﴿٤٥﴾

تاسعاً: بعد كلّ هذه التذكيرات والتنبيهات، يتنقّل القرآن ليوجّه الخطاب إلى أهل مكة الذين لا زالوا يُصرون على كفرهم وتكذيبهم بنبيّهم ﴿٤٦﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٨﴾ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٩﴾، ثم يتوعّدهم بعذابٍ أشدّ من هزيمة جمعهم وتولية دُبرهم ﴿٥٠﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿٥١﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٥٣﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٦﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٧﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٨﴾

عاشراً: يلحظ هنا تكرار هذا التعقيب المزدوج؛ إنذارٌ بالعذاب، وتنبيهٌ إلى طريق النجاة،

بعد تلك المواقف المتشابهة للأمم السابقة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١١) وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿

حادي عشر: ثم تحتتم السورة بنفحة من رحمت الله تخص هؤلاء المؤمنين المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿

دقائق التفسير

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وعلامة اقترابها ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ. ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ هذه حادثة ثبتت في «الصحيحين» وغيرهما^(١)، وهي مستفيضة في كتب التفسير.

﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ الظاهر من السياق أنه توبيخ لقريش الذين رأوا انشقاق القمر، فأعرضوا وقالوا عنه: سحرٌ مُّسْتَمِرٌّ.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ربط بين التكذيب وسببه، وهو اتباع الهوى، بمعنى أن تكذيبهم لم يأت من شبهة، أو عن نظرٍ واجتهادٍ.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: وكل أمرٍ قدره الله فهو ثابت، ومن ذلك: رُشوخ هذه الدعوة في الأرض رغم كيد هؤلاء وتكذيبهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: جاءهم في هذا القرآن من الأخبار والقصص ما فيه رادعٌ لهم لو تدبروه وعقلوه.

(١) زويت عدة أحاديث في معجزة انشقاق القمر، وقد بؤب كل من الإمام البخاري والإمام مسلم لها باباً في «صحيحيهما» وساقاً عدة أحاديث، منها: حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

ومنها: حديث أنس رضي الله عنه قال: (سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر). ينظر: صحيح البخاري (١٨٤٣/٤) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط ١٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م) فما بعدها، وصحيح مسلم (١٣٢/٨) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين) فما بعدها.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي الأنباء هذه جاءتهم مُحْكَمَةٌ مُتَقَنَةٌ وقد بَلَّغَهَا لهم رسول الله ﷺ.
 ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يجوز في (ما) النفي والاستفهام، والمعنى مُتَقَارِبٌ؛ لآتِه استيفهاً يُفِيدُ
 النفي أيضاً، أي: فما تُغْنِي هذه النُّذُرُ والمواعظ في هؤلاء المُعَانِدِينَ المُكَابِرِينَ؟
 ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَلَا تَنْشَغِلْ بِهِمْ.
 ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ إلى شيءٍ عَظِيمٍ ومُهُولٍ تُنْكِرُهُ النفوس وتخشاه، وهو
 الحشر.

﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ مِنَ الدُّلِّ والخوف، والحديث عن هؤلاء الذين تقدَّم ذِكْرُهُمْ، وهم
 المُشْرِكُونَ المُعَانِدُونَ.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ كَأَنَّهُمْ فِي كَثْرَتِهِمْ وَاضْطِرَابِهِمْ مِثْلُ الْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ فِي الْأَرْضِ.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ مَذْعُورِينَ بِمَا دَهَاهُمْ.

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ عَسِيرٌ وَشَدِيدٌ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدُجِرَ﴾ أي: نَهَرُوهُ وَمَنَعُوهُ مِنَ الدَّعْوَةِ.

﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ﴾ لَا أَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَقَدْ اِزْدَجَرُونِي وَاسْتَضَعَفُونِي.

﴿فَأَنْصِرْ﴾ أي: فَانْتَصِرْ لِي، وَدَعْوَةُ نُوحٍ هَذِهِ جَاءَتْ بَعْدَ أَنْ صَبَرَ عَلَيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
 خَمْسِينَ عَامًا.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي: بِمَطَرٍ كَثِيرٍ وَسَرِيعٍ وَمُتَوَاصِلٍ.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أَصْلُهُ: فَجَّرْنَا عَيُونَ الْأَرْضِ، لَكِنْ صِيغَةُ الْقُرْآنِ تُوحِي بِكَثْرَةِ
 الْعَيُونِ حَتَّى كَأَنَّ الْأَرْضَ أَصْبَحَتْ كُلُّهَا عَيُونًا.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: مَاءُ السَّمَاءِ وَمَاءُ الْأَرْضِ.

﴿عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ﴾ أي: مُقَدَّرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ لِهَلَاكِهِمْ.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: حملناه على سفينة مصنوعة من ألواح الخشب، ومحكمة بمساميرها التي تشد بعضها إلى بعض.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي: بحفظنا وبمرأى منا.

﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾ أي: نجّيناه مما أصاب قومه بحفظنا ورعايتنا جزاء له على ما دعا وصبر، وقوله: ﴿كُفِرًا﴾ أي: جحد أمره وكذب.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي: بقيت السفينة يراها الناس بعده وفي الأجيال المتعاقبة، وقد ورد أنه رأى ما تبقى منها بعض الناس في صدر الدعوة المحمدية.

﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ أي: من مُتذكّر ومُعْتبر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ أي: كيف كان هذا العذاب الذي أحاط بهم بعد إنذاري ووعيدي لهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتلاوة والفهم.

﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ أي: هل من مُتذكّر، وهذه دعوة لتدبر القرآن بإشارة أن هذا هو طريق الفوز والنجاة.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ كيف كان عذابي لها بعد أن أنذرتها إنذاراً بعد إنذار.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ريحاً شديدة مزجرة.

﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَمِّمٍ﴾ في يوم شؤم، ومُستمر صفة لنحس.

﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ﴾ تقلعونهم من أماكنهم.

﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْقَعٍ﴾ كأنهم جذوع نخل منخورة ويابسة.

﴿إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَّالٍ وَشُعُرٍ﴾ الشعُر: الجنون.

﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ أي: هو كذاب بطرّ مُعجَب بنفسه.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةَ لَهُمْ﴾ أخرج الله لهم الناقة بعد أن طلبوا من نبيهم آية خارقة حتى

يؤمنوا، فكانت الناقة اختباراً لهم.

﴿وَبَيَّنْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النّاقَةِ، فَيَحْضَرُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي مَوْعِدِهِمْ، وَتَحْضَرُ النّاقَةُ وَتَشْرَبُ فِي مَوْعِدِهَا.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ أَي: نَادَوْا وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالْجَرَاءِ وَالْإِقْدَامِ لِيُخَلِّصَهُمْ مِنَ النّاقَةِ فَيَعُودَ الْمَاءُ كُلَّهُ لَهُمْ.

﴿فَنَعَّاطَى فَعَقَرَ﴾ أَي: فَتَنَّاوَل سَيْفَهُ وَضَرَبَ النّاقَةَ ثُمَّ نَحَرَهَا.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ﴾ كَالْعُشْبِ الْيَابِسِ الَّذِي يُجْمَعُ عَادَةً وَيُرْصَفُ لِحِطَّائِرِ الْأَغْنَامِ كَالسُّورِ لَهَا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِالْحَصْبَاءِ، وَالْحَصْبَاءُ: الْحَصَى.

﴿إِلَّا آءَالُ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ﴾ أَي: وَقْتُ السَّحْرِ.

﴿نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَزِيدُ النِّعَمَ وَيُدْفَعُ النِّقَمَ.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ شَكُّوا وَجَادَلُوا بِكُلِّ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أَي: طَلَبُوا مِنْهُ ضَيْوْفَهُ وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ذَهَبْنَا بِأَبْصَارِهِمْ.

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أَي: أَوَّلَ الصَّبَاحِ.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِيرٌ﴾ عَذَابٌ دَائِمٌ حَتَّى تَمَّ اسْتِثْصَالُهُمْ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ النُّذُرُ: جَمْعُ نَذِيرٍ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا: مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كَذَّبُوا بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي آيَدَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى وَهَارُونَ، وَأَنْكَرُوا دَلَائِلَهَا.

﴿فَأَخَذْتَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْنَدٍ﴾ يُثْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ بِالْعِزَّةِ الْكَامِلَةِ وَالْقُدْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ،

وَيُعَرِّضُ بِفِرْعَوْنَ الْهَالِكِ الَّذِي كَانَ يَرَى نَفْسَهُ عَزِيزًا وَمُقْتَدِرًا حَتَّى أَخَذَهُ اللَّهُ.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ سَوَالٌ لِّقُرَيْشٍ مُّتَضَمِّنٌ تَهْدِيدُهُمْ، بِمَعْنَى أَنْكُمْ لَسْتُمْ أَفْضَلُ وَلَا

أَقْوَى مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَامِ الْهَالِكَةِ.

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ذَهَبْنَا بِأَبْصَارِهِمْ.

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أَي: أَوَّلُ الصَّبَاحِ.

﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ عَذَابٌ دَائِمٌ حَتَّى تَمَّ اسْتِثْصَالُهُمْ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ النَّذِيرُ: جَمْعُ نَذِيرٍ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا: مُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كَذَّبُوا بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي آيَدَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى وَهَارُونَ، وَأَنْكَرُوا دَلَالَتَهَا.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ يُثْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ بِالْعِزَّةِ الْكَامِلَةِ وَالْقُدْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ،

وَيُعَرِّضُ بِفِرْعَوْنَ الْهَالِكِ الَّذِي كَانَ يَرَى نَفْسَهُ عَزِيزًا وَمُقْتَدِرًا حَتَّى أَخَذَهُ اللَّهُ.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ سَوَالُ لَقْرِيشٍ مُتَضَمِّنٌ تَهْدِيدَهُمْ، بِمَعْنَى أَنْكُمْ لَسْتُمْ أَفْضَلُ وَلَا

أَقْوَى مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَامِ الْهَالِكَةِ.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أَي: هَلْ عِنْدَكُمْ عَهْدٌ مَكْتُوبٌ بِالْأَمَانِ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ لَنْ يُعَاقِبَكُمْ؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أَمْ أَنَّهُمْ مَغْرُورُونَ بِجَمْعِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ؟

﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ وَكَانَ هَذَا إِنْذَارًا لَهُمْ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَلَا

شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِعْجَازِ؛ حَيْثُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ يَوْمَ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مُسْتَضْعَفِينَ فِي مَكَّةَ.

﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ أَي: السَّاعَةُ أَعْظَمُ دَاهِيَةٍ وَأَشَدُّ مَرَارَةً مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي بَدْرٍ وَفِي غَيْرِ

بَدْرٍ.

﴿إِنَّ الْجُرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أَي: فِي تَيِّهِ وَجَنُونٍ وَغِيَابٍ عَنِ الرَّشَدِ، هَذَا هُوَ حَالُهُمْ فِي

الدُّنْيَا وَالَّذِي اسْتَوْجَبُوا بِهِ عَذَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ﴾ إِذْ لَا لَهُمْ وَجَاءٌ مُنَاسِبًا لِتَكْبُرِهِمْ.

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أَي: ذُوقُوا بِوُجُوهِِكُمْ حَرَّ سَقَرٍ، وَسَقَرٌ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، أَوْ اسْمٌ

لِلذِّكْرِ مِنْ دَرَكَاتِهَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي: بتقدير سابق، وبأجل مُحدد وفق علم الله وحكمته وإرادته المطلقة.

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ بمعنى أن ما نريده من أمر الخلق يكون بكلمة واحدة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، و﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ كناية عن سرعة الإيجاد والتكوين.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم من الكفار.

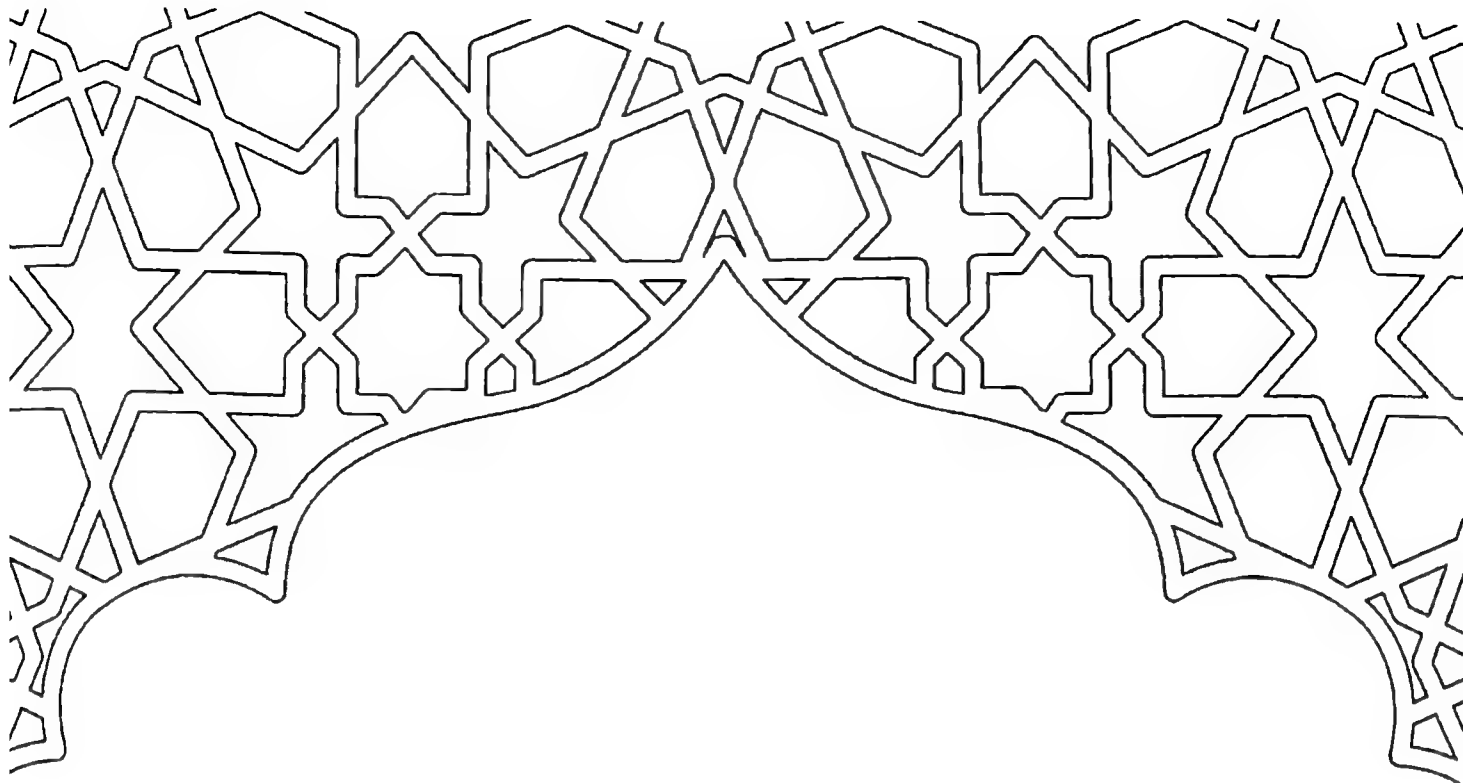
﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي: محفوظ في علم الله، وتدونه الملائكة عليهم فيجازيهم الله به.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ تأكيد أن كل صغير وكبير من شأن الخلائق، وأعمالهم محفوظ ومكتوب.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ جاء هذا الإخبار تفریعاً عن الإخبار بعلم الله الشامل وإحاطته بأعمال البشر، وقد تقدّم جزاء الكافرين منهم، فناسب أن يذكر جزاء المتقين، وقوله: ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ اسم جنس يُطلق على المتعدد، بمعنى أنهم في جناتٍ وأنهارٍ.

﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ ﴾ أي: في مقام صادق، بمعنى أنه تام النعمة كما وعدهم ربهم .

﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي: في ضيافة الله المليك المُقْتَدِر، أي: المالك لأمر الدنيا والآخرة، المُقْتَدِر عليهما بربوبيّته وعلمه وقوته، فلا يُنازعه في مُلكه أحدٌ.



سُورَةُ الْحَجِّ

المجلس الخامس والأربعون بعد المائتين: فبأي آلاء ربكما تكذبان

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

﴿الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ
يَسْجُدَانِ ٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ
٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ ١١ وَالْعَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا
تُكْذِبَانِ ١٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ١٥ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ
١٦ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا
تُكْذِبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٢٣ وَلَهُ الْغَوَايِرُ الْمُنْتَاثِرُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ٢٤ فَبِأَيِّ آيَةِ
رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٢٨ بَسْمَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ٢٩ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٣٠ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ٣١ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٣٢ بَمَقَرِّ الْمِيزَانِ
وَالْإِنِّسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ٣٣ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٣٤ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا سُوطٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٣٦ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ
٣٧ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْلُ عَنْ ذَيْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ٣٩ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٤٠ يَعْرِفُ
الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئَامِ ٤١ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٤٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ٤٤ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٤٥ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ٤٦ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ فَبِأَيِّ آيَةِ
رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فاكهة زوجان ٥٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ
٥٣ مُتَكِّفِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٤ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ قِصِرَاتُ الطَّرِيفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنْسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ ٥٦ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٥٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ٥٨ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٥٩ هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ٦٠ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٦١ وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٦٣ مُدْهَامَتَانِ ٦٤ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ٦٦ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٦٧ فِيهِمَا فَكْهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ٦٨ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ٧٠ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٧١ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ٧٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٧٤ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٧٥ مُتَكِّفِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضِرَ
وَعَبَقَرِي حِسَانٍ ٧٦ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ٧٧ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٧٨﴾

هَبَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

موضوع سورة الرحمن يكاد يكون مختلفاً تماماً عن السورة التي سبقتها؛ فسورة القمر كانت وعيداً وتهديداً، وإنذاراً شديداً، أما سورة الرحمن فهي آلاءٌ وجنانٌ، وعينان تجريان، ونخلٌ ورمآنٌ، وحُورٌ مقصُوراتٌ في الخيام، لم يطمئنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌ.

إنَّها السورة التي تستهلُّ باسمه تعالى الرحمن، وبهذا تتكامل هذه السورة مع سابقتها، ترغيباً وترهيباً، وتشويقاً وتخويفاً، وهكذا هي طباع الناس يحتاجون هذه ويحتاجون تلك، وهذه الخارطة الأساس لموضوعات هذه السورة النفيسة وبحسب تسلسل آياتها أيضاً:

أولاً: استهلَّت السورة باسمه تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾؛ ليكون هذا الاسم عنواناً للسورة، ومدخلاً لموضوعاتها، الرحمن الذي بفيوضات رحمته نزل هذا القرآن ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وبفيوضات رحمته كان هذا الخلق؛ خلق الإنسان وخلق الأكوان، ثم ميَّز الإنسان بالبيان، وضبط حركة الكون بتقديرٍ وحُسابٍ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ثانياً: بعد هذا الاستهلال الودود، نوَّهت السورة بقيمة العدل التي تقوم بها حركة الكون، وتقوم عليها حياة الإنسان ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿وَاقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

ثالثاً: ثم التفتت السورة إلى آثار رحمة الله في هذه الأرض، وما أودع فيها من أسباب الرزق والنعمة ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِرِ﴾ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

رابعاً: ثم عادت لتذكِّر بخلق الإنسان مقارنةً له بخلق الجان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

خامساً: ثم نبَّهت إلى آثار قدرة الله ورحمته وربوبيته لهذا الكون، وما فيه من ناموسٍ ونظامٍ بديعٍ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾

﴿١٩﴾ يَنْهَمَا بَرَزَخُ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّزْلُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾.

سادسًا: بعد التنويه بدقة الخلق وما فيها من إتقان وإحسان، ولكي لا يتوهم متوهم أن الخلق باق وأن الإنسان سيستقر في هذه الحياة، راحت السورة تُواجه الناس بالحقيقة التي تنتظرهم جميعًا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

سابعًا: هذه الحقيقة تكشف أن الإنسان لا يستقل بنفسه والخلق كله كذلك، بل كل ما في الوجود مُفْتَقِرٌ إليه سبحانه في كل حاجاته ومتطلبات حياته ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

ثامنًا: تُفَصِّلُ السورة ما أَجَلَّتْهُ آتِفًا من حقيقة الفناء، واليوم الذي ستنتهي فيه هذه الحياة ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

تاسعًا: آنذاك سيلقى المجرمون جزاءهم ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

عاشرًا: أمّا المؤمنون المتقون فهم على مستويين من النعيم: المستوى الأعلى للمُحْسِنِينَ الذين عرفوا مقام ربهم، فخافوه وعبدوه حقَّ عبادته ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِنِّي ءَالَءٍ رَّبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ

إِسْتَرْفَ وَخَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

حادي عشر: أمّا المستوى الثاني من النعيم فهو لعامة أهل الجنة يَمُنُّ نَجَّاهُم اللهُ مِنَ النَّارِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي ءَالَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾

ثاني عشر: في الآية الأخيرة من السورة يُمَجِّدُ اللهُ اسْمَهُ الْكَرِيمِ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ فكان السورة قد اختتمت بما ابتدأت به، والله أعلم، وهو بنا أرحم.

دقائق التفسير

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ تَنبِيَهُ إِلَى الصَّلَاةِ الْوَاقِفَةِ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَبَيْنَ الْبَيَانِ الَّذِي هُوَ مِيزَةُ الْإِنْسَانِ، وَبِهِ يَفْهَمُ الْقُرْآنَ، فَهَذِهِ مَنْظُومَةٌ مِنَ الْقِيَمِ؛ دِينٌ مُنْبِئٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَعِلْمٌ صَحِيحٌ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْهَمَ الدِّينَ وَيُتَرَجِّمَهُ فِي حَيَاتِهِ، فَإِذَا ابْتَعَدَ الدِّينُ عَنِ الرَّحْمَةِ، كَانَ دِينًا مُشَوَّهًا وَمُؤْذِيًا، وَإِذَا ابْتَعَدَ الْعِلْمُ عَنِ الدِّينِ، صَارَ عِلْمًا يَخْدُمُ الْأَقْوِيَاءَ، وَيَمُدُّهُمْ بِأَسْبَابِ الْكِبْرِيَاءِ وَإِذْلَالِ الضُّعَفَاءِ.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ بِحَسَابٍ دَقِيقٍ، وَهَذَا الْحِسَابُ يَنْعَكُسُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ؛ فَيَعْرِفُونَ بِهِ يَوْمَهُمْ وَشَهْرَهُمْ وَعَامَهُمْ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ صَيْفَهُمْ وَشِتَاءَهُمْ، وَهَذَا الْحِسَابُ الدَّقِيقُ فِي ضَبْطِ الْمَسَافَاتِ مَعَ الْأَرْضِ تُبْنَى عَلَيْهِ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ فِي الْحَرَارَةِ وَالْأَشْعَةِ وَتَكْوِينِ

السُّحْب وما إلى ذلك.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: يسجد لله ما في السماء وما في الأرض، ثم مثل للسماء بنجمها، وللأرض بشجرها، وهذا أولى من تفسيرهما بنوعين من النبات؛ ما له ساق، وما ليس له ساق؛ وذلك لأنَّ النجم المتبادر للذهن في لغة العرب هو نجم السماء، ولورود هذا المعنى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

والمقصود بالسجود هنا هو: السجود القدري، والذي يعني: الخضوع التام للنظام الذي وضعه الله في هذا الكون، فهو ليس سجودًا تكليفيًا يُبنى عليه ثواب وعقاب، بل هو سنة كونية، وآية إيمانية، وعبرة لأولي الألباب.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قرَن رفع السماء بوضع الميزان الذي هو رمز العدل؛ إعلاءً من شأن هذه القيمة العظيمة التي لا تقوم الحياة إلَّا بها.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ هذه وصية الله للبشر أن يُقيموا العدل فيما بينهم، كما أقامه الله في السماء، وجعله أساسًا في هذا الخلق.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: مهَّدها لهم وجعلها صالحة لعيشهم، والأنام جمع لا مفرد له، ويُطلق على الناس كافة، وقد يُطلق على كلِّ الخلائق التي تعيش على الأرض على اختلاف أجناسها وألوانها.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الطلعُ المحفوظُ بأكمامه.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ العصفُ: السنابل التي تخرج مع حبوب القمح والشعير ونحوهما، ثم يعصف بها بعد اكتمال الحب فتكون تبنًا، والعصف للحبِّ كالأكمام للطلع.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ نبات له رائحة زكية.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه الآية من خصائص هذه السورة العزيزة، والخطاب مُوجَّه لفريقين مختلفين جنسًا، وهما: الإنس والجن، وهذا هو الأظهر؛ لتكرار ذكر الجن مع

الإنس فيها، أو مُتخلفين دينًا، وهما: المؤمنون والكافرون، وقد رجَّحه الطاهر بن عاشور في تفسيره^(١)، والسياق بخلافه؛ إذ لم يرد في السورة ذكرُ الكافرين في مُقابل المؤمنين، كما أنه ليس معهودًا في القرآن جمعُ المؤمنين مع الكافرين في ضميرٍ واحدٍ، وأما الآلاء فهي: النعم، وهي كذلك الدلائل على وجود الخالق المنعم تبارك وتعالى.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الناعم أو الأملس الصقيل، والفخار معروف.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ مارج النار: لهبُه المختلط بدخان النار أو نحوه.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ هذه أبعاد مُختلفة؛ فما بين المشرقين يشمل: جهة المشرق من أقصى شهاها إلى أقصى جنوبها، والمغرب كذلك، ثم يأتي البعد الثالث ليشمل ما بين كل جهة الشرق وكل جهة الغرب؛ فيكون معنى الآية أن الله هو ربُّ الأرض كلها بكلِّ جهاتها وأبعادها، والله أعلم.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ خلطهما، وهذا مُشاهدٌ يتدفقُ الأنهار العذبة في البحار المالحة، دون أن تتغيرَ الأنهار ولا البحار؛ لأنَّ المَرَج في نقطة الالتقاء وهي مسافة محدودة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿يَتَنَبَّهًا بَرَزَخُ لَا يَتَغَيَّيَانِ﴾ أي: لا يطفئ أحدهما على الآخر، ولا يمحو أحدهما الآخر.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ وهما من أنواع الحُلِيِّ، والتنويهُ بهما تنويهٌ لقيمة التزيُّن، وهي قيمةٌ معتبرةٌ في الشرع، ومثلها التطيُّب.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: السفن التي تجري في البحار، والمنشآت أي: أنشأها الناس مما خلقه الله لهم من شجرٍ ونحوه، والأعلام: الجبال، إشارة إلى عِظَمها وارتفاعها، وقد كانت تبدو كذلك بأشْرِعَتها الضخمة والعالية، وهي اليوم أقربُ لهذا الوصف، كما هو معلومٌ ومُشاهد.

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» للعلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣) (٢٧/ ٢٤٤) / الدار التونسية، ط ١٩٨٤م.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: كلُّ حيٍّ على الأرض يموت، وكلُّ موجودٍ عليها يبلى.

﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ويبقى ربُّك، ودلالة الوجه على الذات معروفة وشائعة في لسان العرب، وهناك قرينة في الآية نفسها؛ إذ وصف الوجه بما يصف به الرب فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وذو الجلال والإكرام هو الله، وقد وصف الله به نفسه في آخر السورة فقال: ﴿بَنَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فجعله وصفاً للربِّ وليس للاسم، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤال المحتاج واقِعاً أو حكماً؛ فما من أحدٍ من الخلق يستقل بنفسه، حتى الكافر المعاند يسأل الله بفطرته وطبيعة تكوينه مهما كابر وعاند، أمّا في الآخرة فلا يسع أحداً كِبَرٌ ولا عناد.

﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ لأنّه سبحانه هو الذي يُدبّر أمر هذا الخلق، ففي كلِّ يومٍ له تَبَرُّكٌ تدبّرٌ وخلقٌ ورزقٌ، وإحياءٌ وإماتةٌ، ورفعٌ وخفضٌ، وما إلى ذلك.

﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ أي: سنُقِبلُ عليكم بالحساب إقبالاً من ليس له شغلٌ غيركم، والله سبحانه لا يشغله شيءٌ عن شيءٍ، وإنّما هو التمثيل بما هو مألوفٌ من حياة الناس، والثَّقَلَانِ: الإنس والجن.

﴿يَمَعَشِرَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ هذا خطاب الله لمعشِرِ الجنِّ والإنس، والمقصود به طغاتهم؛ لأنّه مُتَضَمِّنٌ الوعيد والتهديد؛ فالله يتحدّى هؤلاء أن يهربوا من قضاء الله وحكمه، والسياق يرجّح أن هذا في الآخرة؛ لأنّه عقب بقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابُ مَن نَّارٍ وَنُحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ فجَهَنَّمُ تطلبهم وهي محيطةٌ بهم.

وأما الاستثناء الوارد: ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ فهو على سبيل التعجيز، فأَيُّ سلطانٍ عند هؤلاء المساكين يقيهم من سلطان الله، ويُمكنهم من أن يخرجوا عن مُلكِهِ وحُكْمِهِ؟

﴿فَإِذَا أُنْشِقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ هذه من أحوال الآخرة؛ حيث تتشقق السماء كما تتشقق الوردة الرقيقة بطبقاتها المختلفة، وينقلب لونها إلى اللون الأحمر الذي هو لون الورد، فكأنها صبغت بلونه، والدهان يُطلق على الصبغ والزيت وكل ما يُطلى به.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: في ذلك الموقف من مواقف الآخرة، وليس فيه نفى للسؤال والحساب؛ لأنَّ أيام الآخرة كثيرة وطويلة، ومواقفها متنوعة، وأحوالها مختلفة، ولكل يوم شغله ووظيفته، فما نفى في هذا اليوم قد يكون في يوم آخر.

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ تعرفهم الملائكة بصفاتهم الظاهرة عليهم، والتي تميزهم عن المؤمنين.

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تأخذهم الملائكة فتجمع نواصيهم مع أقدامهم وترميهم في جهنم، وهذه هيئة مُهينة ذليلة تُناسب ما كانوا عليه من العناد والكبر.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ أي: يترددون بين مكان النار وبين مكان الماء المغلي، أو يترددون بين هذا وهذا تردداً في اختلاف الأحوال وليس في اختلاف الأماكن، و﴿آتٍ﴾ الماء الذي اشتدَّت حرارته.

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ إشارة إلى معرفة هؤلاء الصفوة بمقام ربهم وما يجب في حقِّه سبحانه، بخلاف المؤمنين المُقلِّدين بإيمانهم الذين يؤمنون بالله إيماناً إجمالياً.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي: ذواتا أغصانٍ كثيرة، كناية عن كثرة أشجارهما.

﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الحرير السميك الغليظ.

﴿وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمر الجنَّتَيْنِ قريبٌ منهما وفي مُتناول أيديهم.

﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ﴾ الحُور العين، وقصرُ الطرف كناية عن الحياء والرقَّة.

﴿لَمْ يَلْمِزْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: لم يمسهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ؛ إذ لم يكن لهنَّ من قبل

أزواج.

﴿كَانَ هُنَّ أَلْيَافُوتٌ وَالْمَرْجَانُ﴾ وصف لجمالهن وصفائهن.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي: كل هذا الذي في الجنتين إنما هو ثواب للذين أحسنوا في حياتهم الدنيا، وفيه تأكيد للعدل الإلهي؛ إذ هذا جزاء العمل والجهد الذي يتفاوت فيه الناس ويتنافسون، بخلاف ما لو كان على أساس الجنس واللون والحسب والنسب.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ هاتان جنتان أخريان، دون الجنتين السابقتين.

﴿مُدَّهَامَتَانِ﴾ أي: عُلَّتُهُمَا دُحْمَةٌ من كثافة ظلّ الشجر فيهما، والدُّحْمَةُ: سوادُ الظلّ الكثيف.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ أي: فوّارتان بالماء.

﴿فِيهِمَا فَنَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ دليل أن هاتين الجنتين دون الأوليين في الرتبة؛ لأنه في الأوليين قال: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ عدل من المثني إلى الجمع؛ إشارة إلى أن الصفات الآتية تشترك فيها الجنان الأربع.

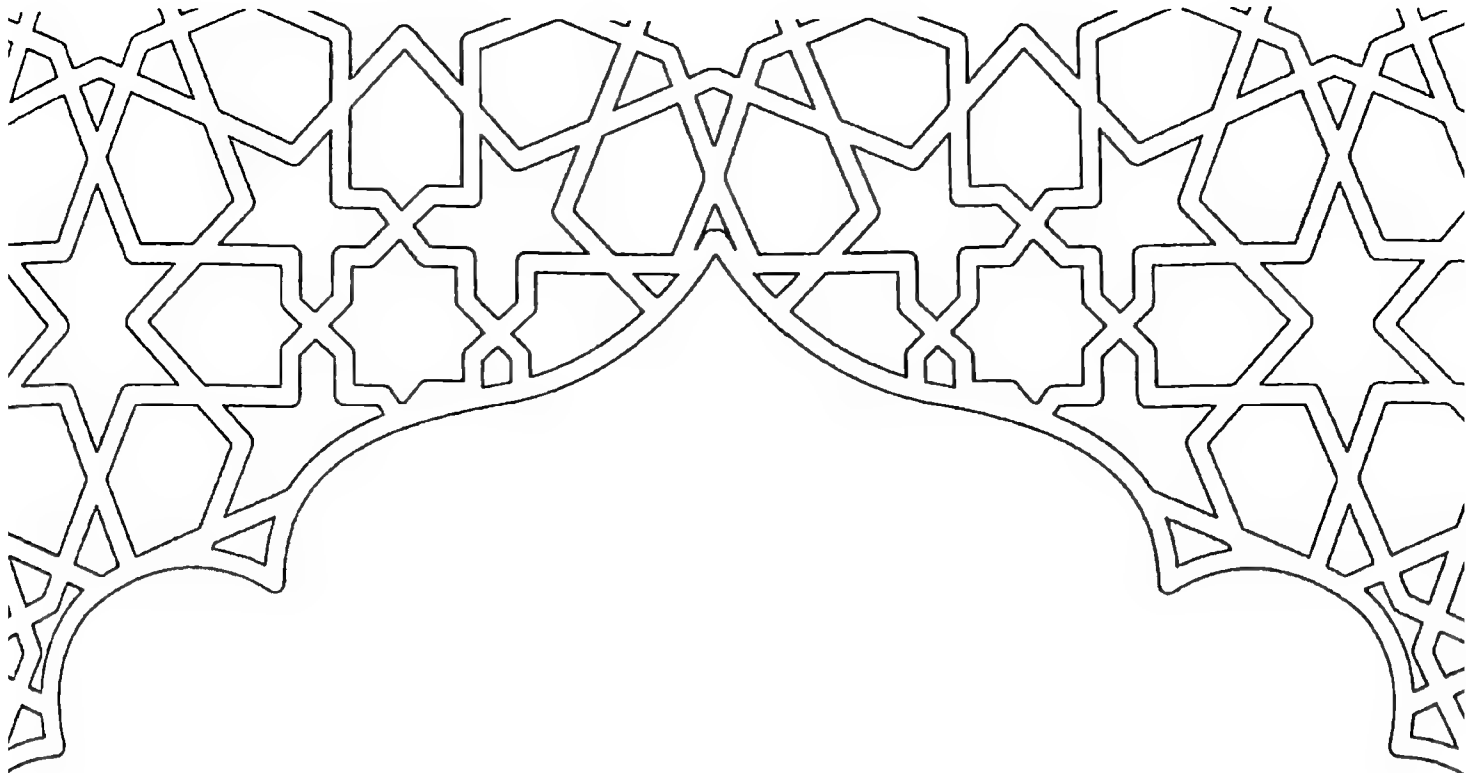
﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ تفسير للخيرات الحسان، أو تمثيل لها، و﴿مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي: مقصورات في بيوت أزواجهن، ولا يتشوّفن لغيرهم.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ على وسائد خضر، والخضرة لون يسر الناظر.

﴿وَعَبَقَرِي حَسَنَاتٍ﴾ فرش نفيسة وحسنة، والعبقري: النادر المتميز من كل شيء.

﴿نَبْرَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أشار بالاسم إلى اسمه: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي استهلّت به

السورة، والله أعلم.



سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

المجلس السادس والأربعون بعد المائتين: إذا وقعت الواقعة

المجلس السابع والأربعون بعد المائتين: نحن خلقناكم فلولا تُصدّقون

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّيِّقُونَ ۝١٠ وَالسَّيْقُونَ ۝١١ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١٢ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۝١٣ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٤ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٥ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۝١٦ مُتَنَكِّبِينَ ۝١٧ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُخْتَلِفُونَ ۝١٨ فِي كُؤَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٩ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ۝٢٠ وَفَكَهَمُوا مِمَّا خَوَّرُوا ۝٢١ وَلَخِيطَرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ وَخُورٌ عَيْنٌ ۝٢٣ كَأَمْثَلِ الثَّلَاثِ الْمَكُونِ ۝٢٤ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٥ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٦ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٧ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٨ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝٢٩ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ۝٣٠ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝٣١ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۝٣٢ وَفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٣ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٤ وَفُورٍ مَرْقُوعَةٍ ۝٣٥ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٦ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٧ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٨ لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٣٩ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝٤٠ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝٤١ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤٢ فِي سُورٍ وَحِيمٍ ۝٤٣ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُورٍ ۝٤٤ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٥ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٦ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۝٤٧ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٨ أَوَآبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٩ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٥٠ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥١ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَآبُهَا لَصَّالُونَ ۝٥٢ أَلَمْ تَكُونُوا مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ۝٥٣ فَالْتَوْنَا مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٤ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ لَعِيمٍ ۝٥٥ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْمَعِيدِ ۝٥٦ هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٧﴾

إذا وقعت الواقعة

تتناول سورة الواقعة موضوعين أساسيين: أولهما - وهو موضوع هذا المجلس - وصف مفصل لأحوال الآخرة، وانقسام الناس فيها بحسب ما قدموه لأنفسهم، والجزاء الذي تستحقه كل فئة منهم، وكما يأتي:

أولاً: صور القرآن الساعة وأحداثها، والانقلاب الكوني الذي سيعصف بهذه الأرض ويُغيّر معالمها حتى تكون هباءً منبثاً ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦﴾.

ثانيًا: بين القرآن أن الناس جميعهم سينقسمون على ثلاث فئات: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾ (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿

ثالثًا: بدأ الحديث عن الفئة الأعلى والأسمى، وهم السابقون السابقون ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ثم أخذ بتفصيل النعيم الذي أعدّه الله لهم ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ (١٩) وَفِيهَا كَثِيرٌ مِمَّا يَسْتَحْسِنُونَ (٢٠) وَلَهُمْ فِيهَا نَجْوَىٰ ذُنُوبِهِمْ لِمَنْ ظَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) وَخُورُ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ (٢٣) جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿

رابعًا: ثم ثنى بالفئة الثانية، وهم أصحاب اليمين ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفِيهَا كَثِيرٌ مِمَّا يَسْتَحْسِنُونَ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً (٣٥) لَجَعَلْنَهُمْ أَجْنَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿

خامسًا: ثم ثلث بالفئة الثالثة ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمِرٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿، وقد خصّ هذه الفئة ببيان السبب الذي استحقوا به هذه العاقبة البئيسة؛ لتأكيد عقيدة العدل الإلهي، وللتحذير وأخذ العبرة منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿

سادسًا: ثم عاد القرآن ليؤكد عقيدة البعث وأن الناس أجمعين سيُحشرون إلى الله، موجِّهاً الخطاب بصورة مباشرة إلى أولئك المكذِّبين المعاندين يُحذِّرهم ويُنذِّرهم ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٥١) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَانَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥٣) لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ

زَقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِقُوتٍ مِنْهَا الْبَطُونُ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهَبِيرِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ
الدِّينِ ﴿٥٦﴾

دقائق التفسير

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا قامت الساعة، وسماها الواقعة؛ لتحقيق وقوعها، ثم أكد هذا
التحقق بقوله: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ بمعنى أنها ستقع يقيناً، ولن تجد لها آنذاك نفساً تكذبها.
﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: تخفض أقواماً بكفرهم وظلمهم، وترفع آخرين بإيمانهم وصالح
عملهم.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: زُلزِلت زلزالاً، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾
[الزلزلة: ١].

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي: فُتَّتْ، وهذا بعد أن يضربها الزلزال الشديد.
﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ الهباء: ما لا وزن له مما تحمله الرياح؛ كالغبار، والدخان، ومُنْبَثًّا أي:
مبثوثاً في الفضاء لحفته.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي: أصنافاً ثلاثة، بمعنى أن الناس كلهم سيكونون على ثلاثة
أصناف.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هؤلاء الذين يُعطون كتبهم بإيمانهم علامة على
رضا الله عنهم، والسؤال لجلب انتباه السامع أو القارئ وتهيئته للجواب.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هؤلاء الذين يُعطون كتبهم بشهادتهم علامة على
شقاوتهم وسخط الله عليهم، والعرب تتيمن باليمين، وتتشاءم بالشمال، ومن ثم أطلق
المشأمة على الشمال؛ ولذلك قال في الآخر عن هؤلاء أنفسهم: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
الشِّمَالِ﴾.

﴿وَالسَّيْقُونِ السَّيْقُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ ﴿﴾ وهؤلاء صفوة مختارون، طاروا فوق الحساب والكتاب، هؤلاء هم قادة الهدى، الدالّون على الله، المعرفون به، والداعون إليه، والمجاهدون في سبيله، هم الأنبياء والمرسلون، ومن ورث عنهم هذه الأمانة فناب عنهم في تبليغها، إنهم المصلحون الذين لا يكتفون بصلاح أنفسهم، إنهم الذين قال فيهم ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١).

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿﴾ والثلاثة توجي بالكثرة، خاصة أنها جاءت في مقابل القلة، وقد استشكل هذا كثير من المفسرين؛ إذ كيف يكون لأمة محمد ﷺ النصيب الأقل من هؤلاء الأخيار؟! من هؤلاء الأخيار؟!

والذي شرّح الله صدرى إليه وتشهد له القرائن الكثيرة: أن الأولين هم السابقون في كلّ أمة، والآخرين هم الآخرون من كلّ أمة، فالصحابا الذين كانوا مع النبي ﷺ هم من يكثر فيهم هذا الصنف، ثم يقل شيئاً فشيئاً في الأجيال اللاحقة، وهكذا القول في أصحاب موسى وعيسى وكلّ الأنبياء السابقين ﷺ، ويشهد لهذا حديث: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...»^(٢) الحديث.

(١) حديث: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» جزء من حديث رواه أبو داود (٣/٣٥٤) دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/٤٨) دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وابن ماجه (١/٨١) دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، وغيرهم، وقد ذكره البخاري في «صحيحه» بغير سند ضمن أبواب كتابه ولم ينسبه كحديث، ينظر: صحيح البخاري (١/٣٧) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م).

والحديث قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني ﷺ: (ضعفه الدارقطني في العلل، وهو مضطرب الإسناد. قاله المنذري) ينظر: «التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير» (٣/٣٣٨) مؤسسة قرطبة - دار المشكاة للبحث العلمي، ط. ١، ١٤١٦ - ١٩٩٥ م، تح حسن عباس قطب)، وقال السخاوي ﷺ: (صحّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها؛ ولذا قال شيخنا: له طرق يُعرف بها أن للحديث أصلاً) ينظر: «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» (ص ٤٥٩) دار الكتاب العربي، ط. ١، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م، تح محمد عثمان الخشت).

(٢) متفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود وعمران بن حصين، ورؤي بعدة ألفاظ، ينظر: صحيح البخاري (٢/٩٣٨)، وصحيح مسلم (٧/١٨٥) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي: منظومة في أماكنها بنسبٍ يُناسب الراحة والسَّمر، وقيل: إنها منسوجة بالذهب ومزينة به.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ لخدمتهم.

﴿ يَا كُوبَ وَابَارِيقَ وَكَاسٍ ﴾ هذه أواني الشراب المعروفة.

﴿ مَعِينٍ ﴾ منبَع لا ينقطع.

﴿ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ لا يُفَرِّقُونَ عنها، بل هم مُجتمعون عليها متى أرادوا.

﴿ وَلَا يُزِفُونَ ﴾ أي: لا يُصَرِّفُونَ عنها، بمعنى أنها موفورة لهم متى شاءوا، والله أعلم.

﴿ كَأَمْثَلِ الثَّوَالِيكُتُونَ ﴾ أي: المحفوظ في صدقه فلا تمسه شائبة.

﴿ جَزَاءَ يَمَآ كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد للعدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً، ولا يُجَاحِي أحداً.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي: لا يسمعون إلَّا ما يسرهم ويؤنسهم.

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ استثناء منقطع، أي: يقال لهم: سلاماً سلاماً.

﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ مُثْقَلٍ بالثمر وخالٍ من الشوك.

﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ وموزٍ مصفوف بعضه على بعض.

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي: وظلٌّ متصل؛ لاتصال شجر الجنة وكثافته.

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ أي: جارٍ ومتدفق، كأنه يتحدَّر من الأعالي.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ على الأسيرة.

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أي: الحُور العين، والعبارة تُوجي بالعناية التامة بخلقهنَّ وتكوينهنَّ.

﴿ أَبْكَارًا ﴾ لم يقربهنَّ أحد.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب؛ وهي المرأة المتحبة لزوجها.

﴿ أَتْرَابًا ﴾ أي: مستويات في السن، ولا تفاوت بينهنَّ بكبرٍ أو صغرٍ.

﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: في كل أمة من أتباع النبيين مجموعة من أهل اليمين في الأولين، ومجموعة منهم في الآخرين؛ وعلى هذا فأهل اليمين هم عامة أهل الجنة، أمّا خواصهم فهم المقربون الذين يكثرون في صدر كل أمة مؤمنة، ويقلّون في أواخرها.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ هم أنفسهم أصحاب المشأمة الذين تقدّم ذكرهم في صدر السورة.

﴿سَمُومٍ﴾ الريح الحارة.

﴿وَحَمِيمٍ﴾ الماء الحار.

﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ من دخان.

﴿لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ﴾ وصف للظل الذي هو من يَحْمُوم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لما هم فيه من العذاب بأنهم كانوا في الدنيا مترفين الترف الذي أنساهم ذكر الله، وأشغَلهم عن الاستعداد لهذا اليوم.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: يُصِرُّونَ على الشُّركِ وإنكارِ الآخرة، وسَمَاءٍ حَنِثًا؛ لأنهم كانوا يُقْسِمُونَ عليه وما كانوا صادقين.

﴿أَوَّابًا وَأَنَا الْأَوَّلُونَ﴾ تقدّم معنى (أَوَّ) وأنها مُركَّبة من: واو العطف، وهمزة الاستفهام؛ فأصل الكلام: وَأَوَّابًا، فقدّمت الهمزة على الواو؛ تخفيفًا في النطق، والله أعلم.

﴿مِنْ زُقُومٍ﴾ من شجرة خبيثة أُعِدَّتْ طعامًا لأهل النار.

﴿فَشَرِبُوا شَرِبَ الْهِيمِ﴾ الهيم: الإبل التي أصابها داء يُقال له: الهِيَام، فيجعلها تشرب ولا ترتوي.

﴿هَذَا نَزَلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هذا ما أعدّه الله لهم يوم القيامة، وأصل النُّزْل: ما يُقدَّم للضيف.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿ فَلَا أَفْسَـدُ يَمْوِجَ الْغُجْرِ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْبَیْمَنِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزْلٌ مِنْ سَمِیمٍ وَنُصْلَةٌ جَمِیمٌ ﴿٩٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴿

نحن خلقناكم فلولا تصدقون

هذا هو الموضوع الثاني الذي تناوله هذه السورة، وفيه مناقشة مفصلة مع أولئك المكذبين؛ ليبين لهم طريق الحق بأدلتِهِ وشواهِدِهِ حتى يُقيمَ الحُجَّةَ عليهم، فلا يبقى عُذْرٌ لمُعْتَذِرٍ:

أولاً: تذكير هؤلاء بخلقهم ونشأتهم الأولى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ .

ولا شك أن خلق الإنسان أول مرة يُزيلُ اللبسَ تماماً عن إمكان خلقه مرة ثانية، وإذا كان الإنسان يُنكر ذلك على جهة الاستبعاد؛ لأنه لا يمكنه تصور الكيفية التي سيخلق فيها من

جديد، فإن خلق الإنسان الأول لا يعرف عنه شيئاً أيضاً، وليست لديه صورة علمية أو عقلية يمكن الاطمئنان إليها، ولا زال العلم إلى اليوم يتخبط في ذلك، لكن الإنسان موجود، وهذا دليل أن مُوجد هذا الإنسان أكبر من قدرات العقل وتصوّراته؛ إذ هو خالق العقل نفسه.

ثانياً: تنبيههم إلى دورة الحياة التي يلمسونها بأيديهم؛ وهذا هو الذي يسمّى بالدليل الحسي؛ فدورة النبات في الطبيعة من بذرة إلى ثمرة، ثم تنتهي الثمرة وتبقى البذرة، ومن البذرة تعود الثمرة من جديد، هذه صورة تُقرب الحياة الأخرى للبشر ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَنْهَوْنَ عَنْ زَرْعِهِ؟ أَمْ تَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ (٦٦) ﴿بَلْ تَحْنُ تَحْرُثُونَ﴾.

ثالثاً: تنبيههم إلى عنصر الحياة الأساس: الماء، وكيف جعله الله مناسباً لحاجة أجسامهم، فلو اختلّ لاختلفت الحياة، ولو انعدم لانعدمت الحياة، فمن ذاك الذي قدّر حاجة الحياة إلى الماء فأوجده على هذا المقياس والميزان الدقيق؟ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

رابعاً: يُنبههم إلى عنصر آخر من عناصر الحياة: النار، والتي تعني اليوم: الوقود الذي يُحرّك عجلة الحياة كلّها، أمّا حينما كانت الحياة بدائية فكان الإنسان لا يستغني عن النار في صورتها البدائية أيضاً؛ فهي الدفء، والطهو، والأنس، وهي التي يُنقي بها حُلِيّه ونقوده، ويصنع بها سلاحه وحديده، ولم يكن آنذاك له من مصدر لها إلا الشجر ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧٢) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

أمّا اليوم فقد صار الإنسان يحصل على النار من باطن الأرض؛ من غازها ونفطها وكبريتها، وكل ذلك من صنع الواحد الأحد، كأنه يدّخر لهذه الحياة ما يفي بأغراضها جيلاً بعد جيل.

خامسًا: بعد هذه التنبيهات، جاء التأكيد القرآني الحاسم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من الله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين؛ فدلائل صدقه ظاهرة في آياته، وفيما يُخبرُ به عن أسرار هذا الوجود بما لم يكن لأحد من البشر من علم به ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْجِعِ الْجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَلْعَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

سادسًا: ثم يتحدّى القرآن هؤلاء المكذّبين أن يردّوا قدرًا من قدر الله، وأن يدفعوا الموت عن أنفسهم، إنه يقرّرهم بحقيقة عجزهم وضعفهم، فالناس يولدون ويموتون، أجيال تأتي وأجيال تذهب، وليس منهم واحد قد اختار يوم ولادته، ولا أن يمدّ في أجله ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (٨١) ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ نَّتُنظَرُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾ (٨٥) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

سابعًا: ثم يختم القرآن هذه السورة بما استهلّت به؛ مُذكّرًا بالفئات الثلاث، والمصير المحتوم الذي ينتظر البشر من أولهم إلى آخرهم ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (٨٩) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَرِيمٍ﴾ (٩٣) ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٩٥) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾: فهلاً تُصدّقون! وهي أداة من أدوات الطلب.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾: بمعنى إن كنتم لا تُصدّقون الخلق الأول - أي: خلق آدم - فانظروا في خلقكم المتكرّر من المنى الذي تناسّلون منه.

﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ فَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ هَذِهِ التُّطْفِ السَّابِحَةِ فِي مَاءِ الْمَنِيِّ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ وَالْمُتَكَرِّرَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ أَوْ مَغْلُوبِينَ.

﴿أَنْ تُبَدِّلَ أَمْتَلَكُكُمْ﴾ أَي: أَنْ تُبَدِّلَ بِكُمْ أَمْثَالَكُمْ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ يَتَضَمَّنُ اسْتِصْصَالَهُمْ وَإِهْلَاكَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١).

﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ نَشْأَةٌ غَيْرُ نَشْأَتِكُمْ هَذِهِ، بِصِفَاتٍ وَأَحْوَالٍ لَا تَعْلَمُونَ مِنْهَا شَيْئًا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: عَلِمْتُمْ خَلْقَكُمْ الْأَوَّلَ فِي الْأَرْحَامِ، وَهَذَا كَافٍ لَكُمْ فِي إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ الثَّانِي.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ عَبَّرَ بِالْحَرْثِ وَأَرَادَ الزَّرْعَ؛ فَالِنَّاسُ يَحْرُثُونَ الْأَرْضَ ثُمَّ يَزْرَعُونَهَا بِالْبَذْرِ.

﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ عَبَّرَ بِالزَّرْعِ وَأَرَادَ الْإِنْبَاتَ؛ لِأَنَّ دَوْرَهُمْ يَنْتَهِي بِحَرْثِ الْأَرْضِ وَإِبْدَاعِ الْبَذْرِ فِيهَا، أَمَّا كَيْفَ سَتَنْمُو هَذِهِ الْبَذْرِ وَتَتَفَتَّحَ حَتَّى تَشُقَّ الْأَرْضَ وَتَنْضَجَ، فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا لَا دَخَلَ لِلْبَشَرِ فِيهِ، وَإِنَّمَا هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ الْمَوْدَعَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ لَا يَنْمُو وَلَا يَنْبُتُ، فَيَذْهَبُ حُطَامًا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ.

﴿فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ الْأَصْلُ فِي التَّفَكُّهِ أَنَّهُ عَلَامَةٌ عَلَى السَّرُورِ، وَالشُّعُورِ بِالْأُنْسِ وَالرَّاحَةِ، وَلَعَلَّهُ جَاءَ هُنَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، كَقَوْلِهِ فِي ذَلِكَ الشَّقِيِّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدَّخَانُ: ٤٩]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ أَي: خَاسِرُونَ وَمُحْرَمُونَ مِنَ الرِّزْقِ، وَهَذَا تَعْبِيرٌ عَنْ حَسْرَتِهِمْ وَخِيبَتِهِمْ.

(١) تَكَرَّرَ هَذَا النَّصُّ الْكَرِيمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّتَيْنِ: فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ / ١٩، وَسُورَةِ فَاطِرٍ / ١٦.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿لَأَنَّ الْمَاءَ الْعَذْبَ الَّذِي فِي الْوُدْيَانِ وَالْغَدْرَانِ وَالْأَنْهَارِ وَحَتَّى الْعَيُونَ وَالْآبَارِ مَصْدَرُهُ الْمَطَرُ، فَهُوَ الَّذِي يُغْذِّي كُلَّ هَذِهِ الْمَنَابِعِ، وَلَيْسَ لِلْبَشَرِ فِي تَكْوِينِ الْمَطَرِ نَصِيبٌ، بَلْ هُوَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الظَّاهِرَةِ.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ مَالِحًا فَلَا يَصْلَحُ لِلشَّرْبِ.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فَهَلَا تَشْكُرُونَ، أَي: يَطْلُبُ مِنْهُمْ الشُّكْرَ، وَهُوَ الْغِنَى عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أَي: تُوقِدُونَ.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ وَهِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ حَيْثُ تُؤُولُ الْأَشْجَارُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ زَاهِيَةً الْخَضِرَةَ إِلَى حَطْبٍ يَابِسٍ تُسْتَعْمَلُ فِي الْوُقُودِ.

أَمَّا الْحَدِيثُ عَنْ وَجُودِ شَجَرَتَيْنِ يُؤْخَذُ غَصْنٌ مِنْ هَذِهِ وَغَصْنٌ مِنْ هَذِهِ فَتَقْدُ النَّارَ، فَلَا مَانِعَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ يَتَحَدَّثُ فِي إِطَارٍ أَوْسَعٍ؛ فَاتِّخَاذُ الْوُقُودِ مِنَ الشَّجَرِ ظَاهِرَةٌ حَيَاتِيَّةٌ عَامَةٌ مَعْرُوفَةٌ لَدَى كُلِّ شُعُوبِ الْأَرْضِ، بِخِلَافِ هَذِهِ الْحَالَةِ النَّادِرَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، وَالْمَقَامُ مَقَامُ مُحَاجَّةٍ، وَالْمُحَاجَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْأَدْلَالِ الظَّاهِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أَي: جَعَلْنَا النَّارَ تُذَكِّرُكُمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ، وَتُقَرِّبُ صُورَتَهَا لَكُمْ، وَكَذَلِكَ تُذَكِّرُكُمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَدَقَّةِ النِّظَامِ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَتَعَاوِدُ عَنَاصِرِهِ وَتَكَامُلُهَا مِنْ مَاءٍ وَهَوَاءٍ وَنَارٍ وَتَرَابٍ.

﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾ أَي: الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ الْقَفْرِ، فَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَفْعِ النَّارِ وَضَوئِهَا، وَلَا أَحَدٌ مِثْلَ الْبَدْوِ وَسُكَّانِ الصَّحَرَاءِ يَعْرِفُ قِيَمَةَ النَّارِ وَفَوَائِدَهَا، مَعَ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ بَدْوِهِمْ وَحَضَرِهِمْ، مَقِيمِهِمْ وَمَسَافِرِهِمْ.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ صِيغَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ صَيَغِ الْقَسَمِ، وَ﴿فَلَا﴾ لَيْسَتْ نَافِيَةً، بَلْ مُؤَكِّدَةٌ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وَمَوَاقِعُ النُّجُومِ: أَفْلَاكُهَا وَمَسَارَاتُهَا.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَوْفَعُمُونَ عَظِيمٌ﴾ لعظمة النجوم هذه ودقة حركتها على كثرتها التي لا تُحصى، حتى إن الأرض بكل ما فيها ليست إلا هباءة صغيرة في مُقابل هذه النجوم.

﴿لَآئِنَّهُ لَفَرَزَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: هذا الذي يُتلى عليكم، والجملة واقعة في جواب القسم.

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: محفوظ من الزيادة والنقصان.

﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يحتمل فيها الإخبار، أو النهي بصيغة الإخبار؛ فعلى الأول يكون المعنى: ألا يمس القرآن المحفوظ عند الله في اللوح المحفوظ إلا الملائكة المُطَهَّرُونَ، وعلى الثاني يكون المعنى: لا يَمَسُّه أحدٌ منكم أيها المؤمنون إلا على طهارة، والمعنى الأول أقرب للسياق، والمعنى الثاني أحوط للتعبُّد وتعظيم القرآن، ثم إن وصف الملائكة في هذا الموضع بأنهم مُطَهَّرُونَ يعني أن هذه الصفة مناسبة للقرآن فيحسُن التخلُّق بها، والله أعلم.

﴿أَفِيْهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّذْهِبُونَ﴾ أي: أبهذا الحديث العظيم أنتم مُتَهاونون ومُكذِّبون، ليتقرب بعضكم من بعض بهذا التهاون، وهذا التكذيب؟ وهذا سببٌ معروفٌ وشائعٌ من أسباب الضلالة والاستمرار عليها؛ حيث يقول المرء ما لا يعتقده حقيقة؛ طمعاً في التقرب إلى مَنْ معه في حزبه أو قبيلته.

﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: وتجعلون تكذيبكم للقرآن سبباً لدوام رزقكم ومنافعكم، واستمرار تجارتكم فيما بينكم؛ لأنهم كانوا يرون أن الإيمان يقطع علاقاتهم، والآية مُتَّصِلَةٌ بها قبلها ومؤكِّدةٌ له، وقد ذكَّر المفسِّرون هنا أقوالاً بعيدة عن السياق، وإن كانت صحيحة في ذاتها، كقولهم: إن المقصود به أولئك الذين ينسبون المطر إلى الأنواء وليس إلى رحمة الله، والله أعلم.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي: فهلاً إذا بلغت روح المحتضر إلى الحلق فدخل في غرغرة الموت وسكراته.

﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى ميِّتكم وهو بهذه الحال.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أعلمُ به وأقدرُ عليه منكم، ولكنكم لا تبصرون شيئاً، لا الروح التي تُنزع منه، ولا الملائكة الموكِّلين به وبقبض روحه.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: فهلاً إذا كنتم غير خاضعين لإرادة الله خضوعاً قدرتاً في حياتكم وموتكم تُرجعون روحَ صاحبكم، وتمنعون الموت عنه، وهذا على سبيل التعجيز والتحدي.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٧﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ﴾ أي: إذا كان الميت من أولئك المقربين الذين تقدَّم ذكرهم ووصفهم في صدر السورة فله الرُّوح، أي: الحياة الطيبة، وله الرَّيحان، وهو النبات العطر، والمقصود به تأكيد الحياة الطيبة، وأنَّ له جنَّة النعيم.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: من الصنف الثاني والمرتبة الثانية بعد المقربين، وقد تقدَّم ذكرهم ووصفهم في صدر السورة أيضاً.

﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: تُبشِّرُهُ الملائكة وتقول له: سلامٌ لك؛ أنت من أصحاب اليمين.

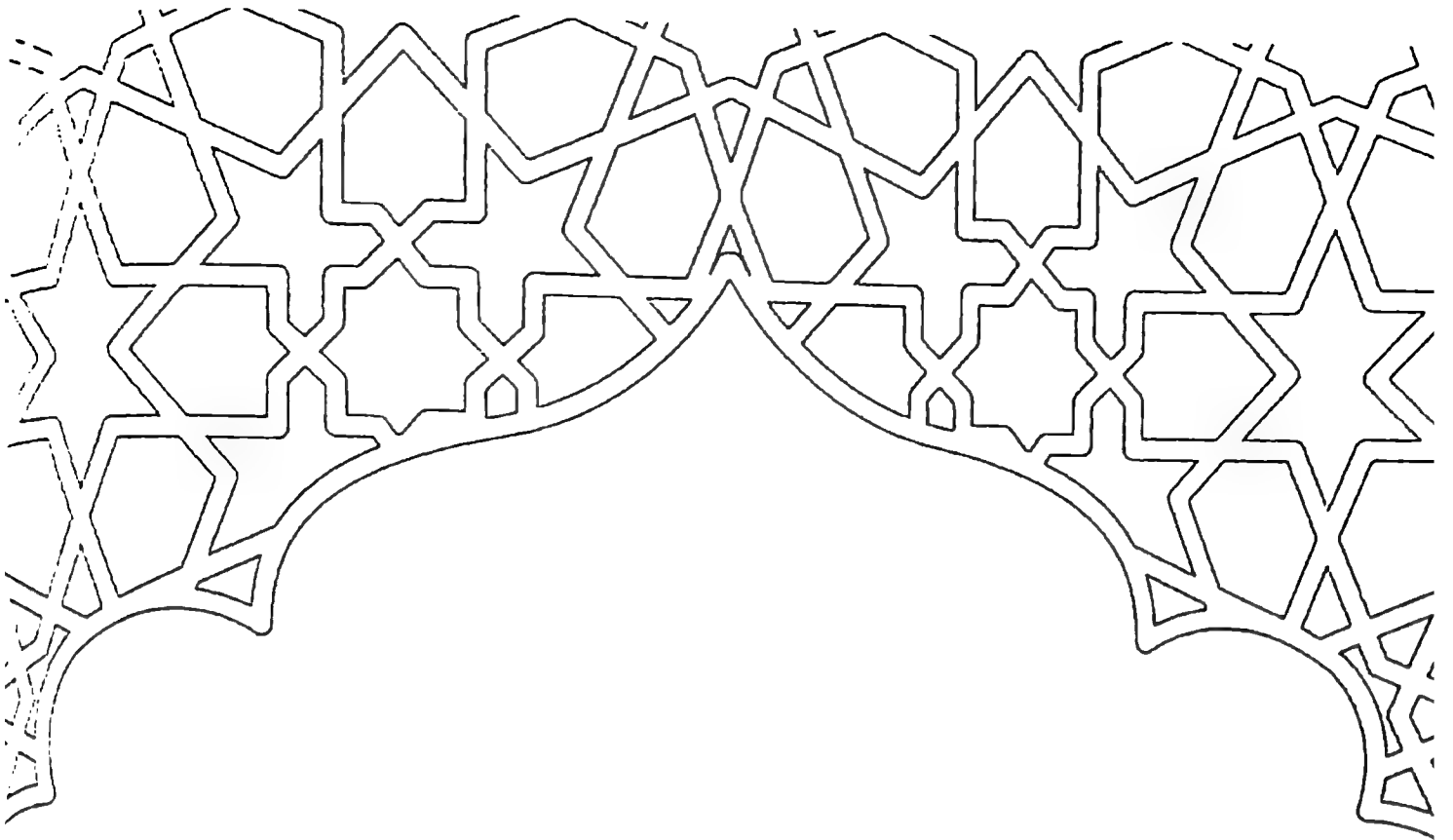
﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ﴾ أي: من الصنف الثالث، وهم أصحاب الشمال، وقد تقدَّم ذكرهم ووصفهم أيضاً.

﴿فَنُزِّلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: أول ما يُقدَّم لهم الماء الحار، والنُّزْل: ما يُقدَّم للضيف، لكن هذا بِشَس الضيف، وهذا هو النُّزْل الذي يليقُ به.

﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ﴾ أي: يدخل في الجحيم ويصلى فيها.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: هذا الحديث الذي فيه الوعدُ للمؤمنين، والوعيدُ للكافرين هو الحقُّ الثابت الذي لا شكَّ فيه ولا ريب.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ هكذا خُتِمت السورة بتمجيد الله وتعظيمه، والأمر بتسبيحه وتنزيهه؛ فذلك طريقُ النجاة.



سُورَةُ الْحَدِيدِ

المجلس الثامن والأربعون بعد المائتين: وأنفقوا مما جعلكم مُستخلفين فيه

المجلس التاسع والأربعون بعد المائتين: ليقوم الناسُ بالقسط

سُورَةُ الْحَدِيدِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحْسِيٍّ وَبُيُوتٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلتَّوْحِيدِ لِيُزَكِّيَكُمْ وَيُزَكِّيَكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَنْتَظِرُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا
لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ
أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ
﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ شَرِبْتُمْ يَوْمَ تَجْتَلِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظِرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ
أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِ يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا مِنْكُمْ نَارٌ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقْشِقُونُ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُضْطَرِفِينَ وَالْمُضْطَرِفَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا آرَ كَاتِبٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمُ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَنَى الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه

سورة الحديد سورة القوة؛ قوة الإيمان، وقوة اليقين، وقوة الولاء والانتفاء، وقوة العهد والميثاق، وقوة المال، وقوة الحديد، وقوة الحق والعدل، إلا أن الموضوع الذي تكرر بشكل لافت هو موضوع الإنفاق، والإنفاق الوارد في هذه السورة مرتبط بكل معاني القوة تلك، وكما سنرى:

أولاً: تستهل السورة بتسبيح الله وتمجيده وأنه سبحانه العزيز الحكيم، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو القدير العليم، هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملكهما ويدبر أمرهما، وهو الذي استوى على العرش سبحانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿

هذه المعاني تُشكّل القاعدة الإيمانية الصلبة والمتأسكة، والتي تقوم عليها الملة والأمة؛ فالأمة المحمّدية تنطلق من هذه القاعدة في كلّ قيمها وتصوّراتها وسلوكها وتعاملها اليومي مع مفردات الحياة.

ثانياً: بعد هذه القاعدة يتوجّه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين بثلاث مفردات جوهرية: الإيمان، والاستخلاف، والإنفاق، والاستخلاف هو الرابط بين المفردتين الآخرين؛ إذ من معاني الإيمان إفراده ﷺ باعتقاد أنه مالك السماوات والأرض وما فيهنّ، وعليه فإنّ المال الذي بيد الإنسان ليس ملكه على الحقيقة، وإنّما هو مُستخلف فيه عن الله على وجه التحويل المقيّد زماناً ومكاناً، وتصرفاً وحالاً.

من هنا يكون الأمر بالإنفاق هو أمرٌ من المالك الحقّ إلى هذا العبد المخوّل؛ وبهذا لا يكون المنفق مُتفضّلاً، بل مطيعاً ووفياً؛ وبهذا يستحقّ الثواب ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا

جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٠﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴿١١﴾

ثالثاً: يُؤَكِّدُ القرآنُ صِلَةَ الإيِّمانِ بالميثاقِ الذي يجمعُ المؤمنين، ويُميزُهم عن الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كنُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكَ الْيَوْمَ﴾، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَفِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْهُ فِجْلٌ أَلْعَذَابُ﴾ (١٣) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٤) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَتُخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٥) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

رابعاً: يربط القرآن بين الإنفاق وبين بناء الدولة المسلمة والجيش القوي الكفيل بحمايتها وردُّ الأشرار عنها ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

خامساً: يَعِدُ القرآنُ المُنفِقينَ والمُنْفِقاتِ بالأجرِ الكريمِ ومضاعفة الحسنات، ويجعل ما يقومون به كمن يُقرض الله قرضاً، والله سبحانه أحقُّ بالوفاء، وهذا وعدٌ عظيمٌ لو تدبَّره المُنفِقُ وتدبَّرتَه المُنفِقة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ الْمُسْذِقِينَ وَالْمُسَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

سادساً: يُزهِدُ القرآنُ المؤمنينَ بالدنيا ويُرغِّبُهُم بِالْآخِرَةِ، وفي هذا دفعٌ لهم لينفقوا من أموالهم باندفاع وإقدام، وليقدِّموا ما يستطيعون من دارِ الممرِّ إلى دارِ المقرِّ، ومن دارِ الفناء إلى

دار البقاء ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجَبَ الْكُفَّارُ بَنَاهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

سابعاً: يُثَبِّتُ الله قلوب المؤمنين، ويمدِّهم بأسباب القوة واليقين، ويُبَيِّنُ لهم الحكمة من الابتلاءات والمصائب التي تعترضهم ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

ثامناً: يعود القرآن إلى الإنفاق محدِّداً المؤمنين من عاقبة البخل ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ استفتاحٌ بخضوع كلِّ هذا الكون لله تعالى، وتنويهٌ بصفتين عظيمتين من صفات الله تعالى: العزة والحكمة، ومناسبتها لموضوع السورة لا تخفى.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيدٌ لمعنى أساس من معاني التوحيد، وهو الاعتقاد الجازم أنَّ هذا الكون كله بمن فيه وما فيه مملوكٌ لله، يتصرَّف فيه بإرادته المطلقة وبمقتضى عدله وحكمته، ثم نَوَّه بصفةٍ ثالثة لله، وهي صفة القدرة، ومناسبتها لا تخفى أيضاً.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ فلا شيء قبله، ولم يكن ثمة شيء معه؛ لأنَّه موجودٌ وجوداً ذاتياً لا يفتقر في وجوده إلى أحد، بخلاف كلِّ الموجودات التي يتصوَّر العقل وجودها وعدمها، وهي التي

تُسَمَّى المُمَكِّنَات، فهذه لا بُدَّ أن يكون لها سببٌ وعِلَّةٌ في وجودها، ثم لا بُدَّ أن ترجع كلُّ هذه الممكنات وأسبابها وعللها إلى موجودٍ ذاتيٍّ، يستندُ الوجودُ كله إليه.

أما إحالة الممكن إلى ممكنٍ آخر، والسبب إلى سببٍ آخر إلى ما لا نهاية، فهذا لا يتصوره العقل، ومن ثَمَّ كان الوجود الذاتي - وهو المسمى عند الفلاسفة (واجب الوجود) أي: بخلاف (الممكن الوجود) - ضرورة عقلية قبل أن تكون عقيدة دينية.

﴿وَالْآخِرُ﴾ وهذا من لوازم اسمه تعالى (الأول)، ومعنى (الآخر) هنا: الذي ليس لوجوده نهاية، كما لم يكن له بداية، بخلاف الممكن الذي طرأ عليه الوجود؛ إذ سيطرأ عليه العدم أيضًا.

﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بآياته ودلائل وجوده وآثار قدرته وعلمه وحكمته.

﴿وَالْبَاطِنُ﴾ حيث لا تدركه الأبصار، ولا تحيطُ بحقيقته وكنهه الأفكار.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأن يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكل كوكب يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقدير على مراحل كما هي سنة الخلق كله.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليقُ بعظمة الله وجلاله، وعلوه وغناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سوى العرش، وهذه من الأخبار الغيبية التي نؤمن بها كما وردت، ونُحجِّم عن الدخول في كیفیاتها وصورتها؛ لأنَّ العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نتدبَّر المقصود من إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على من يسره الله عليه؛ فالنصُّ يُوحى بكمال الملك والسلطان والعظمة والعلو المطلق، وهذا يكفي ويُريح عقولنا وقلوبنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعلم ﷻ كل ما يدخل في الأرض وينزل فيها.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: ويعلم كل ما يخرج من الأرض؛ كالزروع وينابيع المياه والمعادن ونحوها.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ويعلم كل ما ينزل من السماء؛ من الوحي، ومن الملائكة، ومن الظواهر الكونية؛ كالمطر والشهب والصواعق.

﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ أي: ويعلم كل ما يصعد في السماء؛ من أرواح مقبوضة، وأعمال مرفوعة، وملائكة تعرج بأمره ﷻ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: بإحاطته علماً بكل شأنكم أينما كنتم، فعلم الله تعالى ليس مقتصرًا على المشاهدات مما يلج ويخرج من الأرض، وما ينزل من السماء، بل هو معكم في تفكيركم وما يدور في خواطركم.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تأكيد لعلم الله الشامل والكامل، ودعوة إلى إتقان العمل وتنقيته عن كل شائبة.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بحكم أنه هو الذي خلقه، فصانع الشيء أحق بملكه، وهذه من معاني التوحيد العظيمة والمكررة في القرآن الكريم.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار حتى يختلط فيه وذلك وقت المغرب، ويدخل النهار على الليل وذلك وقت الفجر، في دورة يومية متصلة بحياة الناس وطريقة عيشهم ونومهم.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تأكيد آخر لعلمه تعالى الشامل والكامل، ودعوة لتنقية النوايا وما تخفي الصدور.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للمؤمنين تأكيدًا لمعاني الإيمان فيهم، وتأسيسًا لتقبل أمر الله تعالى لهم بالإِنفاق.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ أي: أنفقوا من مال الله الذي جعله بأيديكم على سبيل التخويل والاختبار والاستخلاف.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ هذا ليس على سبيل النفي، بل هو على سبيل الامتنان، أي: ماذا يمنعكم من الإيمان، والرسول بينكم يدعوكم ويذكركم؟

فالخطاب من الأصل للمؤمنين، وليس للكافرين، والسياق لا يحتمل غير هذا؛ بدلالة دعوتهم إلى الإنفاق، ولقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ولتذيله على هذا الامتنان بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالخطاب كله للمؤمنين، يمتن عليهم بالإيمان، ويحثهم على الإنفاق الذي هو ثمرة من ثمرات الإيمان.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ﴾ العهد الذي قطعاه المسلمون على أنفسهم مع رسول الله ﷺ، والذي يتضمن السمع والطاعة، والجهاد بالنفس والمال.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا ترغيب آخر بالإنفاق، وتذكير بأن الملك الحق إنما هو الله وحده، وفي هذا طمأنة أيضا أن الرزاق هو الله مالك الملك، فلا تمنعنكم خشية الفقر عن الإنفاق.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ وكلا وعد الله الحسنين ﷺ والله بما تعملون خبير ﷻ الآية صريحة في أن الذين فازوا بالسبق والثواب الأعظم هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ حيث كان الكفر مهيمنا، والظلم منتشرًا، وكان الذي يقول كلمة الحق يخشى على نفسه وأهله، فالذين ثبتوا وواصلوا الدعوة والعمل للإسلام، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في تلك الأيام العصيبة لا شك أنهم أقرب لله، وأرفع درجة عنده ممن آمن بعد فتح مكة وأنفق وقاتل.

وإذا كان هذا التفاضل بين المؤمنين وهم كلهم حول رسول الله ﷺ، فإن فضل الصحابة على عامة المسلمين إلى يوم الدين أظهر وأولى، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا وإياهم في دار المقامة عنده.

أما من يحاول الانتقاص من الصحابة الذين أسلموا بعد الفتح، فهو مردود بنص قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ﴾؛ ففضل هؤلاء الأصحاب على عامة المسلمين ظاهر وإن كانوا هم دون السابقين الأولين رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مثل المنفق في سبيل الله

كَمَثَلٍ مِّنْ يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُنْتَظَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُرَدَّ إِلَيْهِ قَرْضُهُ، وَغَايَةُ التَّمْثِيلِ: حُضُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَطَمَأْنَتُهُمْ أَنَّ نَفَقَتَهُمْ لَا تَذْهَبُ سُدىً، بَلْ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، مَعَ عَظِيمِ الثَّوَابِ وَجَزِيلِ الْفَضْلِ.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ذَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذْ يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ نَوْرٌ يَسْعَى أَمَامَهُ، وَهَذَا النُّورُ نَوْرٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلِتَعْلَقَ الْآيَةُ بِمَا قَبْلَهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذَا النُّورَ مِنْ آثَارِ الصَّدَقَةِ وَعَظِيمِ ثَوَابِهَا عِنْدَ اللَّهِ.

﴿وَبِأَيْتَانِهِمَا﴾ أَي: وَيَكُونُ نُورُهُمْ عَنْ جِهَةِ أَيْمَانِهِمْ أَيْضًا، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ: الْيَمِينَ وَالشِّمَالِ، لَكِنَّهُ اكْتَفَى بِذِكْرِ الْيَمِينِ؛ تَشْرِيفًا لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿بُشِّرْكُمْ أَلْيَوْمَ جَنَّاتٍ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ: بُشْرَاكُمْ، بِمَعْنَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُرَحِّبُ بِهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّاتِ.

﴿أَنْظُرُوا نَفْسًا مِّنْ نُورِكُمْ﴾ هَذِهِ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الْآخِرَةِ تُظْهِرُ خِيْبَةَ الْمُنَافِقِينَ؛ حَيْثُ يَرَوْنَ نُورَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَامَهُمْ وَعَنْ جَوَانِبِهِمْ وَهُمْ مَاشُونَ إِلَى جَنَّتِهِمْ، فَتَأْخُذُهُمُ الْحَسْرَةُ، وَيَأْخُذُونَ بِمُنَادَاتِهِمْ: أَنْ تَرِثُوا وَتَمَهَّلُوا لَعَلَّنَا نَسْتِغِيءُ بِنُورِكُمْ، لَعَلَّنَا نَلْحَقَ بِكُمْ، وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ يَعْرِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ إِذْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لَهُمْ إِيْمَانَهُمْ، وَيَصَلُّونَ مَعَهُمْ، وَيَعِيشُونَ مَعَهُمْ.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ يُقَالُ لَهُمْ: ارْجِعُوا الْقَهْقَرَى، وَالتَّمِسُوا نُورًا آخَرَ غَيْرَ نُورِ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ نُورٍ، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ.

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا﴾ بِحَائِلٍ يَحُولُ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ بَعْدُ وَلَا يَرَوْنَ نُورَهُمْ.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ الَّذِي هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَوَظْهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الَّذِي هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِينَ.

﴿يُنَادُوا وَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ هَذَا نِدَاءُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُونَ لَهُمْ: لَقَدْ كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ

الْفُرُورُ﴾ هذا جواب المؤمنين للمنافقين؛ أنكم كنتم معنا لكنكم كفرتم بعد إيمانكم، وترَبَّصْتُمْ بنا الشرّ، وشكّكنم بالبعث ويوم الحساب، وغرَّتْكُمْ الحياة الدنيا، وغرَّكُم الشيطان عن طاعة الرحمن، حتى جاءكم الموت وأنتم على ذلك.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَتُخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا على سبيل التيسير والتوبيخ؛ فليس هناك عندهم ما يُقدِّمونه فدية عنهم، وهذا بخلاف المتصدِّق الذي يُقدِّم ماله ليكون له ثواباً ونوراً مبيّناً في هذا اليوم.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الخطاب للمؤمنين قطعاً، وليس للمنافقين ومرضى القلوب.

وقد أشكَل هذا على بعض المُفسِّرين، والذي يطمئنُّ إليه القلب: أنَّ هذه الآية في مقام التربية الروحيَّة، وهو مقامٌ عالي المراتب، مُتدرِّج المنازل، لا يفقهه إلا قليل، فمِعراج التربية لا يقف عند حدٍّ، والهَمَمُ العليَّة دائماً تتطلَّع للمعالي مهما بلغت من الدرجات، والذي لا ينتبه لهذا المقام سيُسكِل عليه كثيرٌ من آياته، من مثل قوله تعالى بحقِّ صفيِّه وحبيبه ومُجتباهه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾^(١) فأَيُّ ذنبٍ ذاك الذي يرتكبه رسولُ الله ﷺ؟

إن مقام العبوديَّة يستوجبُ شعورَ العبد بالذنب والتقصير والعجز دائماً وأبداً، حتى لو قام الليل وصام النهار، وكفى بالعبد عقوباً أن يظنَّ في نفسه أنَّه قد أدَّى ما عليه وأوفى ما بذمَّته، والصحابة رضي الله عنهم إنَّما أرادَ الله أن يأخذ بأيديهم في هذا المقام العالي، لا أن يلومهم على ترك الخشوع، ولستُ أدري مَنْ مِنَ الصحابة كان يقرأ القرآن ولا يخشع، وقد كان المشركون أنفسهم تتصدَّع قلوبهم لفصاحته وبيانه، حتى قالوا عنه أنه سحرٌ، وأنَّه سحرٌ.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحذيرٌ للمؤمنين عامَّة من أن يطولَ بهم الأمد فتفسد قلوبهم؛ إذ طول الأمد دون تعاھِد للقلب بالذِّكرِ

(١) ورد هذا النصُّ الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة غافر / ٥٥، وفي سورة عمه / ١٩.

والخشية، والمحاسبة والمراقبة، والصحبة الصالحة من شأنه أن يُقَسِّي القلوب ويُصَيِّبها بالجفاف، والصحابة كانوا قريباً عهدهم بالقرآن وهم بين يدي رسول الله ﷺ، فهم أبعد الناس عن هذه القساوة التي يُسبِّبها طول الأمد.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا مثلٌ من الواقع؛ قُصِدَ به تقريبُ صورة القلوب التي تحيا بنور الوحي بصورة الأرض التي تحيا بهاء السماء؛ فالسياق التربوي لا زال مُتَّصِلاً، والخطاب للمؤمنين لا زال قائماً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ﴾ الذين يشهدون على الناس، ويشهدون على الأمم الأخرى، ويشهدون للرسل ﷺ أنهم قد بلغوا ما أمرهم الله بتبليغه، وأقاموا الحجة على خلقه.

وهناك صلةٌ لطيفةٌ بين ﴿الصَّادِقُونَ﴾ و﴿الشَّهَدَاءُ﴾؛ إذ الذي يُعْطِيهِ الله مرتبةَ الشهود على الناس لا بُدَّ أن يكون صادقاً معروفاً بالصدق ومُشتهراً به.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قصرُ الدنيا على هذه الأخبار من اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر هو قصرٌ لأحوال الناس في الدنيا، فهذه هي اهتماماتهم ومجالات تنافسهم، والله يُريدُ لهم غيرَ ذلك؛ فالدنيا خُلِقَتْ لمقصدٍ أسمى وأعلى؛ إنه الاستخلاف عن الله، والتنافس في القُرَبات، والاستعداد فيها ليوم الحساب والجزاء.

﴿كَمَثَلٍ فِئْتٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: حال هؤلاء وهم يتنافسون على متاع الدنيا كحال (الكفار)، وهم هنا الزَّرَاع الذين يستبشرون بالغيث، ثم بما ينبت منه، ثم يهْبِجُ هذا النبات حتى يتحوَّلَ لونه من الخضرة إلى الصفرة، ثم يكون هشيماً مُحطَمًا.

وهذا التمثيل والتصوير إنما قُصِدَ به: تزهيدُ الناس في الدنيا، وتشجيعهم على الصدقات؛ لأنَّ الصدقة أبْقَى وأنفعَ لهم من الحطام الزائل الذي يجمعونه ثم يتركونه وراءهم.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ فهذه عاقبة جهد البشر في هذه الحياة؛ إما عذابٌ أليم، أو نعيمٌ مقيم، وعلى العاقل أن يختار لنفسه.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا قبل أن يحكم الأجل، ويغلق باب العمل.
﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ العرض هنا: السعة، وليس هو الذي يُقابل الطول، بمعنى أن سعتها سعة السماوات والأرض.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: كل ما يحدث لكم في هذه الحياة وما يحدث على الأرض إنما هو مدوّن في علم الله ومحفوظ عنده.
﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَاهَا﴾ أي: نخلقها ونظهرها للوجود لكم، بمعنى أن صورة الخلق كاملة وشاملة بكل تفاصيلها موجودة في علم الله، فإنما يجري الخلق على علم من الله سابق، وإنما يتفاجأ البشر؛ لعدم معرفتهم بالغيب، ولا بما قدره الله لهم.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بمعنى أن الله يُخبركم بذلك تربية لكم حتى لا تحزنوا ولا تياسوا على ما فاتكم مما تتمنونه من الخير، ولا تفرحوا بالفرح الذي يُنسيكم الشكر، ويُنسيكم القيام بواجباتكم إذا جاءت الأقدار على وفق رغباتكم، ثم حذر أكثر من الوقوع في هذا الخلق السيئ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ والمُختال: المتكبر، وأصله من الخيلاء، والفخور: الذي يُفاخر الناس بما عنده.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الذين يبخلون بما عندهم فلا يؤدّون ما عليهم من صدقاتٍ ونفقاتٍ واجبة، ثم ينهون غيرهم كأثمهم ينصحونهم أن يحتفظوا بأموالهم، خاصّة إذا كانوا من أقربائهم أو أصدقائهم، وهذه ظاهرةٌ موجودةٌ ومتكررةٌ في السلوك البشري، لكن خطورتها تكمن حينما تنبع عن قصدٍ سيئٍ؛ كمن لا يُريد لمشاريع الخير أن تنتشر، ولا أن يرى أموال المسلمين تُصرف فيما فيه خيرٌهم وعزّتهم ومنعتهم، فهذا لا شك آيةٌ من آيات النفاق، والعياذ بالله.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يُعرض عمّا افترضه الله عليه، وهو هنا: الإنفاق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ جواب الشرط، بمعنى أنه تعالى مُستغنٍ عن صدقة هؤلاء،
وإنما يكلفهم بها جَرِيًّا على سَنَّتِهِ في الاختبار وتمييز الناس مُصلِحهم عن مُفسِدهم، والحمد:
الذي يستحقُّ الحمد سبحانه بحكم ربوبيّته، وتفضّله على خلقه بالرزق وغيره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَنْ عَرَفَهَا فَقَدْ رَعَاهَا فَتَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ليقوم الناس بالقسط

بسياقٍ مُتَّصِلٍ تستمرُّ السورةُ ببناء المجتمع المؤمن القوي الذي يُقيم العدل بالبيّنات، ويحميه بالسلاح، ويتقي الله في حركاته وسكناته، ويرى في نفسه امتداداً لدعوات النبيين على مرّ الأجيال والسنين:

أولاً: يُبيّن القرآن الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع المؤمن ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

إن هذه المفردات: البيّنات، الكتاب، الميزان، القسط، الحديد، البأس الشديد، المنافع للناس، النصر، القوة، العزة، هذه المفردات تُشكّل منظومةً قِيَمِيَّةً مُتكاملةً لبناء المجتمع والأمة المؤمنة، وقد جُمِعَت كلها في آية واحدة؛ تأكيداً لشدّة الترابط فيما بينها، ولإتّصاف المؤمن من استحضارها في ذهنه جملةً واحدةً، وواسطةً للعقد في هذه القِيَم: أن يقوم الناس

بالقسط؛ القسط في علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وهذا القسط لا يتحقق بالأمان، ولا بالدعاوى والشعارات، وإنما بالإيمان والميزان والعلم والقوة ونصرة الحق.

ثانيًا: يُذكر القرآن هؤلاء المؤمنين بدعوتين كريمتين، ورسالتين عظيمتين: رسالة نوح ورسالة إبراهيم ؑ؛ ليؤكد العمق الإيماني والتاريخي لهذه الدعوة، وهذه لا شك من أهم أسباب القوة المعنوية، فأمة بلا جذور ولا تاريخ تشعر بأنها أمة ضائعة أو طارئة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

ثالثًا: يُذكر القرآن برسالة عيسى ؑ، ويُفردُها بمزيدٍ من العناية؛ لأنها الرسالة الأقرب زمنًا إلى الرسالة المحمدية، ولأن الجزيرة لا زال فيها من ينتمي لهذه الرسالة مع كل التحريف والتشويه الذي حصل لها، ولأن في النصرانية الحاضرة أيام البعثة المحمدية مُعتقدات وأعرافًا قد تُثيرُ بعضَ الشبهات أو التساؤلات، ومن ذلك: موضوع الرهبانية واعتزال الحياة والمال والزواج، ولا شك أن هذا بمُجمَله يُضعفُ من بنية المجتمع المسلم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّا لَا يَعْلمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضحات، والحُجج الظاهرات.

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الكتاب يشمل الكتب السماوية كلها، والميزان: المِيار الذي يعرف فيه الحق من الباطل، والصحيح من الخطأ،

وغاية الكتاب والميزان: تحقيق القسط بين الناس، والقسط: العدل في كل شيء.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه المعدن الذي يصنع منه السلاح، والبأس: القوة.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليظهر ما كان في علم الله من نصر المؤمنين للحق، وأما الله تعالى فليس بمحتاج لنصرة أحد، وليس بمُتَضَرَّرٍ من ظلم - تبارك ربنا وتعالى -، وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: الذي ينصُرُ الله ورسله إيمانًا بالغيب، وطلبًا لثواب الآخرة، وليس بقصد الغنيمة أو الشهرة وما إلى ذلك.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ أي: أردفنا وأتبعنا نوحًا وإبراهيم ومن معهما بالرسل الذين جاءوا من بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أتبعنا أولئك الرسل أيضًا بعيسى بن مريم عليه السلام.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الرهبانية: نوع من التدنُّس المُبتَدَع في النصرانية، يدعو إلى الانقطاع عن الدنيا وملذاتها حتى الزواج، للتفرُّغ للعبادة، وأثر البدعة فيه واضح؛ إذ لم يؤثر عن الأنبياء السابقين مثل هذه الدعوة؛ حيث كان النبيون - ومنهم أولو العزم - يتزوجون ويعملون للدنيا، والآية صريحة في ابتداعها.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي: ما كتبنا عليهم إلا ما فيه ابتغاء رِضْوَانِ الله، فيكون المعنى كله هكذا: ورهبانية ابتدعوها من أنفسهم ما كتبناها نحن عليهم، وإنما كتبنا عليهم ما فيه رِضْوَانِ الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: لم يقوموا بما ألزموا أنفسهم به؛ من التفرُّغ للعبادة والإخلاص لله، فهنا أعاب عليهم الرهبانية؛ لأنها بدعة منهم، وأعاب عليهم النكوث عن دعواهم بإخلاص العبودية لله والتجرُّد له، بل دخلوا في دين ملوكهم، وحرَّفوا رسالة نبيهم.

﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا احتراز من توهم التعميم في الحكم؛ فالنصارى ليسوا كلهم سواء، فمنهم المؤمن الثابت الذي لم ينحرف بعقيدته، فهؤلاء

لهم ثوابهم وأجرهم، ومنهم الذي انحرَفَ به جادُّه، وزَلَّتْ به قدَّمُه، فعليه إثمُه وخطيئته، وفي هذا التقسيم تمهيدٌ لدعوة المؤمنين منهم كما سيأتي.

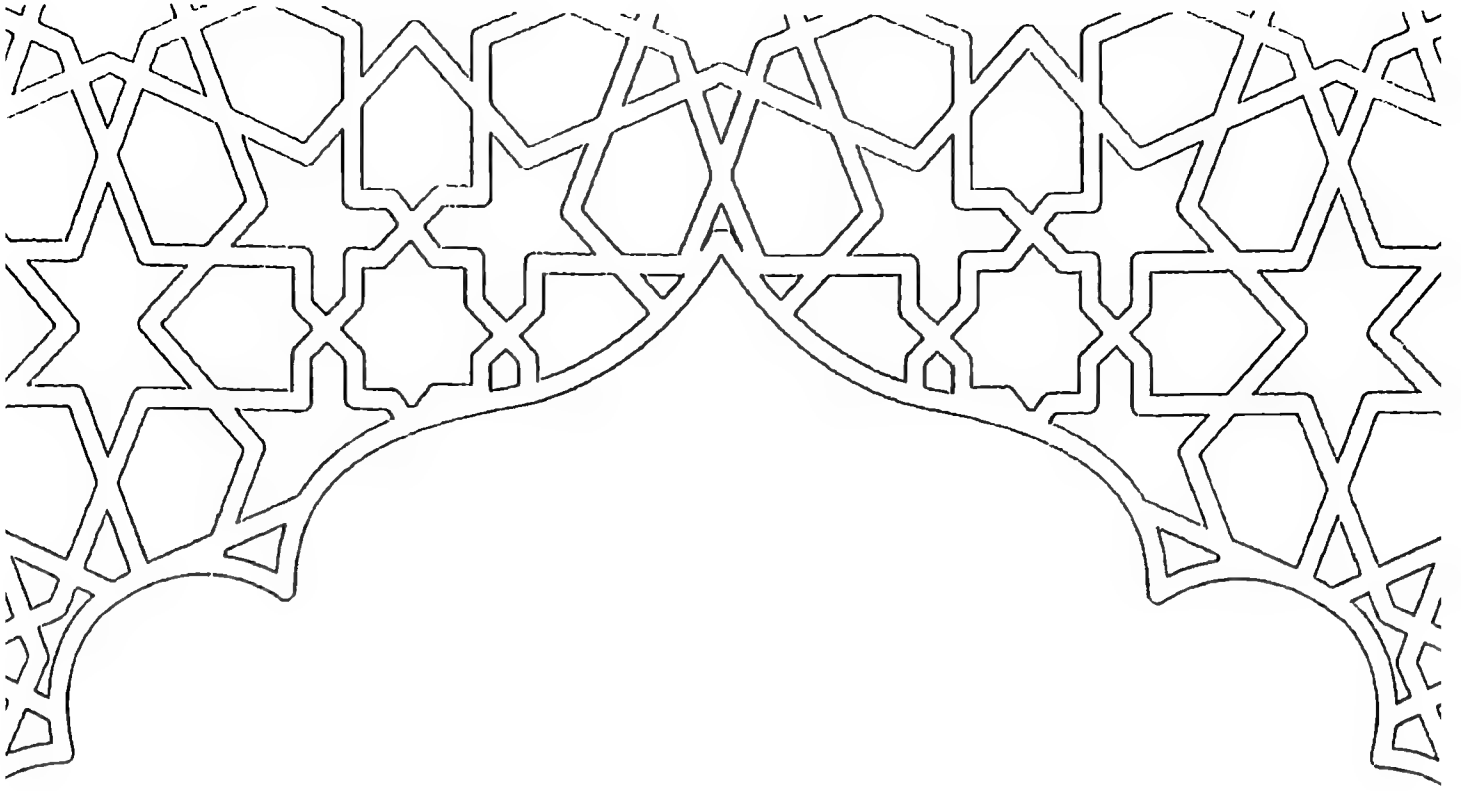
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ هذا تفریعٌ عما تقدَّم؛ فالنصارى الذين امتدَحَهم الله، وأثبتَ لهم الإيمان، وبرَّأهم من الفسق، دعاهم هنا للإيمان برسوله محمدٍ ﷺ، وحثَّهم على استحضار التقوى، وهي: الخشيةُ من الله حتى لا ينحازوا لعصبيَّة، ولا يستسلموا لدواعي الحسد، ثم رغبَهم بمُضاعفة الأجر.

وقد ورد في الصحاح ما يُعَضَّدُ أنهم هم المقصودون بهذا الخطاب؛ حيث قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بِي، فَلَهُ أَجْرَانِ ... الحديث»^(١).

﴿ثَلَاثًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين أَصْرُوا على كُفْرهم، ولم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ؛ إذ الذين آمنوا منهم دخلوا في اسم المؤمنين ولم يعد يُطلق عليهم اسمُ أهل الكتاب، بل هم مؤمنون عندهم علم الكتاب.

ومعنى اللام في ﴿ثَلَاثًا﴾ سيكون للعاقبة، بمعنى أن أهل الكتاب سيبقون على جهلهم وعنادهم، ولا يعترفون بهذا الفضل لمن آمن منهم بمحمدٍ ﷺ، فهم لا يعلمون أنهم لا يَقْدِرُونَ على شيءٍ من فضل الله؛ لتوهُمِهِمْ أَنَّ هذا الفضلَ لهم وحدهم، ولكن الفضل لله وحده يَبْهُهُ من يشاء، ويسلبه عَمَّن يشاء.

(١) متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وتماثُه بلفظ مُسلم: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَذْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ تَمْلُوكُ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ لَغَاءً لَهَا، فَأَحْسَنَ إِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدْبَهَا فَأَحْسَنَ أَدْبَهَا، ثُمَّ أَهْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ». ينظر: صحيح البخاري (١٠٩٦/٣) / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (٩٣/١) / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).



سُورَةُ الْمُحَاجَّةِ

المجلس الخمسون بعد المائتين: من فقه الأسرة والمجتمع المسلم

المجلس الحادي والخمسون بعد المائتين: التحذير من النفاق والمنافقين

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَن يَبْغِيهِمْ مَا هِيَ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعَلُوتٌ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مِنْكُمَا ذَلِكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْلَاءَ إِنْتِمْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَلِّمُونَ ۝ (٨) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَى ۝ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١٠) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۝ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ (١١) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى كُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۝ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١٢) ءَأَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى كُمْ صَدَقَةٌ ۝ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ (١٣)﴾

من فقه الأسرة والمجتمع المسلم

سورة المجادلة سورة مدنية جاءت جواباً على بعض التساؤلات والمشكلات المتعلقة بالعلاقات الأسرية والاجتماعية، وجاءت أيضاً لموضوع آخر متعلق بظاهرة النفاق، والتي لها تأثيرها السيئ في بنية المجتمع المسلم وتماسكه.

أما ما يتعلق بالفقه الذي يخص الأسرة المسلمة والعلاقات الاجتماعية الداخلية، فيمكن تلخيصه في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: في حكم الظهار، وهو نوع من الطلاق المتعارف عليه في الجاهلية؛ حيث يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، أي: يُحرمها على نفسه، وقد جاءت امرأة مسلمة إلى رسول الله ﷺ تشكو له زوجها الذي ظاهر منها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

فنزل الوحي مُنذِّداً بهذا السلوك المنكر ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، ثم بين حكم الله في حالة الرغبة بالصلح والعودة عن الظهار: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فإن لم يجد الرقبة أو لم يتمكن من تحريرها انتقل إلى الصيام ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾، فمن كان لا يقوى على الصيام، وجب عليه إطعام ستين مسكيناً ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المسألة الثانية: في النجوى، ومعناها الشرعي: أن يتناجى مجموعة من المسلمين بأمر عام دون بقية المسلمين بما يشقُّ الصف، ويثير الفتنة والبلبله، وقد مهد القرآن لتناول هذه المسألة بالتذكير أن الله يعلم ما يدور في كل نجوى.

والقصد من هذا: تحفيز جانب المراقبة الذاتية والخوف من الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْثُوثُ مِنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم قطع القرآن بتحريم النجوى، مُشعِراً بأن من عاد لها بعد التحريم فإنما هو مُنافق مُستوجب للنار ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَتَوَلَّوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرَ ﴿١٠٠﴾.

ثم وجه الخطاب للمؤمنين ينصَحهم ويوجِّههم، ويشرح لهم مخاطر النجوى وآثارها السيئة في المجتمع المسلم ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنَامِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ ۖ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾.

المسألة الثالثة: في آداب المجالس، ومنها: التوسُّع في المجلس إذا دعت الحاجة، ومنها: أدب الانصراف، ومنها: تقديم ذوي العلم والفضل ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠٣﴾.

المسألة الرابعة: في أدب مُناجاة الرسول ﷺ؛ حيث كان الصحابة يُحِبُّون الجلوس معه والحديث معه، والتعلُّم منه في كلِّ وقت، وكان ذلك يُثْقِل على رسول الله ﷺ، فاقْتَضَى تنبيههم بتشريع جزئي يُناسب المقام ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٤﴾، فلما أدرك الصحابة ﷺ مغزى هذا التشريع وتوقفوا عنده، خَفَّفَ الله عنهم تكلفة الصدقة ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَتْ ۖ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾.

تجدُر الإشارة هنا أنه في وسط هذه المسائل، جاء التحذير من الذين يُحَادُّون الله ورسوله، ويعملون بخلاف هذا الهدي، فالله رقيبٌ عليهم، وهو يُحْصِي عليهم أعمالهم، وسيجزِي كلَّ عاملٍ بما عمل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ءَأُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿١٠٦﴾.

دقائق التفسير

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعُ نَحْوُكُمْ﴾ هي خولة بنت ثعلبة، ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنه، ثم ندم، فجاءت تستفتي رسول الله ﷺ، وفيه: جواز المجادلة والمحاورة بين الرجل والمرأة الأجنبية، وأن صوت المرأة بذاته ليس بعورة.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ يُظَاهِرُونَ مِنْ ظَاهَرَ إِذَا قَالَ لَامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي.

﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ليس نسائهم أُمَّهَاتُ لَهُمْ، إِنَّمَا أُمَّهَاتُهُمُ اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا كَذِبٌ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مَنَّكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: يندمُون عَلَى قَوْلِهِمْ، وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ يُرِيدُونَ إِبْطَالَهُ.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه هي كفارة المظاهر إِذَا أَرَادَ الْعُودَةَ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَتَظْهَرُ فِيهَا رَغْبَةُ الْإِسْلَامِ بِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ؛ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ الظَّهَارِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْكُفَّارَةِ سِوَى ذَلِكَ.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي: عَلَيْهِ تَحْرِيرُ الرِّقَبَةِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمَا جِمَاعٌ.

﴿ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ أي: هَذِهِ الْكُفَّارَةُ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَعْظَمَكُمْ وَتَزْجُرَكُمْ عَنِ الظَّهَارِ الَّذِي هُوَ مَنْكَرٌ وَزُورٌ.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ ويلزم من هذا: امْتِنَاعُهُ عَنْهَا شَهْرَيْنِ كَامِلَيْنِ إِضَافَةً إِلَى الْآيَامِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِالصِّيَامِ، وَلَا يَحْتَسِبُ فِيهَا صَوْمُ رَمَضَانَ؛ لِأَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ فَرَضٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فِيهِ حِرْصُ الْإِسْلَامِ عَلَى التَّكَافُلِ، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ ثَعَانَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَيُلْحِظُ هُنَا أَنَّهُ لَمْ يُجَرِّمُ مُعَاشَرَتَهَا قَبْلَ الْإِطْعَامِ كَمَا حَرَّمَهَا فِي الْعَتَقِ وَالصِّيَامِ، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الإيمان الذي يُنتج الامتثال لحكم الله تعالى، وفيه تأكيد صلة الإيمان بالعمل، وأن قبول حكم الله داخل في مُسمى الإيمان.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه تعالى البيّنة القاطعة.

﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دليل على أن الرفض لأحكام الله القاطعة خارج من مُسمى الإيمان داخل في مُسمى الكفر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهذا الحكم يخصُّ المنكر الرفض لحكم الله، بخلاف المقرّ الذي تغلبه شهوته وهو مُعترف بذنبه وتقصيره، فهذا يقال له: عاصي، ولا يقال له: كافر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يُجاربون الله ورسوله ويعادونها، ويرفضون الامتثال لأمرهما.

﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الكبتُ الخزي والإذلال، أي: سيُصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم من العذاب الذي فيه خزيهم وإذلالهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ ليخزيهم ويُقيم الحجة عليهم.

﴿أَخَصَّنَا اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أحصى الله عليهم كل أعمالهم بعلمه سبحانه الشامل، وبما تُدوّنُه الملائكة عنهم.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهدٌ فلا يغيب عنه شيء.

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ﴾ أي: لا يتناجى ثلاثة نفر فيما بينهم إلا كان الله شاهداً عليهم.

﴿وَلَا أَذُنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: قلّوا عن الثلاثة أو زادوا إلى أي عدد فالله معهم بعلمه، ولا تفوته منهم همسة، ولا لمزة، ولا كلمة، وقد جاء في صدر السورة ما يؤكد هذا؛ إذ سبّح الله حواراً نحوه ﷺ مع رسول الله ﷺ وعجّادتها له، وأنزل في ذلك تشريعاً.

﴿الَّذِينَ تَرَى الَّذِينَ هُمْ عَنِ النَّجْوَى﴾ وهي التناجى المثير للفتنة والبلبلّة، والمفرّق للصف.

﴿وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: قلّوا عن الثلاثة أو زادوا إلى أي عددٍ فالله معهم بعلمه، ولا تفوته منهم همسةٌ، ولا لمزةٌ، ولا كلمةٌ، وقد جاء في صدر السورة ما يؤكّد هذا؛ إذ سمِعَ الله حوارَ خَوْلَةٍ ٱ مع رسول الله ﷺ ومجادلتها له، وأنزل في ذلك تشريعًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ وهي التناجي المثير للفتنة والبلبلة، والمفرّق للصف.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: مُصرّين عليه، وهؤلاء هم المنافقون الذين يتناجون فيما بينهم، ويتناجون مع اليهود لإيذاء المسلمين والكيد بهم ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يسلمون عليك سلامًا لم يسلم عليك الله به، والظاهر أنّ سلامهم هذا يحمل المعاني السيئة، ورُبّما قلّدوا في هذا اليهود الذين كانوا يقولون: السام عليك يا محمد، والسام هو: الموت، وسياق الآيات عن المنافقين وليس عن اليهود.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لو كان محمد نبيًا حقًا لعذبنا الله بما نقوله فيه من سبٍّ وشتيمٍ وما نخفيه في لحن القول.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَوْنَ﴾ هذا توجيهٌ للمؤمنين، وفيه تفريقٌ بين النجوى المحرّمة والنجوى المشروعة.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: النجوى المحرّمة.

﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمعنى أنّ المنافقين يتناجون بهذه النجوى المحرّمة؛ لإدخال الغم والحزن في قلوب المؤمنين بما يُثيرونه من فتنٍ وإشاعاتٍ، وشكوكٍ وسوء ظنٍّ.

﴿وَلَيْسَ بِضَارٍّ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى أهميّة التوكّل على الله لتحصين المجتمع المسلم من مخاطر هذه النجوى وآثارها؛ فالمجتمع المتوكّل على الله لا

تضرُّه هذه النجوى بشيء، وقوله: ﴿لَا يَأْذَنُ اللَّهُ﴾ استثناءٌ قَدْرِيٌّ على وفق سُنَّته تعالى، فإذا قَصَرَ المسلمون بوعِيهم وتماسكهم وحماية أنفسهم، فقد تعرَّضُوا للضرر والخطر.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ أي: توسَّعوا للقادم الذي لا يجد مكانًا، فهذا من إكرام القادم، وهو من الأخلاق الاجتماعية التي تُحَبَّبُ المجتمع بعضه إلى بعض، ويتأكَّدُ هذا الأدب إذا كان القادم من أهل العلم والفضل، وكذلك من يكون له شأنٌ مع صاحب المجلس، أو كان ممن له شأنٌ في الشورى ونحوها إذا كان المجلس عُقْدَ لأميرٍ مُعَيَّنٍ، فهذا ينبغي أن يُوسَّعَ له في المكان المناسب، والله أعلم.

﴿يُفَسِّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ترغيبٌ لمن يهتدي إلى هذا الأدب أن يكون مقبُولًا عند الله، موسَّعًا له في الخير، ويُفَسِّحَ له في الجنة، ويُفَسِّحَ له قبل ذلك في المحشر حيث الضيق والزحام الشديد.

﴿وَلِإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ إذا قيل لكم: انفضوا لقادم، أو لانتهاؤِ المجلس لأي طارئ كحضور الصلاة مثلاً، أو لشغل صاحب المجلس، فهذا كُلُّه ينبغي أن يُراعَى، ولا ينبغي لأحدٍ - لا صاحب المجلس ولا أحدٍ من الجالسين - أن يشعر بالخرج، فالتبسُّط هنا وحُسن الظنِّ ورفع التكلف من شأنه أن يُديم المحبة، ويُديم التواصل والتعاون.

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يرفع الله مقام المؤمنين الذين يفقهون هذه الآداب، ويمتثلونها في سلوكهم، وفيه إشارةٌ إلى تقديم هؤلاء المعروفين بالفقه والطاعة والأدب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُثُوبِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ هذا تأديبٌ من الله لذلك الجيل المؤمن، وتعليم لهم في أدقِّ الأمور؛ فتقديم الصدقة قبل الدخول إلى بيت الرسول ﷺ مُشْعِرٌ بضرورة مراعاة مكانة هذا البيت واحترام خصوصيته، وتقدير أنه لو كان كل مسلمٍ يجبُ أن يجلس إلى رسول الله ﷺ يأتي ويطرق الباب، لتحول بيته ﷺ إلى ما يُشبه المجلس المفتوح، من هنا جاء هذا التنبيه التربوي الدقيق.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه رخصةٌ لمن لا يجد ما يتصدَّق به.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ مَخُونَكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ هذا الخطابُ لفئةٍ من المؤمنين كانوا يُكثرون من الترددِ على رسول الله ﷺ، فلما نزلت آيةُ الصدقة أحجمُوا؛ إذ ستكثرُ عليهم لكثرة تردُّدهم، فكان هذا التنبيهُ كافياً لهم، والله أعلم.

﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فرفعَ الله هذا الحكمَ، وأبقى عليهم الزكاةَ؛ حيث أدَّى هذا التشريعُ غرضه فيهم، والله أعلم.

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١١) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿١٧﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٨﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾﴾

التحذير من النفاق والمنافقين

هذا هو الموضوع الثاني الذي تناولته السورة، وقد جاء لتشخيص حالة النفاق التي ظهرت بعد أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحت حالة النفاق تُشكّل ما يُشبه الجيب المؤذي داخل المجتمع المسلم، ومحطة لإثارة الفتن فيه، وشبكة من العلاقات الخفية مع الأعداء، ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة حول هذه الظاهرة بما يأتي:

أولاً: أن هؤلاء المنافقين قد تولّوا أعداء المسلمين وانحازوا لهم ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

ثانياً: أنهم قومٌ مُحَادِّعُونَ مُرَاوِعُونَ كَذَّابُونَ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والعجبُ أنهم سيحلِفون بهذه الأيمان أمام الله في يوم المحشر ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ثالثاً: أنهم مُسْتَحِقُّونَ لِلنَّارِ وَغَضِبَ الْجَبَّارُ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

رابعاً: مع عذابهم الأخروي، أكد القرآن خسارتهم في الدنيا، وأنهم مهزومون مغلوبون ﴿أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَنسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾.

خامساً: في مقابل هؤلاء المنافقين، بين الله موقف المجتمع المؤمن وما يتميز به من ولاء صادق لله ولرسوله، وبراءة صادقة من كل من يُعادي الله ورسوله ولو كانوا أقرب المقربين ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

فلما رأى الله صدق هؤلاء المؤمنين في ولائهم له ولرسوله، كتب لهم التأييد في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، لقد تولاهم كما تولوه، ونصرهم كما نصره، وأحبهم كما أحبوه، والجزاء من جنس العمل ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في التنبيه إلى خطر المنافقين؛ حيث ارتبطوا بولاءات خفية مع اليهود.

﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ بمعنى أن اليهود ليسوا منكم، وليسوا من المنافقين، والتعجب هنا من أن هؤلاء المنافقين والوا قوماً لا يجتمعون معهم في دين ولا في نسب على قوم تجمعهم بهم أواصر النسب، وإن اختلفوا في الدين.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يحلفون لكم أنهم منكم، لكنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون.

﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُم الكاذبة لكم وقايةً لهم عن مُعاقبتهم.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان بقاؤهم معكم للصدِّ عن سبيل الله بتخذيل المؤمنين، وإشاعة الشكِّ والوهن فيما بينهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْطِفُونَ لَكُمْ﴾ أي: يحلفون لله يوم الحساب أنهم كانوا مؤمنين، كما يحلفون لكم اليوم، وهذه حماقةٌ ما فوقها حماقة، وجهالةٌ ما فوقها جهالة.

﴿أَسْتَحْذَوْا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ غلبَ عليهم وتمكَّن منهم.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أعوانه وجنده وأنصاره.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: قضى الله بالنصر والغلبة لدينه ولرسوله ﷺ، وقضى بالهزيمة والخسران على حزب الشيطان.

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

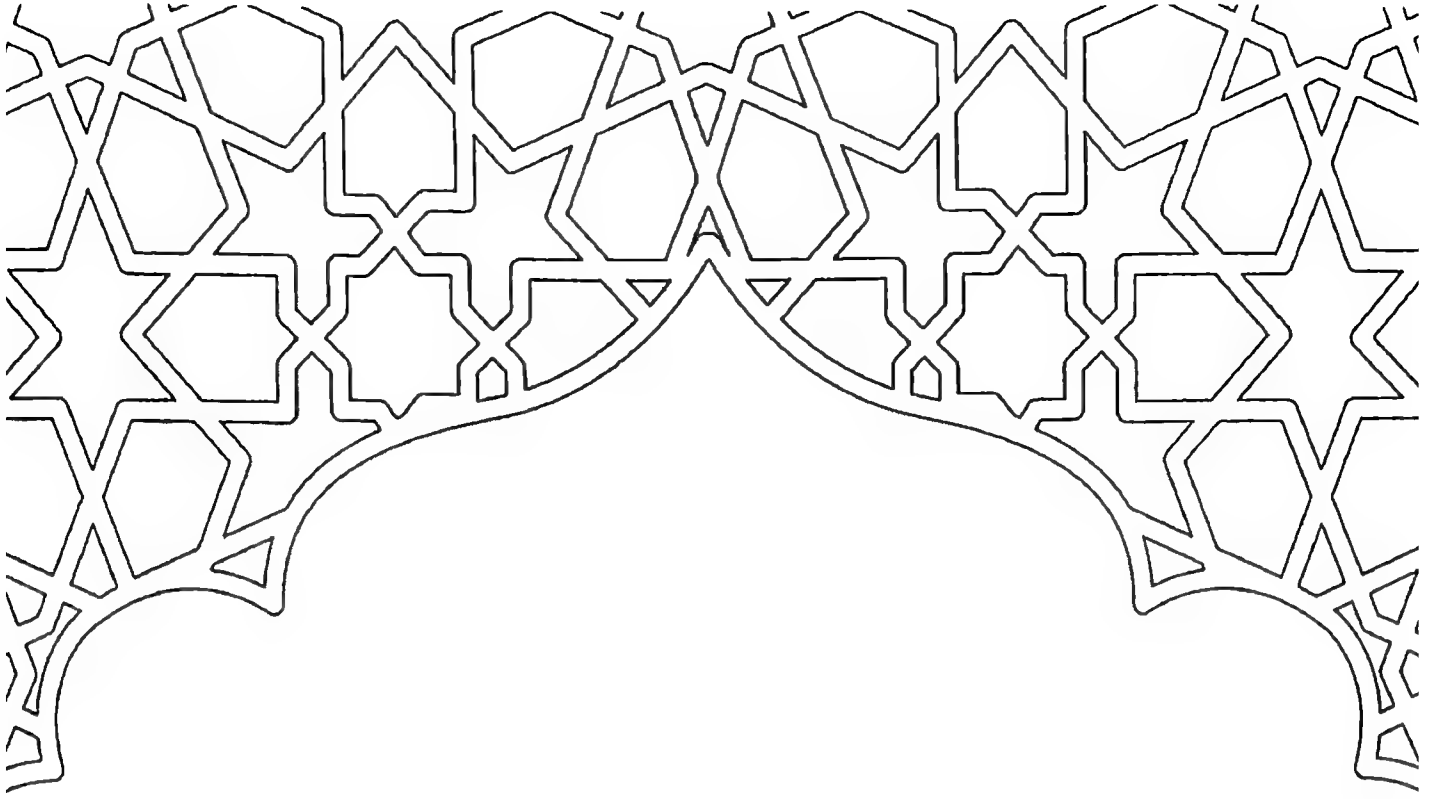
ءَابَاءَهُمْ﴾ بمعنى أن المؤمن الصادق لا يمكن أن يُحِبَّ الذين يجاربون الله ورسوله ولو كان فيهم أبوه، وهذا ليس عامًّا في كلِّ الكافرين، بل في المُحَارِبِينَ منهم والمُعَادِينَ لله ولرسوله، أمَّا الكافر المسلم فالأوَّلَى إدامة الصلَّة معه، ومعاملته بالحسنى علَّ الله يهدي قلبه لهذه الدعوة المباركة.

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: هؤلاء الذين امتُّحِنُوا

في آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم فاخْتَارُوا الله ورسوله، هؤلاء ثَبَّتَ اللهُ في قلوبهم إيمانهم، وأَيَّدَهُم بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: أنصار الله وأحبابه وأولياؤه.

﴿الْآلَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.



سُورَةُ الْحَشْرِ

المجلس الثاني والخمسون بعد المائتين: وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله

المجلس الثالث والخمسون بعد المائتين: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

سُورَةُ الْحَشْرِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ يُخْرَجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاجِدْهُ عَلَى أَصُولِهَا فَأِيْذِنَ اللَّهُ وَلِخُرْجَى الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَاللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَذُنُ شَرَّ لَآيِنَصُرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَقْدِرُونَ كُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا بَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَقِبَهُمَا اتِّهَامٌ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴿

وَضَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ

نزلت سورة الحشر في بني النضير، وهم إحدى قبائل اليهود التي استوطنت المدينة قبل البعثة المحمدية، وكان بينها وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ مُدَوَّنٌ ومكتوبٌ؛ يأمنون فيه على

وجودهم وأرضهم وديارهم وحقوقهم المدنية كاملة مُقابل التزامهم بدستور المدينة، والحفاظ على أمنها واستقرارها، لكنهم نكثوا العهد وغدروا، وحاولوا قتله ﷺ، فكانت هذه المواجهة، والتي انتهت بجلائهم دون قتال، وقد خُصّصت هذه السورة لبيان تلك المواجهة وآثارها وما اتصل بها من أحكام ومسائل، وكما يأتي:

أولاً: استهلّت السورة بتسبيح الله وتمجيده، وأنه سبحانه مالك الملك بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثانياً: صوّرت السورة حالة إجلاء بني النضير من ديارهم بعد خضوعهم لحكم المسلمين فيهم، وكيف أتهم كانوا يتمنّعون بحصونهم، لكنها لم تُغن عنهم من الله شيئاً، فأخذوا بتخريب بيوتهم وما لا يقدرّون على حمله من مُمتلكاتهم؛ لئلا تكون غنيمة للمسلمين ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

ثالثاً: بيّنت السورة أتهم بهذا الجلاء قد حموا أنفسهم من القتل الذي كانوا يستحقّونه على غدّهم ونكث عهودهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿.

رابعاً: بيّنت السورة حكماً جزئياً من أحكام الحرب؛ حيث عمّد بعض الصحابة إلى قطع نخلات من نخيل بني النضير قبل استسلامهم، وقد عاب اليهود على المسلمين ذلك، ورُبّما تخرّج بعض المسلمين أيضاً، فنزل هذا البيان من الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكَتُمُوهَا فَاقِمُوا عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾.

والمقصود: أن قطع الشجر أو تركه متروكاً إلى تقدير الجيش ومدى حاجته إلى ذلك؛ فإن كان فيه تسهيل لحركته وتقليل من خسائره فله ذلك، وإلا فالمحافظة على المال أصل من

أصول الشرع، ومقصود من مقاصده، لكن هذا المال ليس بأعز من دماء الجند، والله أعلم.
خامساً: تناولت السورة حكم أموال بني النضير بعد أن تركوها للمسلمين من دون قتال
﴿وَمَا آفَاءُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قررت حكم الله في هذا المال وفي كل مال يحصل عليه المسلمون من أعدائهم بغير قتال
﴿مَا آفَاءُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾
بمعنى أنه لا يقسم بين المقاتلين، بل يذهب للدولة، والدولة تصرفه في هذه المصارف، وقد
كان رسول الله ﷺ يصرفه في ذلك بعد أن يأخذ منه كفايته هو وأهل بيته بما خصه الله وقدره
له، ثم جاء تعليل هذا الحكم وبيان الحكمة منه: ﴿كَئِنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ بمعنى
أن رجوعه للدولة وصرفه في هذه الأصناف يحقق قدرًا من المساواة والتكافل، ولا يُبقي المال
حكرًا بيد الأغنياء والأقوياء.

والإشارة هنا إلى المقاتلة؛ لأنهم قد يرون أنهم أولى بهذا القبي من غيرهم؛ لأنه كان
بسببهم وإن لم يحصل القتال الفعلي، ومن ثم نبه القرآن إلى هذا الهاجس من خلال هذه
القاعدة الكلية الكبيرة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

سادساً: في هذا السياق جاء التذكير بالمهاجرين الذين أخرجتهم قريش من أرضهم،
وسلبت منهم أموالهم فأصبحوا فقراء، ثم إن هؤلاء المهاجرين هم الذين نصرُوا الله
ورسوله، وسبقوا إلى التمكين لهذا الدين بما قدموه وما بذلوه ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ
أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُنَافِقُونَ فَضَلَّاهُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَضُونَا وَنَصْرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
الضَّالِقُونَ﴾.

ومناسبة التذكير بالمهاجرين هنا: أنهم داخلون في مصارف هذا القبي؛ لفقرهم الناتج عن
تضحيتهم بأموالهم، وكل ما يملكونه أثناء الهجرة، ولما قدموه ولاقوه على طريق الجهاد
والدعوة.

سابعًا: بعد ذكر المهاجرين وبيان فضلهم وحقهم، جاء التذكير بالدور الكبير لأهل الدار الذين آووا ونصروا وفتحوا بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وليس في الآية ما يشير إلى أن لهم الحق بهذا الفيء، إلا من كان منهم فقيرًا، أو مسكينًا، أو عابر سبيل، والله أعلم.

ثامنًا: بعد ذكر هؤلاء الصفوة لم تغفل السورة الناس الذين التحقوا بهذا الركب من ذلك الجيل إلى آخر مؤمن أو مؤمنة على هذه الأرض ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذا الربط بين أول الأئمة وآخرها له مغزى كبير في صياغة هوية الأمة ووحدها وانتمائها، وواضح أيضًا أن السياق خرج عن موضوع الفيء وتقسيم الأموال إلى الأفق الأوسع، وهذه طريقة قرآنية في ربط الجزئيات بكلياتها، وربط الأحكام الدقيقة بالأصول الكبيرة، والله أعلم.

تاسعًا: بعد ذكر هذه الوشائج والروابط الإيمانية التي تجمع المسلمين مهاجرين وأنصارًا وكل من اتبعهم إلى يوم الدين، التفتت السورة إلى الجهة المقابلة؛ حيث ذلك التحالف الآثم الكاذب بين المنافقين وبين بني النضير وغيرهم من اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

عاشرًا: بينت السورة وهن ذلك التحالف، وعجز اليهود عن مواجهة المسلمين ﴿لَا تَسْرَ أَسَدُ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

حادي عشر: ربطت السورة بين ما أصاب بني النضير وما أصاب إخوانهم من قبلهم بني قينقاع؛ حيث أجلاهم النبي ﷺ بسبب غدرهم أيضًا ونقضهم للعهد ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ

قينقاع؛ حيث أجلاهم النبي ﷺ بسبب غدريهم أيضًا ونقضهم للعهد ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثاني عشر: شبّهت السورة حال المنافقين مع بني النضير بعد أن تخلّوا عنهم ساعة المواجهة وتركوهم للجلاء بحال الشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر، ثمّ يتخلى عنه يوم الحساب ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ نزلت في بني النضير بعد أن غدروا بالمسلمين، وخانوا عهدهم، فحاصرهم المسلمون، وأنزلوهم على حكم رسول الله ﷺ فأمرهم بالجلاء.

﴿لَا وَلِيَ الْحَشِرِ﴾ أي: في أول جلاء لهم، وسمّى الجلاء حشراً؛ لأنه كان عامّاً في كلّ بني النضير، فحشروا جميعاً ثم أجّلوا.

﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لأنّ المسلمين ربّما كانوا يظنون أنّهم سيتمسّكون بأرضهم وسيقاتلون عنها.

﴿وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ مَانَعَتْهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عقاب الله لهم بأيدي المسلمين.

﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: فأناهم الله بعذابه من الجهة التي لم يظنّوا أنّ العذاب آتاهم منها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ هذا تفسير لما قبله، أي: أنّ العذاب الذي أصابهم دخل عليهم من قلوبهم، وهذه هي التي تُسمّى اليوم بالهزيمة النفسية التي تجعل صاحب العُدّة والعتاد ينهار أمام عدوّه مع ما عنده من عدّة وعتاد.

﴿يُخَارِبُونَ بِيُوْنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حتى لا تكون غنيمة للمسلمين.

﴿وَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا كان قبل استسلامهم؛ لأنَّ تخريبَ البيوت من قبل المؤمنين بعد أن ورنوها لا داعيَ له.

وفيه إشارةٌ أنَّهم لم يستسلموا إلا بعد أن شعروا بالخطر يحرق بهم ويقترب منهم، ولم يكن هذا إلا بهدم بعض المنازل المتطرفة، وقطع النخيل التي تحول دون تقدُّم المسلمين إليهم، والله أعلم.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتَّعظُوا يا أهل العقول، والخطاب - وإن كان عامًا - إلا أنَّ الإشارة لمن بقي من اليهود في المدينة - وهم بنو قريظة - واضحة ولا تخفى.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لسلَّط عليهم سيوف المؤمنين. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ذلك الذي أصابهم كان لأنهم خالفوا الله ورسوله وناصبوهما العداة.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ ما قطعتم من نخلة. ﴿أَوْ تَرَكَتُمُوهَا فَآيَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا﴾ فيه تحسينٌ لصورة النخل الذي يبقى على أصوله، إشارة إلى تجنب قطعه من غير ضرورة.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: وما منحه الله لرسوله من أموالهم، وأصل الفيء: الرَّد، بمعنى أن الله ردَّ أموال بني النضير إلى رسوله ﷺ.

﴿فَمَا أَوجَفَّتْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: فما حرَّكتم عليه خيولكم، بمعنى أنه جاء باستسلام من العدو، وليس بسبب قتالكم له.

﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ النضير وغيرها؛ كخير وفدك، بمعنى أنه حُكِّم عام في الفيء، وليس خاصًا بالنضير.

﴿فِي اللَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ بمعنى أن الفيء لا يُخَمَّس كما تُخَمَّس الغنائم، فليس للجند في الفيء نصيب؛ لأنه جاء من غير قتال، وذو القربى هم قرابته ﷺ؛ لأنهم حرِّموا من الصدقة، فكان هذا تعويضًا لهم، وابن السبيل: المسافر الذي يحتاج أن

يبلغ محله لنفاذ ما عنده من مالٍ ولو لم يكن فقيرًا في الأصل.

تجدُر الإشارة هنا إلى أن مسائل الغنائم والفيء ومصارفهما محل اجتهدٍ وخلافٍ طويلٍ بين الفقهاء، فليرجع إلى مظانّه من أراد التوسّع.

﴿كَانَ لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ الدّولة من التداوُل، بمعنى أن هذا المال ينبغي أن يكون مُتداوِلًا في المجتمع لحل مشاكله الماليّة؛ كالفقر ونحوه، لا أن يكون مُتداوِلًا بين الأغنياء فقط؛ لأنّ الفيء أكبر بكثيرٍ من حاجة الجُند، فلو قسّمت البلاد المفتوحة على الجند لاحتكرت ثروة الأمّة عندهم.

ومن ثمّ رفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيم العراق كما تُقسّم الغنائم، ومن هنا كان لا بُدّ من وجود ضابطٍ كلّّيٍّ وموجّهٍ عامٍّ للدولة المسلمة في تعاملها مع هذه المسائل، فجاء هذا التعليل مُنبّهًا إلى هذا الضابط أو الموجه؛ فهناك فرقٌ بين مال الدولة الذي ينبغي أن تسدّ به حاجة مؤسساتها وأفرادها، وتعالج به مشاكلها، وتسدّ به نقصها، وبين المال الذي يُعطى للمقاتل مكافأةً وتشجيعًا له، وهذا الضابط يتجاوز مسألة الفيء إلى كلّ ما يقع تحت سلطان الدولة، حتى الغنائم التي تزيد عن المألوف في مُسمّى الغنائم، وهذا يستدعي اجتهدًا واسعًا أكبر ممّا يتحمّله هذا المختصر، والله أعلم.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ نزلت تذييلًا على ما شرّعه الله في الفيء، لكنّها أوسع من ذلك؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالرضا بكلّ ما يقوله الرسول ﷺ وبكلّ ما يقسم به، أمرًا أو نهيًا، عطاءً أو منعًا هو أصلٌ من أصول الإسلام، وهو الفيصلُ العمليُّ الحقُّ بين الإيمان والنفاق.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ تعليلٌ لدخول المهاجرين في مصارف الفيء، وبيان لسبقهم وفضلهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: استوطنوا المدينة واتخذوها سكنًا لهم، وعطف الإيمان على الدار قُصْدُ به: ثباتهم على الإيمان وتمسّكهم به، كما ثبتوا في أرضهم واستقرّوا بها.

وقرن الدار بالإيمان في تنويه عظيمٍ على مكانة المدينة عند الله والتي شرفها الله بخاتم

الرسول ﷺ، وتنويه أيضًا بمكانة أهل الدار عند الله؛ وهم الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ هذه ميزة عظيمة للأنصار، وهي أنهم لم يُقدِّموا ما عندهم للمهاجرين من باب الصدقة وتخفيف المعاناة، وما يُسمَّى اليوم بالتكافل الاجتماعي، بل ارتقوا في معارج الكمال الروحي والأخلاقي فوق ذلك بكثير، فكانت قلوبهم تعمر بمحبة المهاجرين إلى مستوى أنهم كانوا يُؤثرونهم على أنفسهم، بمعنى أن الأنصاري كان يرى أن يكون ماله عند المهاجر خيرًا له من بقاءه عنده رغم حاجته الشديدة إليه، كما سيأتي.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجد الأنصار حزاة في قلوبهم على إخوانهم المهاجرين أن خصَّهم الله دونهم في هذا القىء.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: يُقدِّمون المهاجرين على أنفسهم ولو كانت بهم حاجة شديدة لهذا المال.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يُسلمه الله من داء الشح وهو البخل فهو من الناجحين الفائزين.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ هؤلاء المؤمنون إلى قيام الساعة، يُخبر القرآن أنهم يستغفرون للمهاجرين والأنصار، وهو إخبارٌ فيه معنى الأمر والتوجيه، والمؤمن مدفوعٌ بفطرته لهذا الوفاء؛ إذ كانوا ﷺ السبب في وصول الإسلام إلى كافة الأصقاع إضافة إلى هذا التوجيه القرآني، ومن ثمَّ كان الذي يسبُّ الصحابة ويتبرأ منهم خارجًا عن معاني الفطرة السليمة، ومخالفًا لصريح القرآن، وقطعًا أنه لن يجد نفسه في المهاجرين، ولا في الأنصار، ولا في التابعين لهم، وهذه هي أصنافُ المؤمنين التي اعتمدَها القرآن في هذا السياق.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: غشًا وحقدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ مقارنة
 ضمنية بين واقع المجتمع المؤمن من المهاجرين والأنصار والتابعين؛ حيث المودة والإيثار
 والاستغفار، وبين هذا المجتمع البغيض الذي تسوده الأثرة والمصالح الشخصية والتغريب
 بالباطل؛ فالمنافقون كانوا يعدون اليهود بأن يكونوا معهم إذا أُخْرِجُوا وإذا قُوتِلُوا، بمعنى
 أنهم معهم على كل الاحتمالات، لكنهم كذبوا عليهم، فلم ينصروهم، ولم يخرجوا معهم
 ﴿لَنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ لِيُؤْتُواكَ الْآذِينَ ثُمَّ لَا
 يَنْصُرُونَ﴾.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ تعليل لتخلف
 المنافقين عن مُناصرة حلفائهم اليهود أنهم يخشون المسلمين أكثر من خشيتهم لله؛ وما ذاك
 إلا لكفرهم بالله وجهلهم بمقامه العظيم تبارك وتعالى.

﴿لَا يُقَدِرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ بعد بيان حال المنافقين، شرع
 في بيان الطرف الثاني من هذا الحلف، وهم اليهود، فهؤلاء لا يجرؤون على مواجهة المسلمين
 في القتال، بل يتحصنون بحصونهم، ويختبئون خلف جُدُرهم، وكل قرية منهم تُقاتل
 لوحدها؛ إذ لم يجتمع اليهود على قتال المسلمين.

﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ تعليل لعدم اجتماعهم على قتال المسلمين، بمعنى أنهم - أي:
 اليهود - كانوا مختلفين فيما بينهم، ولا يثق بعضهم ببعض.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ الخطاب ليس لمعين، بل جار مجرى المثل، بمعنى:
 تحسبهم أيها الناظر إليهم، أما النبي ﷺ فلم يكن يحسبهم جميعًا، بل هو أعلم بحقيقتهم؛
 ولذلك قاتل كل قبيلة منهم على حدة.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي: مثلهم كمثّل الذين من قبلهم، يُشبهه حال بني النضير
 بحال من سبقهم وهم بنو قينقاع، فقد كانت لهم حصونهم أيضًا، ثم أجلاهم النبي ﷺ كما
 أجلى هؤلاء، والله أعلم.

﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوء عاقبة غدرهم.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِيَءٌ مِنْكَ﴾ أي: يقول الشيطان ذلك يوم القيامة، وجاء بالفعل الماضي؛ لتأكيد تحقق هذه البراءة ذلك اليوم، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۚ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: الغاوي والمغوي، الشيطان ومن اتبع الشيطان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

في ختام هذه السورة المباركة توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين يُذكّرهم بالله وبأسمائه وصفاته، ويُذكّرهم بعظمة هذا القرآن، ويحثّهم على استحضار التقوى في كل ما يعملون، ويعيّد لهم على ذلك بالجزاء الأوفى، وكما يأتي:

أولاً: يذكّر القرآن الكريم الذين آمنوا بالتقوى ومحاسبة النفس، والعمل لما بعد الموت، وهذه أُسس التزكية التي يعتمد عليها القرآن في صقل النفوس وتهذيبها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثانياً: يذكّرهم القرآن أيضاً بأن تميّز المؤمنين عن أولئك الغافلين الكافرين في هذه الدار هو الذي سيُميّزهم هناك في دار الجزاء ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾.

ثالثاً: يدعوهم إلى التفكير بعظمة هذا القرآن وما يستلزمه هذا التفكير من تحصيل الخشية والخوف من الله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمَثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾

رابعاً: ثم يَخْتِمُ ببيانِ بعضِ من أسماء الله الحسنى وصفاته العُليا؛ لربط القلوب بالله، وتنبيهها إلى عظمتِهِ سبحانه، وعلمهِ وقدرته، وسعة رحمته حتى تَتَنَوَّرَ بنوره، وتَأْنَسَ بحضوره.

دقائق التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: ولتنظر كل نفسٍ منكم أيها المؤمنون إلى عملها الذي قَدَّمَتْه لآخرتها، وهذا انتِقَالٌ لِلخِطَابِ، ومُنَاسِبَةٌ أَنَّ الله تعالى بعد أن اِمْتَنَّ على المؤمنين بجلاء بني النضير ذَكَرَهُمْ بِحَقِّ الله عليهم أن يَتَّقُوهُ في السِّرِّ والْعَلَنِ، وأن تتعلَّقَ قلوبُهم بِالْآخِرَةِ؛ فهي الغاية الكبرى التي يعمل لها العاملون، ويتنافسون فيها المتنافسون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ يُحذِّرُ الله المؤمنين من أن ينسُوا عهدهم مع ربِّهم، فتكون عاقبتهم كعاقبة هؤلاء اليهود؛ إذ كانوا أهل دين وإيمانٍ وكتابٍ، لكنهم نسُوا عهدهم هذا وما فَضَّلَهُم الله به، فأوَكَّلَهُم الله إلى أنفسهم واستبدلَ غيرهم بهم.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ جاءت هذه الآية في سياق المقارنة بين الذين نكثوا عهد الله، ونقضوا ميثاقه وهم اليهود ومن شاكلهم من أهل الكتاب والمنافقين، وبين المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم من هذه الأمة الثابتين على العهد والحافظين لحدود الله، وفي الآية ترغيبٌ للمؤمنين أن يستقيموا على ذلك، وألا ينحرفوا كما انحرف أولئك الخاسرون.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصِّدِعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ هذا مَثَلٌ قُصِدَ به التشنيع على أولئك الكاذبين المكذِّبين بالقرآن، الصادِّين عنه والغافلين عما فيه من الهدى والنور، والوعد والوعيد، يقول لهم آتِه لو خُوطِبَ الجبل - وهو مضرب المثل بالقوة والتهاؤك - بهذا القرآن، وهذا هو معنى افْتِرَاضِ إنزال القرآن عليه، أي: افْتِرَاضِ تكليفه

بحمل هذا القرآن والعمل به، فلو كان أهلاً للتكليف ووعى طبيعة هذه الأمانة، لأحس بثقلها ورأيت خائفاً من التقصير بحقها، مُتَشَقِّقاً مصدوماً من هول ما كُلف به.

وقد أشار القرآن إلى أن المغزى من هذا إنما هو التمثيل لتقريب عظمة القرآن، وثقل الأمانة التي ينبغي أن يستشعرها هذا الإنسان ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدأ بِذِكْرِ اسم الله العَلَم، الذي هو الجامع لكل أسمائه وصفاته ﷻ؛ فما من اسم إلا وله معنى مُشتق عن صفة من صفاته تعالى إلا هذا الاسم (الله) الذي هو عَلَمٌ على الذات الإلهية، لا يحمل صفة معينة، بل يحمل الصفات كلها، ثم ثنى بالوحدانية؛ لأنها أساس الدين كله.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عنكم أيها الناس من العوالم الغيبية؛ كالملائكة والجن، والسموات السبع وما فيهن وما فوقهن، ويعلم مستقبل الحياة من آجالكم وما ينتظر كل واحد منكم، وأحوال الآخرة، ثم هو أيضاً يعلم ما تشاهدونه ويقع تحت إدراككم وحواسكم واستنتاجاتكم، وأعمالكم وأقوالكم.

ولا شك أن هذه المعاني تترك في نفس المؤمن حساً عظيماً من الرقابة الذاتية، وثقة لا حدود لها بأحكام الله وتشريعاته؛ إذ لا يمكن أن يعتريها نقص، أو ميل، أو خلل، وتبعث طمأنينة بعدل الله الذي يعلم كل عاملٍ وما عمل، وتوكلًا جميلاً؛ لأنه تعالى يرى عبده، وهو أعلم بحاجته وشكواه، وما يحيط به.

﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تكرار صفة الرحمة بهذين الاسمين المباركين واقتراحهما ببعضهما يُوحى بالأنس والطمأنينة؛ فالله الذي يعلمنا ويعلم كل أحوالنا لا يعلم ذلك علماً مجرداً، بل هو علمٌ ممزوج بالرحمة، الرحمة التي لا حدود لها.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إعادة وتأكيد لاستحضار كل أسماء الله وصفاته في اسمه الجامع (الله)، ولاستحضار كل معاني الإيمان والإسلام في التوحيد الذي هو أساس الدين.

﴿الْمَلِكُ﴾ اسمٌ من أسمائه تعالى، بمعنى أنه سبحانه له السلطان المطلق على هذا الوجود،

وكلُّ مُلْكٍ أو سلطانٍ آخر إنما هو على سبيل التحويل والاستخلاف والاختبار.

﴿الْقُدُّوسُ﴾ الْمُتَزَّهٍ تنزيهاً تاماً عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ به، واقتِرَانُ هذا الاسم الشريف بالاسم الذي قبله إشارةٌ إلى تنزُّه الله عن الصِّفَات التي تَشِينُ ملوك الأرض في العادة؛ من الظلم، وقلة الاكتراث بأحوال العباد وحاجاتهم ومصائرهم.

﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ صفتان لله تعالى واسمان من أسمائه الشريفة تُوجِيَان بأنَّ الله تعالى هو مصدر السلام، ومصدر الأمن والطمأنينة في هذا الكون بما أودَّعه فيه من نظام، وما أقامه فيه من سُنَنِ ونواميس، فكلُّ الكون يجري بنظامٍ وأمانٍ، وينسِقُ يضمن الهدوء والاستقرار، ولو اهتدى هذا الإنسان في مجالهِ التكليفي إلى شريعة الله لوجدَها متناغمة ومنسجمة مع نظام الله الذي يضبط حركة هذا الكون من مجرَّاته وأفلاكه إلى نطفة الحياة، وبذرة النبات، وقطرة الماء، ونسمة الهواء، ورحيق النحل، وعبير الورد، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أي: الحافظ الرقيب المقتدر الذي تخضع له كلُّ ذرَّات هذا الوجود؛ فهو القائم سبحانه على شؤون خلقه، فلا يغيب عن علمه منها شيءٌ، ولا يخرج عن سلطانه منها شيءٌ.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزَّة سبحانه فلا يغلبه أحدٌ، ولا يحول بينه وبين ما يريد أحدٌ.

﴿الْجَبَّارُ﴾ المقتدر على خلقه فلا يخرج أحدٌ منهم عن إرادته، فكلُّ الملوك وجبابرة الأرض - فضلاً عن غيرهم - محكومون بحُكمه، خاضعون لجبروته، من لحظة تكوينهم في بطون أمهاتهم، إلى لحظة خروجهم من هذه الحياة مجرَّدين عن كلِّ شيءٍ، وأمَّا ما يملكونه في أيام حياتهم فما هو إلا متاعٌ زائلٌ قُصِدَ به اختبارهم، ثم مجازاتهم على أعمالهم.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء، بمعنى الجلال والعظمة المطلقة، فليس من عظيم إلا وهو ذليلٌ أمام عظمتِهِ، وليس من موجودٍ إلا وهو مخلوقٌ بإرادته، ومُنْصاعٌ لنواميسه الحاكمة وسُنَّته.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه التشنيع الشديد على من يقرن الله بأحدٍ من خلقه؛

فكل هؤلاء المعبودون من دونه ليسوا سوى خلق من خلقه، وعبيد من عبيده.

﴿هُوَ اللَّهُ﴾ تأكيد أن اسمه الشريف هذا هو الأصل لكل الأسماء، والجامع لكل الصفات.

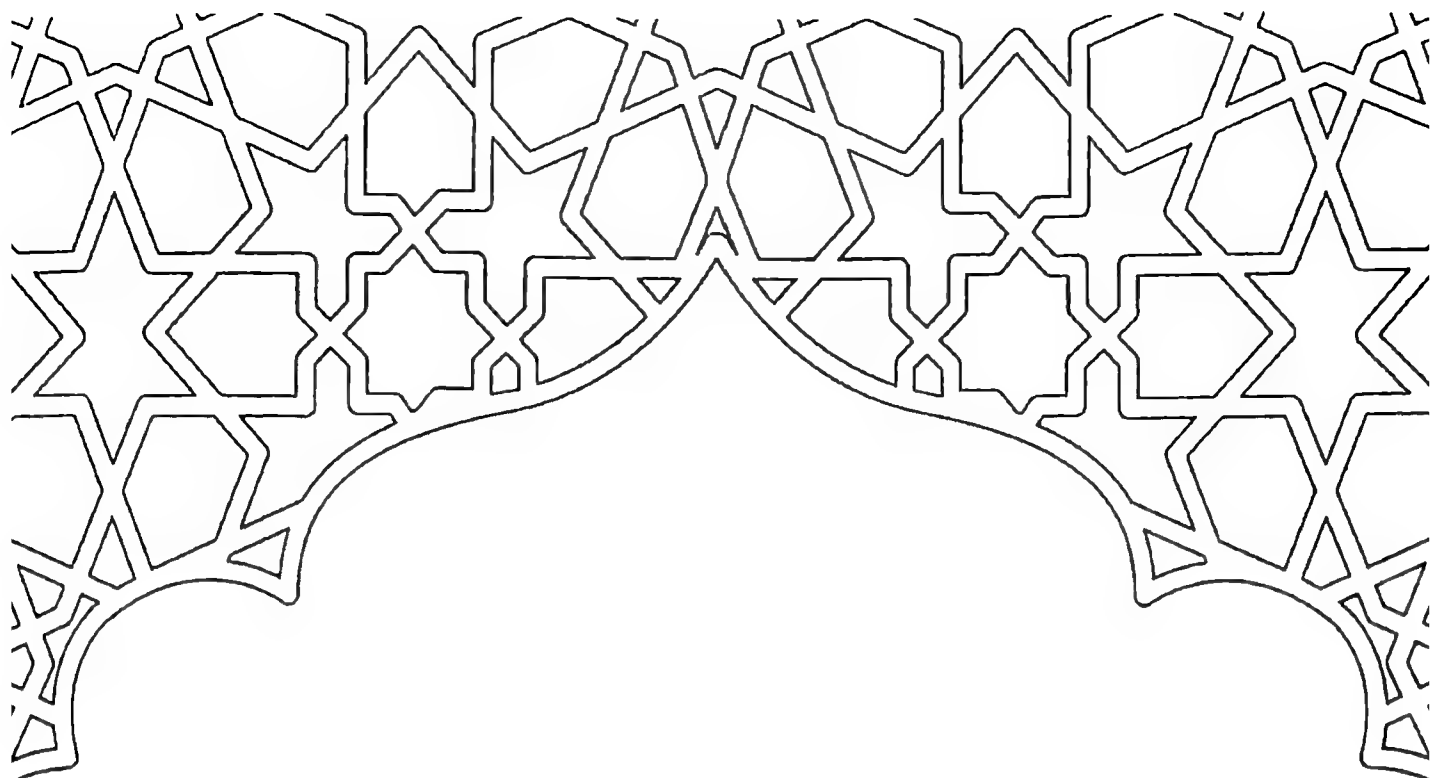
﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ والخالق أي: الموجد الذي أوجد كل هذه المخلوقات من العدم المحض، ثم بنظام التكاثر والتناسل الذي أودعه في هذا الخلق، والبارئ أي: الذي برأ كل مخلوق بما يميزه عن غيره في الأجناس والآحاد، ومن المفسرين من يخصه في خلق الإنسان خاصة، ومنه (البرية) أي: الناس، والله أعلم.

وأما المصور فهو: الذي أعطى لكل مخلوق شكله وصورته وحجمه ولونه، فهذه ثلاثة أسماء متصلة في معانيها، متسلسلة في ترتيبها يكمل بعضها بعضاً، ويعضد بعضها بعضاً.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له سبحانه الأسماء المعروفة بغاية الحسن في جمالها وجلالها وكمالها، بالفاظها ومعانيها وآثارها.

ومعلوم أن هذه السورة قد خصها الله بجمع هذه الأسماء الشريفة بتسلسل واحد في خواتيمها، ومعلوم أيضاً أن هذه ليست كل أسمائه تعالى، لكنها تذكر بها جميعاً؛ لوجود الصلة بين كل اسم ذكرته هذه السورة وبين عدد من أسمائه تعالى الأخرى؛ فاسمُ الله تعالى (القوي) مثلاً حاضر في اسمه تعالى (العزیز) واسمه تعالى (الجبار)، وإن لم يُذكر بلفظه، واسمه تعالى (الرؤوف) حاضر في اسمه تعالى (الرحمن) واسمه (الرحيم)، وكذلك أسماؤه تعالى التي تدل على الوجدانية جمعها قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهكذا.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كرر اسمه تعالى (العزیز) لكنه قرنه هذه المرة باسمه (الحكيم)، بإشارة أن صفتي العزة والحكمة متكاملتان، والمؤمن الذي يسعى إلى أن يتخلق بأسمائه تعالى عليه أن يُراعي هذا التوازن؛ فعزة الإنسان من غير حكمة قد تنقلب إلى غرور وتهور، وحكمته من غير عزة قد تنقلب إلى ضعف وذلة، وهكذا ينبغي مراعاة التوازن في كل أسمائه تعالى، بمعنى مراعاة انعكاسها وتأثيرها في حياة المسلم، فلا يطغى معنى على معنى، ولا جانب على جانب.



سُورَةُ الْمُتَجَنِّتِ

المجلس الرابع والخمسون بعد المائتين: فقه الولاء والبراء

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ اَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ (١) إِنْ يَشْفَقُوكُمْ بِكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ (٢) لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِنْ أَقُولُ بِإِبْرَاهِيمَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَنْكَ يَا إِيَّاهُ لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ نَوَكُلْنَا وَإِلَيْكَ آتَيْنَا وَالْإِلَهَ الْمَصِيرُ ۝ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (٧) لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ (٩) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ أَجْرُهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا يُعَصِّمُ الْكُفَّارِ وَنَسَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْأَوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَانْفِقُوا ۚ وَالَّذِي آتَيْنَاهُ الْإِنشَاءَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ۚ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١٢) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُؤُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۝ (١٣)﴾

فقه الولاء والبراء

علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم باب واسع تشبك فيه مسائل العقيدة بمسائل الفقه، والعلاقات الاجتماعية بالعلاقات السياسية، وتلتبس فيه متطلبات الدعوة بمتطلبات الجهاد، وفقه السلم بفقهِ الحرب، وقد وضعت هذه السورة المباركة بعض القواعد والأحكام التفصيلية في هذا الشأن، وكما يأتي:

أولاً: نهى الله ﷻ المؤمنين نهياً قاطعاً أن يتخذوا أعداء الله أولياء بأي نوع من أنواع الولاية، وأن يلقوهم بالموَدَّة بالسِّرِّ أو العلن، فهذا من ولايتهم أيضاً ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾.

ثانياً: علَّل القرآن هذا النهي الحاسم منبِّهاً إلى خطورة التهاون في هذا النوع من العلاقات إن لم تكن بميزانٍ دقيقٍ وواضحٍ ﴿إِنْ يَتَقَفُّوكُمْ بِكُفْرَانِكُمْ أَكْفَرْتُمْ لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾.

وقد تقدَّم قوله تعالى مُبيناً إحدى جرائم المشركين هؤلاء: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۝﴾ وهذا التعليل بيِّن أنَّ هذا الصنف من الكفار الذين يحرم ولاؤهم بأي صورة من الصور هم الأعداء المعتدون، الذين يُخْرِجون المسلمين من أرضهم، ويُعلنون لهم العداء بأقوالهم وأفعالهم.

ثالثاً: نبَّه القرآن المؤمنين إلى نموذج من قصص النبيين يظهر فيه معنى الحزم في إعلان البراءة من هؤلاء المشركين ولو كانوا أقارب أو أرحاماً ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِنْ لَمْ يَقُولْ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾.

والاستثناء الوحيد هنا هو: استغفارُ إبراهيم لأبيه بعد إصراره على الشرك ومُعاداته للمؤمنين ومنهم إبراهيم الذي أرادَ حرقه بالنار، لولا أنَّ الله جعلها عليه برداً وسلاماً.

رابعاً: فَتَحَ الْقُرْآنُ بَابًا لِلْأَمَلِ بِإِمْكَانِيَّةٍ أَنْ يَعُودَ هَؤُلَاءُ إِلَى رُشْدِهِمْ، لَتَعُودَ الْعِلَاقَةُ مَعَهُمْ عَلَى مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فِي إِشَارَةٍ أَنَّ ذَاكَ الْحُكْمَ الْحَازِمَ كَانَ هُوَ الْمُنَاسِبَ لِعِدَاوَتِهِمُ الَّتِي أَظْهَرُوهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ﴿١٠٠﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾.

خامساً: مَيَّزَ الْقُرْآنُ بَيْنَ الْكَافِرِينَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَمْ يَعْمَهُمْ بِحُكْمٍ وَاحِدٍ مَعَ اشْتِرَاكِهِمْ فِي مَسْمَى الْكُفْرِ ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾.

سادساً: بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْأَحْكَامَ الْخَاصَّةَ بِالنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّائِي يَفْذَنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُعْسَكِرِ الْعَدُوِّ الْمُشْرِكِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾.

سابعاً: فِي الْمُقَابِلِ بَيَّنَّ حُكْمَ الزَّوْجَةِ الْكَافِرَةِ الْمَشْرُكَةِ الَّتِي تَكُونُ تَحْتَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ إِذَا أَصْرَتْ عَلَى كُفْرِهَا وَشُرْكِهَا ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

ثامناً: بَيَّنَّ الْقُرْآنُ أَرْكَانَ بَيْعَةِ النِّسَاءِ لِلرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ دُخُولِهِنَّ فِي الْإِسْلَامِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تاسعاً: خَتَمَ الْقُرْآنُ هَذِهِ السُّورَةَ بِمَا اسْتَهْلَتْ بِهِ؛ فَأَكَّدَ نَهْيَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ، وَالْحَقِّ بِهِمُ الْيَهُودَ؛ لِأَنَّهُمْ نَاصَبُوا الْمُؤْمِنِينَ الْعِدَاءَ أَيْضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا

قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٠﴾

دقائق التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ﴿١٠﴾ نزلت هذه الآيات في حاطب بن أبي بلتعة.

وقد أخرج الشيخان في تفسير هذه السورة: عن عليٍّ ؓ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال ﷺ: «انطلقوا حتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ، فَإِنَّ بِهَا ظِعِينََّةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا».

قال: فانطلقنا تَعَادَى بَنَّا خَيْلُنَا، حتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فإذا نحن بِالظَّعِينَةِ، قُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، قالت: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، قال: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا.

فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فإذا فيه: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يَا حَاطِبُ! مَا هَذَا؟». قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا تَعَجَّلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأًا مُلَصِّقًا فِي قَرِيشٍ - يقول: كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا -، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ».

فقال عمر: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فقال: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ ﴿١٠﴾.

(١) متفقٌ عليه عن عليٍّ بن أبي طالب ؓ، ينظر: صحيح البخاري (٤/١٥٥٧) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م واللفظ له، وصحيح مسلم (٧/١٦٧، ١٦٨) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ومن الواضح في القصة أنَّ ما فعله حاطبٌ كان في ظرفٍ عسكريٍّ مُشدِّدٍ، ومع قريش التي كانت علاقتها بالمسلمين علاقة حربٍ، وهذا كلّه ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار، فلا يصحُّ تعميم ما نزل في هذه الحالة على أصل علاقة المسلمين بغيرهم.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ بيان أنَّ هؤلاء المشركين ليسوا كبقية الكافرين، بل هم كفارٌ مُحاربون، جمعوا مع إعلان الكفر إعلان العداوة، وقد كانت عداوتهم مبكّرة من الأيام الأولى للبعثة حتى أكرهوا المسلمين على الخروج من مكّة، ثم استمروا بعداوتهم هذه حتى نزول هذه الآيات.

﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لعداوتهم للمسلمين، بمعنى أنَّهم لم يُعادُوكم ولم يُخْرِجُوكم من دياركم إلَّا لأنكم آمنتم بالله ربكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ شرطٌ، وجوابه مُقدَّرٌ ومعلومٌ من صدر الآية، أي: فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ إشارةٌ إلى نُصح حاطب لهم لئلا يأخذهم المسلمون على غرّة، وهذا فعل الناصح المودّ، وإن كان قد قصّد شيئاً آخر.

﴿إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم.

﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: يُحاربوكم ويُقاتلوكم بأيديهم وألسنتهم، ولن تنفعكم مودّتهم لهم.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فأهل الجنّة لا يلتقون بأهل النار ولو كان بينهم في الدنيا ما كان من الرّحم والقراة.

﴿إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تبرأنا منكم ومن كُفركم وشرككم بالله، وبرّاءة: جمع بريء.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ وصفٌ لطبيعة العلاقة التي كانت بين إبراهيم عليه السّلام ومن معه من المؤمنين وبين قومهم المشركين.

﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ إذ كان الخلاف في التوحيد ودفاع المشركين عن أصنامهم هو منشأ العداوة بين الفريقين.

﴿لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فهذا مُستثنى من عموم التأسي بهم، ومسألة استغفار المؤمن للمشرك مسألة فقهية وليست من مسائل العقيدة، وخلاصة القول فيها: أن استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمر مشروع ولا عُبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقاءه على الشرك، أو أنه قد مات على الشرك فهذا محظور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١١٣) وما كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تُمكنهم منا فيفتنونا في ديننا، ويحتمل أيضًا أنه: لا تجعلنا سببًا في فتنهم، أي: في بُعدهم عن الهداية، واستمرارهم في الضلالة؛ إذ الخصومة من شأنها أن تُوغر الصدور فلا تدع الخصم يسمع من خصمه ولو كان كلامه في مصلحته. وعلى المعنى الثاني يكون التنبيه إلى أن المسلم لا يجوز له مجاوزة الحد في الخصومة بغير الأدب الشرعي، فلا ينتقص من المعادي ولا يكذب عليه، ولا يشتم أباه وأُمَّه؛ لأن هذه تُبعده عن طريق العودة والتوبة.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ بمعنى أن هذه العداوة طارئة بسبب موقف قريش منكم ومن دعوتكم، فإن تغير موقفهم منكم ومن دينكم رجعت العلاقة إلى أصلها.

وفي الآية إشارتان:

الأولى: خبرية تحمل البشرى بإيمان قريش، وقد تحققت هذه البشارة بفتح مكة دون قتال،

(١) تكرر هذا النص الكريم مرتين: في سورة النساء، الآيتان ٤٨، ١١٦.

ودخول الناس أفواجاً في دين الله.

والثانية: تشريعيةٌ بإطفاء الثارات وما يحصل بين المتعادين والمتخاصمين من شحناء وبغضاء، وهذا يتطلب حلماً عظيماً من قبل المسلمين الذين اضطهدتهم قريش، واغتصبت ديارهم وأموالهم.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ هذا تأكيدٌ أن العداوة والبغضاء لها سببٌ مباشرٌ، وليس مجرد الاختلاف في الدين؛ لأنَّ اختلاف الدين يُوجب على المسلمين الدعوة وترغيب الآخرين في الإسلام، هذا هو الأصل في العلاقة، بل وهذا هو علّة الرسالة كلّها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالكفار الذين لم يُعلنوا عداوتهم للمسلمين ولم يقتروا بحقهم إثماً ولا ظلماً فوجب للمسلمين تجاههم القسط والعدل، ولهم أن يزيدوا على ذلك بأنواع البرِّ؛ كالصدقة على محتاجهم، ومعاونة ضعيفهم، وعيادة مريضهم، فكلّ ذلك من الأخلاق الحسنة التي ينبغي أن يحملها المسلمون إلى غيرهم.

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ هذا حصرٌ للجهة المُستثناة، وهي الجهة التي دخلت في حالة حرب مع المسلمين، فهذه لها أحكامها الخاصّة والمناسبة لفقه الحرب، ولا شكّ أنّ مودة هؤلاء ومبرّتهم والتقرب إليهم حتى لو كان بذريعة الدعوة هو إضعافٌ للصف، وإرباكٌ له، وتهوينٌ من عزمته؛ ولذلك توعدّ الله من يؤايلهم بهذا الوعيد الشديد: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْجَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ^ط فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ^ط هذه من المسائل الدقيقة التي أفرزتها حالة العداء بين المسلمين وقريش؛ إذ كانت المرأة المسلمة تفرّ بدينها من مكّة وتلجأ إلى المسلمين، وكان من بنود الحديبية أن على المسلمين أن يرُدّوا من لجأ إليهم من مكّة، فأوضّحت الآية أن المقصود بالبند هذا: الرجال دون النساء، ولأنّ صيغة البند للمذكر، لكن يبقى على المسلمين التأكّد من صدق هؤلاء

النساء، ومن هنا طلب القرآن امتحانهم بما من شأنه أن يحصل العلم بصدقهم، وحسن توجُّههم.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا حكم آخر ينهي العلاقة الزوجية بين المؤمنات وأزواجهن، ومؤداهُ تحريم الزواج بين المسلمين والمشرِّكين بأي وجه، كما سيأتي بيانه وإتمامه. ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي: أتوا أزواجهن ما أنفقوه عليهن من المهر، أو ما كان لهم في ذمتهم، وهذا من العدل الذي يؤسس الإسلام للتعامل به حتى مع الكافر المحارب.

﴿وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكَوَاكِيرِ﴾ الكوافير: جمع كافرة، والمقصود: أن المسلم المتزوج من مشركة عليه أن يُحِلِّي سبيلها ولا يتمسك بها، إلا إذا اختارت الإسلام.

﴿وَسْتَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ أي: اطلبوا منهم أو من ذويهن المهر الذي دفعتموه لهن.

﴿وَلَيْسَتُلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ تأكيدٌ لمبدأ العدل؛ فللمُشرك أن يطلب من المسلمين مهر زوجته المؤمنة إذا تركته وهاجرت مع المسلمين، وفي الربط بين حقَّ المشرك في المطالبة بمهر امرأته المؤمنة وحقَّ المؤمن بالمطالبة بمهر امرأته الكافرة أنَّ هذا يجب أن يكون بالاتفاق بين الفريقين، بمعنى أنَّ المشرِّكين لو أبوا أن يُعطوا للمسلمين مهورَ نسائهم المشرِّكات، فللمسلمين أن يحجزوا من أموال المشرِّكين، أي: من مهور نسائهم المؤمنات ما يكفي لسدِّ النقص، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾.

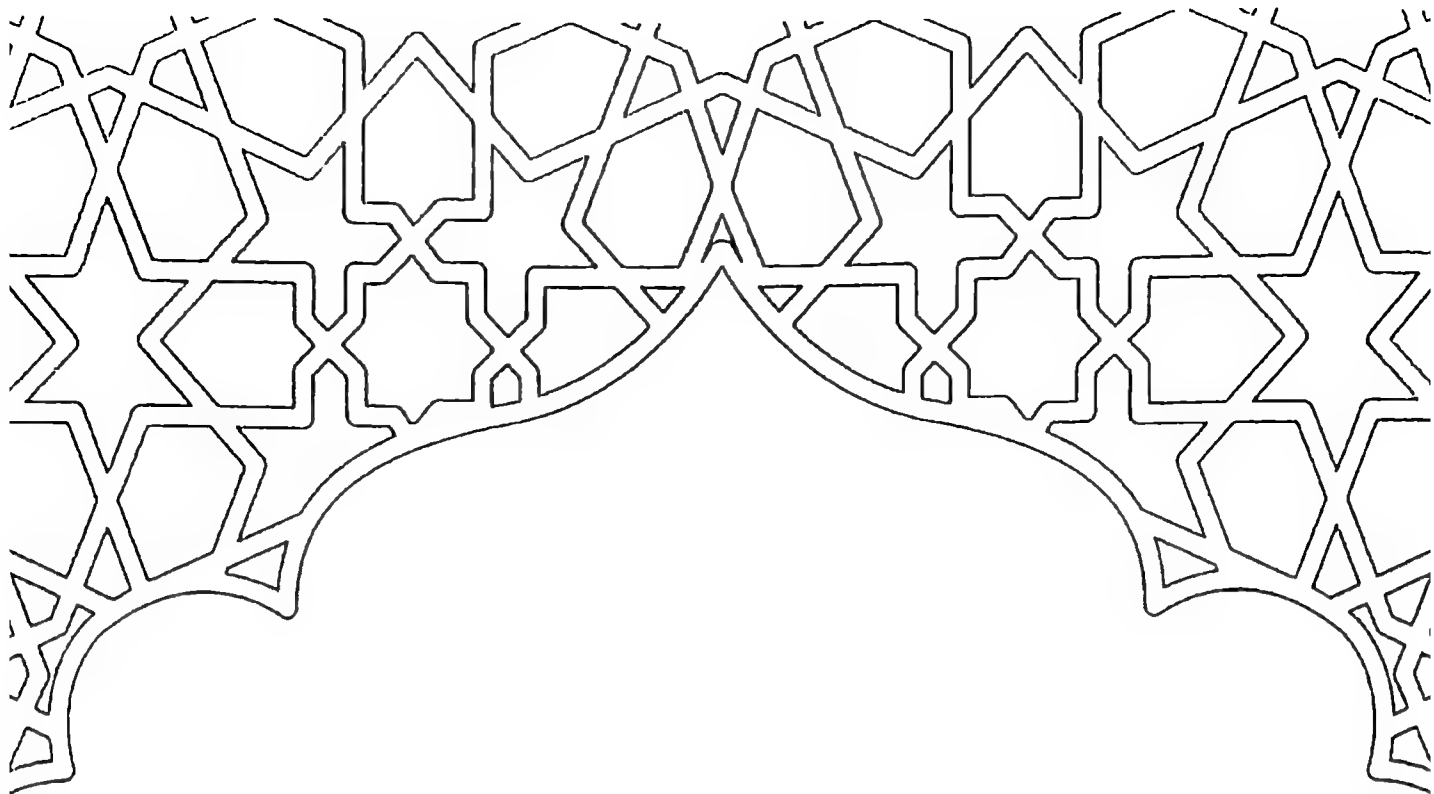
﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمرأة المهاجرة عليها أن تلتزم بالطاعة والخضوع لنظام الدولة المسلمة، وهذا الخضوع يكون مؤثَّقًا بالبيعة الصريحة للنبي ﷺ والمتضمنة نبذ الشرك، وتجنُّب السرقة، والزنا، وقتل الأولاد، وله صورتان: وأد البنات، وهي عادة جاهلية معروفة، وإجهاض الأجنة للتخلُّص منها بأي طريقة كانت، وتجنُّب البهتان، وهو عامٌّ في

كل باطل، ومنه: القذف ونسبتها لزوجها ولذا ليس منه؛ بأن تلتقطه فتدعيه لها كأنها هي من ولدته، وأخيراً التعهد بطاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، فالتزائم المرأة بهذه الشروط يؤكد صدقها وحسن إسلامها، ومن ثم يبايعها الرسول ﷺ، فتدخل في جملة المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختمت السورة بما استهلّت به من تحريم موالاة المؤمنين لكل كافر مُعَادٍ لله ولرسوله وللمسلمين، وقد ألحقت اليهود بالمشركين؛ لاشتراكهما في الكفر وفي عداوتهما للمؤمنين.

﴿قَدْ يَيْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ هذه صفة أخرى يشترك فيها اليهود مع المشركين، وهي أنهم يائسون من نعيم الآخرة كما يئس الكفار من موتاهم أن يعودوا للحياة.

ومعنى أن اليهود يئسوا من الآخرة، أي: هم محرومون منها يقيناً، وليس معناه أنهم يكفرون بها، فهم مع مخالفتهم للكفار في إنكار البعث، إلا أنهم مُشتركون معهم في العذاب؛ نتيجةً لظلمهم وعداوتهم لله ولرسوله، ومُعاونتهم للمشركين على شركهم وظلمهم، والله أعلم.



سُورَةُ الصَّفِّ

المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين: والله مُتَمِّمٌ نوره ولو كره الكافرون

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفْعَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلَمْ تُوْذُوْنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْلكُمْ عَلَىٰ عَجْرَةٍ تُجْعَلُونَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتِكُمْ طَبَقَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴿

والله متم نوره ولو كره الكافرون

نورُ الله الذي أوحاه إلى الأنبياء السابقين، ثم أتمه بمحمدٍ عليه وعليهم الصلاة والسلام، قبله من قبله، ورفضه من رفضه، والصراعُ بين النور والظلمة مُحْتَدِمٌ ما بقي الليل والنهار. وقد جاءت هذه السورة لتضع معالم من مسيرة النور، ووعد الله بإتمامه، ومسؤولية أهل الإيمان في نصرته وتبليغه للناس كافة، وكما يأتي:

أولاً: استهلَّت السورة بتسبيح الله تعالى وتمجيده تعالى لنفسه بذكر الصفتين الجليلتين لله: العزة والحكمة، وهما صفتان تكررنا مقرونتين كثيراً في القرآن الكريم، وتكررتا في هذا الجزء تَكَرَّارًا بَيِّنًا، وهو الجزء الذي يُعالِجُ في الغالب مسائل الصراع بين الحقِّ والباطل.

ثانياً: حثَّت السورة المؤمنين على الوفاء ببيعَتهم لله ولرسوله، وإتباع القولِ بالعمل

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

ثالثاً: حَتَّى السُّورَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا صَفًّا وَاحِدًا مُوَحَّدًا مُتَمَاسِكًا تَمَاسُكَ الْبُنْيَانِ
الْمَرْصُوصِ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُعْتَدِينَ وَمَكَائِدِهِمْ وَمُخْطَطَاتِهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.

رابعاً: ذَكَرَ الْقُرْآنُ بِمَوْقِفِ مُوسَى ﷺ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ آذَوْهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِنَبِيِّتِهِ وَصِدْقِ رِسَالَتِهِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وَفِي الْآيَةِ تَحْذِيرٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ؛ فَمَقَامُهُ ﷺ أَوْلَى بِأَنْ يَحْتَاطَ فِيهِ الْمُسْلِمُ وَلَوْ بِمُسْتَوَى الصَّوْتِ وَطَرِيقَةِ الْمَنَادَةِ أَوِ الْمَنَاجَاةِ.

خامساً: ذُكِرَت السورة أيضاً برسالة عيسى عليه السلام والتي جاءت مُصَدِّقَةً بالرسالة التي قبلها، وهي التوراة، ومبشِّرةً ببعثة النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ قِبْلَهَا، وَهِيَ التَّوْرَةُ، وَمُبَشِّرَةً بِبَعْثِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ قِبْلَهَا، وَهِيَ التَّوْرَةُ، وَمُبَشِّرَةً بِبَعْثِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ﴾

سادساً: نَدَّدَت السُّورَةُ بِأُولَئِكَ الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَابْذَلِينَ كُلَّ جَهْدِهِمْ لِإِطْفَاءِ نُورِ الْوَحْيِ، وَطَمَسِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝

سابعًا: أَكَّدَتِ السُّورَةُ وَعْدَ اللَّهِ الْحَقَّ بِالْتَّمَكِينِ لِهَذَا الدِّينِ، وَنَشَرَ نَوْرَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

ثامناً: عادت السورة لتحث المؤمنين على الصبر والمُصابرة والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، مع وعدهم بالحسينين: نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ في الدنيا، ونعيمٌ خالدٌ وسعادةٌ أبديةٌ

في الآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَحْزِقٍ تُنَجِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تاسعاً: ذُكِرَتِ السُّورَةُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِحَوَارِيِّ عِيسَى ﷺ فِي انْتِصَارِهِمُ لِلْحَقِّ وَالتِّفَافِهِمْ حَوْلَ نَبِيِّهِمْ، حَتَّى أَيْدَهُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيْهُ تَرْبَوِيٌّ، وَتَعْلِيمٌ بِالنَّمُودَجِ وَالْمَثَالِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أَي: نَزَّهَهُ عَنِ كُلِّ صِفَةٍ لَا تَلِيْقُ بِهِ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي مَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَتَشَوَّقُ لَهُ فَلَمَّا فُرِضَ تَقَاعَسَ، كَمَا حَصَلَ فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا وَغَيْرِهِمْ؛ فَالْفَارِقُ بَيْنَ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءَ وَيَرْغَبُ بِهِ وَبَيْنَ تَلَبُّسِهِ بِهِ بِمُجِدِّهِ غَالِبُ النَّاسِ فِي كَثِيرٍ مَّا يَتَمَنَّوْنَهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّمَنِيَّ يَسْتَحْضِرُ الصُّورَةَ الْمَرْغُوبَةَ وَالْمُجَرَّدَةَ عَنِ كَدْرِهَا وَمَشَقَّتِهَا، فَإِذَا جَدَّ الْأَمْرُ قَلَّتِ الرِّغْبَةُ لَهَا.

وَالسِّيَاقُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ قَدْ اخْتَلَفَ حِمَاسُهُمْ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَمْنِيَّاتِ عَنْ مَسْتَوَى رَغْبَتِهِمْ فِي الْإِمْتِثَالِ اخْتِلَافًا يَقْتَضِي التَّنْبِيْهَ لَهُ، وَمُعَالَجَتَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْجَادَّةِ وَالْحَاسِمَةِ، خَاصَّةً أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَصِيرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَمُسْتَقْبَلِهَا.

هَذَا وَقَدْ شَاعَ عَنْ بَعْضِ الْوُعَاظِ أَنَّ الْآيَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا وَقَعُوا فِي الزَّلَلِ، حَتَّى قَلَّلُوا الرِّغْبَةَ عِنْدَهُمْ فِي الْإِصْلَاحِ تَحَرُّزًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا تَذَمُّهُ الْآيَةُ وَتَوَبُّخُ عَلَيْهِ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَالزَّلَلُ مُتَوَقَّعٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ الزَّلَلُ ذَرِيعَةً

صحيحةً لترك الإصلاح والابتعاد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسم هذا الباب من أساسه، والصحيح أن العاقل يستمر بأداء واجب الإصلاح وتغيير المنكر، ويُحاسب نفسه على الزلل، لا أن يستمرَّ على الزلل ويحاسب نفسه على الدعوة والإصلاح.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عظم عند الله بغضه وكرهيته لأن يقول الإنسان ما لا يريد فعله، وحقيقة البغض مُنْصَبَّةٌ ليس على قول الحق، بل على ترك العمل به، فلو كان هؤلاء قد تركوا الجهاد في سبيل الله وتركوا التحدث به لما نقص مقت الله لهم، بمعنى أن المقت إنما هو مُنْصَبٌّ على ترك الجهاد في سبيل الله مع العلم بوجوبه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ يُنْفِئُونَ مَرْصُوصٌ﴾ بمعنى إن كنتم تسألون عن العمل الذي يُحِبُّه الله فهذا هو، وتشبيه المؤمنين بهذه الصورة فيه أكثر من دلالة؛ منها: وِحدةُ الكلمة، ووَحدةُ الراية والقيادة، ووجود السمع والطاعة، ووجود التعاون والتكافل، ونحو هذا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلَمْ يُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذه شكوى موسى ﷺ من المؤمنين به، وهم بنو إسرائيل؛ إذ كانوا يُؤْذُونُهُ ببعض العصيان والمخالفات، ومن ذلك قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

والتذكير بشكوى موسى هذه لا تخفى صلته بالسياق؛ فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في بعض الغزوات، والأعراب الذين رفضوا الخروج معه يوم الحديبية، هؤلاء يلحقون الأذى به ﷺ، والتذكير بقصة موسى فيه تنبيه لهم، وتسلية له ﷺ.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: لما تكرر منهم العصيان حتى زاغوا عن الحق، أزاع الله قلوبهم عن الأوبة والتوبة، وأشغلهم في أنفسهم، وسلبهم الخيرية التي كانت لهم، والأمانة التي شرفهم الله بحملها ثم أعطاها لغيرهم، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ لهذه الأمة إن هي زاغت عن هدي نبيها، وتخلت عن أمانتها.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله في خلقه؛ فالله لا يضلُّ أحدًا إلا وهو

مُستحقٌّ للضلال، طالبٌ له، حريصٌ عليه.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لم يقل لهم كما قال موسى: يا قومي؛ لأنه لم يكن له أب منهم كما لموسى ﷺ، وفيه أن رسالة عيسى رسالة خاصة لقوم مخصوصين، وهم بنو إسرائيل، وهذا ما تشهد به الأناجيل الموجودة اليوم رغم ما اعتراها من تحريف، وإنما تحوّلت إلى العالمية على يد بولس، وفي رسائل بولس تصريحٌ بهذا التحول، وليس هنا محل التفصيل.

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحَدٌ﴾ وهذه البشارة موجودة بمعناها في الأناجيل الموجودة بين أيدينا، ومؤكدة في أكثر من موضع، وقد ترجم موضع الاسم المبشر به إلى كلمة (المُعزّي)، أما أصلها عندهم في اللغة القديمة - والتي لا زالت موجودة أيضًا - فهو (الفارقليط).

ومهما اختلف القساوسة في تفسير أصلها أو في ترجمتها؛ فإنَّ هناك معنى لا ينبغي الخلاف فيه، وهو وجود البشارة بمن يأتي بعد عيسى ويبلغ الناس الحق كله الذي يسمعه من الله، ولا يأتي به من نفسه، وهذا ما تنصُّ عليه بعض الأناجيل.

وفي رؤيا يوحنا اللاهوتي المطبوعة في نهاية الإنجيل: أنَّ المبشر به صادق، وأمين، ومُحاربٌ معه ملائكة السماء.

والسؤال هنا: مَنْ هذا الذي تحدّث عنه الأناجيل؟ ومتى سيأتي؟ ولماذا لا يُبشِّر به القساوسة اليوم؟

أما السرُّ في أنه ذكّر اسمه (أحمد) وليس (محمدًا)، فهذا دليلٌ على صدقه ﷺ فيما يُبلِّغه عن ربّه؛ لأنه ﷺ يعرف أنَّ اسمه العلّم الذي يُناديه الناس به هو (محمد) وليس (أحمد).

وإنما سبب الإشكال عند من يراه إشكالاً هو فهمُ أنَّ اسم (أحمد) هو اسمُ علّم، والحقيقة أنه وصفٌ للمسمّى، ودلالةُ الاسم على المسمّى شائعٌ في العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: واذكر ربّك، فتكون إشارة عيسى ﷺ ببعثة نبيٍّ بعده هو الأكثر حمدًا من

(١) تكرر هذا النصُّ الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة المزمل / ٨، وفي سورة الإنسان / ٢٥.

غيره، بمعنى الفاعلية أي: أكثر الناس حمداً لله، أو المفعولية بمعنى أنه الذي يحمده الناس أكثر من غيره، وكلاهما مُتَحَقِّقٌ في رسول الله ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الأوفق أن يعود الضمير المُقَدَّر في ﴿جَاءَهُمْ﴾ إلى الرسول الذي تقدّمت بشارته سيدنا عيسى به، وهو محمد ﷺ، ومبعث التعجب: أنه رغم وضوح البشارة وعلامات النبوة اتهموه بالسحر، والضمير في قالوا ليس شرطاً عوده على بني إسرائيل، أي: الذين بشرهم عيسى ﷺ بأعيانهم، وهذا مثل قول العرب: (عندي درهم ونصفه) أي: ونصف مثله.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم منه.
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله في الخلق؛ فالله لا يُضِلُّ إلا مَنْ يستحقُّ الضلالة ويسعى لها.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ﴾ أي: يُريدون أن يطمسوا نور الوحي بأقاويلهم وشبهاتهم.
﴿وَاللَّهُ مُمِيتُ نُورِهِ﴾ بإتمام النعمة وإكمال الرسالة حتى تبلغ ما بلغ الليل والنهار.
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: أرسل محمداً ﷺ بالدين الذي هو دينُ الهدى فليس فيه ضلالة، ودينُ الحقِّ فليس فيه باطل.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعلي شأنه، ويُقيم حُجَّتَه على كلِّ ما يتدّين به الناس.
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَخْرَجٍ تُجِيبُكُمْ عَنْ عَذَابِ آلِمْ﴾ عاد القرآن إلى المؤمنين يستحثهم على الاستعداد للدفاع عن هذا الدين والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تفسيرٌ للتجارة الربحية التي دعاهم إليها.
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ تفسيرٌ للربح المرجو من تلك التجارة، ثم أكّد هذا المعنى في ختام الآية: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ هذا ربحٌ مُضَافٌ على أصل الربح، وهو الربح الذي

يُحِرِّزُهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الرَّبِّحَ مَهْمَا كَانَ عَزِيزًا وَمَرْغُوبًا، فَحَقُّهُ التَّأْخِيرُ قِيَاسًا بِرَبِّحِ الْآخِرَةِ.

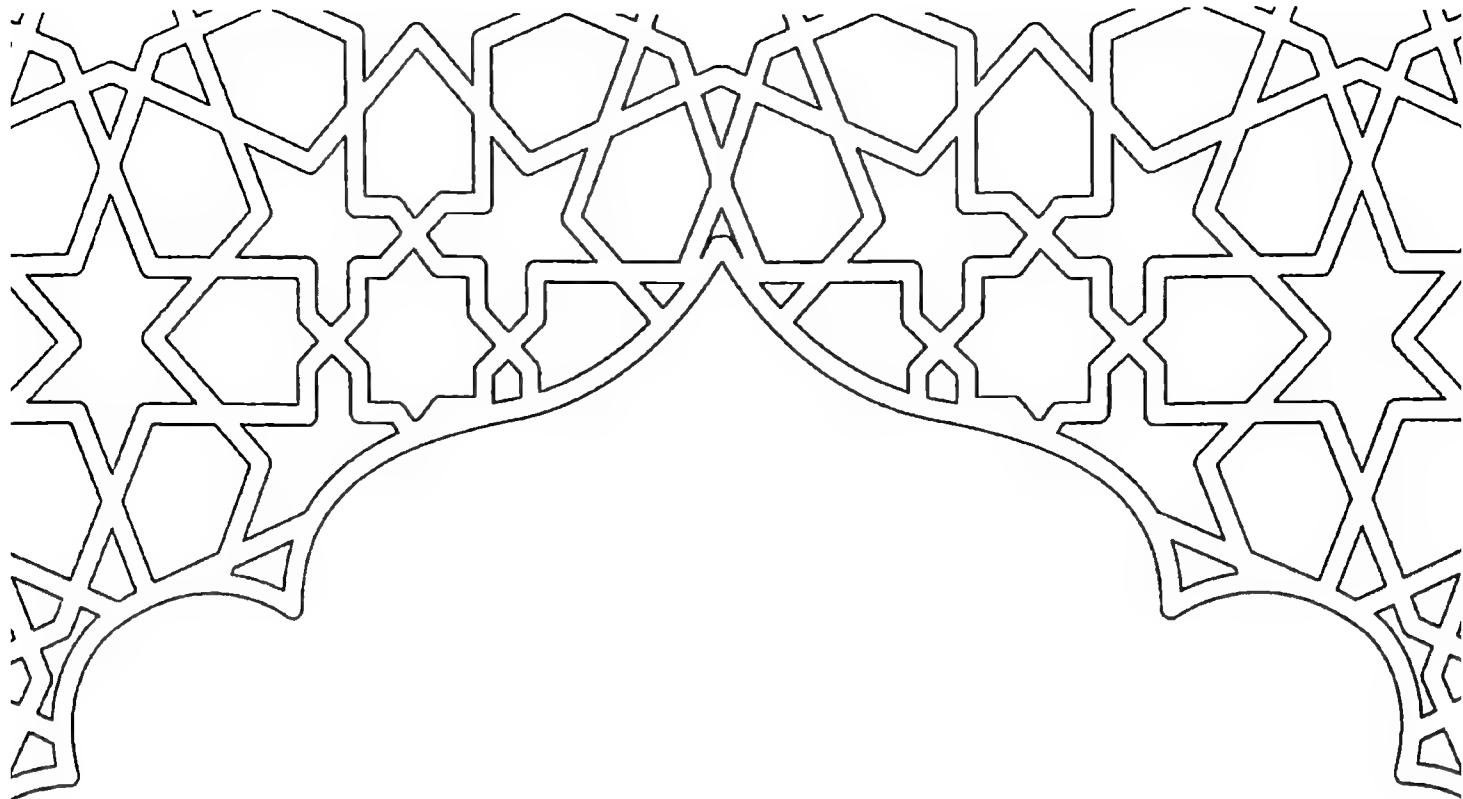
﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ ترغيبٌ آخرٌ بالجهادِ نُصرةً لدينِ الله، أمّا الله ﷻ فلا يحتاج من أحدٍ نُصرة، ونصر الدين هو جزءٌ من مُتطلّبات عقيدة الاختبار.

﴿كَأَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ والحواريون هم: الخُلَص من أصحاب عيسى ﷺ، وقد اختارهم الله هنا نموذجًا للتأسي، كما اختار إبراهيم وقومه في السورة السابقة؛ تأكيدًا لوحدة الرسالات السماوية، وأنها من مشكاة واحدة.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: استجابوا له، وهنا تعريضٌ بمن تخلف عن رسول الله ﷺ وتقايس عن الجهاد.

﴿فَأَمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ أي: آمنت برسالة عيسى ﷺ طائفةٌ من بني إسرائيل، وكفرت به أخرى.

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: رفع الله شأن المُصدِّقين برسالة عيسى ﷺ، وخفَضَ شأن اليهود الذين كَذَّبوه، وهذا مُلاحظٌ وملموِسٌ؛ حيث كان النصاري هم بناء الدول والحضارات، وبقِيَ اليهود يعيشون في الظلِّ، ويعملون في الخفاء، ويُهَجَّرُونَ من مكانٍ لآخر، ولا يستقلُّ أمرهم ويستقرُّ إلا بالاعتماد على غيرهم.



سُورَةُ الْجُمُعَةِ

المجلس السادس والخمسون بعد المائتين: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَنْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَابِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴿

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم

تتناول سورة الجمعة بعثة النبي ﷺ في هذه الأمة الأمية التي اختارها الله بعد انحراف بني إسرائيل عن حمل الرسالة الموسوية، ونقضهم لميثاق ربهم، وقد بينت السورة ما تحتاجه هذه الأمة مع تنبيه تربوي عملي من واقع تجربتهم البشرية الجديدة، وكما يأتي:

أولاً: استهلّت السورة بتسبيح الله تعالى وتمجيده لنفسه أنه هو الملك القدوس العزيز

الحكيم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثانياً: يمتنُّ الله تعالى على هذه الأمة الأمية أن بعث فيهم نبياً منهم يتلو عليهم آيات الله، ويُزَكِّي أنفسهم، ويُعلِّمهم القرآن والحكمة بعد أن كانوا في ضلالٍ وجهلٍ لا يقرؤون ولا يكتبون ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ثالثًا: أكدت السورة أنه ﷺ وإن بُعث في الأميين، إلا أن بعثته لكل الناس الآخرين من شتى الأمم والأقوام ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾.

رابعًا: نددت السورة ببني إسرائيل الذين شرفهم الله بحمل رسالته إلى الأرض، لكنهم نكسوا على رؤوسهم، وتخلّوا عن هذا الشرف العظيم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَنْسَى مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

خامسًا: حاججت هذه السورة اليهود الذين يدعون أن الميثاق لا زال معهم، وأنهم أولياء الله وأحباؤه، بأن يتمنوا لقاء الله، وهذه مُحاججةٌ تدخل في عمق نفوسهم، وتستنطق حقيقة ما يعتقدونه في وجدانهم وضمايرهم؛ فأولياء الله لا ينبغي لهم أن يفرّوا من لقاء الله لو كانوا موقنين بذلك، فإذا علم أن اليهود من أكثر الناس حرصًا على الحياة والتشبّث بها، بأن أنهم كاذبون فيما يدعون ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾.

سادسًا: بيّنت السورة للمؤمنين حكمًا من أحكام شريعتهم يتعلّق بأهم شعيرة جامعة من شعائر عباداتهم، والتي فيها إعلان هويّتهم، وترسيخ عقيدتهم، وتوثيق صلّتهم برّبهم ومع أنفسهم وإخوانهم ﴿يَتَّابِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾.

سابعًا: وقّفت السورة وقفّة تربويّة مع هؤلاء الأميين تُعلّمهم درسًا من دروس حياتهم العمليّة، وهذه ميزة التربية القرآنيّة أنّها تربية تعيش مع الناس في واقعهم وتجاربهم، وليست

تربية فلسفية، أو نظرية مجردة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً أَوَّلَتْ بِلُغَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَلَكَ نَجْمُهُمُ﴾.
﴿مَنْ أَلَّهْوٍ مِنْهُ فَبُذِلَ﴾ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿

دقائق التفسير

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنَزِّهُهُ تعالى عن كل صفة لا تليق به.

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أربع صفات لله تعالى مترابطة ومُتكاملة:

فالله (الملك) بمعنى أنه سبحانه له السلطان المطلق على هذا الوجود، وكل ملك أو سلطان آخر إنما هو على سبيل التحويل والاستخلاف والاختبار.

وهو سبحانه (القدُّوس) المنزه تنزيهاً تاماً عن كل صفة لا تليق به، واقتران هذا الاسم الشريف بالاسم الذي قبله؛ إشارة إلى تنزه الله عن الصفات التي تشين ملوك الأرض في العادة؛ من الظلم وقلة الاكتراث بأحوال العباد وحاجاتهم ومصائرهم.

وهو سبحانه (العزیز) الذي له العزة فلا يغلبه أحدٌ، ولا يحول بينه وبين ما يريد أحدٌ.

وهو سبحانه (الحكيم) أي: العليم بخلقه وما يصلح لهم، وقد ظهرت آثار حكمته في هذا النظام الذي أقام عليه الكون، وفي هذه الشريعة القادرة على تنظيم حياة الناس بدقّة وتوازن، فلا تغفل جانباً، ولا يطفئ فيها جانباً على جانبٍ.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ﴾ أي: في العرب، وسماهم الأميين؛ لأنهم ما كانوا يُحسنون الكتابة ولا القراءة من كتاب، بخلاف غيرهم من الأمم المجاورة، والعبرة في هذا بالعموم الغالب؛ فقد تجد عربياً متعلماً، وقد تجد غيره أمياً.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تعالى لم يقل: بعث إلى الأميين، بل قال: ﴿فِي الْأُمَمِ﴾؛ لأنه ﷺ مبعوث إلى الناس أجمعين، وإن كان مبعوثه في الأميين.

﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: من أنفسهم، بمعنى أنه ﷺ عربيٌّ معروفٌ حسبه ونسبه فيهم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ﴾ أي: يقرؤها عليهم، ويبلغها لهم كما أنزلت عليه.

﴿وَيُزَكِّهِمْ﴾ من التزكية؛ وهي كلمة جامعة لكل معاني التهذيب والتربية، بصقل النفوس وتطهيرها، وتنقية الآحاد والمجتمعات عن كل صفة ذميمة، أو خلق مشين، باستنهاض معاني الخير في الإنسان، ومحاصرة دوافع الشر فيه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يُعَلِّمُهُمُ القرآن وبيانه وكيفية العمل به وتنزيله في حياتهم، وكل ما يحتاجونه في شؤونهم العامة والخاصة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: كانوا في جاهلية ووثنية وضلال عن طريق الحق. ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ بمعنى أن بعثه ﷺ لم تكن للعرب خاصة، بل هي للناس أجمعين.

وفي الآية إشارة بدخول أمم آخرين في هذا الدين؛ لأنَّ ﴿لَمَّا﴾ النافية مُشْعِرَةٌ بقرب تحقق ما نفته، وأما كلمة: ﴿مِنْهُمْ﴾ فمعناها أن الذين يلحقون بالعرب هم أيضًا ممن كانوا في ضلال مبين، ومَن بعث ﷺ ليتلو عليهم آيات الله وَيُزَكِّيَهُمْ وَيُعَلِّمَهُمْ، وهذا هو واقع الدعوة المحمدية، وما تُؤكِّده مُحْكَمَاتُ القرآن مِن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ذَٰلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُونُسَ مَن يَشَاءُ﴾ مهَّد بهذه الجملة لما يأتي بشأن بني إسرائيل الذين شَرَّفَهُمُ الله بحمل الرسالة ثم تخلَّوا عنها، فاستبدل الله بهم غيرهم.

﴿حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: شَرَّفَهُمُ الله بحمل التوراة والعمل بها، لكنهم لم يحملوها، وهذا الحكم ليس عامًّا في كل الذين حملهم الله هذه الأمانة؛ فقد حملها موسى وهارون ومن معهما من صالح قومهما، وحملها من بعدهما أنبياء كثر، وصالحون آخرون لا يُحْصَوْنَ عددًا، فمنهم الذين قاتلوا مع طالوت ففتح الله عليهم، ومنهم الذين أقاموا مع داود وسليمان مُلْكَهُمُ العظيم، فالظاهر أن المقصود بهذا الحكم هم اليهود الذين عاصروا البعثة المحمدية، وتنگرُوا لميثاق ربهم حسدًا من عند أنفسهم.

﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هذا تشبيه لحال اليهود عند مبعث النبي ﷺ؛ إذ كانوا

يُفَاخِرُونَ غَيْرَهُمْ بِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهَا، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا، فَكَانَ مَثَلُهُمْ كَالْحِجَارِ الَّذِي يَحْمِلُ الْكِتَابَ عَلَى ظَهْرِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعِيهَا وَلَا يَفْهَمُهَا وَلَا يَدْرِي مَا فِيهَا. وهذا مثالٌ بليغٌ ينبغي أن يقف معه كلُّ مُدَّعٍ للعلم لكتِّبِ ورثتها من أبيه، أو شهادة حملها عن مدرسته وجامعته؛ فالعبرة ليست بكثرة الكتب، ولا بكثرة الشهادات، وإنما العبرة بالقدرة على الانتفاع بها، وتقديم الخير للناس منها.

﴿رَبَّنَا مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بمعنى أن هذا المثل الذي يحمل دلالةً بائسةً وسيئةً هو المثل الأنسب الذي يُشخص سوءَ حال هؤلاء القوم الذين كَذَّبُوا برسالة محمد ﷺ ولم ينتفعوا بما عندهم من التوراة التي تبشِّرُ به، وفيها وصفه وعلامة ظهوره.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أن هؤلاء اليهود إنما كَذَّبُوا برسالة محمد ﷺ بظلمهم وحسدهم وسوء طويبتهم، وليس عن نظير أو اجتهادٍ خاطيء.

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: يا أيُّها اليهود، وأصل كلمة (هاد) أي: عادَ ورجعَ، وهي كلمة مدح؛ لأنها مُستعملة في الأصل بمعنى: الرجوع إلى الحقِّ، ومُخاطبتهم بهذا الاسم؛ لصلته بادِّعائهم أنهم أولياء الله، وهو موضوعُ المُحاجة.

﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ إشارةٌ إلى ما يزعمونه في أنفسهم أنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي: تمنَّوا لقاء الله إذا كنتم صادقين في دعواكم تلك.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ من تحريفٍ لكتاب الله، وصدٌّ عن سبيل الله، وتكذيبٌ لرسول الله، فبأي وجه يلقون الله؟

﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ فهذا قدرُ الناس جميعاً، وليس أمامكم مهرب عنه أو ملجأ.

﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في هذا وعيدٌ لهم وتهديدٌ، فالله لا تخفى عليه منهم خافية، وسيُجازيهم على كلِّ ما اقترفوا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذا أمرٌ للذين آمنوا أن يسعوا إلى صلاة الجمعة إذا نُودي لها.

والنداء هنا: الأذان، وصِلَةُ هذه الصلاة بموضوع السورة: أن في صلاة الجمعة تلاوة للآيات، وتركية للنفوس، وتعليماً للقرآن والحكمة، بمعنى أن صلاة الجمعة وسيلة أسبوعية متكررة لتحقيق مقاصد البعثة المحمدية، كما أن اجتماع المسلمين في مساجدهم كل أسبوع يعزّز فيهم وحدتهم وانتماءهم لهويتهم الجامعة؛ وهذه شرط قيامهم بحمل أمانتهم التي شرفهم الله بها بعد أن نزعها عن بني إسرائيل.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ مؤقتاً بقدر ما تؤدّون فيه هذه الفريضة، ويُقاسُ على البيع كل عمل يشغل عن صلاة الجمعة ولو كان بذاته مشروعاً أو قرينة من القربات، فمن اشتغل مثلاً بتعليم أولاده القرآن وقت صلاة الجمعة فهو آثم، وكذا من اشتغل بالتهليل والاستغفار، أو بتقديم صدقة، أو عيادة مريض، أو صلة رحم، فالوقت هذا لا يتسع لغير صلاة الجمعة، إلا من عذرٍ بين.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: ارجعوا إلى أعمالكم واطلبوا من الله الرزق، وهكذا يجمع القرآن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، ولكن لكل منهما وقته المناسب له.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا الذكر المطلق الذي يستحب للمؤمن ألا يغفل عنه حتى وهو يبيع ويشترى؛ لأن هذا الذكر يُصَفِّي القلوب، ويبعد البائع والمشتري عن الغش والبُهت، والظلم صغراً أو كبراً.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ هذا تعقيب القرآن على حادثة معينة؛ فقد جاء في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ من الشام، فانفَلَّ الناس إليها حتى لم يبقَ إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة

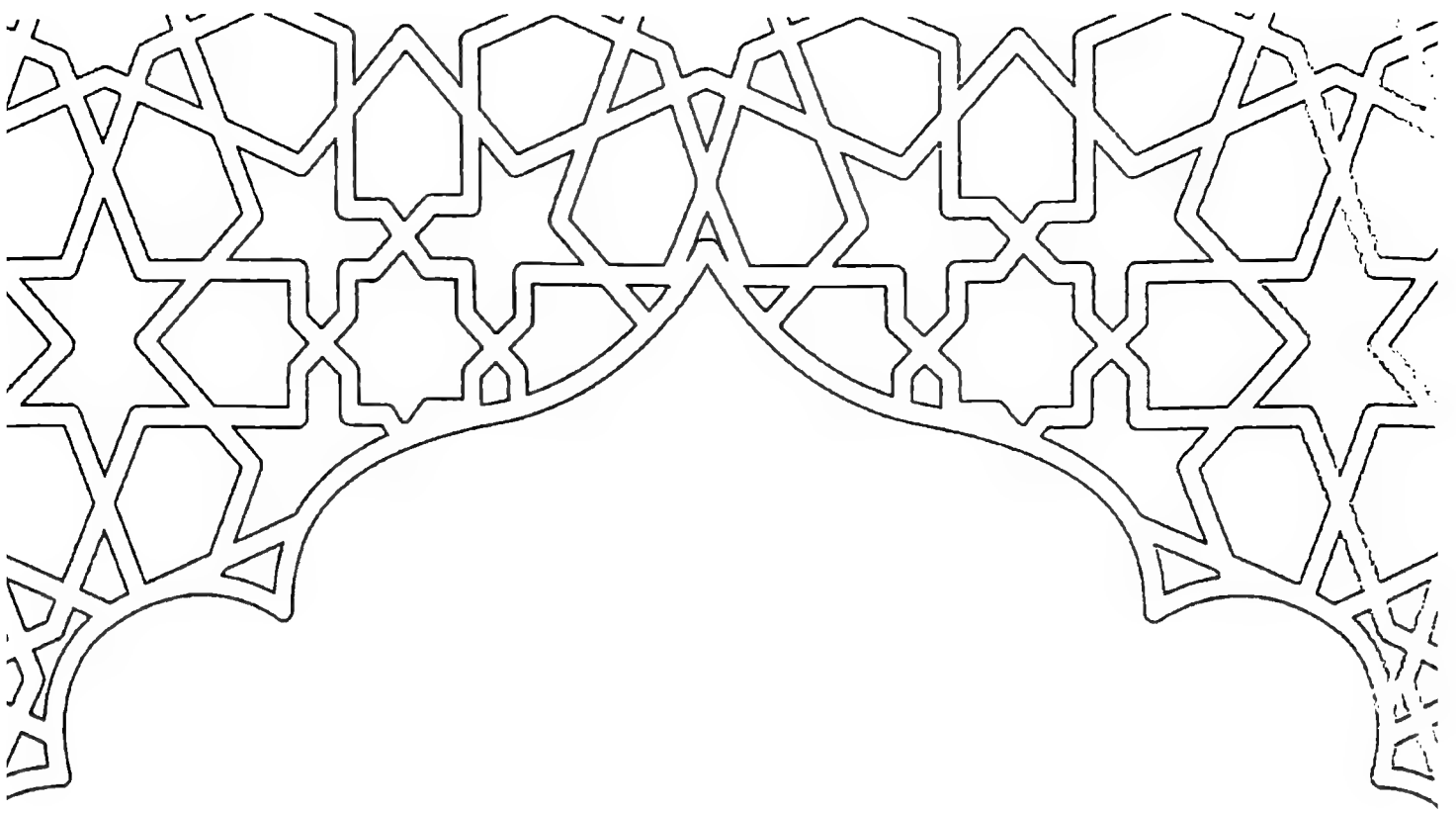
﴿وإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾^(١).

وهذه طريقة القرآن في التربية؛ فالناس لازالوا يتعلمون منه ﷺ، وقد كانوا في جاهلية عمياء لا يعرفون شيئاً، وهذا الدرس العملي هو جزء من أساليب هذه الدعوة المباركة في تحقيق مقاصد البعثة النبوية في التعليم والتزكية، وفيه إشارة إلى حلمه ﷺ، وهذا تعليم للمعلم أيضاً أن يكون واسع الصدر لتلاميذه، يترفق بهم، ويتدرج معهم.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: ما أعدّه لكم في صلاة الجمعة من تعليم، وتزكية، وثوابٍ عظيمٍ خيرٌ مما انصرفتم إليه.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ ختم بهذه الحقيقة؛ تحريزاً من توهم أنه لما فضّل الصلاة على التجارة في هذا الوقت أنه يريد منهم ترك العمل للدنيا، وترك السعي في طلب الرزق؛ فالإسلام دينٌ ودنيا، لا يرضى بدينٍ من غير دنيا، ولا دنيا من غير دين.

(١) متفق عليه عن جابر بن عبد الله ؓ، واللفظ لمسلم، ينظر: صحيح البخاري (٣١٦/١) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٩/٣) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).



سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

المجلس السابع والخمسون بعد المائتين: إن المنافقين لكاذبون

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَٰعِبَكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلَٰهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤْفِكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازٍ بِهِ وَسْهُمْ وَإِنَّهُمْ يَصَّدُونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَايِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَكَ الْأَعَرُومَنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

إن المنافقين لكاذبون

حركة النفاق من أخطر التحديات التي واجهتها الدعوة الإسلامية في المدينة، وقد مرر معنا في كثير من آيات القرآن المدني تفصيل لأخبارهم وصفاتهم ومواقفهم، وسبل التعامل معهم، والتوقي من دسائسهم ومكائدهم.

وهذه السورة تأتي بهذا السياق لتشخيص حالهم، ووضعهم في ميزان الله الذي لا يظلم أحداً:

أولاً: بدأت السورة ببيان أسلوب من أساليب النفاق الملتوية والمضللة؛ حيث يمارسون الكذب بأوسع نطاقه وفي أخطر مجالاته؛ إذ يُظهرون إيمانهم، ويُبطنون كفرهم، ويشهدون أن محمداً رسول الله، وهم يكيدون به ويتآمرون عليه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ

اللَّهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾.

ثانيًا: أكّدت السورة بما لا يقبل مجالًا للشك أو التردد أن المنافقين كافرون تمام الكفر، وقد طُبِعَتْ قلوبهم على ذلك ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ثالثًا: بيّنت السورة أن المنافقين مُعْتَنُونَ بمظهرهم الخارجي، مُهْتَمُونَ بمنطقهم وأسلوب حديثهم، وبهذا يكونون أقدر على الخداع والتأثير، مع أنها مظاهر فارغة تفتقر إلى الرجولة والشجاعة وقوة الشخصية، وكلمات جامدة تفتقر إلى الصدق والنبل والنية الشريفة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ﴾.

رابعًا: أكّدت السورة أنهم أعداء، لا فرق بينهم وبين الأعداء المكشوفين إلا من حيث الأسلوب وطريقة المراوغة والمخادعة، ولأنهم يعلمون أنهم أعداء للمسلمين فهم في ترقب دائم وتخوف من أي حركة ليست معلومة لديهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذَرَهُمْ فَنَالَهُمْ اللَّهُ أَيُّ يُؤْفَكُونَ﴾.

خامسًا: أكّدت السورة كبرهم واستعلاءهم الباطل، واستنكافهم من الاستغفار؛ ولذلك عاقبهم الله بالألا يقبل استغفار مُستغفر لهم، ولو كان رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

سادسًا: بيّنت السورة بعضًا من مواقفهم التي تُظهر ما أضمروا من كراهيتهم لهذا الدين، ورغبتهم في انفضاض الناس عنه ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

سابعًا: وكان من أخطر تلك المواقف: موقف زعيمهم ابن أبي بن سلول الذي شتم فيه رسول الله ﷺ وفداه آباؤنا وأمهاتنا، وهدد بإخراجه من المدينة! ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى

الْمَدِينَةَ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَٰكِنَّا الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

ثامناً: تختتم السورة بتوجيهات ربّانية للمؤمنين، تُحذّرهم بها من الانشغال بمتاع الحياة الدنيا عن ذكر الله والتمسك بشريعته، وتحثّهم على الإنفاق والصدقة من قبل أن يحين الأجل فتطوى الصحف، ويُقطع العمل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءُمُورُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

والإشارة في هذه التوجيهات إلى أن إثارة الحياة الدنيا ومتاعها وبهرجها على ما عند الله هو السبب في ضلال الضالّين، ونفاق المنافقين، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ المنافقون: جمع منافق، وهو الذي يُبطنُ الكفر وعداوة المسلمين ويظهرُ خلاف ذلك، وهم فئة تشكّلت بعد أن قويت شوكة المسلمين في المدينة بعد الهجرة. ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ هذا بما كانوا يُظهرونه، والحقيقة عندهم بخلافه؛ ولذلك عتب الله عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهادتهم منقوضة بشهادة الله عليهم، ولدفع التوهّم في تكذيب الله لشهادتهم، قدّم القرآن تأكيداً بصدق الرسول ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أيان: جمع يمين، وهو هنا: الحلف، والجُنّة: التُّرس وما يتخذ للمرواية، والمتصود أنهم اتخذوا كذبهم بادّعائهم الإسلام وتكرار حلفهم على ذلك؛ ليدفعوا عن أنفسهم العقاب والحكم عليهم بالردة أو الكفر المطلق، وما ينبني على هذا الحكم.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صدُّوا أنفسهم عن الدخول الصحيح في الإسلام، وعملوا على صدِّ الناس أيضًا بتهوين شأن الإسلام، وإثارة الشبهات، ونحو هذا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أي: آمنوا بألستهم، ثم استمرُّوا على الكفر، ولا يبعد أن يكون بعض المنافقين قد آمنَ في بداية الأمر ثمَّ لامه قومه وأصدقائه من المنافقين فأضلُّوه؛ إذ المنافقون ليسوا على سجيَّة واحدة، بل هم أشكال وأشتات من حيث بواعث نفاقهم، وشدة عداوتهم، وغير ذلك.

﴿فَطَعَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ خَتَمَ عليها بالكفر، فهم لا يؤمنون ولا يُرجى إيمانهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من أثر التنعم وحُسن الهيئة والمظهر.

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: إنَّ قولهم من شأنه أن يُسمع لفصاحته، وحُسن نظمه، وقوَّة إقناعه.

﴿كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ الخُشْبُ: جمع خشبة، ومُسْنَدَةٌ أي: لا تقف بنفسها، بل تسند إلى حائط ونحوه، فهم كالتماثيل الأنيقة التي لا روح فيها، ولا وعي عندها، ولا يُرجى منها خير.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى أنهم قَلِقُونَ خائفون مُتَوَجِّسُونَ من آية حركة يقوم بها المسلمون، خشية أن يكونوا قد افتضح أمرهم، وانكشفت سريرتهم.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ صَنَّفَهُمُ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ، ثُمَّ لَمْ يَأْمُرْ بِأَكْثَرِ مِنَ الْحَذَرِ مِنْهُمْ، فَلَمْ يَأْمُرْ بِقَاتِلِهِمْ مِثْلًا كَمَا يَأْمُرُ بِمَقَاتِلَةِ الْأَعْدَاءِ الْآخَرِينَ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِخْرَاجِهِمْ كَمَا أَخْرَجَ بَنِي النَّضِيرِ؛ وَفِي هَذَا حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَحْزَابِ وَالْجَمَاعَاتِ الَّتِي تُظَهَرُ الْإِسْلَامَ لَكِنَّمَا تُخْفِي خِلَافَهُ، وَقَدْ تَظَهَّرَ دَلَائِلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ وَلَحْنِ الْمَقُولَاتِ، فَلَا تَصِحُّ مُقَاتِلَتُهُمْ وَلَا إِخْرَاجُهُمْ إِلَّا بِتَمَرُّدِهِمُ الْمُسْلِحَ عَلَى سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ، وَهَذَا مَا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمُنَافِقُونَ، فَأَمِنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ.

﴿قُلْ لَهُمُ اللَّهُ﴾ هذا القول ليس حكماً بقتالهم، بل هو قولٌ مشوقٌ مساقٌ الدعاء عليهم، وغايته الإنكار والتشنيع عليهم وعلى أفعالهم.

﴿أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصَرِّفون عن الحق، والعبارة تفيد التعجب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ هذا قول الناصحين لهم ممن يظنُّ أنَّ زلاتهم هذه لا تُخفي وراءها نفاقاً، فينصِّحونهم بالاعتذار عند رسول الله ﷺ.

﴿لَوْ أَرَأَوْهُمْ﴾ أداروا رؤوسهم، وأعرضوا بها استكباراً واستنكافاً.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنَّ قلوبهم مطبوعة على الكفر والنفاق، فلا ينفعهم نصيحتي، ولا ينفعهم استغفاري، وفيه إشارةٌ إلى حرصه ﷺ على هدايتهم وتوبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ بمعنى أنَّ الله لا يُكرِه أحداً على الإيمان، وهذا من تمام العدل في تحقيق معنى الاختبار؛ فمن يطلب الهداية يهتدي، ومن يطلب الضلالة يضلُّ، وكلُّ مجزيٍّ بعمله.

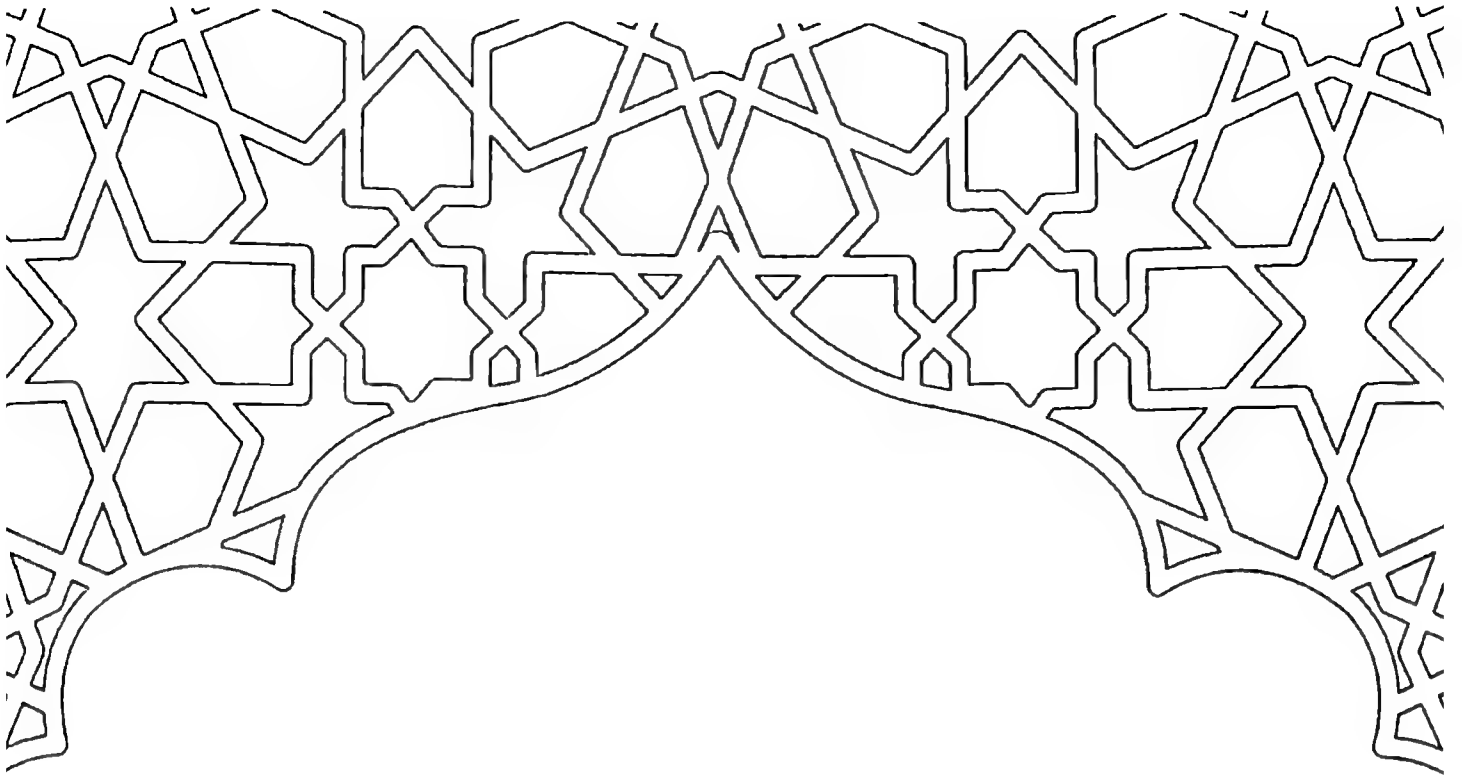
﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي: كانوا يتواصون بينهم بالكفِّ عن الإنفاق على من حول رسول الله ﷺ من الفقراء والمساكين حتى لو كانوا من أقربائهم أو ذوي رحيمهم بُغيةً أن ينفضوا عنه ويتركوه.

﴿يَقُولُونَ لِنَنْزِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَكَ الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ هذه مقولةٌ لزعيم المنافقين ينال بها من رسول الله ﷺ ويتوعده، ومع معرفته ﷺ بهذه المقولة وبقائلها وتمكُّنه منه تمام التمكُّن، إلَّا أنَّه عفا عنه وصفح، وهذا من حلمه ﷺ، وتعليمه للمسلمين كيفية التعامل مع مثل هذا الصنف من الناس، والسياق يُظهر أنَّ هذه المقولة الوقحة كانت في إحدى الغزوات؛ حيث كان رسول الله ﷺ خارج المدينة ومعه أصحابه وعامة المسلمين، وكان معهم ابن أبي بن سلول هذا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذه وصيةٌ

للمؤمنين ألا ينشغلوا بمتاع الدنيا عن ذكر الله، والذكر الذي لا يجوز الانشغال عنه بالمباحات إنما هو الذكر الواجب؛ كالصلوات الخمس، وحضور الجمعة، ومناسك الحج، وتعلم فرائض الدين، والتعريض هنا بالمنافقين الذين صدّتهم الدنيا عن الإيمان وعن ذكر الله الذي هو القرآن.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ هذا ندمُ الْمُقْصِرِ مع نفسه، والذي يترك وراءه مالاً وكان قادراً على أن يتصدّق به في حياته، فلما حِيلَ بينه وبينه، ورأى الموتَ أمامه تمنّى أن لو يرجع قليلاً ليتصدّق من ماله هذا الذي ادّخره، لكن سنّة الله بخلاف ذلك، فيأتيه الردّ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.



سُورَةُ التَّغَابُنِ

المجلس الثامن والخمسون بعد المائتين: يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن

سُورَةُ التَّغَابُنِ

﴿يَسْجُدْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعَفَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَنِيدٌ ٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَلَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ سَحَابًا مِمَّنْ عَمِلُوا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧﴾ فَنَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَذْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤﴾ إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥﴾ فَأَنْقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦﴾ إِن تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَّبًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨﴾

يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن

سورة التغابن وإن عدها الجمهور سورة مدنية، إلا أن موضوعها الأساس أشبه بالموضوعات التي تناولها السور المكية، ليس الموضوع فقط، بل حتى الأسلوب وصيغ المحاوراة والمحااجة، إنها تُناقش المشركين في مسألة البعث، وتذكّرهم بما أصاب أسلافهم، وما ينتظرهم من حسابٍ وعقابٍ.

ثم تلتفت السورة إلى المجتمع المؤمن لتحذّره من مزالق الفتنة، وهي التفاتة ليست في الخطاب فقط، بل كأنها نقلة من أجواء مكة إلى أجواء المدينة، ومن ثم رجّح بعض العلماء أن السورة مكية كلّها إلا ما بعد هذه الالتفاتة التي تبدأ بمخاطبة المؤمنين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَذْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

وهذه خلاصة للمسائل التي تناولتها السورة:

أولاً: تستهل السورة بتسبيح الله تعالى، وأنه مالك الملك المستحق للحمد، والذي هو على

كل شيء قدير ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثانياً: تؤكد السورة ربوبية الله وحده لهذا الكون، فهو سبحانه الذي خلق الإنسان؛ المؤمن

والكافر، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يعلم ما يكون في هذا الكون، وما

يُعَلِّمُهُ الْإِنْسَانُ وما يُخْفِيهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثالثاً: تذكر السورة المشركين المكذبين بهذا الدين بما أصاب أسلافهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾.

رابعاً: ترد السورة على المكذبين بالبعث، مؤكدة أنه آت لا محالة، وأن الناس سيُجمعون

جمعاً أمام الله، وكل مجزي بعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ

وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّفَافِينِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ

سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

خامساً: تؤكد السورة أن طريق النجاة إنما هو الإيمان بالله والتوكل عليه وحده، وطاعته

سبحانه وطاعة رسوله المبلغ عنه ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ،

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ

الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

سادساً: تتوجه السورة إلى المؤمنين تحذريهم من عدو قريب منهم، وما هو بالعدو المقاتل

المحارب، وإنما العدو الذي يُغري بالنار وطريقها، ويُبعد عن الجنة ونعيمها، وهذا بالميزان الإيماني أشدُّ خطرًا وأكثرَ عداوة من حامل السلاح الذي غاية ما يملكه أن يدفع بالمؤمن شهيدًا إلى الجنة، إنه العدو الذي يكون سببًا في الفتنة والردة عن طريق الحق والخير ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

سابعًا: تحتُ السورة هؤلاء المؤمنين على الثبات على التقوى وطاعة الله ورسوله، وأن يتصدَّقوا من مالهم ليُطهِّروا قلوبهم من داء الشحِّ والتعلُّق بالدنيا الفانية، وأنَّ الله سيجزيهم الثواب مُضاعفًا، والله هو الشكور الحليم ﴿فَأَقْضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٢﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٣ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

دقائق التفسير

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنَزِّهه الله عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ به سبحانه.

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قَرَنَ الْحَمْدَ بِالْمُلْكِ؛ للتنبيه أنَّ مُلْكَ الله تعالى لهذا الخلق هو مُلْكٌ عدلٍ ورحمةٍ، وليس مُلْكٌ ظلمٍ وعذابٍ، ومن ثمَّ فالله مُستحقٌّ للحمد مع المُلْك، بخلاف ملوك الأرض الذين يتسلَّطون على من تحت أيديهم بالتعسف والطغيان.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: خلقكم وأودعَ فيكم القدرة على الاختيار؛ فمنكم من اختار الإيمان بإرادته، ومنكم من اختار الكفر بإرادته، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والسُنن الثابتة التي تحفظ استقرارها واستمرار الحياة فيها.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ يمتنُّ الله على بني آدم أن خلقهم على هذه الصورة التي لا مثيل

لها في المخلوقات، وهي صورةٌ تُكَنُّ الإنسان من وظيفته في إعمار الأرض، وصنع الحضارات، فقوام الإنسان كله وكل أعضائه مُرَكَّبَةٌ بها يخدم الإنسان ليكون سيّد هذه الأرض، إضافة لما في هذا القوام من حُسنٍ وجمالٍ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما هو مكنونٌ في الصدور من النوايا والخواطر، وما يكتمه الإنسان من حُبٍّ وكره، وحُسن نيةٍ، أو سوء طويّةٍ.

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم﴾ أي: ذاقوا العذاب الذي هو عاقبة أمرهم في هذه الدار.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ استنكروا أن يبعث الله إليهم رُسُلًا من البشر، ولم يستنكروا على أنفسهم أن يتخذوا آلهة من الحجر!

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ بيّن لهم طريق الخلاص والنجاة؛ وهو أن يؤمنوا بالله المرسل، وأن يؤمنوا بمحمدٍ الرسول، وأن يؤمنوا بالقرآن الرسالة، وهو النور الذي أنزله على قلب محمدٍ ﷺ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ هو يوم القيامة، سُمِّيَ بيوم الجمع؛ لأنّ الخلائق كلها من أوّلها إلى آخرها وعلى مرّ أجيالها تُجمَعُ فيه، وسُمِّيَ يوم التغابن؛ لأنّه يوم الغبن، والغبن: الخسران؛ حيث سيري أهل النار خسارتهم، وذهاب ما كانوا يعولون عليه ويتخذونه وليّاً وشفيعاً.

وجاء الاسم بصيغة التفاعل (التغابن) وهي صيغة المشاركة؛ لأنّهم كانوا شركاء في هذا الخسران؛ حيث كانوا يتواصون بالباطل، فكلُّ واحدٍ منهم يغوي صاحبه، ويُزيّن له طريق الكفر والضلال.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ما يقع من مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ووفق حكمته وسُنَّتِهِ في الحياة، ومناسبة التذكير بهذه الحقيقة: أنّ المسلمين الذين أصابهم المشركون بالأذى في مكّة كانوا يسألون: متى يُنزِلُ الله عقابه في هؤلاء الظالمين؟ وكانت قريش تقول: لو كان

هؤلاء على الدين الذي يحبه الله لدافع عنهم، فهذه صورة من صور الصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

وقد جاء الجواب أن كل هذا الذي جرى للمسلمين كان بعلمه سبحانه، ولحكمة يعلمها هو، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وبشارة ضمنية لهم أن الله لا يريد بهم إلا خيراً.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ لهذا الفهم، فيسلم الله ويطمئن إلى قضائه وحكمه.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وطاعة الرسول هي من طاعة الله؛ لأنه ﷺ لا يأمر بشيء من نفسه، بل هو المبلغ عن الله؛ ولذلك جاء بعدها: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ نزلت هذه الآية في بعض المسلمين الذين أرادوا الخروج من مكة فمنعتهم نساؤهم وأولادهم، فأنزل القرآن هؤلاء الأزواج والأولاد منزلة العدو؛ لأنهم كانوا السبب في حرمانهم من خير كثير كان المهاجرون قد سبقوهم إليه، فتعلموا القرآن، وعاشوا نزول الوحي، وجاهدوا في سبيل الله، والعدو إنما هو الذي يريد شراً بعدوه، وإن كان بلباس آخر، وتحت عنوان آخر.

﴿وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن هؤلاء بعد أن رأوا كيف شرف الله إخوانهم المهاجرين بفهم القرآن، وأكرمهم بأجر الجهاد، وهم قد تحلفوا عن كل ذلك هموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، فرغبهم الله في العفو والغفران.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هنا: الاختبار، وليس فيها ذمٌ للمال والولد؛ إذ كل الحياة - وبكل ما فيها - إنما هي فتنة؛ الغنى والفقر، والصحة والمرض، وإنما العبرة بعاقبة الأمر.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ لأن الله لا يكلف نفساً فوق وسعها، والتقوى هي: اسم جامع لكل عمل يحبه الله، وهي في قلب المؤمن تعني: الرقابة والحس المرهف الذي يحول بين المرء وبين ما يَغضب الله، ومن التقوى مخافة الله، والحذر مما يَغضبه تعالى في تعامل المسلم مع أمواله وأهل بيته.

﴿وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ لأن الطاعة الحقّة لا تكون إلّا بأمر، فسماع الأمر وفهمه أولاً ثم العمل به؛ فمن سمع الأمر ولم يعمل به كان سماعه حجّة عليه، ومن عمل ما يظنّه قُربى من غير معرفة بالأمر كان عمله مُبتدعاً وليس بطاعة؛ إذ لا يتصوّر في الطاعة تجرّدها عن الأمر، ومن هنا كانت خطورة الابتداع في الدين؛ لأنّ المبتدع إنّما يُطيع نفسه، ولا يُطيع الله.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يسلمه الله من داء الشح فأولئك عند الله هم الفائزون.

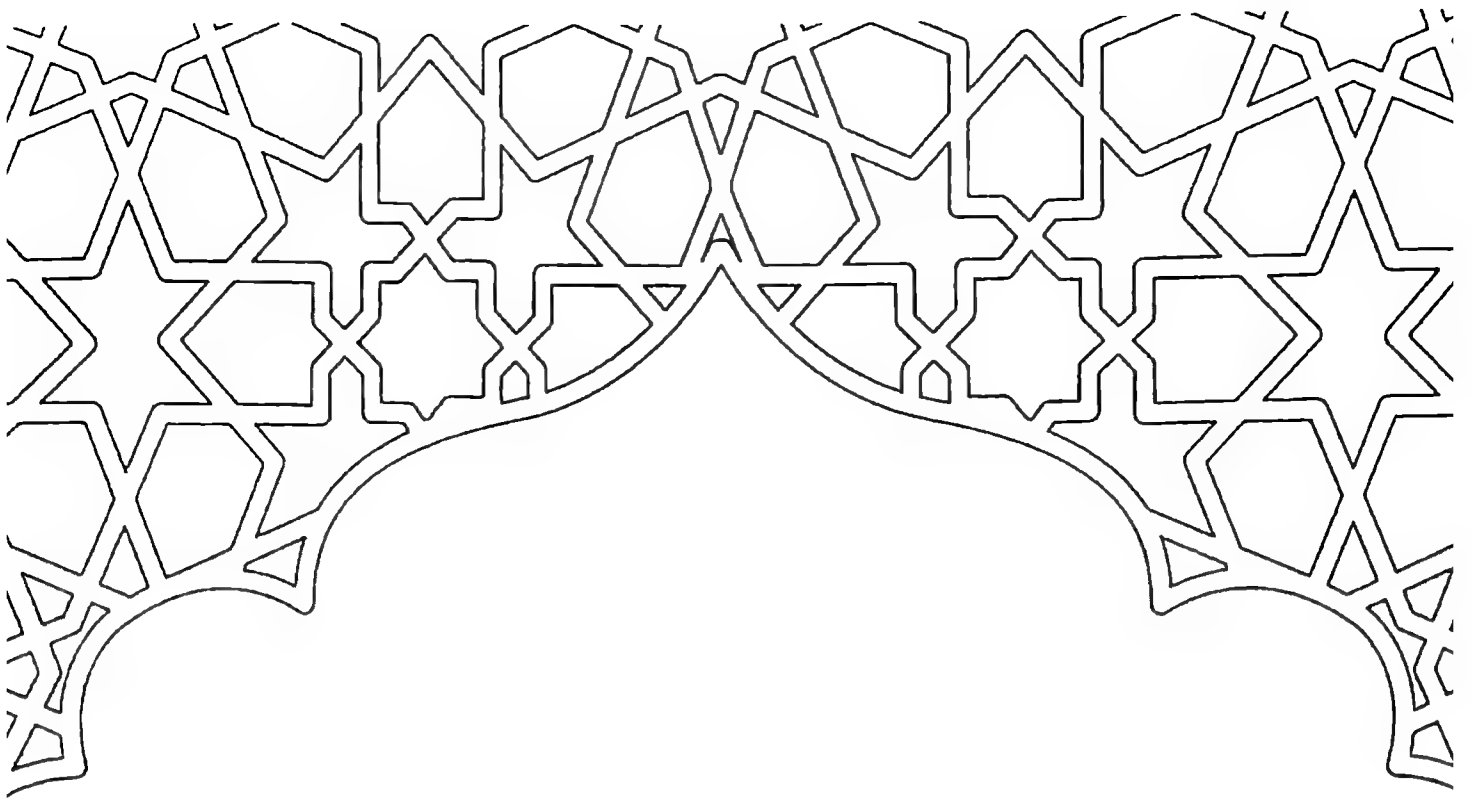
﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه الصدقة بالقرض الحسن؛ لأنّ المتصدّق ينتظر الثواب على صدقته، كالقرض الذي ينتظر الوفاء بقرضه.

﴿يُضَاعَفْ لَكُمْ﴾ أي: يُضاعف أجركم فيه.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يشكر لكم عملكم الصالح، ويُثيبكم عليه.

﴿حَلِيمٌ﴾ اسمٌ من أسمائه تعالى يدلُّ على الحلم، ومعناه هنا ألا يُعجل بعقوبة المقصّر أو المسيء، بل يُمهله لعلّه يتوب.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا يفوته شيءٌ سبحانه، ولا يُعجزه شيءٌ، وكلُّ شيءٍ عنده بميزان عدلٍ مستقيم.



سُورَةُ الطَّلَاقِ

المجلس التاسع والخمسون بعد المائتين: فقه الطلاق

سُورَةُ الطَّلَاقِ

﴿بِأَيِّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١ فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَاِمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ قَبْلُ ۝٢ كَانَ يَوْمُ مَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٣ وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝٤ إِنْ اللَّهُ بَلَغَ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٥ وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ آرَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَا تَحِيضُ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٦ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا ۝٧ وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ يَكْفُرُ عَنْهُ سِتْرَاقَهُ وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا ۝٨ أَتَسْكُنُونَهُ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَا تُلْزِمُونَهُنَّ لِنَضْمَانَهُنَّ وَلَئِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَلْيَنْقُتُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُدُّهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى ۝٩ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝١٠ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيْرًا ۝١١ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَيْرًا ۝١٢ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ۝١٣ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١٤ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٥﴾

فقه الطلاق

الأصل في الزواج أنه عقد دائم بين رجل وامرأة لتأسيس حياة مشتركة تقوم على الاستقرار والسكينة، والمودة والرحمة، لكن هذا يعتمد على التوافق النفسي والعاطفي بين الطرفين، وعليه فربما يكتشف الطرفان أو أحدهما أن الحياة المشتركة هذه لا يمكن لها أن تستمر لتنافر الطباع، أو لأمر آخر يجعل استمرار العلاقة متعذراً، أو لا يحقق سكناً ولا مصلحة.

بين هنا شرع الإسلام الطلاق؛ لكي لا يُجبر الطرفين أو أحدهما على الاستمرار في حياة لا يراها مسالمة له، ومع هذا فقد جعل الطلاق على مراحل متدرجة، ووضع له ضوابط محدّدة،

وبنى عليه حقوقاً معينة؛ ليطمئن أنه جاء نتيجة قرارٍ واعٍ، ورأيٍ مُستقرٍّ، وليس بسبب فورة غضبٍ، أو ردّة فعلٍ طارئةٍ، وأتت بعد الفراق يأخذ كلّ واحدٍ منهما حقّه دون ميلٍ أو ظلمٍ، وكما يأتي:

أولاً: حدّد القرآن وقتاً معيناً للطلاق ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ واللام هنا للتوقيت؛ كما قال في الصلاة: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: عند ذلوك الشمس، والوقت المحدّد للطلاق أن تكون في حالة طهرٍ لم يُجامعها فيه، فلا يجوز تطليقها وهي حائض.

وقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنهما كان قد طلق امرأته وهي حائض، فأمره النبي ﷺ أن يردها حتى تطهر، فإن شاء طلق أو أمسك^(١).

ثانياً: حدّد القرآن وقتاً تنتظر المرأة فيه وتمكث في بيتها فلا يجوز إخراجها منه، وهذا الوقت هو عدّة المطلقّة ﴿وَأَحْضُوا أَلْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وقد فسّرت آية البقرة هذه العدّة: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: ثلاث دوراتٍ شهريةٍ، وهذا وقتٌ كافٍ للتفكير والمراجعة وتدخّل أهل الخير للإصلاح، فللزوجة في هذا الوقت أن يرجع إليها، فإن لم يرجع حتى انتهاء الوقت كان هذا أمانةً على أن الطلاق لم يكن لفورة غضبٍ، أو ردّة فعلٍ طارئةٍ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ثالثاً: أمر القرآن بتوثيق أمرهما، سواء كان إمساكاً أو فراقاً، والتوثيق يكون بالإشهاد ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) رواه البخاري وغيره بألفاظ مختلفة، ينظر: صحيح البخاري رقم (٥/ ٢٠١٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م.

الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وفائدة الإشهاد هنا: ضمان حق الطرفين، وضمان ألا يقع خلاف آخر بينهما؛ فلو ادعى مثلاً أنه راجعها في العدة ونفت ذلك أو العكس، فسيكون هذا مشار نزع آخر لا يريده الإسلام لهما، والله أعلم.

رابعاً: فصل القرآن - إتماماً لموضوع العدة ومق دارها - حكم المرأة التي لا تحيض، كأن تكون بلغت سن اليأس، فإنها تعتد بثلاثة أشهر ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾.

وأما المرأة الحامل - والتي هي حالة ثالثة - فلها عدتها الخاصة بها ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٣﴾.

خامساً: فصل القرآن أيضاً بعض الأحكام والتوجيهات المتممة لحقوق المطلقة، ومن ذلك: أن يضمن لها زوجها سكنها المناسب لها بحسب استطاعته ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾.

ومنها: تحريم الإضرار بهن والتضييق عليهن بأي شكل من الأشكال ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ﴾.

ومنها: وجوب النفقة على المطلقة الحامل، وإعطائها الأجر على رضاعة الولد من يوم ولادته، فإن اختلفا في ذلك اختيرت له مرضعة أخرى ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فاسترضعوا لَهُنَّ أُخْرَى﴾.

سادساً: رغب القرآن بالنفقة على المطلقات المعتدات بما يغنيهن ويسد حاجتهن، وكل بحسب وسعه ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُتَّقِ اللَّهَ فَمَا أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنهَآ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

سابعاً: في ثانياً أحكام الطلاق هذه، كرر القرآن الوصية بالتقوى، ووعد المتقين بالسعة

وهذا التأكيد يُقصدُ به: ضمان حقوق الطرفين بدوافع إيمانية أخلاقية، أمّا اللجوء في كل شيء إلى القضاء مُكابرةً ومُغالبةً فهذا ليس من شأن المتقين؛ إذ القاضي إنما يحكم بما يستقصيه من أدلة وقرائن، فهو لا يعلم الغيب، وحياة الزوجين أكبر وأوسع من أن تستقصيها أدلة القاضي وقرائنه، ومن ثمَّ كان الذي يعلم أنه آخذٌ حقَّ غيره ولو كان بحكم القاضي أثماً ظالماً.

ثُمَّ يَوَجِّهُ خُطَابَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوا اللَّهَ، وَلِيَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِي أُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَدْ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ذِكْرُ ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١١﴾

ومُناسبة هذه التوجيهات وتلك التحذيرات لما تقدّم من أحكام الطلاق لا تخفى على مُتدبّر؛ فكلُّ تلك الأحكام إنّما هي فرْع لهذا الدين، وخَيْطٌ من نوره المبين، وهي المحلُّ

الدقيق لاختبار إيمان المؤمنين، وتدئين المتدينين، فمن ظلم وطغى وتجاوز الحد في حقوق امرأته أو مطلقتها، كيف نأمنه على حقوق الآخرين وأعراضهم وأموالهم؟
إنها المؤثر على مستوى الإيمان العملي، والتدئين الفعلي، أما الإكثار من الركعات والسجادات، وتكرار العمرات مع هذا الظلم الواقع في المعاملات، فليس ذاك سوى تغريب بالنفس، وتشويه للدين.

تاسعاً: تحتم السورة بالتذكير أن الله سبحانه خالق السماوات والأرضين، وهو صاحب الأمر فيهن، وهو المقتدر عليهن، والعليم بما يجري فيهن، فلا يُعجزه منهن شيء، ولا يغيبُ عن علمه شيء ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

دقائق التفسير

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الخطاب للأمة في شخص نبيها ﷺ؛ لأن هذا من التشريع العام لكل مسلم ومسلمة.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: في الوقت المحدد للطلاق، وهو الطهر الذي لم يحصل فيه جماع، واختيار هذا الوقت له أكثر من فائدة:

منها: أن المرأة في حالة الحيض تمر بوضع نفسي مختلف؛ فقد تصدر منها ألفاظ أو تصرفات تُثير الرجل، فلو طلقها في حيضتها لكان مُتَعَجِّلاً ومُتَهَوِّراً وظالماً لها.
ومنها: أن تحديد الطلاق بوقت معين يمنح الفرصة للتريث والتفكير، وكل هذا يؤكد أن الإسلام لا يريد التسرع بالطلاق، بل هو حريص على استقرار الأسرة، واستمرار الحياة الطبيعية فيها.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ الإحصاء معناه: العد والضبط، فالمُعْتَدَّة ينبغي لها أن تعد أيام عدتها بدقة لما ينبني عليها من أحكام دقيقة.

﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أضاف البيت لها وإن كان ملكًا لزوجها؛ لأنه من حقها أن تستقرّ فيه حتى انتهاء عدّتها، وفي العبارة من اللطف بها ومن المُرعاة لوضعها النفسي والاجتماعي ما لا يخفى.

﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ هذا استثناء من حقها في السكنى في بيت زوجها؛ إذ للبيت حرمة، وانتهاكها لهذه الحرمة يجرّمها من حقها هذا، وفي الحقيقة هذا حكم عام في المطلقة وغيرها، لكن التنبيه على حالة الطلاق؛ لأن الزوج المطلق لم يعد مُنتبها لها كما كان، ومدة العدة قد تطول إلى ثلاثة أشهر، وقد تكون المرأة ضعيفة الدين، قليلة الحياء؛ فوقعها في الإثم واردٌ، فوجب الاحتياط والتنبيه، والله أعلم.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: أمرًا فيه الخير لهما، وفي هذا تعليل لما شرّعه الله للمطلقة من المكوث في بيتها مدة العدة؛ فإن ذلك مظنة الصلح والتراجع، بخلاف ما لو خرجت فور سماعها لكلمة الطلاق، فإن دواعي الصلح تكون أبعد، والله أعلم.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربَ انتهاء العدة.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: لكم أن تراجعوهن وتمسكوا بهنّ، فتحسب هذه طلبة رجعية.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيمضي الطلاق على حاله من غير تراجع، فيكون بائنًا بينونة صغرى لا يحقّ له إرجاعها إلا بعقد جديد.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: أشهدوا على الإرجاع أو الفراق بشاهدين عدلين، درءًا لخلاف آخر قد يقع بينهما، وتوثيقًا لحقهما حتى لا يظلمها ولا تظلمه.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أمرٌ للشاهد أن يؤدّي شهادته وقت الحاجة إليها كما شهدها، وأمرٌ للمختلفين أيضًا أن يحرسا على الحق ولا يخرججا عن مضمون الشهادة الحقّة بمطل، أو حيلة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وعدٌ إلهي لمن يتوخى حق الله ولا يتجاوز حدوده حتى مع

من اختلف أو اختصم معه؛ فالرجل التقى إن أمسك أو فارق عن قصد التقوى، وليس غضباً أو حميةً فالله يكتب له الخير، وكذلك المرأة إن التزمت بتعاليم دينها، وبقيت في بيتها صابرةً محتسبةً حتى يتبين أمرها، فهي إلى خير، والله لن يضيعها.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه ومُغْنِيهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي: مُنْغِذُ حُكْمِهِ في خلقه كما يشاء سبحانه.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: أجلاً وغايةً ووقتاً مُحددًا، بمعنى ألا تستبطئوا فرج الله، فالله بالغ أمره، ولكن لكل أمرٍ وقته وأجله.

﴿وَالَّتِي يَسِّنْ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ أي: بلغن السن الذي لا تحيض فيه المرأة.

﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ هذه إضافةٌ بيانيةٌ لحالةٍ تعترض المرأة الكبيرة من أنها ترى دمًا، فلا تدري أهو من الحيض أم لا، أو أنها تحيض حيضات متقطعة وغير منتظمة، فإن كانت في مرحلةٍ قريبة من سنِّ اليأس، فحكمها حكم اليائسة، أي: تعتدُّ بثلاثة شهور، والله أعلم. تجذرُ الإشارةُ هنا أن عبارة (سن اليأس) يُقصدُ بها اليأس من المَحِيض لا غير.

﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ لصغرهنَّ، أو لأي سببٍ آخر، فعَدَّتْهُنَّ ثلاثة أشهرٍ كَعِدَّةِ اليائسة من المحيض.

﴿أَتَكُونُهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أي: أسكنوهنَّ عندكم، وفي هذا ترغيبٌ لهما بالصلح، والله أعلم.

﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ أي: مما تجدونه من سعتكم.

﴿وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولا تؤذوهنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ حتى يخرجنَّ، فالسكنى حقٌّ لهنَّ، وإخراجهنَّ بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ إثمٌ وظلمٌ.

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خصَّ الحامل بالذكر من بين المطلقات؛ لأنَّ مُدَّةَ الحمل قد تطول، فاقتضى التنبيه على أن نفقتها واجبةٌ مهما طالَّت مُدَّتُها، وأيضاً فإنَّ الحامل تستحقُّ النفقة حتى لو كانت مُطلقة طلاقاً بائناً، بخلاف غيرها؛ فإنَّ غير

الحامل لا تستحق النفقة إلا إذا كانت مطلقة طلاقاً رجعيّاً.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ بمعنى أنّها بولادتها تُصبح بائناً حتى لو كان طلاقها رجعيّاً؛ لأنّ مُدّة المراجعة انتهت، وفي هذه الحالة أصبحت امرأة أجنبيّة تستحقّ الأجر على إرضاعها.

﴿وَأْتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تشاوروا بما فيه مصلحة الرضيع.

﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ﴾ أي: إن اختلفتم في أجر الرضاع.

﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ بمعنى أنّ الرضيع لا يُترك من غير مُرضعة اتفقتم أو اختلفتم.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ ترغيب للغنيّ بالتوسّع في النفقة على مُطلّقه، وفي أجرها الذي تستحقّه مُقابل إرضاعها لولده.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنهَآ﴾ توضيح لحكم الفقير المُكلّف بالنفقة على المُطلّقة أو المُرضعة، فلا ينبغي الإضرار به، ومعنى هذا أنّ النفقة الواجبة تختلف باختلاف اليُسرة والعُسرة، وعلى المجتمع - وكذلك القاضي - إن بلغت المسألة عنده أن يُقدّر ذلك.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعدّ إلهيّ بتيسير الأمور لكلّ صادقٍ سَمِحٍ قاصِدٍ للحقّ، وفتح لباب الأمل والفال الحسن.

﴿وَكَايَن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكثير من القرى.

﴿عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: تمرّدت على شريعة الله وأحكامه، والتعريض هنا بمنّ يتمرّد على الأحكام المُتقدّمة في الطلاق وما يتعلق به من عدّة ونفقة ونحوهما.

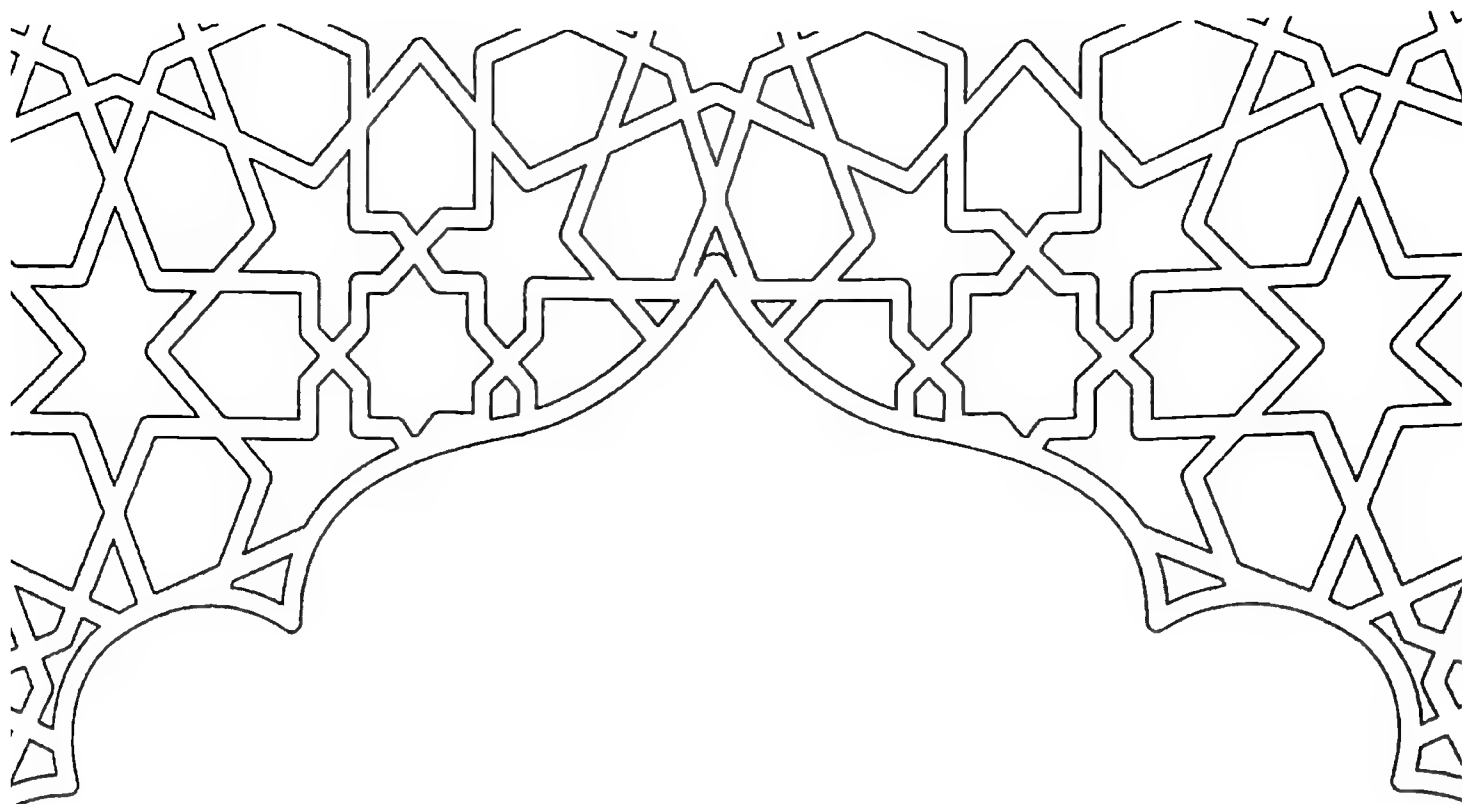
﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: فذاقت عقوبة الله لها على تمرّدها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ بأخذ العبرة من هذه القرى المُتمرّدة الهالكة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد، أمّا في غير العدد فبينهما من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله.

﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل الوحي من السماء إلى الأرض، وهذا إشعارٌ بجديّة تلك التشريعات التي أنزلها الله تعالى في هذه السورة العزيزة، وأنها من الوحي المعصوم من الخطأ أو الزلل.

﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: لتتذكروا قدرة الله عليكم؛ إذ هو الذي خلق هذا الكون بسماواته وأرضيه، وتذكروا علمه المحيط بكم؛ إذ هو الذي يُسيّر أمورَ هذا الكون، ولا يخفى عليه منه شيءٌ، فهذا أدعى للالتزام بأمره ونهيه، ومراقبته والخشية منه سبحانه على كلّ حالٍ، وفي كلّ مقالٍ.



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

المجلس الستون بعد المائتين: لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِضَاتُ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكَ مُؤْمِنَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قُنُسَاتٍ تِيبَاتٍ تَحْبِبْنَ سَيِّحَاتٍ لَبِيبَاتٍ نَبَاتٍ (٥) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا نُجَزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نُورَكَ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ فِي حَقٍّ وَهُمْ أَهْلُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٍ تُوْجُّ وَامْرَأَتٍ لَوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْفَاسِقِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتٍ فَرَعَوَتْ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَنْبَايَ عِنْدَكَ بَيْنَا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ الْفُقَرَاءِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرجَهَا فَفَخَخَا فِيهِ مِنْ رَبِّهِ وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْفَائِزِينَ (١٢)

لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

من حدث جزئي في بيت النبوة يبيّن القرآن قاعدة كليّة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ هذا هو موضوع السورة الأساس، ثم توسّعت السورة لتشرح ما انبى على هذا الحدث من أحكام وتوجيهات تفصيليّة، مُدْكَرَةً بنماذج من العلاقات الزوجيّة في قصص النبيين لمحل الحدث الذي هو سبب نزول السورة، والذي يُخصّ أمّهات المؤمنين:

أولاً: استهلّت السورة بسؤالٍ مُوجّه إلى النبيّ الكريم ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وهذا السؤال الذي جاء بصيغة التعجب إنّما يهدف إلى تأسيس قاعدة كبيرة تضمّ كثيراً

من الصور والتفريعات والمستجدات؛ حيث يكون من المعتاد في السلوك الديني التورع عن إباحة المحرمات.

أما تحريم المباحات فقد يُنظر له على أنه باب من أبواب الورع والتمسك بالدين، فترى بعض الفتاوى التي تتساهل في تحريم المباحات من غير دليل ولا حتى شبهة دليل، وقد يكون التحريم بدافع الزهد، والتقلل من مشاغل الدنيا، وقد يكون مجاملة لعُرف فاسد أو لجماعة لها توجه فكري أو سياسي معين؛ لكل هذا وغيره وخطورة المسألة هذه، اختار الله تعالى هذا الحدث الجزئي في حياته ﷺ مع زوجاته الطاهرات؛ حيث كُنَّ يتنافسن على التودد له والتقرب منه، وقد يدفعهن هذا إلى مُضايقته في بعض التصرفات التي تشج عن غيرة معروفة عند النساء.

فكان من ذلك: أن زوجته زينب كانت قد سقته شيئاً من العسل، فعلمت بذلك عائشة، فتواطأت مع حفصة ؓ على مقولة يُنفَرَنَه ﷺ من العسل، حتى لا يمكث وقتاً أطول مع زينب، فدخل على حفصة أولاً فقالت له: إني أجِد منك رائحة المغاير - وهي رائحة غير محببة -، قال: بل شربتُ عسلاً عند فلانة، ولن أعود له، وأوصاها أن لا تُخبر أحداً.^(١) والحققة أن النبي ﷺ لم يُحرّم ما أحله الله تحريماً تشريعياً - حاشا لله -، وإنما امتنع عنه امتناعاً، ومع هذا جاء هذا العتاب الربّاني؛ لتعلم الأمة كلّها منهجية التعامل مع ما شرّعه الله تحليلاً أو تحريماً.

وقد جاء في سورة المائدة ما يؤكد هذه القاعدة الجليّة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا

طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقد بيّنت سورة التحريم هذه علاقة أمّهات المؤمنين ﷺ

(١) وقد وردت هذه الواقعة في «الصحيحين»، فمن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان يمكثُ عند زينب بنت جحش، ويشربُ عندها عسلاً، فتراضيتُ أنا وحفصة أن آتينا دخلَ عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجِدُ فيكِ ريحَ مغاير، أكلتُ مغاير، فدخلَ هلى إحداهما فقالت له ذلك، فقال: «بَلْ شَرِبْتُ عَسْلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ»، فتركت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا

لَمْ يَنْهَ أَنْ يَ» إلى ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى آفَتِهِ﴾ الآية، لعائشة وحفصة؛ إذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه لقوله ﷺ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسْلاً». ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٢٠١٦ / دار ابن كثير، تع د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م) واللفظ له، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٤ / دار الجليل - مسورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تع مجموعة من المحققين).

بها جرى: ﴿تَبْلَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثانيًا: ذُكِرَتِ السورة بحكم الله في التحلل من القسم، وهو ما يُشير إلى أنه ﷺ قد أقسم ألا يشرب العسل ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، والتَّحِلَّةُ هنا: الكفارة التي وردت في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، مع ملاحظة أن التَّحِلَّةَ تعني: التحلل من القسم قبل الحنث.

ثالثًا: تناوَلَتِ السورة جانبًا آخر من القصة يتعلّق بإفشاء المرأة لسرّ زوجها، والمقصود بهذا: السيدة حفصة التي أسرّها النبي ﷺ بشرّبه العسل في بيت السيدة زينب، وطلب منها ألا تُخبر به أحدًا، فأخبرت به السيدة عائشة ؓ؛ لأنّها كانتا قد توطأتا قبل ذلك.

وهذه هفوةٌ منهما؛ إفشاء سرّ الزوج لا يصحّ بحالٍ، فكيف إذا كان هذا الزوج هو رسول الله ﷺ؟ من هنا كان عتابُها مع حليفتها عتابًا شديدًا بلغ مبلغ التهديد: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّتْ عَيْدَاتٍ سَبَّحْنَ ثِيَابَهُنَّ وَأَنكَرْنَ﴾.

ولا شك أن هذا كله جاء في مقام التربية والتعليم، من خلال الحركة والتجربة، والتعليم هذا ليس لعائشة وحفصة فقط، بل هو درسٌ للمُجتمعات الإسلامية إلى قيام الساعة، ومن ثمّ حظيت القصة بهذا الاهتمام والعناية القرآنية الفائقة والمفصلة.

رابعًا: انتقلت السورة بعد هذا الدرس الميداني العميق لتوجّه الخطاب للمجتمع المسلم على امتداد الزمان والمكان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَارًا وَغَفِرْنَا لَنَا ذُنُوبَكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذا تأكيدٌ أن تعليقَ القرآن على قصّة التحريم هذه والمنافسات التي كانت بين أمّهات المؤمنين لم يكن المقصود به معالجة تلك المشكلة المحدودة، وإنّما هي نموذجٌ قُصد به التأسيس لمنهجية عملية في كيفية التعامل مع مثل هذه المشكلات وإن اختلفت بأشخاصها وبتفاصيلها.

خامسًا: نَبّهت السورة إلى الطرف المعادي والمتربّص، والذي رُبّما يستفيد من مثل هذه المشكلات لإثارة الفتنة، وبثّ الشائعات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئْتَسَّرُ الْمَصِيرُ﴾.

سادسًا: بعد هذا النموذج العملي في التربية والتعليم ومن بيت النبوة، قدّمت السورة نموذجًا من التاريخ مما ينبغي الحذر منه والتنبّه إلى خطورته، وهو نموذج المرأة الكافرة في علاقتها مع زوجها المؤمن ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ﴾.

سابعًا: ثم قدّمت السورة نموذجًا للمرأة المؤمنة تكون عند الرجل الكافر، وهذا نموذجٌ معكوسٌ عما قبله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ﴾.

ثامنًا: ثم قدّمت السورة نموذجًا مُقارِبًا يتمثّل في المرأة الشريفة العفيفة النقيّة التقية ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ أي: لم تمتنع عما أحل الله وتحلف على ذلك، وكان ﷺ قد حلف ألا يشرب العسل، كما تقدّم.

﴿يَتَّبِعِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ وهذا من حِلْمِهِ ﷺ، وعظيم خُلُقِهِ وتواضعه، وليس منقصة في الزوج أن يتبعني مرضاة زوجته؛ فالعتابُ مُوجَّهٌ لنقطةٍ واحدةٍ فقط: أن يُحرِّمَ النبيُّ شيئاً مُباحاً على نفسه، وهو الأسوةُ الحسنةُ لكلِّ المؤمنين معه ومن بعده.

﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: التحلل من الأيمان بالكفارة المعروفة، والأيمان جمع يمين؛ وهي الحلف.

﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي: أخبرت غيرها بما أسرَّه النبيُّ ﷺ لها.

﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه على ما كان بين حفصة وعائشة ؓ.

﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أمّا الذي عرّفه - أي: أبداه - فهو الذي أبداه لحفصة، مُعَاتِباً لها على إفشاء سِرِّهِ بعد أن أمرها بكتِّمِهِ، وأمّا الذي أعرض عنه - أي: لم يُبديه لها -، فلم يذكره القرآن، ولم يأتِ بسُنَّةٍ صحيحةٍ؛ فالأولى الإعراضُ عن الخوض فيه، لكن الذي يُستفادُ منه أن التغافل وغيض الطرف عن بعض الزلات يُعينُ على مُحَاصَرَتِهَا وحلِّهَا.

﴿إِنْ نُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب لعائشة وحفصة ؓ يحثُّهما على المبادرة بالاعتذار والتوبة، وقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: إن تُبْتِئَا فقد مالت قلوبكما إلى الخير، وإلى البقاء مع رسول الله ﷺ.

﴿وَلِنْ تَظْهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: تُصِرَّا أن على المناجاة بينكما، وتعاونًا فيما لا يُرضيه ﷺ.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط، ومعناها أن الله ناصِرُهُ ومؤيِّدُهُ، ثم جبريل والمؤمنون في الأرض والملائكة في السماء، وهذا كُلُّهُ لإظهارِ شَرَفِ رسولِ الله ﷺ وعظيم مكانته عند ربِّه، وتأديبٌ للمسلمين عامّة، وتهديدٌ لمن حول المسلمين من يهود ومشركين ومنافقين، بمعنى أن الجواب

وإن كان مُتعلِّقًا بمناسبةٍ جزئيةٍ، لكن مدلوله أكبر وأوسع من تلك المناسبة ومُلابساتها.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ﴾ هذا تنبيهٌ مُستأنفٌ لكلِّ زوجاته ﷺ، وليس خاصًّا بهما، أن يُحافظن على هذا الشرف العظيم الذي حباهنَّ الله به، وكونهنَّ أمهاتٍ لكلِّ المؤمنين.

﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ﴾ في حالة توليَّهنَّ عن تلك المكانة العظيمة بارتكابهنَّ ما يُغضبُ الله ورسوله، وهذا الافتراض لم يقع، فدلَّ على أنهنَّ كنَّ كما يُريد الله، وكما يحبُّ رسوله، فهنَّ الأحبُّ إلى رسول الله، والأليقُّ له من كلِّ نساء الأرض، وأما الهفوة التي حصلت من بعضهنَّ فكانت درسًا بليغًا لهنَّ، وموعظةً للمسلمين والمسلمات عامةً في التأدُّب مع رسول الله ﷺ، والقفوة هذه لم تكن إلا بدافع حُبهنَّ له، وغيرتهنَّ عليه.

﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ يَبَسَّ عِيْدَاتٍ سَخَّحَتْ ثِيَبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ هذه الصفات هي التي يُريدها الله في أمهات المؤمنين، والخطابُ بالإشارة لهنَّ أن يكنَّ بهذه الصفات، وإن كانت الصيغة لنساء أخريات، ولكنهنَّ نساء مُفترصات؛ لأنَّ الله تعالى يعلمُ أنه لن يُطلقهنَّ، فعلمَ أن تحقق هذه الصفات هو المطلوب، وقد تحققت في أمهات المؤمنين ﷺ، والقائِلات: الطائِعَات، والسائِحَات: الصائِحات، أو المُخلِصات لدين الله، المُنقِطِعَات إليه.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ هذا تذكيرٌ للمؤمنين أن يحافظوا على إيمانهم، وأن يقوموا بمُتطلِّبات هذا الإيمان من أداءٍ للواجبات، وابتعادٍ عن المُحرِّمات، وكان الدرس المأخوذ من بيت النبي ﷺ مناسبةً للتذكير أيضًا بمسؤولية تعهُّد كلِّ مسلمٍ لأهل بيته بالنصح والموعظة، والتذكير بالآخرة.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِدُوا الْيَوْمَ﴾ هذه انتِقالةٌ من السياق لنقل صورةٍ من عذاب النار التي أمر الله المؤمنين أن يقُوا أنفسهم وأهليهم منها.

وذكرُ الكافرين هنا يُوحى بأنَّ النار خُلِقت للكافرين؛ بحيث إنَّ القرآن حتى وهو في سياق مخاطبة المؤمنين وتحذيرهم من النار جاء بمشهدٍ يخص الكافرين.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ هذا أمرٌ بالتوبة، والأصل في الأمر:

الرجوب، والتوبة: الاعتراف بالذنب والندم عليه، وطلبُ العفو والمغفرة، وإرجاعُ الحقِّ إلى أهله، والعزمُ على ترك الذنب وعدم العودة إليه، والتوبة النصوح: هي التي لا غشَّ فيها، بمعنى أنها توبة صادقةٌ ومُستوفيةٌ لشروطها.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ عسى هنا للرجاء المُتَحَقِّق؛ فمن تاب توبةً نصوحاً قبلَ الله تعالى توبته بوعده تعالى وفضله وكرمه.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ جَمَعَ الكفار والمنافقين تحت حكم الجهاد، وهذا من المُجَمَّل الذي فصله القرآن في آياتٍ أخرى، وفصلته السُّنة؛ فجهاد الكافر على ضربين: إن كان مُقاتِلاً وعدوًّا مُحاربًا فيُجاهد بالقوة، وإن كان مُسالمًا فيُجادل بالتي هي أحسن، ويُدعى إلى الإسلام بالرفق واللين.

وأما المنافق فلا يُجاهد بالسيف، وسيرته ﷺ كلها شاهدة على ذلك، وإنَّما جهادهم بمراقبتهم والحذر منهم، وكشف مُحْطَّاتِهِمْ، ومُحاصرة نفاقهم بالتربية الصحيحة، ونشر الوعي والفكر الصحيح بين المسلمين.

﴿وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واغلظ على مَنْ يستحقُّ الغلظة، وهو الكافر الحربيُّ، والغلظة صفة في الجندي المجاهد، وهي ضرورةٌ له ولا مناص عنها، بخلاف الداعية الذي يكون سلاحه العلم والحكمة والرفق حتى مع الكافرين ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ﴾ لما تقدَّم الحديث عن الذين آمنوا والذين كفروا، شاء الله ﷻ أن يُقدِّم أمثلةً من سيرة الذين مضوا قبلنا فيها نماذج للكفر، وفيها نماذج للإيمان، والنماذج الميدانية هذه أقربُ لتشخيص الحالة وقياس الحاضر عليها.

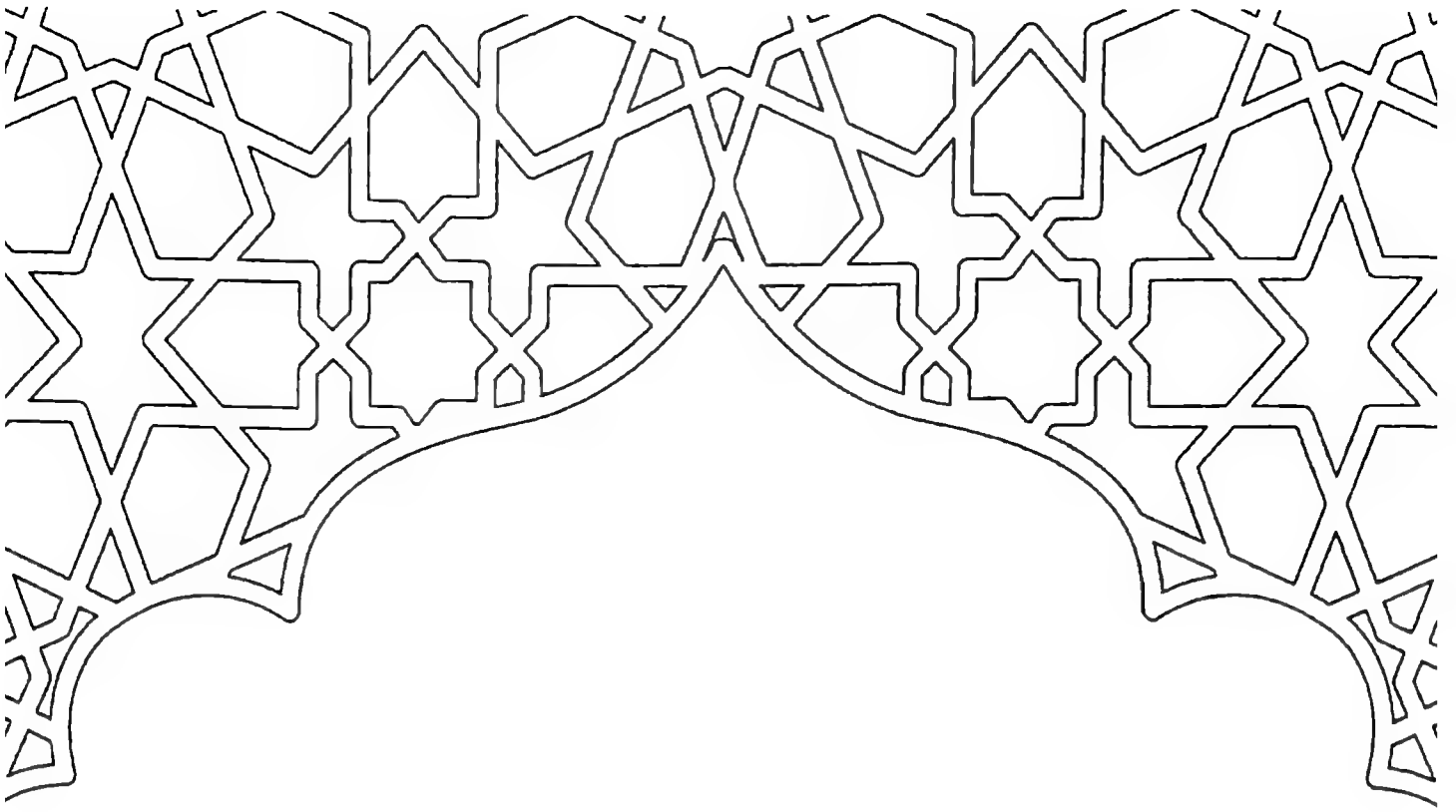
فمن الذين كفروا، اختارَ الله امرأتين كافرتين لم ينفعهما أنَّهما تحت نبيِّين من الأنبياء، بل ازدادتا إثمًا وبُعدًا ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: كانتا مع قودميهما الكافرين على زوجيهما، فهي خيانةٌ في الدين والموقف، وليست خيانةً في العرض

والشرف؛ لأنّ هذا قاديح في مقام النبوة.

﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ﴾ لأنّ الكافر لا تُغني عنه شفاعته، ولا يُقبل منه فداء، وهذا تأكيدٌ لعدله تعالى الذي لا تشوبه شائبة.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ﴾ وهذا المثل المقابل لامرأة نوح وامرأة لوط؛ إذ كانتا كافرتين تحت رجلين صالحين، وهذه امرأةٌ سالحةٌ كانت عند زوج كافر، وفي هذا إشارةٌ تربويّةٌ عميقة؛ وهي أنّ الإنسان مسؤولٌ عن ذاته وعن خياراته، وأنّ الأسرة والبيئة إنّما هي عناصر مساعدة.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ﴾ وهذا مثلٌ آخر للذين آمنوا؛ مريم التي جعلها الله وابنتها آيةً للعالمين، وهي المثل الأعلى للمرأة المؤمنة التي تُحافظ على عِفَّتِها، وتتمسك بدينها، وتصبر على تخرّصات أعدائها واتهامهم لها، حتى رفعها الله في الدنيا والآخرة.



سُورَةُ الْمُلِكِ

المجلس الحادي والستون بعد المائتين: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِذْ جَاءَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ أَنْجَعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّعِيرِ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَيَسِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتِ وَيَقِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَمْ يَنْتَهِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمِنْ يَنْتَهِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴿

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

تتناول هذه السورة المباركة المقصد العمليَّ الأساسَ لخلق الإنسان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فالإنسان مخلوق لهذا الاختبار الكبير، وأمامه ميدان واسع للتنافس والتسابق، وقد زوّده الله بكلِّ أدوات هذا الميدان؛ فأعطاه العقل، وأعطاه الإرادة، وركّبه بالصورة المناسبة لهذا العمل المطلوب منه، وسخر له كلّ ما يحتاج إليه في هذه الأرض، ثم حدّد له الأسُس التي ينطلق منها، والمعايير التي يُحاكم عليها.

تناول السورة هذه الأسس وهذه المعايير، مُحذرةً من مزالق الخسران وأسباب الضلال والجحيم، وكما يأتي:

أولاً: تَضَعُ السورةُ القاعدةَ الإيمانيَّةَ الكبرى التي تنبثقُ منها كلُّ تلك الأسس، وكلُّ تلك المقاصد، وكلُّ تلك المعايير ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فالله الذي بيده مُلك السماوات والأرض وما فيهنَّ هو الذي خلق هذا الخلق وصنّفه، وجعل لكلِّ جنسٍ أو صنفٍ وظيفته التي تناسبه.

ثانياً: ثمَّ تُفَصِّلُ السورةُ تلك القاعدةَ مُبيّنةً معالمَ تفرّده سبحانه في هذا الخلق، وفي هذا المُلك، فهو سبحانه خالق الحياة والموت ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، وهو خالق هذه السماوات التي تُحِيطُ بنا وبأرضنا أتى اتجهنا، وأتى نظرنا، وهي على سعتها وعظمتها جاءت بهذا الإتيان البديع ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝١﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٢﴾.

ثالثاً: وفي ضوء تلك القاعدة وتفریعاً عنها، حدّدت السورة المقصد الأساس لخلق الإنسان: ﴿لَبَسَلُوكُمْ آلِبُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مُؤكّدةً أنّ الله تعالى هو الذي اختار الإنسان لهذه الغاية، وهو الذي زوّده بأدواتها، ومهّد له الأرض وما فيها ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝٣﴾، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٤﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٥﴾.

رابعاً: أكّدت السورة أنّ الناس سيكونون على فريقين في هذا الاختبار الكبير: فريق يعرف طريقه إلى النجاة والفوز، وفريق غافل ساه لا يدري سرَّ حياته، ولا الغاية من وجوده ﴿أَفَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٦﴾ مُبيّنة عاقبة كلّ فريق؛ فأما المهتدون الطالعون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾، وأما الضالّون المكذبون ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾ إِذَا الْقُؤُوفِيَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وهي

تَقُورُ ﴿٨﴾، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾.

خامسًا: تُبَيِّنُ السُّورَةُ الْأَسْبَابَ الَّتِي أودَتْ بهؤلاء الهالكين، في حوارٍ تنقله لنا من تلك الدار؛ دار الحساب والجزاء ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ إِنَّهُمْ عَظَلُوا فِي أَنْفُسِهِم أَدْوَاتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لَهُمْ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِعَقُولِهِمْ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ هَدْيِ نَبِيِّهِمْ.

سادسًا: تُؤَكِّدُ السُّورَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيمُ بِخَلْقِهِ، يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَنُونَ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّهَا يُحَاسِبُهُمْ عَلَى عِلْمٍ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْاِخْتِبَارِ الْعَادِلِ الَّتِي لَا غَبْنَ فِيهِ، وَلَا جَهَالَةَ، وَلَا مُحَابَاةَ ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢﴾﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾﴾، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَدِيرُ عَلَيْهِمُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾﴾.

سابعًا: بَعْدَ كُلِّ هَذَا التَّبَيِّنِ لَطَبِيعَةِ الْاِخْتِبَارِ وَأُسُسِهِ وَمَا يَنْتُجُ عَنْهُ، رَاحَتِ السُّورَةُ تُهَدِّدُ أُولَئِكَ الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ وَتُنذِرُهُمْ وَتَتَوَعَّدُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى رَشْدِهِمْ، وَيَفَكَّرُونَ بِمَا يَنْتَظِرُهُمْ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

ثامنًا: ثُمَّ رَاحَتِ السُّورَةُ تَأْخِذُهُمْ فِي هَذَا الْمَلَكُوتِ الْوَاسِعِ وَمَا فِيهِ مِنْ آيَاتٍ وَدَلَائِلٍ، وَتَطُوفُ بِهِمْ فِي جَوَانِبِ حَيَاتِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَتَنَبَّهُونَ لِأَلَاءِ اللَّهِ وَنِعْمَةِ الْمُبَثُوثةِ لَهُمْ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلٌ وَيَقِظُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تقدَّسَ وتعظَّم.

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فلا مالِك غيره على الحقيقة، وكلُّ مُلْكٍ سواه إنما هو على سبيل التحويل والاستخلاف والاختبار.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لِيختبركم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مجالٌ غيرُ مُحدودٍ للتنافُس والتسابق في مراتب الكمال.

﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض.

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ لأنَّه صنعة الرحمن، فلا تجد فيه خللاً، ولا تناقضاً.

﴿فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: أعد النظر مرَّةً أخرى إن كنت ترى خللاً لم تُبصره في المرَّة الأولى، والقصد من هذا: تنبيه العقول إلى دقَّة الصنعة، ودقَّة النظام الذي يحكم هذا الكون، مما لا يدع مجالاً للريب أن وراء هذا الكون خالقاً عظيماً، حكيمًا قديرًا ﷻ.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: دقَّ النظر مرَّةً بعد مرَّة، وكرَّةً بعد كَرَّة، وهذا طلبٌ وتأكيْدٌ للطلب على سبيل التحدي؛ ولذلك كان جوابه:

﴿وَنَقَلْتَ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا﴾ أي: خائبًا؛ لأنَّه لم يجد ما يطلبه.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليلٌ مُتعبٌ من كثرة التحديق والتأمل في هذه السماء دون أن يجد فيها صدعًا أو تناوتًا.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ بعد ذكره لقيمة الإتقان والإحكام في بناء السماء، ذكر قيمة الجمال والزينة، ومن تأمل السماء ليلاً وهو في الصحراء بلا أضواء ولا ضوءاء، ليس له إلا أن يقول: تبارك الله.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ هذه من الأخبار الغيبية التي نُؤمنُ بها كما جاءت، فلا يتحصَّل في الذهن صورتها ولا كيفيتها، لكن مقصودها بيِّنٌ جليٌّ؛ فالسماء محروسةٌ لا يمكن أن يصل إليها شيطان، ومؤدَّى هذا الإخبار: سلامة الوحي من عبث الشياطين، وإثبات كذب

السحرة والمشعوذين في ادّعائهم معرفة الغيب عن طريق الجنّ.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ هذه صورةٌ سمعيةٌ لجهنّم - أعادنا الله والمسلمين منها -؛ إذ تُصدِرُ صوتًا شبيهاً بصوت الهواء المتردّد في صدر الإنسان لغيظه وشدّة غضبه، ويكون هذا الصوت مُصاحِباً لفورانها وغلّيّانها.

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْآفِيطِ﴾ أي: تكاد تنقطع من الغضب، والقرآن يُشَبِّهُ النار كأنّها كائنٌ حيٌّ ينفعلُ بما حوله ويحسُّ ويغضبُ، وليس هذا بمُستبعدٍ؛ فأحوال الآخرة لا تُقاسُ على أحوال الدنيا، والله أعلم.

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعةٌ من الكافرين.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي: حُرَّاسها يسألون الكافرين الذين يلقون فيها:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يسألونهم هذا السؤال توبيخاً لهم.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وهذا التكذيب لم يكن عن نظرٍ وتفكيرٍ

جادٍّ، وإنّما عن هوى وضلالة؛ ولذلك قال لهم خزنة جهنّم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقد كانوا يسمعون، لكنّهم عطّلوا حاسة

السمع عندهم عن سماع الحقّ، وقد كانوا يعقلون، لكنّهم عطّلوا عقولهم عن التفكير في

الحقّ، وما هم اعترفوا بذنبيهم، ولكن في الوقت الذي لا ينفع فيه اعتراف ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ

فَسُحِقُوا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قدّم المغفرة؛ تطميناً لقلوبهم،

وإذهاباً لخوفهم مما ارتكبوه أيام جاهليتهم، أو ممّا أصابوه من ذنبٍ وزلٍ لا يخلو منه إنسانٌ

في العادة، ثم بشرهم بالأجر الكبير.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ فكلاهما سيّان في علم الله ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ استنكارٌ وتعجبٌ بمن يشك بعلمه الشامل ﷻ؛ إذ كيف لا يعلم

أحوال الخلق وهو الذي خلقهم؟ فخلق الشيء يستلزم العلم به بالضرورة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: مُدَلَّلَةً ومُهَيَّأَةً لَكُمْ.

﴿فَاتَّبَعُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: اسعوا في جنباتها وطرقها وأطرافها، فكلُّها مُسَخَّرَةٌ لَكُمْ.

﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ ربطُ لطيفٍ بين المشي في مناكب الأرض وبين الرزق، بإشارة أنَّ الرزق بحاجة إلى السعي والبحث في مسالك الأرض ظاهرها وباطنها، وفي كل ما أودعه الله فيها.

﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ أي: بعثكم وحشركم ومرجعكم.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: أأمتم عذاب الله؟ والله لا تحويه أرض ولا سماء، وإنما هي صفة العلوِّ المطلق لله تعالى، والتي تُردِّدها في كلِّ سجدة نسجدها: «سبحان ربي الأعلى»، وعلوُّ الله ليس كعلوِّ البشر؛ كما أنَّ كلَّ صفاته العلية ليست كصفات البشر.

﴿أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وهذا التهديد إنما هو للمُشرك الذي يُنكر خضوع هذا الكون كله لناموس الله ونظامه الموحد، ويُنكر تسخير هذه الأرض لهذا الإنسان ليؤدِّي عليها وظيفته، كأنه يقول له: فماذا أنت فاعلٌ لو خُسِفَتْ بك هذه الأرض وماجَت واضطربت، مَنْ الذي ترجوه، وَمَنْ الذي تدعوه؟

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هذا تهديد آخر قُصِدَ به التنبيه إلى دلائل قُدرة الله في السماء، وكيف ينزل منها الماء الذي به قوام الحياة، وتُزَيَّنُ بالشمس والقمر وهذه النجوم والكواكب، فماذا لو تغيَّرت الحال - والخطابُ للمُنكرين والمُكذِّبين - فَأَنْزَلَتْ السماءَ الحجارةَ عليكم بدل الماء، فَمَنْ ترجونه آنذاك، ومن تدعونه؟

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: نذيري، بمعنى: سترون كيف إنذاري لكم، وكيف سيتحقَّقُ فيكم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكيري عليهم، وهذا تذكيرٌ لمُشركي مكَّة بما أصاب أسلافهم في القرون الماضية؛ حيث أنكرَ الله عليهم كفرهم وعنادهم حتى أهلكهم، والتذكير هذا يحمل التهديد والتخويف لهم؛ لأنَّ مبناه القياس والاعتبار.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِظْنَ﴾ يُنبِّهُ القرآن هذه العقول إلى النظر في جنس

الطيور، وهي من لحمٍ وعظمٍ ودمٍ؛ كيف تطير فوق الناس كأنها تتحدّاهم وتحلّق عاليًا في كبد السماء، تصفّ أجنحتها في منظرٍ مستقرٍّ مهيبٍ وجميلٍ، ثم تقبضُها إذا أرادت أن تُسرّع في حركتها، هكذا يراها الإنسان وهو العاجز عن تقليدها، ثم لا يسأل نفسه مَنْ الذي زوّد هذا الطائر بأدوات الطيران، ومَنْ الذي فتح له هذه الأجواء فيتنفّس منها، ويعوم فيها كما يشاء.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ أي: ما يُمْسِكُ هذه الطيور في هذا الفضاء ويمنعهنَّ من السقوط إلا الرحمن تبارك وتعالى، فهو برحمته الذي يَسِّرُ لها كلّ ذلك لتُضفي على هذا الكون حالةً من الأنس والسكينة والجمال.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ هذا تهديدٌ آخر يُناسب عنادهم وغرورهم، وسؤالٌ لهم على جهة الاستنكار عن هذا الذي يمكن أن يكون جُنْدًا لهم ينصرهم ويدفع عنهم بأسَ الله إذا جاءهم، ومجيء اسم: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هنا - والمقام مقام وعيد وتهديد - يُوحِي بأنَّ الله لا يحبُّ لهم العذاب، بل هم الذين يجلبونه لأنفسهم؛ فإنَّ الذي يُزيّنُ السماء بكلِّ تلك الزينة؛ زينة الكواكب وزينة الطيور، ويسخرُ لهؤلاء الناس كلّ ما يحتاجون إليه لا يمكن أن يُريد بخلقه شرًّا ولا بعباده عذابًا، ﷻ وهو أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ وغرورهم هذا هو الذي أهلكهم.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ فالله يرزقهم على كفرهم، وهو لو شاء سبحانه لحبس عنهم ماء السماء، ولمنع عنهم نبات الأرض، ولابتلاهم بالقحط والجوع، فمن ذاك الذي سيمطر لهم السماء أو ينبت لهم الأرض؟

﴿بَلْ لَجُوا﴾ تمادوا في عنادهم وخصومتهم للحقّ.

﴿فِي غُتْرٍ﴾ في طغيانٍ وتكبرٍ.

﴿وَنُفُورٍ﴾ وإعراضٍ عن الحقّ.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعْ مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعْ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا مثلٌ ضرب به الله يُقارَنُ فيه حال الكافرين وهم حيارى يتخبّطون ويتلمّسون مواطئ أقدامهم؛ لشدة حيرتهم، وظلمة

طريقهم، بحال المؤمنين المطمئنين الذين يسيرون على الجادة المستقيمة البيّنة برؤوس مرفوعة، وقامات معتدلة لا تخشى التعثر.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بمعنى أن الله الذي خلقكم قد زوّدكم بأدوات المعرفة؛ من سمع وبصر وعقل، ولكنكم أهملتموها ولم تشكروا الله عليها، فالشكر كما قال الجنيد: (أَلَا تَسْتَعِينُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَعَاصِيهِ).

وهؤلاء وظفوا سمعهم وبصرهم وعقولهم في الصّدّ عن سبيل الله، وفي الآية توبيخ لهم على قولهم السابق: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كثرتم فيها فكنتم شعوبًا وقبائل.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: علم يوم القيامة؛ فهو إلى الله وحده، وإنما يعلم الرسول ما يعلمه عن طريق الوحي، فليس للرسول أن يعلم الغيب من نفسه، ولا أن يبلغ شيئًا لم يأمره الله بتبليغه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ فلما رأوا يوم القيامة بأهواله وعذابه حالًا عندهم وقريبًا منهم.

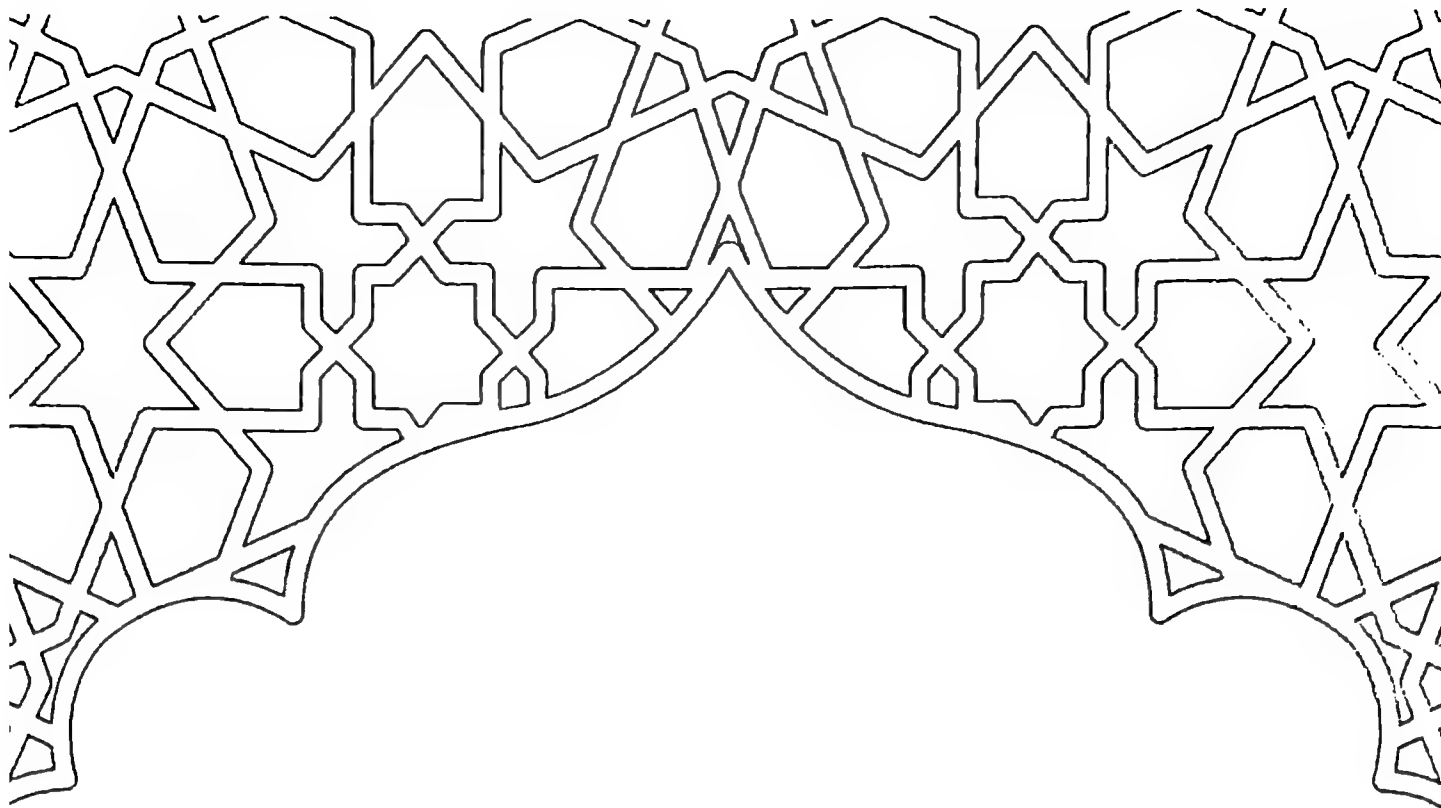
﴿سَيَبْتَ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب (لما)، أي: لما رأوا العذاب أصابهم السوء، أي: الغم حتى ظهر على وجوههم.

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي: هذا الذي كنتم تكذبون به وتدعون أنه لن يكون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فقد كان المشركون يتمنون موته ﷺ، فيقول له الله سبحانه: قل: ماذا لو أن الله أماتني وأمات معي كل أصحابي، أو أبقانا برحمته لتستمر هذه الدعوة، فهذا أمر الله وإرادته التي لا رادّ لها، لكن هل هذا سينفعكم وسيدفع عنكم عذاب الله الذي ينتظركم؟ ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ كلام مستأنف، يُعلن عن عقيدة هذه الأمة عقيدة التوحيد الخالصة: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ فلا ربّ غيره، ولا خالق ولا رازق سواه، آمنّا به وحده، وتوكلنا عليه وحده.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض لا يستطيعون له طلبًا ولا تصلون إليه.
﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ظاهر وجارٍ بين أيديكم، والسؤال استنكاري بمعنى أنه إن منع الله
عنكم الماء، فلن تقدر أصنامكم على أن تأتيكم به، والمقصود بكلّ هذا: التنبيه على دلائل
قُدرة الله ووحدانيّته ورحمته بهذا الخلق.



سُورَةُ الْقَتْلِ

المجلس الثاني والستون بعد المائتين: وَأَنْكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ

سُورَةُ الْقَلَمِ

بسم الله الرحمن الرحيم
 ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصِرُ
 وَيُبَصِّرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَذُوا لَوْ تَذَهَبُ
 فَيَذَهُنَّ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءً بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴿١٢﴾ عُمِلَ بَعْدَ ذَلِكَ رِزِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا
 مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ أَيْنَسْنَا قَالَكِ اسْطِيرُ الْآوَلِينَ ﴿١٥﴾ سَخِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْتَمُوا
 لَبَصْرُهَا مَصْبِيحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مَصْبِيحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعْدُوا عَلَى خَزَنِكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخِفُّونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى خَزَنَةٍ دِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
 مَخْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْرَأْنَا إِنَّا كُنَّا
 طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَ أَمْرَنَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ
 ﴿٣٤﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْتَارُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بَلَاغَةٌ إِلَى يَوْمِ
 الْفَيْصَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى
 الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ
 مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
 رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رِيئَهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
 ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ

تناول سورة القلم شؤون الدعوة المكيّة، خاصّة أنّها من أوائل سور القرآن نزولاً، مُركّزة
 الحديث في الجانب الأخلاقي، بدءاً بتزكية النبي الكريم ﷺ، ثم ببيان سوء أخلاق مُكذّبيه
 ومُعانديه، ثم بتقديم نموذج من قصص الماضين يُبيّن تأثير الإيمان في أخلاق الناس، مع
 محاججات لمشركي مكّة، ثم تختتم السورة بتوجيهات للنبي الكريم ﷺ بالصبر على عناد
 قومه ونفورهم عنه، وأخذ العبرة من قصة يونس عليه السلام لما ضاق ذرعاً بقومه حتى تركهم، ثم

أرجعه الله إليهم، وكما يأتي:

أولاً: تبدأ السورة بتزكية النبي الكريم ﷺ تزكية شاملة مؤكدة ذلك بالقسم ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ فقد زكاه الله تعالى في عقله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وزكاه في دينه ومكانته عند ربه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وزكاه في خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولقد كانت قريش تنال منه وتطعن في عقله حتى اتهموه بالجنون، وتطعن في دينه حتى اتهموه بالسحر والافتراء على الله، وتطعن في خلقه حتى رموه بالكذب، واتهموه في قصده ونيته؛ كل ذلك لينفروا الناس عنه، خاصة أولئك البعيدين عن مكة، والذين ربّما يفدون إليها للحج أو التجارة، فكانت هذه الكلمات تؤثر فيهم، وكان ردّ القرآن واضحاً ومباشراً، وقادراً على أن يصل لكلِّ أحدٍ بكلِّ يسر.

ثانياً: تؤكد السورة أنه سيأتي اليوم الذي تنكشف فيه الحقائق انكشافاً حتى يتبين للناس مَنْ كان أولى بهذه التهم الباطلة، وَمَنْ هو المهتدي الماشي على الصراط المستقيم، وَمَنْ هو الضالُّ التائه الحائد عن الصراط ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ثالثاً: تعرض السورة صفات أولئك الكاذبين المكذّبين، والمستوى الأخلاقي المهين الذي يرتكسون فيه، وَمَنْ ثُمَّ تدعو النبي ﷺ - والخطاب عامٌ لكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ - ألا يكثر لحم، ولا يضعف أماسهم ﴿فَلَا تَطِغِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ وَدُّوا لَوْ يُدْهِنُ فَيْدْهُنُوتَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِغِ كُلَّ حَلَّافٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءَ نَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلِ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا نَتَلَى عَلَيْهِ، ابْتِغَاءً لِنَفْسٍ أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

رابعاً: تقدّم السورة نموذجاً فيه الدرس البليغ، وفيه الربط الوثيق بين الإيمان والأخلاق، وخلاصته أن إخوة كان لهم بستانٌ مُشْمِرٌ، وقد حان قطاف ثمره، فاتفقوا بينهم أن يخرجوا في الصباح الباكر خفية حتى لا يعلم بهم الفقراء الذين كانوا ينتظرون هذا اليوم لعلهم يحظون منهم بشيء، فلما حسموا أمرهم بحِرمان الفقراء، حسم الله أمر بستانهم، وحرّمهم من

قَطَافِهِمْ وَمَصْدَرِ رِزْقِهِمْ، فَاعْتَبِرُوا بِذَلِكَ وَنِدِمُوا ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْشُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أِنِ اعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَاحِبِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْرَأَ لَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَنِ رَبِّنَا إِن يُّدِيلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

خامسًا: تُحذِّرُ السُّورَةُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ مَغَبَّةِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي عِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَتَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا بُرْهَانَهُمْ عَلَى مَا يَدَّعُونَهُ، أَوْ شَاهِدًا يَشْهَدُ لَهُمْ، أَوْ إِنْ كَانُوا قَدْ أَخَذُوا مِنَ اللَّهِ مَوْثِقًا فَهُمْ مُطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ، أَوْ إِنْ كَانُوا مُتَبَرِّمِينَ مِنْ ثِقَلِ الْأَجْرِ الَّذِي يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ لِقَاءَ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وَتَعْبِهِ مَعَهُمْ ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخِيرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رِجِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَلِيعَةً أَنْصَرُّهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرَرٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

سادسًا: تَدْعُو السُّورَةُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى أَنْ يَصْبِرَ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ لَهُ وَإِنْ كَانُوا قَدْ بَلَغُوا فِي أَذَاهِ كُلِّ دَبْلَاغٍ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ ؑ؛ إِذْ ضَاقَ ذُرْعًا بِقَوْمِهِ، فَخَرَجَ عَنْ غَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَرْجَعَهُ إِلَيْهِمْ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن نَّدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي لَنَازَعْتَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ت﴾ من الأحرف المقطعة، وقد تقدّم الكلام فيها وبيان القول الراجح في تفسيرها أول سورة البقرة.

﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يُقَسِّمُ اللهُ بِأَدَاةِ تَوْثِيقِ الْعِلْمِ؛ وَهِيَ الْقَلَمُ، وَيُقَسِّمُ بِهَا يَكْتُبُهُ الْكَاتِبُونَ؛ وَهُوَ الْعِلْمُ نَفْسُهُ، وَفِي هَذَا إِعْلَاءٌ مِنْ شَأْنِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، وَلَمْ يُفْصَلِ الْقُرْآنُ فِي مَضْمُونِ هَذَا الْقَسَمِ، فَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي يَدُونَهُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، وَالْعِلْمِ الَّذِي يَدُونَهُ الْعُلَمَاءُ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أَي: مَا أَنْتَ مَعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ وَخَصَّكَ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ وَسَائِرِ الْكِمَالَاتِ بِمَجْنُونٍ، بِمَعْنَى أَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ ظَاهِرَةٌ بِكِمَالِ الْعَقْلِ وَالْخُلُقِ وَالْحِكْمَةِ، فَكَيْفَ يُقَالُ عَنْكَ مَجْنُونٌ؟

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أَي: أَجْرُكَ عِنْدَ اللَّهِ دَائِمٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ لِكِمَالِ دِينِهِ وَعَظِيمِ مَنَزَلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وَالْخُلُقُ عَامٌّ فِي كُلِّ السَّجَايَا وَالشَّمَائِلِ الْمَرْغُوبَةِ، وَاسْتَعْمَلَ فِيهَا كَلِمَةً (عَلَى) الَّتِي تُفِيدُ التَّمَكُّنَ التَّامَّ، بِمَعْنَى أَنَّهُ ﷺ قَدْ تَمَكَّنَ تَمَكُّنًا تَامًّا مِنْ كُلِّ مَعَانِي الْأَخْلَاقِ حَتَّى تَحَقَّقَ فِيهِ الْكِمَالُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾ أَي: سَتَعَلَّمَ يَا مُحَمَّدُ، وَسَيَعْلَمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ - الَّذِي تَنْكَشِفُ فِيهِ الْحَقَائِقُ، وَتُظْهَرُ فِيهِ الْخُبَايَا.

﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ الْفِتْنَةُ هُنَا تَعْنِي: الْاضْطِرَابَ بِسَبَبِ جُنُونِ الْعَقْلِ، أَوْ سُوءِ الْخُلُقِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَعْلَمُ النَّاسُ مَنْ الَّذِي كَانَ مَفْتُونًا بِعَقْلِهِ وَدِينِهِ وَخُلُقِهِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلْمَفْتُونِ، وَهُوَ التَّائِي وَالْخَارِجُ عَنْ جَادَةِ الصِّرَاطِ.

﴿وَهُوَ أَغْلَمُ بِالْمُتَهْتِدِينَ﴾ في إشارة إلى إمام المهتدين سيدنا محمد ﷺ ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

﴿وَدَوُّا لَوْنُذَهُنْ فَيَدْهِنُونَ﴾ أي: تمنى المشركون لو تداهنهم وتلين لهم فلا تُسفّه دينهم، ولا تعيب عليهم أصنامهم، فيلينون لك هم كذلك، فلا تسمع منهم مثل هذه الشتائم. والمداهنة التي يرفضها الشرع هنا هي المداهنة في تغيير العقائد، وتحريف الأحكام، أمّا لو كانت المداهنة بمعنى اللين في القول، والمبرّة بالخلق، والتعاون في وجوه الخير؛ كنجدة المظلوم، وإغاثة اللهفان فلا حرج في هذا.

وقد مرّت معنا آيات كثيرة في هذا، من مثل قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقول الله تعالى لموسى وهارون ﷺ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، والمراد به هنا: الكثير من الكذب فيما يحلف عليه.

﴿مَهِينٍ﴾ ضعيف في رأيه، حقير في خلقه.

﴿هَمَّازٍ﴾ كثير الهمز؛ وهو الطعن في الآخرين بالغيبة وغيرها.

﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ كثير النميمة.

﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ﴾ شحيح لئيم لا يحبّ الخير للآخرين.

﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز للحدّ بعدوانه على الحقّ وأهله.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم.

﴿عُتْلٍ﴾ غليظ الطبع، ظلوم جهول.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: وفوق كلّ الذي مرّ من الصفات القبيحة فهو زَنِيمٌ؛ بمعنى أنّه

لصيقٌ بقريش وليس منهم، وهذه الصفة تعني أنّ القرآن قصد معيّنًا لكنّه لم يُسمّه، والأولى السكوت عن ذلك؛ إذ لا فائدة في تعيينه الآن.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ تعليلٌ لغلظته وشدته في الباطل، وغروره وتكبره.

﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطره الأولون من قصصٍ وحكاياتٍ لا تستند إلى علمٍ ولا

دليل.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخِزْيُومِ﴾ أي: سنضربه على أنفه، وهذا كناية عن إذلاله غاية الإذلال؛ إذ

الأنف عند العرب رمزٌ للكبرياء والأتفة، ورُبَّما كان هذا الشقيُّ ممن قُتِلَ في بدر، والله أعلم.

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: اختبرناهم كما اختبرنا أصحاب البُستان، والاختبار

هنا يعني أنه تعالى أمهلهم وأمدَّهم بما يتمتَّعون، حتى يرى مُحسنهم من مُسيئهم، وكان هذا

التشبيه مدخلًا لطيفًا لقصة أصحاب البُستان هؤلاء.

﴿إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: عزموا على أن يجذُّوا ثمارها فجراً، حتى لا يعلمَ بهم أحدٌ

من الفقراء الذين كانوا ينتظرون منهم شيئاً في يوم جذاذها، كما كانت سُنة أبيهم في رعايته

للفقراء.

﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ أي: لا يتركون من ثمرها شيئاً إلا أخذوه.

﴿نَطَافَ عَلَيْهَا طَافٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: فنزل بها من أمر الله ما نزل وهم نائمون، ورُبَّما

كان ذلك صاعقة من السماء.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالرماد الأسود؛ وهذا أنسب التفسير إن كانت قد هلكت حرقاً

بالصاعقة التي ضربتها، والله أعلم.

﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ليمضوا فيما عزموا عليه.

﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ﴾ أي: بكرروا وامشوا إلى بستانكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ سَرِيمِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على قطف الثمار، والشرط هذا ليس على سبيل

التعليق؛ إذ لا وجه للتعليق هنا، بل هو لحثهم على الإسراع، كأنَّ قائل هذا القول قد

استبظأهم.

﴿فَالْمَلَأُوا وَهُمْ يَخْشَفُونَ﴾ يتهامسون فيما بينهم كي لا يسمع بهم أحدٌ.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ إذ هذه هي غايتهم الميَّنة والمتفق عليها بينهم.

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدْرَيْنَ﴾ أي: أصبحوا قادرين على منع المساكين مما يتظرونه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: لما رأوها مُحترقة قد ذهبت معالمها، قالوا لأوّل وهلتهم: إِنَّا

لضالُّون.

﴿بَلْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ﴾ أدركوا الحقيقة أنهم أرادوا حرمان المساكين، فحرّمهم الله.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْفَلْ لَكُمُ اللَّوْلَا تُسْحَرُونَ﴾ أي: قال لهم أحكمهم وأعدلهم رأياً: ألم أنصحكم بأن

تذكروا الله وتسبّحوه؟ والظاهر من السياق أنّه يلومهم على فعلتهم مع أنّه كان معهم،

بمعنى أنّه لم يكن راضياً بما بيّثوه تجاه المساكين، لكنّه لم يجد بُدّاً من الذهاب معهم؛ لأنّ

البستان بستانهم جميعاً.

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: اعترفوا بخطئهم، وأبوا الرُّشدَهم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ والتلاوُمُ عادة البشر في مثل هذه الأحوال، حتى لو

اشتركوا في الفعل، فالذي انقدحت في ذهنه الفكرة وأشار عليهم بها يتحمّل اللوم أكثر، ثمّ

مَنْ سارَعَ في تأييده، وهكذا.

﴿قَالُوا يُونُسُ لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تأكيد لاعترافهم، لكنّه اعترافٌ ممزوّج بالندم والحسرة.

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ بعد أن استيقظ الإيمان في قلوبهم، وأقروا

بخطئهم، راحوا يسألونه سبحانه أن يُبدِّلهم خيراً منها، وهذا هو طريق المؤمن حينما يهفو

ويقع في الذنب؛ أن يعترف أولاً ولا يُكابِر أو يُعاند، ثم يُصحّح مسيرته، ويفتح باب الرجاء

والأمل الواسع مع ربّه، فهو سبحانه الغنيُّ عن مُعاقبة عبّيده، لكنّه يُرييهم ويُنبّههم ليردّهم

إليه.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: هكذا يكون العذاب إذا أراد الله أن يعجّل به لأحدٍ في

الدنيا، وفي هذا تهديدٌ لمُشركي قريش أن يُصيبهم عذابٌ قريبٌ قبل عذابهم الآخر الذي

هو أشدّ وأكبر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ هَدَّوْهُمْ بِالْعَذَابِ، ثُمَّ رَغَّبَهُم بِالنَّعِيمِ، وَهَكَذَا هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ تَجْمَعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ﴾ سَوْأَلُ اسْتِنكَارِيٍّ، وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِعَقِيدَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ، فَإِنَّهَا التَّمَايُزُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ آخَرَ.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ، وَمَعَايِيرَهُمْ وَمَوَازِينَهُم الَّتِي يَحْكُمُونَ بِهَا، وَيَقِيسُونَ عَلَيْهَا.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٢٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يَسْأَلُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ مَعَايِيرِهِمْ تِلْكَ: هَلْ كَانَتْ مِنْ كِتَابٍ قَدْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ كُلُّ هَذَا الَّذِي يَتَخَيَّرُونَهُ وَيَشْتَهَوْنَهُ؟ وَالْقُرْآنُ يُوَكِّدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَسْتَنْدُونَ إِلَى شَيْءٍ مَكْتُوبٍ وَمَوْثِقٍ، وَإِنَّمَا هُوَ الْهَوَى وَالطَّغْيَانُ.

﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَيْنًا بَلِغَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ: إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ عَلَى وَفْقِ مَا تَشْتَهَوْنَ، فَهَلْ كَانَ لَكُمْ عَهْدٌ ثَابِتٌ وَدَائِمٌ مَعَ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ كُلَّ مَا تَحْكُمُونَ بِهِ؟ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَيُّ: مَنْ هُوَ كَفِيلُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي يَتَكَفَّلُ لَكُمْ بِكُلِّ هَذَا الَّذِي تَتَمَنَوْنَ وَتَشْتَهَوْنَ، وَيَعْلَمُ كُلَّ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالْمَوَاقِيقِ؟

﴿أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أَيُّ: إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ كُفْلَاءٌ يَكْفُلُونَ لَهُمْ حَقَّهُمْ الَّذِي يَزْعُمُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَهَلْ يَعْتَمِدُونَ بِذَلِكَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ؟ أَوْ هَلْ يَرَوْنَ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ هَذِهِ سَتَأْخُذُ لَهُمْ حَقَّهُمْ مِنْ اللَّهِ؟ إِذَنْ فَلْيَأْتُوا بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ! وَهَذَا غَايَةُ التَّهْكُمِ بِعُقُولِهِمْ وَطَرِيقَتِهِمْ الْبَائِسَةِ فِي التَّفَكِيرِ.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ذَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي سِيُحْشَرُونَ فِيهِ هُمْ وَأَهْلَتُهُمُ الْمَرْيُفَةُ، وَسَيُنْكَشَفُ لَهُمُ الْأَمْرُ تَمَامَ الْإِنْكَشَافِ، وَالسَّاقُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ عُمُودِ الْأَمْرِ، وَأَصْلُ الْخِلَافِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَتَضَحُّ فِيهِ الْحَقَائِقُ، وَيَشْتَدُّ الْحَطْبُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَكُونُ هُنَاكَ حَقَائِقُ أُخْرَى مِنْ عَالَمِ الْآخِرَةِ سَتُنْكَشَفُ، وَهَذَا مَوْكُولٌ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ.

﴿وَيُذْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (١٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ

سَلِمُونَ ﴿ هذا مشهدٌ من مشاهد الآخرة؛ حيث يُدعى الناس إلى السجود لرَبِّهم، وهم محشورون جميعًا في أرض المحشر مؤمنهم وكافرهم، فيسجد كلُّ من كان مؤمنًا ساجدًا لله في حياته الدنيا، ويبقى هؤلاء الأشقياء لا يستطيعون السجود، فتُصيبهم الذلَّة والحسرة، ويتذكرون كيف كان النبيُّ يدعوهم إلى الإيمان برَبِّهم والسجود له، وقد كانوا يستطيعون ذلك، لكنهم أعرضوا واستكبروا.

وقد جاء في «الصحيحين»: «فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَدْنَى اللَّهِ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءَ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاةٍ»^(١).

والحديث الشريف يُشير إلى أن هناك حقائق أخرى لا نعلمُ عنها شيئًا ستُكشَفُ لنا، والله سبحانه أعلم بها وبكيفيةها.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: اترك أمر هؤلاء المكذِّبين وكلهم لي.

﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراج: أخذهم من حالٍ إلى حالٍ حتى يصلوا إلى ما فيه هلاكهم، والاستدراج لا يكون إلا بالشرِّ، وهو من مكرِ الله بالطغاة؛ حيث يُمهِّلهم ويمدِّهم بالنعم وبأسباب القوة حتى يأخذهم من حيث لم يحتسبوا، ويؤكد هذا قوله تعالى:

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم ﴿إِنْ كِيدَىٰ مَتِينٌ﴾ أي: شديد، وهو على سبيل المُشَاكَلَةِ التي تُناسبُ كيدهم في الدنيا.

﴿أَمْ تَنْتَلُهُمْ آجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي: هل أثقلت عليهم يا محمد بما تطلبه منهم من أموالٍ لقاء دعوتهم ونصحهم؟ وهذا السؤال قُصِدَ به تنزيه الدعوة عن أيِّ غرضٍ ماديٍّ، وبيان أن المشركين لم يبقَ عندهم حجةٌ ولا عُذرٌ إلا العناد والمكابرة.

(١) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ لمسلم، وقد رواه مسلمٌ مطوَّلًا، وأوردَه البخاري مُختصرًا. ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٧٠) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (١/ ١١٥) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: هل وصل سلطانهم إلى الغيب فهم يكتبون فيه ما يشاؤون ويشتبهون؟ وهذه غاية في الازدراء والتهكم بعقولهم.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: امض في طريق دعوتك، واصبر لأمر الله ولحكمه تعالى فيهم، فلكل أجل كتاب.

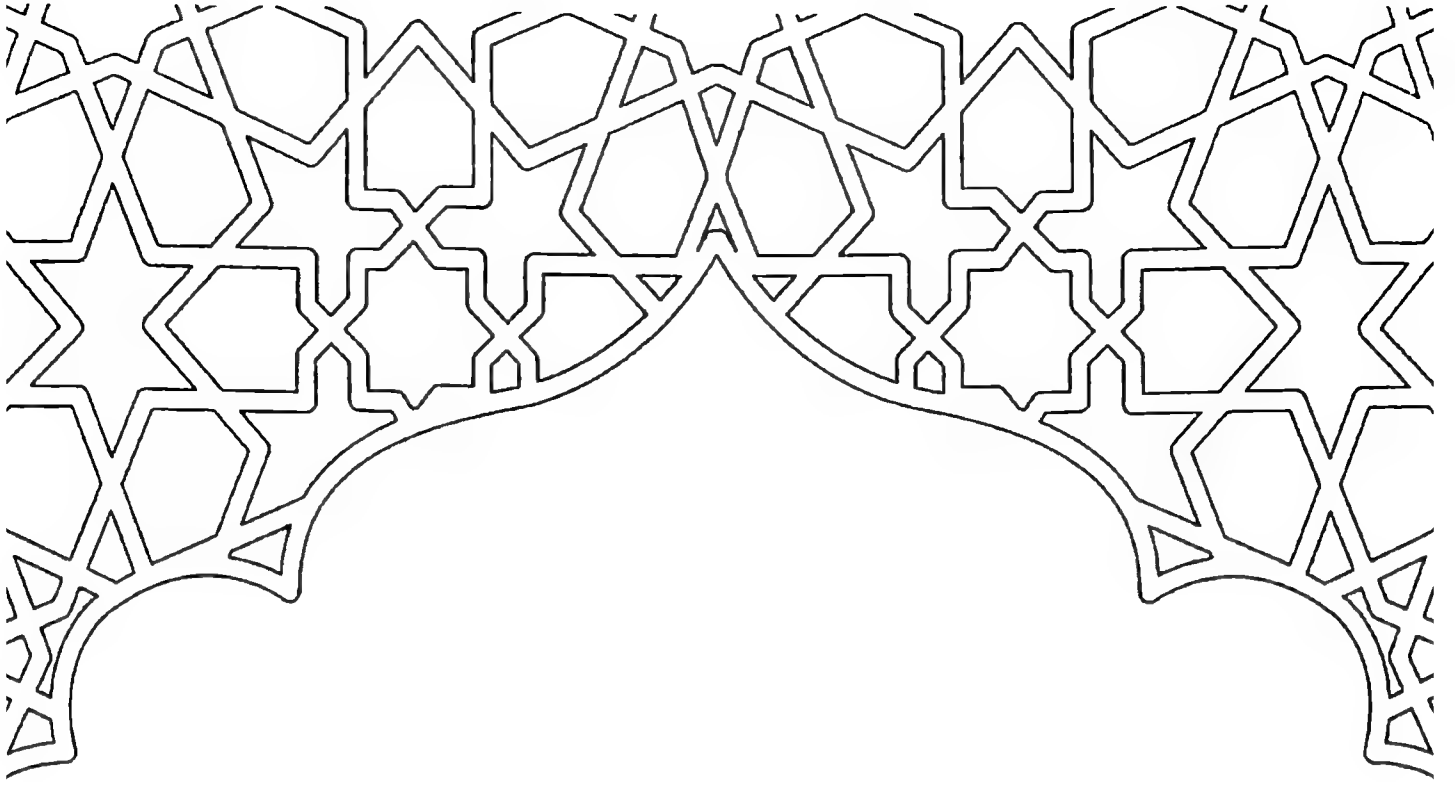
﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس على نبيئا وعليه الصلاة والسلام، أي: لا تكن مثله في عدم صبره على قومه.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: نادى الله وتضرع إليه وهو مهموم، ومُغْلَقٌ عليه في بطن الحوت.

﴿لَوْلَا أَن تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ، لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لولا نعمة الله عليه واستجابته لندائه وتضرعه لألقاه الحوت في العراء، فترك هناك بلا مأوى ولا زاد حتى يموت، لكن الله تولاه ونجّاه من هذه المحنة، وأتم عليه نعمته ﴿فَأَجْنَبْتُهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ عاد القرآن في الختام إلى ما ابتدأت به السورة، مُذَكِّراً بموقف قريش من الرسول الكريم ﷺ واتهامهم له، ومكرهم به، وحقدهم عليه، وهو إنما يدعوهم لما فيه ذكركم وخيرهم، وقوله تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: ينظرون إليك نظراً بغیضاً، ويتمنون لو أنهم كانوا قادرين على إسقاطك أرضاً بشزر أعينهم، كما يسقط الذي يزلق في الطين ونحوه.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: إن هذا الذي أعاظهم ودفعهم إلى هذه العداوة إنما هو القرآن الذي فيه ذكركم وذكر العالمين أجمعين، يذكركم بالحق ويدعوهم إليه، ويرفع من شأنهم وقدرهم به في الدنيا والآخرة لو كانوا يعقلون.



سُورَةُ الْحَاقَّةِ

المجلس الثالث والستون بعد المائتين: يومئذٍ تُعرضون لا تخفى منكم خافية

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ ٤﴿ فَآتَاهَا تَمُودُ فَأَهْلِكُوهَا ٥﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا ٦﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٧﴿ سَخِرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٨﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِثَ بِالْحَاقَّةِ ١٠﴿ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١١﴿ إِنَّا لَنَّا طِفَا أَلْمَاءَ حَمَلَكُمُ فِي الْبَارِيَةِ ١٢﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِبًا أَدْنَى ١٣﴿ وَإِنَّا لَنُفِخُ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَاحِدَةً ١٤﴿ وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٥﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٦﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِبَةٌ ١٧﴿ وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى أَزْجَائِهَا وَبِحُلِيِّ عَرْشِ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مُنْبِتَةٌ ١٨﴿ فَيَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ١٩﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٢٠﴿ فَقُولُ هَازِمٌ أَقْرَأُ وَكِتَابُهُ ٢١﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْغٍ حَسِيءٌ ٢٢﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٢٣﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٢٤﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٥﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٦﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِسَمَالِهِ ٢٧﴿ بَلَيَّاسٍ لَمْ يَأْتِ كِتَابَهُ ٢٨﴿ وَلَمْ يَأْتِ مَا حَسِيءٌ ٢٩﴿ بَلَيَّاسٍ كَانَتْ الْقَاضِيَةُ ٣٠﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ٣١﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ٣٢﴿ خَذُوهُ فَعِلُوهُ ٣٣﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣٤﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ٣٥﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٦﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ٣٧﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مِنْهَا جَزَاءٌ ٣٨﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلٍ ٣٩﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ٤٠﴿ فَلَا أَقِيمُ يَوْمَ تَبْيُرُونَ ٤١﴿ وَمَا لَا تَبْيُرُونَ ٤٢﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٣﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤٤﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ٤٥﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٦﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ ٤٧﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٨﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٩﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٥٠﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِلْمُتَّقِينَ ٥١﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ٥٢﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٣﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ٥٤﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٥﴾

يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ

اليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ وأحوالٍ هو موضوع هذه السورة، تعرضه السورة من ذلك اليوم الذي تُدكُّ الجبال فيه دكًّا، وتنشقُّ السماء شقًّا، إلى اليوم الذي يُعرض فيه الناس ليرَوا نتائج أعمالهم؛ فمنهم المبشرون بالجنة، ومنهم المعدَّبون بالنار، ويتخلل هذه المشاهد تذكيرًا بالهلاك الدنيوي الذي أصاب الأمم المكذبة، ومحاجة للمكذِّبين المعاصرين لنزول السورة وهم أهل مكة، وكما يأتي:

أولاً: تستهلُّ السورة بالتذكير بذلك اليوم العسير، لافتة الأنظار إلى ترقُّب أخباره ﴿الْحَاقَّةُ

﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ إنه عنوانُ السورة، وقد أتبع بأسئلة تستفزُّ العقل، وتستثيرُ الوجدان، ثم يتأخر الجواب حتى تبقى الأذهان مُتَحَفِّزَةً، والأبصار مشدودة، فيُمرَّج القرآن إلى موضوع آخر قبل أن يعودَ إلى الجواب.

ثانيًا: يعرض القرآن لأحوال الأمم السابِقين المُكذِّبين بدعوة المرسلين، وما أصابهم جرأ هذا التكذيب، وفي هذا تهديدٌ لا يخفى لمُشرِكِي مَكَّة، تبدأ السورة بشمود وهم قوم صالح ﴿٤﴾ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، ثم تُشَنِّي بَعَادٍ وهم قوم هود ﴿٥﴾ ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾، ثم تُثَلِّثُ بفرعون والمؤتفكات وهي قري قوم لوط ﴿٩﴾ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ ﴿١٠﴾ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١١﴾، ثم تحتم بقوم نوح ﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ﴿١٣﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٤﴾. وكأنَّ القرآن قدَّم هذه المشاهد؛ لأنها تُقَرِّب صورة الدمار الأكبر الذي سيكون عند قيام الساعة، وهي الحاقَّة، عنوان هذه السورة وموضوعها الأساس.

ثالثًا: عاد القرآن لِيُفَصِّلَ في معنى الحاقَّة بعد أن قرَّبها للأذهان بصور الدمار والخراب التي أهلك الله بها الأمم السابقة، عاد القرآن ليرسُم صورةً لذلك اليوم المهول الذي يبدأ بنفخ الصور؛ وهو الإعلانُ الإلهي الحاسمُ بانتهاء هذه الحياة لتبدأ الحياة الثانية كما وعد الله تعالى وقدر: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٥﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٧﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٨﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٩﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٢٠﴾.

رابعًا: في ذلك اليوم الذي يُعرَضُ الناس للحساب ولا تخفى فيه خافية مهما صغرت؛ نكل أعمال الإنسان محفوظة ومسطورة، هنا ينقسم الناس على فريقين: الفائزين بالجنان والرضوان ﴿٢١﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيبَةُ﴾ ﴿٢٢﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسْبِيَ ﴿٢٣﴾ فَهُمْ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢٤﴾ فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٥﴾ قُطُوفُهَا دَائِمَةٌ ﴿٢٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾.

وأما فريق التَّعْسَاءِ الخاسرين فهذا هو مصيرهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْتَنِنِي لَمَّا أُوتِ كِتَابِي﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِي﴾ (٢٦) ﴿يَلْتَنِنَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩) ﴿خُذُوهُ فَعُلُوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلْوُهُ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٤) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ﴾ (٣٦) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

خامسًا: وفي ختام هذه السورة، يلتفت القرآن إلى مُشركي مكَّة يدعوهم إلى أن يُفكِّروا في هذا الوحي ودلائل صدقه، وقوَّة حجَّته، وأن يتركوا ما يتشبَّثون به من الشُّبهات والترُّهات الفارغة، ثم لينظروا في المصير الذي ينتظرهم قبل أن يندموا فلا ينفع الندم، ويتحسَّروا فلا تنفعهم الحسرة ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُنِيتُ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا بُنْيُوتُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ (٤٢) ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣) ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسمٌ من أسماء اليوم الآخر، وأصله وصفٌ للساعة، أي: الساعة الثابتة التي لا شك فيها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ أي: كذبوا بيوم القيامة، والقارعة اسمٌ من أسماء القيامة، بمعنى أنها تقرر القلوب بأهوالها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالصيحة الطاغية، بمعنى أنها صيحة متجاوزة للحد الذي يعرفه البشر، أو هي التي طغت على كل شيء، وأهلكت كل شيء.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: بريح شديدة لها صوت، والعاتية بمعنى: الطاغية.

﴿حُسُومًا﴾ من الحسم، وهو الاستئصال، بمعنى أنها استأصلتهم فلم تُبق منهم باقية.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: كانت جثامينهم كأصول الجذع الخاوية والمنقعة.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي: ومن تقدّمه من الطغاة.

﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ قرى قوم لوط.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعل الخاطئة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: إن كل قوم من هؤلاء عصوا رسول ربهم الذي أرسله إليهم.

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ والرابية بمعنى: الطاغية والعاتية، أي: أهلكهم إهلاكًا زائدًا عما يعرفه الناس.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ الْجَارِيَةُ﴾ أي: السفينة الجارية في الطوفان، والخطاب في ﴿حَمَلَتُكُمْ﴾ لكافة البشر؛ لأنّ البشر جميعًا من ذرية نوح ﷺ الذي نجّاه الله بتلك السفينة.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: ليتذكّرها الناس ويأخذوا منها العبرة.

﴿وَنَعِيهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ والأذن الواعية هي التي تُصغي وتفهم وتستتج، وهذا تعريضٌ بالمشرّكين الذين يسمعون مثل هذه القصص فيمرونها عليها لاهين عابثين.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لتنتهي الحياة كلّها بهذه النفخة، ومعلوم أنّ للصور نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ذاك حينما ينزع الله هذا النظام الكوني الذي يضبط حركة الأفلاك، فتضطرب الأرض، وحملها يُشير إلى خروجها عن مدارها وارتطامها بجرم آخر، ومن هنا يكون دكّها وجبالها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ والواقعة اسمٌ من أسماء القيامة أيضًا، وقد مرّ معنا ذلك في سورة الواقعة.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً﴾ فالتغير الكوني سيكون شاملاً للأرض والسماء.
 ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الملك أراد به جنس الملائكة، وليس واحداً منهم، و﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾
 أي: في جنبات السماء وأطرافها كأنتهم يستعدّون لأمرٍ ما، وهذه صورةٌ من صور ذلك اليوم
 الرهيب.

﴿وَيُحِيلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ هذا من الأخبار الغيبية التي لا مجال للعقل أن يُحيط
 بها، أو أن يُحصّل صورتها كما هي في عالم الغيب، وليس ذلك مطلوباً، وإنّما المطلوب
 استشعار عظمة ذلك اليوم ورهبته، ثم الاستعداد والتهيؤ له.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: تُعرضون على الله كما أنتم بذواتكم، وخلجات
 صدوركم وما قدّمتم لأنفسكم، ولن تخفى على الله نفسٌ منكم، ولا معلومة عنكم مها
 كبرت أو صغرت.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَيْبٍ﴾ وهذه علامة الفوز والفلاح.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ﴾ يقول ذلك لإخوانه المؤمنين؛ لشدة فرحه وسروره، ويا لها من
 فرحة، ويا له من سرور، و﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل بمعنى: خذوا، أي: خذوا كتابي وانظروا فيه.
 ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ﴾ الظنُّ هنا بمعنى: التيقن، بمعنى أَنِّي كُنْتُ مُتَيَقِّناً أَنِّي سَأُلاقِي
 هذا اليوم، فحسبتُ له حساباً.

﴿هَٰئِنَا يَمَّا اسْتَفْتَمْتُ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: هنيئاً لكم هذا النعيم الذي نلتموه بما قدّمتم
 لأنفسكم من أعمالٍ جليّةٍ في حياتكم الماضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالٍ﴾ وهذه علامة الشقاء والخسران، والعياذُ بالله.

﴿يَلْتَنِي لَمَّا أُوْتِيَ كِتَابِيَةَ﴾ يتمنى أن لو لم ير كتابه أبداً.

﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَةَ﴾ هذا من التمنيّ أيضاً، بمعنى أَنَّهُ يتمنى أن لو لم يكن من أهل
 الحساب، أو أَنَّهُ لم يُبعث.

﴿يَلْتَنِيهَا كَأَنِّي الْفَاضِيَةُ﴾ تأكيدٌ لما سبق، يتمنى أن لو كانت موته موتة قاضية لا بعث

بعدها.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴾ يتذكر ماله الذي جمعه من حلال وحرام، ما الذي يُغني عنه اليوم؟
 ﴿ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِي ﴾ ذلك السلطان والجاه الذي كان يُضحّي في سبيله بكل شيء؛ يُجارب من أجله المؤمنين، ويوالي في سبيله الكافرين، أين هو الآن؟ لقد هلك وهلك معه كل شيء.
 ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي: ضَعُوهُ فِي الْأَغْلَالِ.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ﴾ أي: ادخلوه في الجحيم ليصلى نارها.
 ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي: لُفُّوْهَا عَلَيْهِ لَفًّا حَتَّىٰ يَكُونَ كَأَنَّهُ فِي دَاخِلِهَا.
 ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٢) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ تعليلُ بَأْهِمْ مَا أَوْدَىٰ بِهَذَا الشَّقِيِّ فِي هَذَا الْمَصِيرِ الْبَائِسِ: كَفَرَهُ بِاللَّهِ، وَتَقْصِيرَهُ بِحَقِّ الْمَسَاكِينِ، وَهَذَا الرِّبْطُ ذُو دَلَالَاتٍ عَمِيقَةٍ؛ حَيْثُ يَقْرُنُ الْقُرْآنُ بَيْنَ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَقِّ الْمَسْكِينِ، وَيَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا فِي مَسْتَوًى وَاحِدٍ، اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ الْمَسْكِينِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، إِنَّهُ تَأْصِيلٌ لِّمَفْهُومِ الدِّينِ الْحَقِّ، الدِّينِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى التَّقْصِيرِ بِحَقِّ الْإِنْسَانِ كَالْتَقْصِيرِ بِحَقِّ اللَّهِ! لِأَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ إِنَّمَا هُوَ دِينُ الرَّحْمَةِ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
 أَمَّا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَيُقْصِرُونَ فِي الْمَعَامَلَاتِ، وَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ نَوَاقِضِ الْوُضُوءِ، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ نَوَاقِضِ الْقِيَمِ، فَهَؤُلَاءِ مَا فَهِمُوا الدِّينَ، وَمَا سَلَكَوا طَرِيقَ النَّاجِينَ، كَيْفَ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ جَعَلَ تَحْقِيرَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ عَلَامَةً لِّمَن يُكْذِبُ بِهَذَا الدِّينِ؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكْذِبُ بِالذِّينِ ۖ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴾ فليس له في جهنم قريبٌ يُواسيه أو يدفع عنه.
 ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَنِيلِينَ ﴾ طَعَامٌ خَبِيثٌ يُقَدَّمُ لِأَهْلِ النَّارِ، لَا يُتَصَوَّرُ بِالِاشْتِقَاقِ اللَّفْظِيِّ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ لِتَصَوُّرِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، وَيَكْفِي اسْتِحْضَارُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا، وَهُوَ التَّنْفِيرُ وَحَصُولُ الْاِشْمِئَازِ.
 ﴿ فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴾ (٢٨) وَمَا لَا بُصُرُونَ ﴿ هذه صِيغَةٌ مِنْ صِيغِ الْقَسَمِ الْمُؤَكَّدِ، وَالْمُقَسَّمُ بِهِ

نوعان: ما يُبصره الناس؛ كالشمس، والقمر، والجبال، والبحار، وما لا يُبصرونه؛ كالعرش، والكرسي، والملائكة.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو جواب القسم، أي: المقسم عليه، وهنا ينتقل السياق من الحديث عن الآخرة وأهوالها إلى الحديث عن القرآن الذي هو رسالة الله الأخيرة، والذي هو طريق النجاة والفوز، والرسول الكريم هو محمد ﷺ، بمعنى أن القرآن هو هذا الذي يتلوه عليكم الرسول الذي يُبلغكم ما يُوحى إليه من ربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ﴾ لأنهم يعرفون الشعر وأصوله، والقرآن لا يمكن أن يكون شعراً كما يدعون ويفترون، ثم لو كان شعراً فهم أهل الشعر، فما الذي يمنعهم أن يُعارضوه، وأن يأتوا بمثله؟

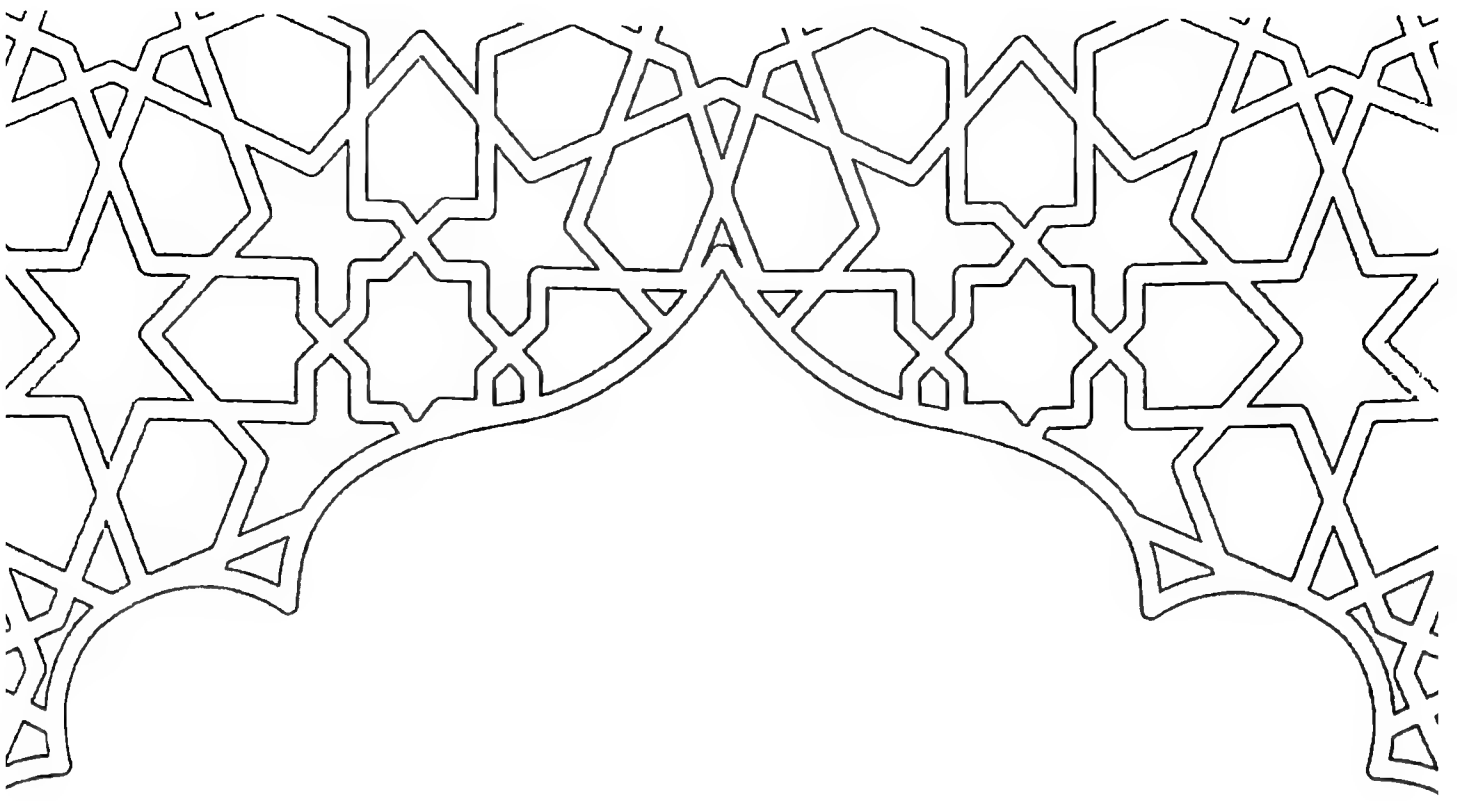
﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ فالكهنة موجودون ومنتشرون في طول الجزيرة وعرضها، وليس في كلامهم ما يُشبه القرآن لا في أخباره، ولا في أحكامه، ولا في أسلوبه، ولا في بيانه، ثم ما الذي يمنع هؤلاء الكهنة أن يقبلوا التحدي فيأتوا بمثل هذا القرآن؟

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (١١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (١٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ هذا افتراض قصد منه: تأكيد سلامة القرآن من الزيادة والنقصان، وتأكيد أمانته ﷺ في كل ما يُبلغه عن الله، ومعنى هذا الافتراض: أنه لو كان الرسول - حاشاه - قد تقوّل على الله، فإن الله لا يتركه، بل سيمنعه ويهلكه، سيأخذه باليمين، أي: بالقوة، وسيقطع منه الوتين، أي: يقطع نياط قلبه، بمعنى أنه يهلكه.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: ليس فيكم من سيحول بيننا وبينه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لأنه من الله الحق الذي خلق الخلق، فهو الأعلم بخلقه، والأعلم بما يُصلحهم وينفعهم في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: فنزه الله ﷻ عن كل ما لا يليق به، فهو العظيم الذي ليس فوقه عظيم.



سُورَةُ الْمَعَارِجِ

المجلس الرابع والستون بعد المائتين: معارج القيم الإيمانية والتربوية

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنْ آلِهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَأَصْرَبَتْ أَبْصَارُ جَبَلٍ (٥) إِنْهُمْ يَوْمَهُ بَرُودُهُ بَعِيدًا (٦) وَنَزَلَتْ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا (١٠) يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنَهُ (١١) وَصَحِيَّتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّمَا لَطَى (١٥) تَرَاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) * إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصْلِينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُورِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ طَعْنُوا شِجَارًا مِنْ أَلَيْمٍ عَنِ الشِّمَالِ غَرِيزٍ (٣٦) أُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٧) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ (٣٨) فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ (٣٩) عَلَنَ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤٠) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤١) يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ نَزَّهَتْهُمْ ذُلَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٣)﴾

معارج القيم الإيمانية والتربوية

تتناول سورة المعارج مجموعة من القيم الإيمانية والتربوية التي تُؤسِّس لبناء الفرد الصالح والمجتمع الصالح في تلك البيئة التي تُعجُّ بالأوثان، والأوهام، والأعراف الفاسدة، ومن ثم جاءت هذه القيم في إطارٍ من الصراع مع الجاهلية وآثارها في الدين والنفس، والحياة العامة والخاصة، وكما يأتي:

أولاً: تستهلُّ السورة بنموذج من المكذِّبين المعاندين، يسأل عن اليوم الذي سيهلك فيه وينزل عليه العذاب الذي يتوعدّه الله به، يسأل على طريقة الساحر المستهزئ، أو على طريقة المكابر المتحدّي.

عجيبٌ أمر هذا المخلوق الذي يرى نفسه أكبر من هذا الكون بما فيه من آياتٍ ودلائل،

وأعلم بخلق الله من الله، ثم يتحدّى وهو الذي خلق من حيث لا يعلم، وسيفنى من حيث لا يريد، لا يدري شيئاً عن السماء وما يعرج فيها، ولا الأرض وما ينزل عليها، أو يكمن في باطنها ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢) ﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣) ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٤) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (٥) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (٦) ﴿وَنَرْنَهُ قَرِيبًا﴾.

ثانياً: تعرّض السورة طرفاً من ذلك اليوم الأكيد، والعذاب الشديد الذي ينتظر هذا النمط من المتكبرين الذين جاوزوا بتكبرهم كلّ الحدود ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ﴾ (٨) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٩) ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (١٠) ﴿يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِذٍ بِنَبِيٍّ﴾ (١١) ﴿وَصَاحِبَةٍ وَآخِيهِ﴾ (١٢) ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ﴾ (١٣) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (١٤) ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى﴾ (١٥) ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ (١٦) ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

ثالثاً: تُبين السورة طبيعة هذا الإنسان وحالته الفليقة المترددة، باستعداداته التكوينية الأولية القابلة للصعود والهبوط، والاستقامة والانتكاسة، والتعليم والتجهيل؛ فإن صقل الإنسان نفسه وهذبها كان في عليين، وإن أهملها وضيعها كان في السافلين، كحال هذا المسكين ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

رابعاً: استثنت السورة نفراً من المتقين الذين هذبوا نفوسهم وألزموها الصراط المستقيم، ووزنوها بميزان الحق القويم، وفق هذه المعايير الواضحة والمنضبطة:

١ - المداومة على الصلاة ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ولا شك أن هذا الإنسان الذي ألزم نفسه بالمداومة على الصلاة هو إنسان ملتزم ومنضبط، قد تخلص من الفوضوية والعبثية، وهذه هي أولى خطوات النجاح.

٢ - أداء الزكاة والتي تعني فيما تعنيه: الاستعلاء على شهوة المال، والانطلاق في طريق الخير لخدمة المجتمع، والتخفيف من معاناة المعوزين والمحتاجين ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

٣- الإيمان بعقيدة الحساب والجزاء؛ فلا مجال للعبث والفوضى في هذا الكون، ولا في هذه الحياة، فلا بُدَّ أن ينتصف المظلوم مِن ظلمه، ولا بُدَّ أن يلقى فاعل الخير ثوابه، كما يلقى فاعل الشرَّ عقابه، وبغير هذا الإيمان تكون الأرض عبارة عن غابة كبيرة لا حظَّ فيها لفقير أو ضعيف، ثم تتصارع الوحوش الكبيرة فيما بينها، وتنتهي الحياة بهذه الصورة التي لا يتمناها ولا يرجوها عاقل سوي ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

٤- العِفَّة والطهارة والانتصار على شهوة الجنس بضبطها وتوجيهها الوجهة التي تخدم الحياة، وتُسهم في استقرارها واستمرارها وتحقيق الأمن والسكينة فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

٥، ٦- أداء الأمانات والوفاء بالعهود؛ وهما صفتان مُتلازمتان، ودائرة عملهما أكبر بكثير مما تُحيط به عبارة، أو تستوعبه إشارة؛ فليس من موظفٍ في الدولة مِن حاكمها الأعلى إلى أصغر عاملٍ إلَّا في عنقه أمانة، وفي ذمته عهد، هكذا أيضًا أمانة المُعلِّم في صفه، والقاضي في محكمته، والإعلامي في صحيفته، والأب مع أبنائه، والجار مع جيرانه، وهكذا إلى كلِّ زاوية من زوايا الحياة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾.

٧- الشهادة بالحق ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ وهذه الصفة مُكمِّلة للصفتين السابقتين، والمُتبادر للذهن أنَّها تخص الشاهد في ساحة القضاء، ولكنها أوسع من ذلك وأخطر؛ فالمفتي هو شاهدٌ على حكم الله في المسألة التي أفتى فيها، والناخب في العمل السياسي هو شاهدٌ أنَّ هذا الذي انتخبه هو الأكفأ والأصلح، ولجان التوظيف في كلِّ مؤسسة هُم شهودٌ أيضًا، وهكذا.

٨- المحافظة على الصلاة حتى لا يأتيها ما ينقضها، أو ينقض آثارها في الروح والنفس والجوارح ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فانظر كيف جعل المداومة على الصلاة صفة،

والمحافظة على الصلاة صفة أخرى؛ لأنَّ الواقع يشهد أنَّ كثيرًا من المداومين على الصلاة قد لا ترى فيهم أثر هذه الصلاة، ولا ترى فيهم نورها؛ والسبب أنَّه لم يَصُنْ هذه الصلاة، ولم يحافظ على نورها الذي وجَّده في قلبه، بل أطفأه بظلمة الغفلة، وطمَس آثاره بكدر المعصية، والله أعلم.

خامسًا: وإذا كان أولئك المكذَّبون الضالون قد استحقَّوا ذلك الوعيد، فإنَّ هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات والذين قوَّموا نفوسهم بهذه القيم يستحقُّون من الله هذا الوعد الجميل ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾.

سادسًا: تعود السورة مرَّةً أخرى إلى ما استهلَّت به، فتدخل في نفوس أولئك المكذِّبين وتعرضها بما فيها من تصوُّرات جاهلة، وأمانيات ضائعة، وخوضٍ بالباطل ولعب، كأثمهم يعبثون بمصائرهم، ويجازفون بمستقبلهم، وهم قادمون لا محالة على حياة أخرى، ولا يُستشارون في ذلك، كما أثمهم لم يُستشاروا في حياتهم هذه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَنْبَرُهُمْ تَرَهُّفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ عَدَّى الفعل بالباء؛ ليفيد معنى الدعاء إضافة إلى معنى الاستفهام، والفعل ﴿سَأَلَ﴾ يفيد المعنيين، بمعنى أنَّه استفهم على سبيل التحدي والاستهزاء، أو أنَّه دعا على نفسه وقومه بالهلاك، كما قال أحدهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولم يُعَيَّن القرآن اسم السائل؛ لأنَّ العبرة بسؤاله لا بشخصه.

﴿لِلْكَافِرِينَ لِبَسَ لَهُ، دَافِعٌ﴾ أي: ليس هناك مَنْ هو قادرٌ على أن يدفعه عنهم.

﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي: إنَّ هذا العذاب مُقدَّرٌ عليهم مِنْ الله عقوبةٌ لهم على كفرهم وعنادهم، والمعارج: طُرُق الصعود إلى العالم العلوي، ومنه مراتب السائرين إلى الله المُتدرِّجين في المنازل؛ فكلُّ منزلةٍ أرقى من التي قبلها.

﴿تَنْفِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة والروح، والروح هو: جبريل ﷺ، وقد عُطِفَ على الملائكة عطف الخاص على العام؛ تنبيهًا لشرفه ولشرف الوحي الذي ينزل به، ولا يبعد أن تكون الروح هي روح الإنسان التي تُقبَض عند موته.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اليوم وحدة زمنية نسبية؛ فيوم الأرض غير يوم المريخ أو زحل، وآيام الله في هذا الكون الفسيح لا حصر لها، والله أعلم.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ تعليلٌ لاستهزائهم بيوم القيامة واستعجالهم به على سبيل التحدي؛ إذ إنهم يرونه مُستحيلًا وبعيدَ التحقق، بينما هو عند الله واقعٌ لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ﴾ والمهلُّ يُطلق على المعدن المذاب كالقطران ونحوه، ويُطلق أيضًا على عكر الزيت المتبقي منه بعد تصفية الزيت منه، ومعناها مُتقارب، والله أعلم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي: تكون كالصوف من حيث نفثها وعدم تماسكها.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريبٌ قريبًا، ولا صديقٌ صديقًا؛ فقد جاءهم ما يشغلهم عن بعضهم.

﴿رَبَّصُرُونَهُمْ﴾ أي: يرى بعضهم بعضًا.

﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِنَفْسِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَدُّ﴾ بمعنى أن ذوي القربابات ليسوا فقط لا يسأل بعضهم عن بعض، بل يودُّ المجرم منهم أن يُقدِّمهم جميعًا فداءً لنفسه من النار، و﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَدُّ﴾ أي: عشيرته التي كانت تحتضنه وتحميه.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ أي يتمنى هذا المجرم أن لو استطاع أن يُقدِّم كلَّ أهل

الأرض فداء عن نفسه.

﴿كَلَّا﴾ كلمة نفى وزجر، بمعنى أن كل هذا لا ينفع؛ إذ ليس في الآخرة فداء.

﴿إِنَّا لَظَنُّ﴾ أي: جهنم، واللظى: اللهب، بمعنى أنها مُلتهبة مُستعرة، أعادنا الله منها.

﴿نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى﴾ أي: تخلع عنهم الشوى، والشوى: جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي: تطلبهم؛ لأنها مُعدة لهم، وذكر هنا صفتين من

صفات هؤلاء الأشقياء: إدبارهم عن الحق، وتوليهم عنه، مع حرصهم على جمع المال

والبخل به، وهذا الربط يتكرر في القرآن كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ

بِالدِّينِ﴾ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون:

١-٣].

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ بمعنى أن الهلع موجود مع الإنسان في أصل خلقته، وهو

نزعة نفسية تميزه عن باقي المخلوقات، والهلع: هو اضطراب وخفة في النفس تدفعها لعدم

الاستقرار فتبطر مع أول نعمة، وتضجر مع أول محنة.

وقد رأيتُ في بادية العراق كثيراً ممن يستعمل هذه اللفظة ويطلقونها على الشخص

المتسرع في انفعالاته النفسية وغير المتزن.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ هذا ليس تفسيراً لغوياً لكلمة: ﴿هَلُوعًا﴾

وإنما هي آثار سلوكية وعملية تُبين المقصود من هذه الصفة الكامنة في نفس الإنسان؛ فهو

يمنعُ الخير عن الآخرين، ويودُّ أن يبقى حِكراً عليه، ويجزع عند المصيبة وكأنها نهاية الحياة.

﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: مواظبون عليها ويؤدُّونها في أوقاتها.

﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ مُحَدَّدٌ، وهو الزكاة، وهذا قول جمهور المفسرين؛ إذ الزكاة هي الحق

المعلوم للفقراء والمحرومين، أما صدقة التطوع فهي ليست حقاً معلوماً، وكذلك النفقة على

من يجب له النفقة، فهذه حق لكنها ليست للسائل والمحروم.

وقد استشكل أن هذه السورة مكّية ولم تكن قد فُرِضت الزكاة، ولا يمنع أن يكون أصل

مشروعية الزكاة قد نزل في مكة، ثم فصلت أحكامها في المدينة، ولهذا نظائر في بعض العبادات والمعاملات، وفقه العلاقات، والله أعلم.

﴿لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس لسد حاجته، والمحروم: الفقير الذي حُرِمَ الرزق.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ يؤمنون بيوم الجزاء.

﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون، وهذا خوف محمود؛ لأنه يقود إلى مراجعة النفس ومحاسبتها، بخلاف الغافل.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ أي: حافظون لها مهتمون بها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: يؤدونها كما يعلمونها، ويقومون بها فلا يتصلون عنها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يحافظون عليها من حيث لا يكون فيها نقص ولا ناقص أو مُفسد، ويحافظون على نورها في قلوبهم، وآثارها في جوارحهم، فلا يضيعونها بالمنكرات والغفلات.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: ما لهم يمدُّون أعناقهم إليك مُتوجِّهين نحوك، ومُهتَمِّين بك، ماذا يريدون؟

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: يتجمعون حولك جماعات جماعات، و﴿عِزِينَ﴾ جمع عزوة، وهي: الجماعة.

﴿أَبْطَعُ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأمانيتهم وهم مُقيّمون على ظلمهم وكفرهم؟

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة والماء المهين، ومناسبة هذا الرد أن بعض المشركين كان يقول: إذا كانت هناك جنة فنحن أولى بها؛ لأننا سادة القوم ووجهائهم، وقد رد القرآن عليهم أنكم تعلمون مم خلقتهم، وإنما تتمايزون بأعمالكم وما تقدّمونه لأنفسكم.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ صيغة من صيغ القسم المُغلّظ، والمشارق: المطالع المختلفة للنجوم والكواكب، ومنها حركة الشمس التي نراها بأعيننا كل يوم؛ فلكل يوم مشرقه، كما

أَنْ لِّكُلِّ يَوْمٍ مَّغْرِبُهُ، وَالْأَفْلَاكُ كَذَلِكَ لِكُلِّ فَلَكَ يَوْمُهُ، وَلِكُلِّ فَلَكَ طُلُوعُهُ وَغُرُوبُهُ.

﴿تُبَدِّلْ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: نهلكهم ونأتي بخير منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: دعهم على عنادهم وكفرهم ولا تشغل بهم، والمخوض واللعب ليسا من شأن الجادّين في البحث، والراغبين بالحق، ومن ثمّ دعاه لتركهم، وجزّم الفعلين يُشير إلى معنى مضاف وهو التهديد؛ لأنّهما مجزّومان باللام المقدّرة، على معنى: ليخوضوا ويلعبوا، وأمّا جزّمهما بفعل الطلب (ذرهم) فمستبعد؛ لأنّهما لا يصلحان جزاء ولا جوابًا له؛ لأنّهم خائضون ولاعبون من قبل ومن بعد، والله أعلم.

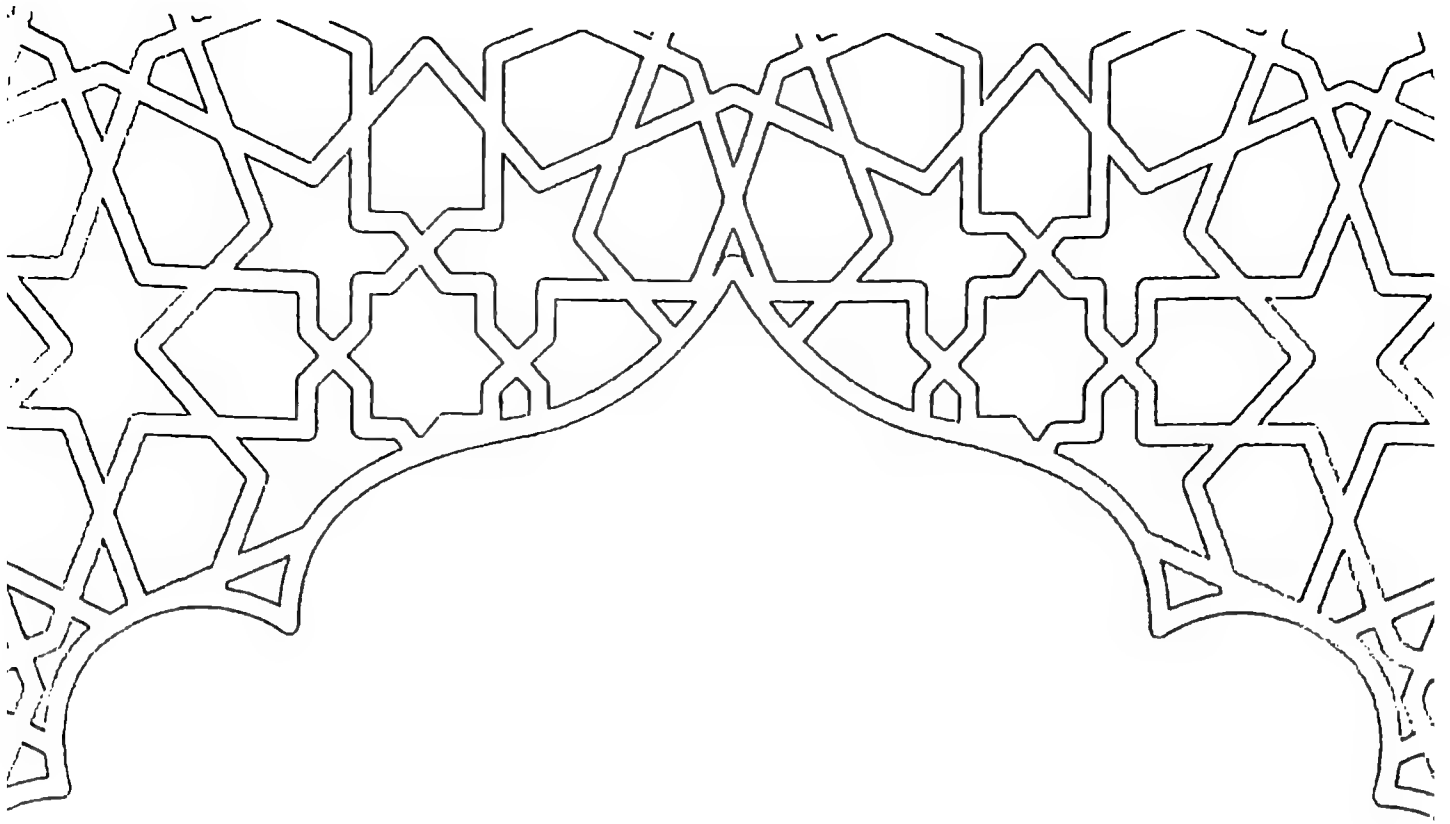
﴿الْأَجْدَاثِ﴾ القبور.

﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ أي: يُسرّعون بعد خروجهم من قبورهم إلى داعي الحشر والحساب كما كانوا يُسرّعون عندما يتوجّهون في الدنيا إلى نُصْبِهِمْ، أي: أصنامهم.

﴿تَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم مهانة.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ تذكيرٌ بصدر السورة وما كانوا يسألون عنه استهزاءً وتحديًا

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.



سُورَةُ نُوحٍ

المجلس الخامس والستون بعد المائتين: نوح ﷺ

سُورَةُ نُوحٍ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَتُخَذَرُكُمْ إِلَىٰ أَسَلٍ مُّسَمًّى إِن لَّبَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُوَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبَلًا وَهَآءَا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْيِيرِهِمْ جَعَلُوا صُغَيْعًا فَمَا ذَاتِهِمْ فَأَسْتَغْفِرُوا يَا أَيُّهُمْ وَاصِرُونَ (٧) وَاسْتَكْبَرُوا (٨) فَتَرَىٰ فِي دَعْوَتِهِمْ جَهَارًا (٩) ثُمَّ إِنِّي أَتَلَسْتُ لَهُمْ وَأَنْزَلْتُ لَهُمْ إِنْشَارًا (١٠) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١١) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ فِدْرَارًا (١٢) وَنَحْمِدُ ذِكْرَ بَاقٍ وَنَحْمِلُ لَكُمْ حِثَّتْ وَنَجْعَلُ لَكُمْ آتِهَارًا (١٣) إِنَّا لَكُمْ لَازِحُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٤) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٥) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ مِّثْلَ بَاقٍ (١٦) وَجَعَلَ الْفَرَاقِيبَ نُورًا وَجَعَلَ النَّسْرَ يَرَجَا (١٧) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَّا (١٨) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (٢٠) لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا (٢١) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْا وَاتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُ وَلَدُّهُ الْأَخْسَارُ (٢٢) وَتَكْرَرُوا مَكَرَ الْكِبَارِ (٢٣) وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا الْهَيْكَلُ وَلَا تَنْذِرُنَا وَدَا وَلَا سُلَاطِنًا وَلَا يَقُوتُ وَيَعُوقُ وَتَسْرَا (٢٤) وَقَدْ أَضَلُّوا كِبِيرًا وَلَا نُزِدُ الْفَلَكِيَيْنِ إِلَّا أَصْلَالًا (٢٥) إِنَّمَا خَطْبَتْنِيهِمْ أَغْرَقُوا فَأَذِخُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٦) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا (٢٧) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٨) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدِ الْفَلَكِيَيْنِ إِلَّا تَبَارًا (٢٩)

نوح

تكررت قصة نوح ﷺ في القرآن الكريم كثيرًا، لكن هذه السورة هي سورة نوح التي لا يشاركه فيها غيره، إنها خلاصة مركزة لأول دعوة نبوية تواجه الأصنام وسدنتها، وتصارع انحرافًا بشريًا ظاهرًا وطاغيًا حتى نزل العذاب الشامل الذي عمَّ كل أولئك المكذبين المعاندين، ثم نجَّى الله نوحًا والقلَّة المؤمنة الذين اتبعوه:

أولاً: استهلَّت السورة ببيان أن الله تعالى قد اختار نوحًا ﷺ لينذر هؤلاء القوم الذين انحرفت فطرتهم حتى اتخذوا لهم آلهة من الحجارة صنعوها بأيديهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقام نوحٌ بمهمته، وواجه قومه بالحقيقة، ورغَّبهم بعبادة الله وحده، ووعدَّهم بتكفير ما كان منهم من انحرافٍ ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

مُيِّنٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّعْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

ثانيًا: سجّلت السورة خلاصة للجهد الذي بذله نوح ﷺ مع قومه، وللطرق التي سلكها، والوسائل التي استعملها ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهراً، ترغيباً وترهيباً، لكنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصرّوا على طريق الضلالة أيّما إصرار ﴿٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي مَا ذُنِبُوا ۖ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾.

ثالثًا: عرّضت السورة جانباً من المحاججات العقلية التي كان نوح ﷺ يوجّهها لقومه، والتي تهدف إلى فتح أذهانهم لهذا الكون البديع، ولهذا الخلق العجيب وما فيه من آيات ودلائل ﴿١٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾.

رابعًا: ثم عرّضت السورة شكواه إلى ربه وهو يرى صدودهم وإعراضهم عنه وعن دعوته، وتمسكهم بأصنامهم صنماً صنماً، وتواصيهم على ذلك ﴿٢١﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خُسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾.

خامسًا: بعد هذه الشكوى، أخذ نوح ﷺ يدعو على قومه بالهلاك الشامل والاستئصال الكامل، فاستجاب الله له فأغرقهم جميعاً ﴿٢٥﴾ وَمِمَّا خَطَبْتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾.

سادسًا: اختتمت السورة بدعاء نوح لنفسه بالمغفرة ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤمنًا ولكل مؤمن ومؤمنة، مستثنيا الظالمين المصّرّين على الظلم والكفر رغم وضوح الدعوة وقوة حجتها ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ افتتاح الإخبار عن رسالة نوح ﷺ بأداة من أدوات التوكيد دليل على أهمية الخبر، وقوم نوح هم سكان الأرض في ذلك الزمن المبكر من تاريخ البشر. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ أي: وأطيعوني، بتأكيد أن طاعة النبي المرسل إنما هي طاعة لله؛ لأنه المبلغ عن الله.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم، و﴿مِّنْ﴾ هنا أفادت التوكيد، وجاء الفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ مجزومًا؛ لأنه جواب الأوامر الثلاثة المتقدمة في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويمهلكم إلى آجالكم المحددة ولا يُعجل لكم الهلاك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: في الليل، وفي النهار، والعبارة توحى بالمداومة، وفيها أنه كان يختار الوقت الأنسب من ليل أو نهار.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾ أي: ندائي ودعوتي لهم. ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا آذانهم بأطراف أصابعهم لكي لا يسمّوا كلامي، وذكر الأصابع مجاز بإطلاق الكل وإرادة الجزء؛ لأن الأصابع لا تدخل كلها في الآذان، وفائدته تصوير مبالغتهم في غلق آذانهم.

﴿وَأَسْتَعْشَوْا شِيَابَهُمْ﴾ أي: غطّوا بها وجوههم وأعينهم لكي لا يروه وهو يتحدث إليهم، فلم يكتفوا بسدّ الآذان، وهذه مبالغة منهم لكي لا يفهموا شيئًا من كلامه ولو من خلال

حركة الشفتين وإشارة اليدين وتقاسيم الوجه.

﴿وَأَصْرُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا﴾ بيان ضمنى لعلّة هذا الإعراض والإصرار هي التكبر، وهذه علّة العلي، وبليّة البلايا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾ أي: دعوتهم دعوة واضحة ليس فيها خفاء ولا غموض.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ بحسب ما يقتضي المقام، فيعلن لهم دعوته في المجالس العامة، ويسرّ مع الأفراد الذين يُجاورهم تجنبًا لإحراجهم في مُجتمعهم.

وهذه الطريقة التي أقرّها القرآن تُبيّن أنّ الدعوة إلى الله لا تكون بطريقة واحدة، ولا على وتيرة واحدة، بل هي مُرتبطة بغاياتها وأهدافها الفرديّة والجماعيّة، وأمّا الذي يظنُّ أنّ إعلان الحقّ بوجه الناس ومُجابتهم به على كلّ الأحوال دليلٌ على شجاعته وقوّة إيمانه، فظنّه هذا وهمٌ ومُجانبةٌ للمنهج القرآني، فقولُ الحقّ له وقته، وله طريقته، وله غايته أيضًا، فإذا جاء بعكس غايته كان السكوت عنه أولى.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ هذا أسلوبٌ آخر من أساليب الدعوة، وهو ترغيبهم بالنعيم الدنيوي؛ أن يُرسل السماء عليهم بالمطر الكثير، وأن يمدّهم بالأموال والبنين، وأن يجعل لهم البساتين والأنهار.

وهنا مسألة عظيمةٌ من مسائل الدعوة؛ حيث يظنُّ بعض الدعاة أنّ واجبهم ينتهي عند تذكير الناس بالله واليوم الآخر، أمّا الدنيا فلها أهلها ولها طلابها! بينما يسعى دعاة الكفر لتقديم البرامج والنظريات العلميّة والاقتصاديّة والخدميّة القادرة على حل مشاكل الناس، وتطوير وسائل العيش، وهنا يكون المستجيبون للدعوة بل والدعاة أنفسهم في أزمةٍ داخلية، أعلنوا عنها أم لم يعلنوا؛ فمن ناحية هم مؤمنون بأنّ الإسلام هو الحقّ وكلّ ما خالفه هو الباطل، ثم يذهبون إلى هذا الباطل في أغلب شؤون حياتهم.

إنّ هذه الآيات من دعوة نوح ﷺ تفتح الباب لمساحة أخرى من الدعوة تجمع بين البشارة الأخرويّة والبشارة الدنيويّة، وهذه تتطلّب جهدًا مضافًا، قد لا يكون من الناحية

العملية بأقل كلفة من الدعوة للإسلام نفسه، وقد رأينا في قصة يوسف ﷺ أن جهده في إنقاذ شعب مصر من الجوع كان لا يقلُّ عن دعوته إلى الله والدار الآخرة.

﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: ما لكم لا تعظمون الله حقَّ تعظيمه ولا توقرونه حقَّ توقيره.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلقكم طورًا بعد طورٍ، وحالًا بعد حالٍ، من نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ حتى تمَّ الخلق في الرَّحِمِ، ثم جاءت الأطوارُ الأخرى من الطفولة إلى الصَّبَا، والفتوة والشباب، ثم الكهولة والشيخوخة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ الأصل في الرؤية أنها رؤيةٌ بالبصر، لكنها هنا غيرُ مُمكنة؛ وذلك لأنَّ الناس لم يَرَوْا السماوات السبع، فيحمل الكلام على ما يستقيم من المعنى، ومن ذلك: أن تكون الرؤية هنا بمعنى العلم، بمعنى أنهم قد استقرَّ عندهم أنَّ هناك سبع سماوات، وهذا العلم قد يكون من نبوةٍ سابقة، أو أنه ﷺ يُخبرهم إخبارًا كأنه يقول لهم: إنَّكم ترون هذه السماء التي فوقكم والتي لا تعرفون عنها إلَّا صورتها الظاهرة، فاعلموا أنَّ فوق هذه السماء سماوات أخرى، فتكون السماء الدنيا التي يرونها بأعينهم صورة تقرب لهم الصورة الأكبر لهذا الكون العظيم، والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ميَّز الشمس عن القمر بأتها سراجٌ، والسراج متقدُّ بالنار مع ما فيه من ضوءٍ، بخلاف النور المجرد الذي هو ضد الظلمة، ولا يشترط فيه الحرارة ولا التوقد.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: خلقكم منها، بخلق آدم من التراب، ثم بتغذية أجسادكم بما تُنبته الأرض.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بدفنكم عند موتكم.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالبعث والنشور، وهذه الصورة بمراحلها الثلاث تُشبه صورة النبات؛ حيث ينبت من الأرض، ثم تتلف النبتة فتدفن بذورها في التربة، ثم تخرج مرة أخرى، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة وممهدة لعيشكم وحركتكم، وهذا ليس في شكل الأرض الكلي، بل في المساحة التي يراها الإنسان ويعيش عليها.

﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ طرقًا واسعة لسيركم وتنقلكم.

﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: اتبعوا أصحاب الأموال والأولاد من مُتَرَفِي قومهم على ما هم فيه من ضلالٍ وخسران، وفيه إشارة إلى دور المُتَرَفِينَ في الاستِحواذ على الناس وصدّهم عن طريق الحق.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي: مكرًا عظيمًا؛ وذلك بتواصيهم على ردّ دعوتهم والتمسك بما هم عليه من الوهم والضلal.

﴿وَلَا تَذَرْنَّ دَرًا وَلَا سُوءًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَتَسْرًا﴾ هذه أسماء أصنامهم، وهي أعلام لا اشتقاق لها في لغة العرب، وأصل هذه الأسماء أنها كانت أعلامًا لرجالٍ صالحين - كما ورد في «البخاري»^(١) -، إلا أن الشيطان دفع بقومهم أن غالوا بهم حتى عبدوهم.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ليس الضلال هنا الضلال الذي هو ضد الهداية إلى الحق؛ لأنّ هذا يُنافي دعوة نوح عليه السلام من الأصل، وإنّما هو الشّتات والهلاك، وضياع قوتهم ونفوذهم بعد أن علّم أنّهم لن يؤمنوا مهما استمرّ في نصحه ودعوته لهم.

﴿وَمِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ أي: من أجل ظلمهم وشركهم وكثرة خطاياهم.

﴿أَغْرِقُوا﴾ أي: بالطوفان.

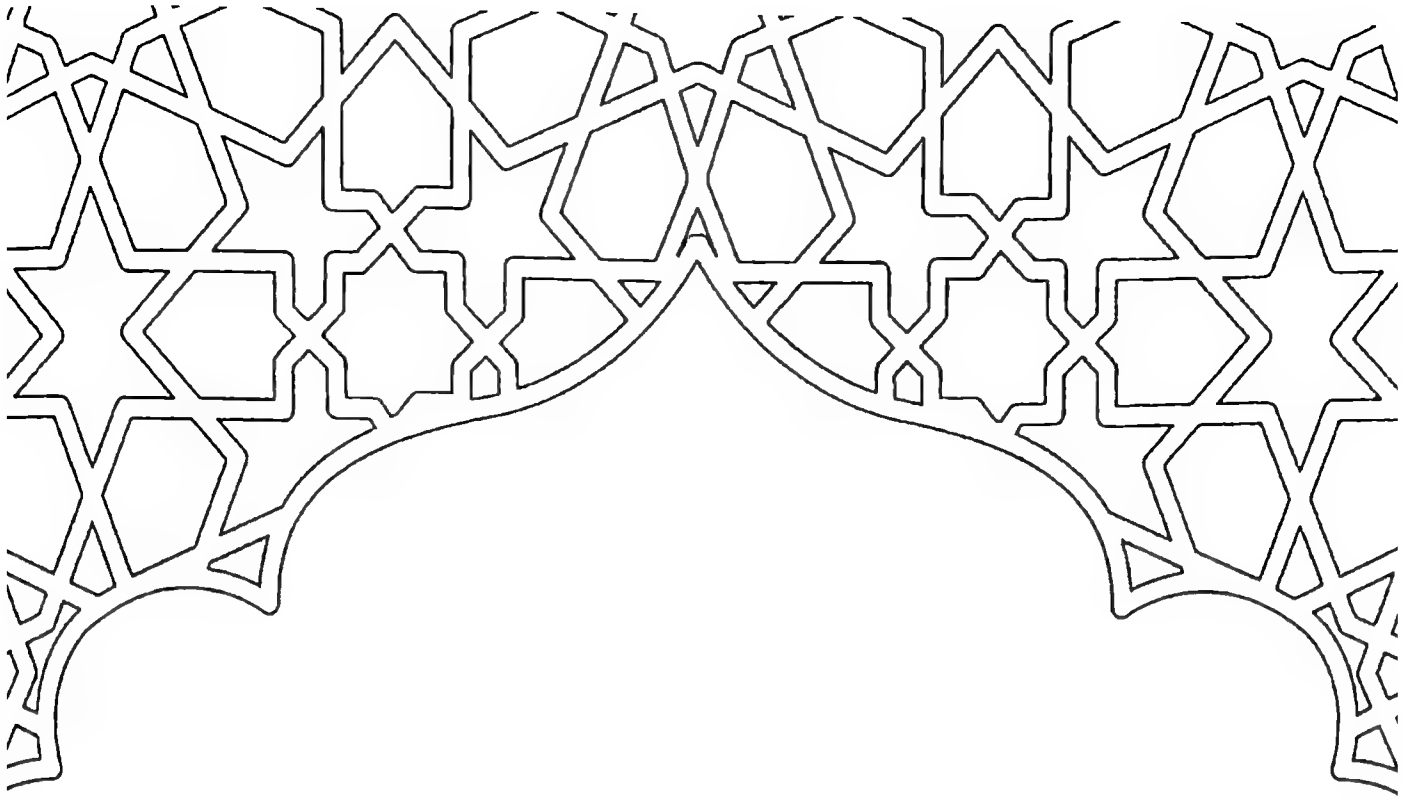
﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾ تنويع في تعذيبهم بين برد الماء وحرّ النار.

﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تُبقِ أحدًا من ساكني هذه الديار، والدِّيَّار: ساكن الدار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ تعليل لدعائه عليهم بالاستئصال؛ فهم لا مطمع في هدايتهم، مع الخشية من إضلالهم للثلة القليلة التي آمنت

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٧٣) / دار ابن كثير، تح. د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م).

بنوحٍ واتبعته، والخشية أيضًا من توريث هذا الضلال للأجيال القادمة.
وفي قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ مجازٌ مرسلٌ على اعتبار ما يكون؛ لأنَّ المولود لا
يُولد وهو متصفٌ بالفجور والكفر، بل يكتسب ذلك من أبويه وبيئته بعد أن يشبَّ ويكبر.
﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ هلاكًا.



سُورَةُ الْجِنِّ

المجلس السادس والستون بعد المائتين: علاقة الإنس بالجن

سُورَةُ الْجِنِّ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرءًا نَّجْمًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِك بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ فَعَلَىٰ جَدِّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَن يَسْمَعُ أَلَّنْ يَجِدَ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا (١٦) لَنفَنِّخَنَّهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّا الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجَعُونَ مِّنْ أضعْفٍ نَّاصِرًا وَقُلَّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَن أَرَادَ نَصِيحَتِي مِّن رَّسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴿٢٩﴾

علاقة الإنس بالجن

الإنسان لا يعيش لوحده في هذا العالم، بل هناك عوالم كثيرة، منها ما يقع تحت حواس الإنسان ومدركاته؛ كأصناف الحيوانات والنباتات التي ألفها منذ القدم وعرف كيف يتعامل معها، ومنها ما لم يدركه الإنسان إلا مؤخرًا بعد الثورة العلمية والطبية؛ وذلك مثل: أنواع الفيروسات والميكروبات والجراثيم، وكذلك أنواع الإشعاع الهابط على الأرض، وغير ذلك كثير، وهناك ما لم يكتشفه الإنسان إلى الآن، وربما سيكتشفه مستقبلًا.

والإنسان السوي العاقل يدرك بتجربته العلمية أن عدم إدراكه للشيء لا يعني أنه غير

موجود، وعالم الجن واحدٌ من هذه العوالم التي أجمعت الرسالات السماوية على وجوده، وليس موضوع هذه السورة إثبات وجود هذا العالم، وإنما بيان بعض صفاته وخصائصه، ولدفع الأوهام التي عشت في أذهان كثير من البشر نتيجةً لشيوع الجهل، وتراكم الخرافة: أولاً: تستهل السورة بالإخبار أن نفرًا من الجن قد استمعوا لقراءة النبي ﷺ فانبهروا بالقرآن، وآمنوا بما جاء به ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ وأنه، تعلّى جدّ ربّنا ما اتّخذ صَحيبةً ولا ولدًا ۝ ونبذوا ما كانوا يسمعون من سفهائهم ومشركيهم ﴿وَأَنَّهُ كَآتٍ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وأن سفهاءهم هؤلاء كانوا يُنكرون الرسالات، ويكذبون بالنبؤات كما هو حال مُشركي البشر ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٦﴾.

ثانيًا: أخبرت السورة على لسان هؤلاء النفر أن بعض رجال الإنس كانوا يحتمون ببعض رجال الجن ويعوذون بهم، فزادهم هذا ضلالًا وتخبُّطًا وذلةً ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٧﴾.

ثالثًا: أخبرت السورة على لسان هؤلاء النفر أنهم لمسوا السماء فوجدوها محروسة فلم يتمكنوا من استراق الخبر منها كما كانوا سابقًا، وهم هنا يُشiron إلى التغيّر الذي حصل بالبعثة المحمدية ونزول القرآن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِّ سَائِدٍ شَدِيدًا ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

رابعًا: اختتم الحديث عن الجن ببيان بعض أخبارهم وتوجُّهاتهم مما ورد على لسان هؤلاء النفر أيضًا، وأنهم أصنافٌ وفئات؛ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح ﴿وَأَنَا بَنَّا الْفَالِحِينَ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ۝١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعِجَرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِرَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ حَطَبًا ۝١٥﴾.

خامساً: انتقلت السورة إلى شأنٍ آخر؛ شأن قريش، فبدأت بترغيبهم وترهيبهم لعلهم يعودون إلى الحق ﴿وَالْوِاسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ١٦ لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾.

سادساً: ثم حذرتهم من استمرارهم بتلويت المسجد الحرام بتلك الأصنام وما يتعلق بها من طقوس وثنية ودعوات جاهلية ﴿وَأَنْ أَلْمَسَ جِدَ اللَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

سابعاً: ثم بينت موقفهم من هذه الدعوة المحمدية التي تدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، والتوكل عليه وحده، وتحذيرهم من مغبة العناد والإصرار على معصية الله ورسوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ١٨ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَعْصَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾.

ثامناً: ختمت السورة ببيان علاقته ﷺ بعالم الغيب، وأنه لا يعلم عنه إلا ما علمه الله له، في إشارة إلى ما ورد في السورة من أخبار غيبية تتعلق بعالم الجن وما فيه من أصناف وأحوال، وعالم الآخرة وما فيه من وعيد لهؤلاء المشركين ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ٢٥ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾.

دقائق التفسير

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ لم يكن على علم بهم وباستماعهم. قال ابن كثير عن الحسن البصري: (إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم) (١).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٠) دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠ - ١٩٩٩ م، تح. سامي بن محمد السلامة.

والنَّفَرُ: الجماعة القليلة التي لا تزيد على عشرة.

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أظهروا تعجبهم من حُسْنِهِ وتأثيره فيهم.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي: يدلُّ إلى الصواب والخير والحكمة.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى جلاله وعظمته أن يكون له زوجة وولد، والجَدُّ: الجلال والعظمة.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ يعنون به إبليس؛ لأنه من الجنِّ.

﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ الشَّطَطُ: مجاوزة الصواب والعدل.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما كنَّا نظنُّ أن عاقلًا في الإنس أو الجنِّ يتجرأ على أن يكذب على الله.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: يَحْتَمُونَ بهم، وكانت هذه عادة جاهلية؛ حيث إنهم إذا نزلوا في وادٍ استعاذوا بكبير الجنِّ - وهم لا يعرفونه - أن يُجِيرَهُمْ من سفهاء الجنِّ، وقد بالغ بعض العرب في هذا الخوف حتى لجأ إلى عبادة الجن، ونسب الجنَّ إلى الله، بمعنى أنه منحهم شيئًا من صفات الألوهية.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: زادتهم عبادتهم للجنِّ خوفًا وذلًّا وضلالًا، وهذا هو شأن كلِّ من يلجأ إلى غير خالقه، وهذا المعنى أولى وأنسب للسياق، ولمقاصد الخلق الكلية من القول بأن الجن تمكّنوا من الإنس فزادوهم خوفًا على خوفهم؛ إذ الجن لا يتمكّنون من البشر، ولا البشر يتمكّنون من الجنِّ، وهو أولى كذلك من القول أن الإنس بهذه الاستعاذات قد زادوا الجنَّ عتوًا وطغيانًا؛ لأن مدلول الرَّهَق مخالفتٌ لهذا، كما قال تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عُثْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، وسيأتي أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ يَحْشَا وَلَا رَهَقًا﴾، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ هذه الآية تحتل أنهم يُنْكِرُونَ البعث والحساب،

وتحتمل أنهم يُنكرون أن يبعث الله نبياً أو رسولاً، والثاني أقرب للسياق؛ لأنَّ السورة بدأت بالحديث عن سماعهم للرسالة المحمّديّة، ثم صدمتهم بوجود حراسةٍ للسماء لم تكن معهودة لهم في السابق، وهذه علامةٌ على حصول شيءٍ جديدٍ وذو شأنٍ عظيمٍ، وما ذاك إلاّ البعثة المحمّديّة، كما هو معلوم.

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ هذه من الأخبار الغيبية التي تخصّ صلة الجنّ بالسماء، وأنهم كانوا قبل بعثته ﷺ يسترِقون أخبار الغيب، ثم مُنِعُوا عن ذلك. والعقول لا تملك أدوات التعرّف على حقيقة هذه الصورة الغيبية، ولا كيفيتها، ولا أي معلومة تفصيلية عنها، وليس مطلوباً من العقول ذلك، وإنّما المطلوب هو التوصل إلى المقصود العملي من هذا الإخبار، ألا وهو التيقّن أنّ الوحي النازل من السماء إلى الأرض محفوظٌ من الزيادة والنقصان، لا يتعرّض له إنسٌ ولا جنٌّ، وأنّ الجنّ محكومون بقدر الله كما للإنس.

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لم نكن ندري - والقول للجنّ - أهذا الذي حصل من حراسة السماء ومنعنا من استراق السمع لشرٍّ أريد بالأرض؛ كالهلاك أو قيام الساعة، أم لأمرٍ يعود لها بالخير، بأن يبعث الله نبياً أو رسولاً لها، وكان هذا قبل أن يستمعوا القرآن فيؤمنوا به، والله أعلم.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ كُنَّا مَذَاهِبَ مُخْتَلِفَةٍ، وَالْقِدَدُ: جَمْعُ قِدَّةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي: أيقنّا بأن الله قادر علينا ولن نفلت من حكمه سواء بقينا في أماكننا في الأرض أم فررنا إلى جهةٍ أخرى، فكلُّ ذلك عند الله سواء.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ الْبَخْسُ: النِّقْصُ، وَالرَّهَقُ: الْإِذْلَالُ وَالْإِهَانَةُ، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الرَّهَقِ الَّذِي اخْتَرَنَاهُ آنِفًا فِي مَسْأَلَةِ اسْتِعَاذَةِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ؛ إِذْ اقْتِرَانَ الرَّهَقِ بِالْبَخْسِ

يبعد استعماله بمعنى الطغيان والتكبر، والله أعلم.

﴿تَحَرَّوْا رِشْدًا﴾ أي: طلبوا الرشد وبحثوا عنه حتى وصلوا إليه.

﴿الْقَاسِطُونَ﴾ الظالمون.

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: لو أنهم استجابوا للحق واستقاموا على الصراط المستقيم، والمقصود بهم أهل مكة، فالحديث انتقل إليهم.

﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: لأنزلنا عليهم ماءً كثيرًا، وفيه إشارة أن استمرارهم على الكفر يُنذر بالقحط واحتباس المطر، وقد كان.

﴿لِنَقْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبر شكرهم لله على هذه النعم؛ إذ كل ما يُصيب الإنسان في هذه الحياة من خير أو شرٍّ داخل في باب الاختبار.

﴿يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: يدخله في عذاب شاق.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: إنما بُنيت لعبادة الله وحده، والمقصود هنا: المسجد الحرام؛ إذ لم يكن هناك مسجدٌ سواه، والحكم ماضٍ من بعده في كل مسجد يُقام.

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ تنديدٌ بما يفعله المشركون من تدنيس البيت الحرام بتلك الآلهة المزيفة، ويُقاس على هذا أيضًا تمجيد كلٍّ أحدٍ من دون الله؛ كتعظيم الملوك والمبالغة في مدحهم، فالمساجد لم تُبن لها، وقد صار في زماننا أن مساجد كلِّ دولة تتنافس في تمجيد حاكمها، مع اختلاف الحكام فيما بينهم اختلافًا عظيمًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي: لما قام محمد ﷺ بأمر الدعوة إلى الله وحث الناس على توحيده وعبادته.

﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: احتشد المشركون في وجهه، ووقفوا له في طريقه صادّين الناس عنه، واللبد: تجمُّع الأشياء بعضها فوق بعض.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَ لِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: في حالة اتباعي لأهوائكم وتوقُّفي عن هذه الدعوة، وهذا من باب التيسير لهم.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأً ومكاناً أهرب إليه منه، ومنه اللحد الذي يستر جسد الميت.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي: لا أملاك إلا تبليغي لكلام ربي ورسالاته، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ فالنبي ﷺ لا يملك أن يُجبر أحدًا على الهداية، ولا أن يُعجل بعقوبة الله على أحد، ولا أن يُريهم بعض الآيات التي يطلبون.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء: إنك لا تعلم متى ينزل وعيد الله على هؤلاء، أم هو قريب أم سيجعل له الله أمداً يُمتّعهم به إلى حين، وهذا التأكيد إنما قُصد به: بيان الحدّ الفاصل بين علم الله الشامل والمطلق وبين علم النبيين الذين يتكلمون عن الله، ويبلغون رسالاته للناس.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ فلا عالم للغيب سواه، وإنما يبلغ النبي ما يُوحى إليه من ربه.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦١) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿ هذا استثناء يُفيد الحصر، بمعنى أنه لا أحد من البشر يعلم الغيب إلا الرسول الذي ينزل عليه الوحي؛ فمن ادّعى علم الغيب بأي وجه كان، فقد لزم من قوله نزول الوحي عليه.

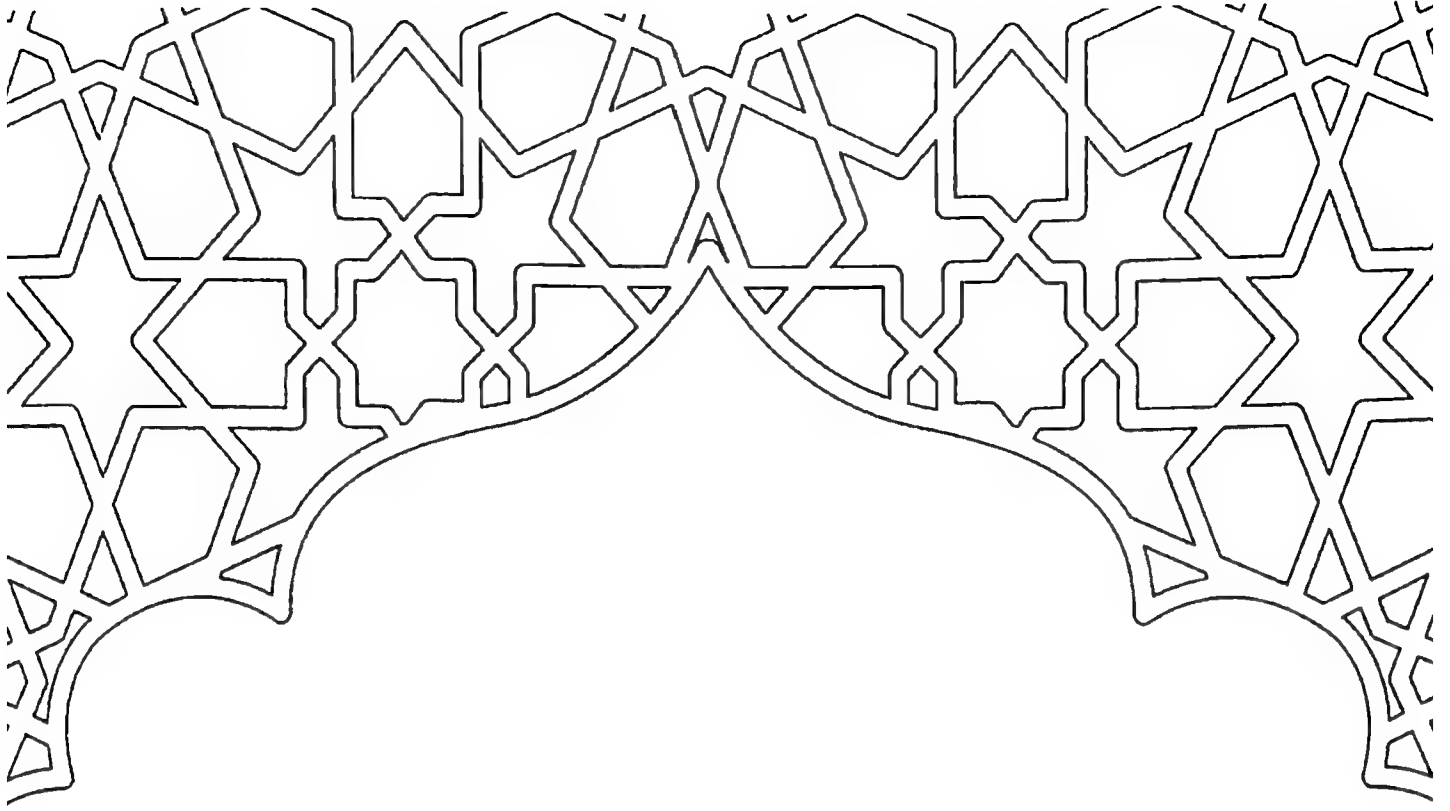
والمقصود بالغيب هنا: ما كان في عالم الغيب، وليس ما غاب عن الإنسان في عالم الشهادة؛ لأنّ هذا الأخير يتحصّل بأشياء كثيرة، منها العلمي، ومنها الروحي، ومنها الفراسة، لكن عالم الغيب هو الذي بيننا وبينه حجاب؛ كالعرش والكرسي، وأحوال العوالم الغيبية، وأحوال الآخرة، وما هو مُدَوّن في علم الله من آجالهم وأرزاقهم، ونحو ذلك، والله أعلم.

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي: يُرسل له ملائكة الوحي ليُوصلوا إليه الوحي بالطريقة المباشرة التي لا تفتقر إلى سند من الرواة ولا التفرّس في المعاني والواردات، بل هو الوحي اليقين والجازم والمحفوظ من الزيادة والنقصان.

﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ليظهر ما كان في علم الله أنّ هؤلاء الرسل قد

أبلغوا الناس رسالات ربهم كما أوحاها إليهم، حتى تقوم الحجة لله على خلقه.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ تأكيد لعلمه سبحانه الشامل الكامل الذي يُحيط بالمرسلين، وبما يبلغونه عنه، ويعلم سبحانه كل شيء في هذا الوجود على وجه الإحصاء والضبط والحصر، فتبارك الله رب العالمين.



سُورَةُ الْمَزْمَرِ

المجلس السابع والستون بعد المائتين: حاجة الدعاء إلى قيام الليل

﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْئِلُ (١) قُرْ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصْفَهُ، أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلْ الْقُرْءَانَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ ثَوْبَةَ الْبَلِّ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ أَنْتَ رَبُّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَنَصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَنْ سَبَكُوكُمْ مِنْكُمْ مَّرَضَىٰ وَعَاخِرُونَ يَضُرُّوْنَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِلَّهِ لَأُنْفِكَنَّ مِنْ خَيْرِ نَحْوِهِ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

حاجة الدعاء إلى قيام الليل

قيام الليل بالصلاة والذكر والدعاء سِمَةً من سِمَاتِ الصالحين، وطريق من طرق السالكين، وباب من أبواب السائلين، وواحة من واحات المحييين المخلصين، إِلَّا أَنَّ الدُّعَاءَ إِلَى اللَّهِ أَحْوَجُ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَعِينِ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ لِتَرْبِطَ بَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْخَلَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَكَمَا يَأْتِي:

أولاً: استهلت السورة ببدءٍ مباشرٍ إلى النبيِّ الكريم ﷺ تأمره أمراً مباشراً بقيام الليل قياماً طويلاً، ثم رَبَطَتْ هَذَا الْأَمْرَ رِبْطًا تَعْلِيلِيًّا بِأَمَانَةِ الْوَحْيِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الثَّقِيلَةِ فِي حَمَلِهِ وَتَبْلِيغِهِ، ثُمَّ عَادَتْ لِتؤكد أهمية قيام الليل، ومواصلة الذكر والانقطاع إلى الله تعالى في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْئِلُ (١) قُرْ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصْفَهُ، أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلْ الْقُرْءَانَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ ثَوْبَةَ الْبَلِّ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ أَنْتَ رَبُّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾

ثانيًا: انتقلت السورة إلى ميدان الدعوة لتبيّن حاجة الداعية إلى الصبر، والعلاقة بين قيام الليل وبين القدرة على الصبر لا تخفى ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

ثالثًا: تُحذّر السورة أولئك المكذّبين الضالّين، وتوعّدُهم بما يسوؤهم إن هم استمروا في الوقوف بوجه الدعوة ومحاربتها ومحاربة أهلها ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَبِيلًا﴾ (١١) **إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا** (١٢) **وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا** (١٣) **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا**.

رابعًا: تربط السورة ربطًا وثيقًا بين هذه الدعوة المحمّديّة وبين دعوة موسى عليه السلام؛ إذ أرسله الله إلى فرعون فكذّبه، وعصى أمر ربّه فأهلكه الله بذنبه، وفي هذا تحذيرٌ مُجدّدٌ لمُشركي مكّة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) **فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**.

خامسًا: تُذكّر السورة بيوم القيامة والوعيد الذي ينتظر أولئك الضالّين المكذّبين ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧) **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا** (١٨) **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**.

سادسًا: عادت السورة إلى موضوع قيام الليل وثناء الله تعالى على نبيّه الكريم ﷺ، وعلى من معه من أصحابه المقربين ﷺ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحِصَّوهٗ فَنَابَّ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرَمِنَ الْقُرْآنِ﴾، ثمّ عذّر الله المرضى والمسافرين والمجاهدين ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ ۖ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَآخَرُونَ يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرَمِنَهُ﴾.

سابعًا: اختتمت السورة بتوجيهات إيمانيّة وتربويّة تحثُّ فيها المؤمنين على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والبذل في طاعة الله بأنواع البر، ومداومة الاستغفار ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكلّ ذلك موصولٌ بما استهلّت به السورة، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾ نداءٌ لرسول الله ﷺ فيه معنى التودُّد والتلطُّف، و﴿الْمَرْمَلُ﴾ أصلها المَرْمَل؛ وهو مَنْ لَفَّ ثِيابه على نفسه، وهي هيئةٌ مألوفةٌ من كلِّ أحدٍ، وفي كلِّ وقتٍ، لكنها بالنسبة للرسول ﷺ قد اقترنت بنزول الوحي، وما أصابه من الرُّوع في أوَّل الأمر فقال: «رَمِّلُونِي رَمِّلُونِي»^(١).

﴿قِرَآئِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٢٠ نَصْفُهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٢١ أَوْزِدْ عَلَيْهِ ٢٢ أمرٌ له ﷺ بقيام الليل قيامًا طويلًا يُقَارِبُ النصف في حدِّه الأدنى، والأمر هنا للوجوب، وليس على سبيل التخيير أو التطوُّع، وهذا من خصائصه ﷺ.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ربط القيام بترتيل القرآن يظهر فائدة من فوائد القيام، وهي تعهُّد القرآن الكريم بحفظه وتلاوته حقَّ تلاوته وتدبُّره، ولا شكَّ أنَّ في الليل بطوله وصفائه مُتَّسِعًا لكلِّ هذا، والترتيل معناه: القراءة على مهلٍ؛ بحيث تظهر الحروف، وتبيَّن الكلمات.

﴿إِنَّا سُلِّقَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ القول الثقيل هو: القرآن، وثقله بثقل أمانته وعظيم مسؤوليته حمله وتبليغه للناس، وقد جاء هذا الإخبار متصلًا بقيام الليل على وجه التعليل؛ بمعنى أنَّ حَمْلَ هذه الأمانة الثقيلة يتطلَّب صلةً عميقةً بالله تعالى، كالشجرة التي تتمدَّد جذورها في الأرض لتتَوَيَّ على حمل فروعها وثمارها في السماء.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ الناشئة: ما يُنشِئُه المُصَلِّي في الليل من صلاةٍ وذكرٍ ودعاءٍ، فاكتفى بالصفة عن ذكر الموصوف، و﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي: أثقل على النفس؛ ولذلك لا يَقْوَى عليها إلا الأصفياء الأتقياء، و﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أعدلُ وأفضلُ قولًا؛ لأنَّ الذكر الذي يكون في جوف الليل يكون أصفى وأقربَ للخشوع والتدبُّر، وأبعدَ عن الرياء.

(١) متفق عليه عن أم المؤمنين عائشة، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقد وردَ مُطَوَّلًا ومُختَصَرًا. ينظر: صحيح البخاري (١/ ٤٠٤) / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٩٧) / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أصل السَّبْح: العَوم، ومعناه هنا: التطواف لأداء المهام وسدّ الحاجات، ومن ذلك: السعي في الدعوة إلى الله، وحلّ مشاكل المجتمع، وإجابة السائلين والمستفتين.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع له بالعبادة انقطاع الإخلاص وحضور القلب، وليس انقطاع الرهبة والاعتزال عن الحياة.

﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تشغل بهم وبالردّ على أقاويلهم، وهو الهجرُ المصحوب بالصبر والحلم، والرغبة في هدايتهم، وليس الانتقام منهم.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ أي: دَع هؤلاء المُكَذِّبِينَ المُتَرَفِّين الذين أعماهم الترف عن اتباع الحق واتركهم لي، وهذه صيغةٌ من صيغ التهديد المعروفة.

﴿وَمَهْلَهْز قَبِيلًا﴾ أي: انتظر ما يحلُّ بهم، ولا تستعجل لهم.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الأنكال: القيود الثقيلة، بمعنى أنهم يُقَيَّدُونَ ويُرمون في جهنّم.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: ينشب في الحلق ولا يُستساغ.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تزلزل.

﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾ أي: رملاً منشوراً غير مجتمع ولا متماسك.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ، وهو الشاهد على الناس يوم

القيامة مؤمنهم وكافرهم أنه قد بلغهم رسالة الله كما أنزلت عليه.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو سيدنا موسى ﷺ، والربط بين الرسالتين المحمديّة

والموسويّة ربطٌ مُؤكِّدٌ ومُكرَّرٌ في القرآن، وله أكثر من دلالة؛ أهمها: التشابه الكبير بين

الرسالتين من حيث الشموليّة، والتشابه بين الأُمّتين من حيث إنّ الله اختار بني إسرائيل

لحمل رسالة الله وفضلهم على العالمين، ثم استبدل بهم هذه الأُمة.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: أخذناه أخذًا شديدًا، وفيه تعريضٌ وتهديدٌ لكفار مكّة إن هم استمروا

بمعصيتهم لرسول الله ﷺ، كما استمرّ فرعون بمعصيته لموسى.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أي: كيف تتقون اليوم الذي سيبعثكم الله فيه للحساب إن بقيتم على كفركم؟ ثم وصف شدة ذلك اليوم بأنه تشيب منه رؤوس الولدان.

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ وصف ثانٍ لذلك اليوم؛ حيث تتشقق السماء به، وذكر كلمة ﴿مُنْفَطِرٌ﴾ والعادة أن تؤنث؛ لتناسب لفظ السماء، لكنه أراد هنا: التنبيه إلى معنى أن السماء هي السقف المضروب فوق الأرض، وتشقق هذا السقف أقوى في إحداث الرهبة وتصوير حالة الفزع التي تغشى الناس في ذلك اليوم.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾ أي: هذا التخويف إنما قصد به التذكير والاتعاظ؛ ولذلك قال بعده: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَلَبَّاسٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآية نزلت بعد الآيات الأول بمدة طويلة، وفيها تزكية لرسول الله ﷺ أنه ممثّل لأمر ربّه امتثالاً كاملاً، ثم أثنت الآية على مجموعة من الصحابة الكرام أنهم حملوا أنفسهم على قيام الليل اقتداءً به ﷺ، وتنافساً فيما بينهم على الطاعات والقربات.

ثم أشارت الآية إلى التخفيف ﴿عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَلَبَّاسٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لن تقدروا على ضبط ساعات الليل والاستمرار في المداومة على قيامها بتلك المدد المقدرة، وهذا تمهيدٌ لتخفيف هذه العبادة بما تيسر منها ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَتَرَعَّيْنَ الْقُرْآنَ﴾.

ثم بينت حكمة أخرى لهذا التخفيف: ﴿عَلِمَ أَنْ سَبَكُونُ مِنْكُمْ مَّرَضًا وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويضربون في الأرض أي: يسافرون طلباً للرزق ونحوه، والتخفيف بحقه ﷺ مفهومٌ لمحل الوجوب، أما بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم فالصحيح أنه تخفيفٌ بمعنى التيسير عليهم فيما تطوعوا به، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم بالجمع بين هذه العبادة الشريفة وبين الواجبات والمتطلبات الأخرى، والدليل عليه قوله

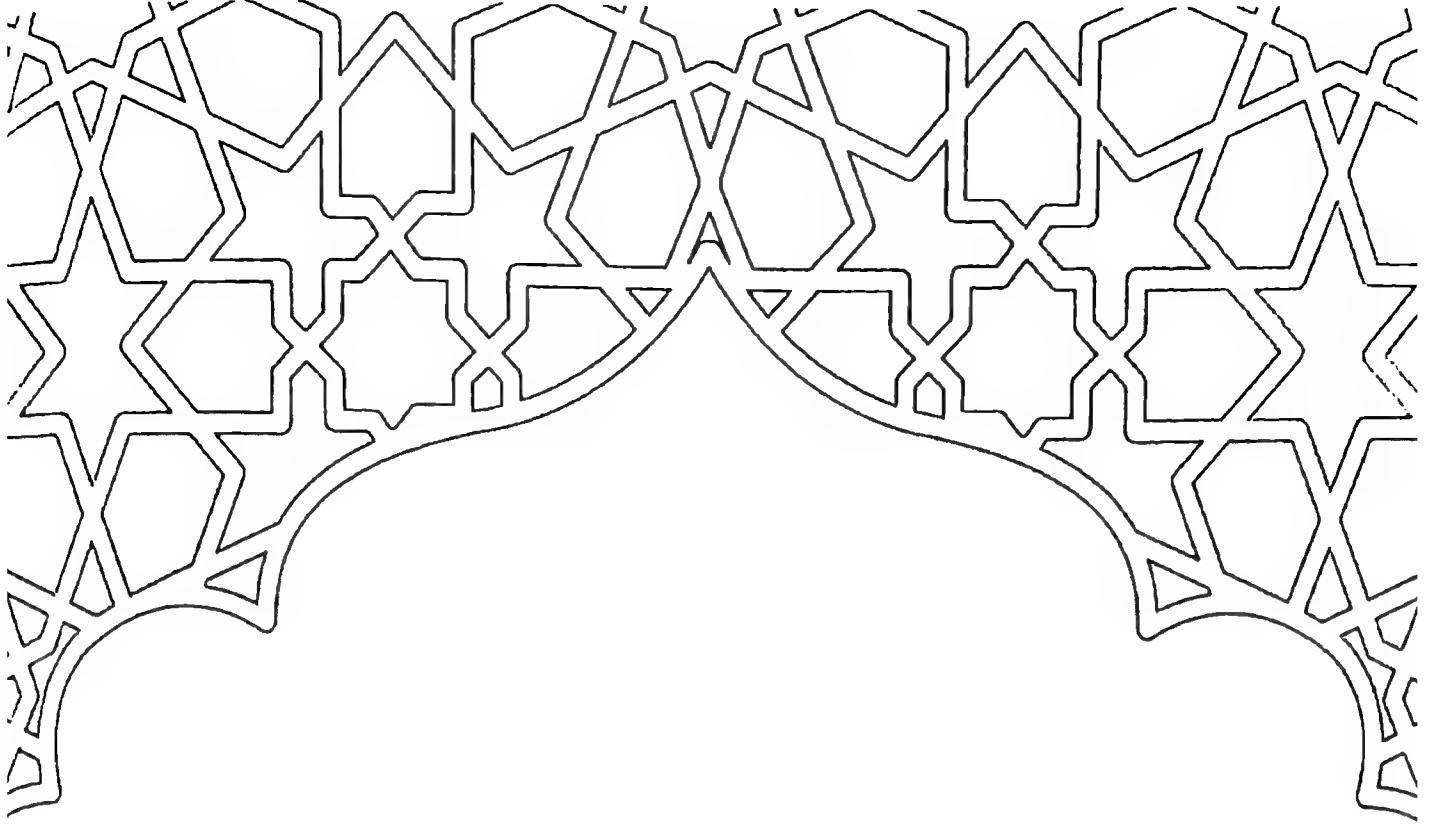
تعالى: ﴿وَطَافَةٌُ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ولو كان واجبًا لما اختصت به طائفة، والله أعلم.

﴿فَاقْرَءُوا مَا يَتَرَفَعُهُ﴾ أي: من القرآن، في صلاة الليل وفي غيرها.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه الصدقة بالقرض الحسن؛ لأنَّ الْمُتَصَدِّقَ ينتظر الثواب على صدقته كالمقرض الذي ينتظر الوفاء بقرضه.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كلِّ ما مرَّ من قيامٍ لليل، وقراءة للقرآن، وصلاة، وزكاة، يُوصيهم بالاستغفار، وهذا منهجٌ تربويٌّ دقيقٌ يقصد به تربية المسلم على استئثار النقص ولو قدَّم ما قدَّم؛ وذلك لأنَّ مقام الله العظيم ونعماءه الكبيرة على هذا الإنسان لا يُكافئها أيُّ عملٍ مهما بلغ.

ثم في هذا سدُّ لثغرات الشيطان في دخول شيءٍ من التكبر أو الغرور، وهما من مُفْسِدَاتِ العمل مهما كان في نفسه شريفًا وعظيمًا، والله المستعان، ونستغفره تعالى ونتوبُ إليه في كلِّ آنٍ ومكانٍ.



سُورَةُ الْمُلْكِ

المجلس الثامن والستون بعد المائتين: قم فأنذر

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَبَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمُئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرَفِ وَمَنْ خَلَقَتْ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلَتْ لَهُ، مَا لَا مَسْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدَتْ لَهُ، تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ، كَانَ لِآيَاتِنَا عِندًا (١٦) سَاءَ هُفُهُ، صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَصْلِيهِ سَعَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعَرُ (٢٧) لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ (٢٨) لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكًا (٣١) وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْتَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ نَرَى وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣٢) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٣) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٤) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ (٣٥) إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (٣٦) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٧) لِمَنْ شَاءَ يَسْكُرْ أَنْ يَفْقَدَ أَوْ يَنْتَحِرَ (٣٨) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِينَةٌ (٣٩) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٤٠) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ (٤١) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤٢) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٣) قَالُوا لَرَبِّنَا مِنَ الْمُضِلِّينَ (٤٤) وَلَرَبَّنَا نَطَعُ الْمُسْكِينِ (٤٥) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٦) وَكُنَّا نَكْذِبُ (٤٧) يَوْمَ الدِّينِ (٤٨) حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ (٤٩) فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ (٥٠) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ (٥١) كَانَهُمْ حُمُرٌ مَنفُوفَةٌ (٥٢) فَرَّتْ مِنْ قَسْرَةٍ (٥٣) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٤) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٥) كَلَّا إِنَّهُ، تَذَكَّرٌ (٥٦) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (٥٧) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ (٥٨)﴾

قم فأنذر

سورة المدثر من أوائل السور المكِّيَّة نزولاً، وموضوعها هو الدعوة التي كُلف بها رسول الله ﷺ وما يتصل بها، ثم شرح لموقف أهل مكة وصدمتهم بهذه الدعوة وحيرتهم في كيفية مجابته، ثم بيان لما توعدَّهم الله به من هلاكٍ وعذابٍ، وكما يأتي:

أولاً: استهلَّت السورة بنداء علويٍّ للرسول ﷺ يأمره أن يقوم بالدعوة إلى هذا الدين، وأن يستجمع الصفات المطلوبة لهذا الأمر؛ من تعظيم الله تعالى، وتطهير كامل في المخبر والمظهر، وابتعادٍ عن مواطن الزلل والإثم، والتنزه عن الشُّح والطَّمع، والتحصُّن بالصبر

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَبَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿١﴾ وهذا تنبيه لأخلاق الداعية وعُدَّتِهِ في الدعوة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإن كانت صورة الخطاب خاصّة به ﷺ.

ثانيًا: بعد هذا الاستهلال في تعظيم شأن الدعوة وبيان شروطها، وصفات القائمين عليها، انتقلت السورة إلى أولئك الذين أوقفوا أنفسهم للصدِّ عن هذه الدعوة وتشويهها، تُهدِّدهم وتوعدّهم بالعذاب الشديد: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأُهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا بُقِيَ وَلَا نَذْرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرِ ﴿٣٠﴾﴾.

ثالثًا: عَقَّبَت السورة على تساؤلات المشركين واعتراضاتهم بشأن عدد خزنة جهنم التسعة عشر، فبيّنت أن هؤلاء إنما هم ملائكة، وقوتهم لا تُقاس بمقاييس البشر، وأن هذا العدد موافق لما عند أهل الكتاب، وبيّنت أن الإخبار بهذا العدد إنما جاء اختبارًا لإيمان المؤمنين، وكشفًا للشاكرين والمُتَرَدِّدين ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾.

رابعًا: عَادَت السورة وبشيءٍ من التفصيل والتوسُّع تُذَكِّر بالآخرة وانقسام الناس فيها بحسب ما قدَّموه لأنفسهم في هذه الحياة، فكلُّ إنسانٍ مجزِي بعمله؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ يَنْكَرُ أَنْ يَتَّقِمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتِ بَسَاءَةٌ لَّوْنٌ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُتَعَمِّرِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُضِلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَرَبُّكَ مُطْعِمُ الْيَسِيرِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْرُضُ مَعَ الْخَافِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَقًّا أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾.

خامساً: ختمت السورة ببيان حال المشركين من الدعوة ونفورهم عنها، مع أنها ما جاءت إلا لإنقاذهم وإسعادهم في حياتهم الدنيا، وفي حياتهم الآخرة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ۚ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ۚ ۝٥٢ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۚ ۝٥٣ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۚ ۝٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۚ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۚ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ نداء لرسول الله ﷺ فيه معنى التودد والتلطف، كما في [المزمل: ١]، مع تقارب في معنى الكلمتين أيضاً، فالمدثر أصلها المدثر، أي: الملتحف بشيابه، وكلاهما اقترن بنزول الوحي، وما أصابه ﷺ من الروح في أول الأمر.

﴿قُرْآنًا نَذِيرٌ﴾ أمرٌ بوجوب الدعوة إلى الله، والقيام وإن كان يعني النهوض من الفراش ونحوه، إلا أن دلالة هنا أوسع من ذلك، فهو يعني: الاضطلاع بالأمر وتحمل مسؤوليته وتبعاته.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: كبر الله وعظمه كما ينبغي، وربُّها أوْماً بهذا الأمر إلى الصلاة أيضاً.

﴿رَبِّائِكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: أدم طهارتها ونظافتها، وتطهير الثياب يدلُّ على تطهير الجسد بطريق الأولى، وفيه الإشارة إلى تطهير الباطن من الكدورات المعنوية وكل ما يشغل القلب عن الخشوع والحضور، وهنا إيلاء أخرى إلى الصلاة أي: اقتران التطهير بالتكبير.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: لا تقرب منه، والرُّجْز يُطلق على المُستقبحات المادية؛ كالنجاسات، والمعنوية؛ كالشرك، والظلم، والآثام الموجبة للعقوبات.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تمنن على الناس بما قدَّمته لهم من علمٍ وصدقةٍ وإكرامٍ، وتستكثر ذلك فيهم، وترى لنفسك الفضل عليهم، فإنما ترجو أجرَكَ من الله وحده.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: اصبر على ما كلفك به ربُّك من دعوة الخلق إليه مهما نالك من

أذى، واجعل ذلك الصبر في الله وحده ليس عن ضعفٍ، ولا عن وهنٍ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الْنُفُورِ﴾ أي: إذا نُفِخَ في الصور إيدانًا بقيام الساعة ونهاية الحياة الدنيا، والنفخ في الصور مُكَرَّرٌ في القرآن كثيرًا، إلَّا أنَّه هنا استعمل النقر، وهو معنى آخر مضافٌ إلى النفخ، والله أعلم به؛ إذ هذه من الأخبار الغيبية التي ينبغي التوقف فيها عند النص، ولأنَّها لا تدخل في باب التكليف، والمقصود العام منها حاصلٌ بلا تكلف، والله أعلم.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: اترك أمر هذا الذي خلقتُه وحيدًا في بطن أمِّه بلا منصبٍ، ولا مالٍ، ولا جاءٍ ودَّعَه لي، وهذه صيغةٌ من صيغ التهديد، وقد نزلت والآيات التي بعدها في الوليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي: كثيرًا.

﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ أي: حاضرين معه، وهو يستقوي بهم، وبما أعطاه الله من مال.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي: مهَّدْتُ الأمور أمامه ويسرَّتها له حتى بلغ في قومه ما بلغ من الجاه والعزِّ.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع بزيادة النعم هذه؛ من جاءٍ ومالٍ؛ لأنَّه يرى أنَّه أهلٌ لها ومستحقٌّ للزيادة فيها لفرط غروره وكبره.

﴿كَلَّا﴾ كلمة رادعةٌ زاجرةٌ، بمعنى أنَّه لن يكون له ذلك، وهذا تهديدٌ بزوال نعمته.

﴿إِنَّهُ كَانَ لِابْتِنَاءِ عَيْنِدَا﴾ والعنيد: شديد العناد، والعبارة جاءت في سياق التعليل؛ بمعنى أنَّ نعمته هذه لا تدوم عليه بسبب معاندته لآيات الله وقوله الآثم فيها.

﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾ الإرهاق هنا: المشقة والعذاب، والصعود: العقبة الكأداء، بمعنى أنَّه كان قد مهَّد الله له تمهيدًا، فاستحقَّ بكفره وعناده وانعدام شكره أن ينقلبَ التمهيدُ إلى تعسيرٍ، والنعيمُ إلى عذابٍ، وهذا من باب مُناسبة الجزاء للعمل.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ هذه الآية وما بعدها جاءت تبيانًا لمعنى كونه عنيْدًا، فهنا فُكِّرَ فيها يرُدُّ به القرآن ويصدُّ الناس عنه، ثم خطَّط وحسَّب بدقة ما الذي ينبغي أن يقوله فيه.

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿جمله معترضة ومؤكدة بمثلها، ومعناها: الدعاء عليه بالهلاك لسوء ما قَدَّر.﴾

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ دَقَّقَ في التفكير ونظر نظرة الفاحص المتعمق.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَ﴾ عبس أي: قَطَبَ وجهه، وبَسَرَ أي: تَغَيَّرَ وجهه غيظًا وحنقًا، وهذه صورة لحالته النفسية، وحقده الأعمى على آيات الله؛ إذ لم يجد فيها بعد كل هذا التفكير والتقدير ثغرة ينفذ منها.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: أَعْرَضَ عن الحق الذي لَاحَ له بهذا التفكير مُستَكْبِرًا عن الخضوع له، والاعتراف به.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَاحٌ يُؤْتِرُ﴾ لم يستطع أن يقول في القرآن شيئًا إلا أَنَّهُ سِحْرٌ، وهو اعترافٌ ضمنيٌّ بقوة تأثيره في نفسه، وإن غَلَفَهُ بأكذوبة السحر، فهو يَعْلَمُ أَنَّ القرآن كلامٌ فيه الأخبار، وفيه الأحكام، وفيه الآداب، وَأَنَّهُ لا صِلَة بين هذه المعاني وبين السحر.

ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿سِحْرٌ يُؤْتِرُ﴾ أي: مَأْثُورٌ عن الأقدمين ومعروف عند الناس، وهذه كذبة أخرى؛ فالسحر المعهود موضوعه مختلفٌ تمامًا، ولو كان كما يزعم لأتت السحرة - وهم كُثُرٌ - بما يُشابه القرآن أو يُعَارِضُهُ.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ينسبه إلى النبي وليس إلى الوحي، بمعنى أَنَّهُ يَتَّهِمُهُ بِالْكَذِبِ - حاشاه - بالكذب واختلاق القرآن.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأدخله جهنم فيصلى فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ سؤال قصد به التهويل من شأنها وخطورها.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تُبْقِي مَن يدخلها أحدًا، ولا تَدَعِهِ إِلَّا وتهلكه بسعيرها، وتعذبه

بعذابها، ولا يصح أن يكون: ﴿لَا تُبْقِي﴾ بمعنى أَتَّاهَا تُقْنِيهِمْ؛ لأنَّ الفناء سيكون هنا رحمة بهم.

﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تحرق أجسادهم وتكويها فتغير ألوان بشرتها.

﴿عَلَيْهَا سِتْرَةٌ عَشْرٌ﴾ من الملائكة، وهم خَزَنَةُ النار، وهذا عددٌ غيبيٌّ لا نعلم سِرَّهُ؛ فَرَبَّنَا

يكون لكل طبقة أو درك في جهنم خازن، وربها يكون غير ذلك، ولا فرق في النتيجة العملية؛ إذ المقصود حصول الرهبة والاعتاظ، حتى يستعد العاقل بما يقويه شر ذلك اليوم وأحواله.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: وما جعلنا خزنة النار إلا ملائكة؛ لدفع توهم المشركين أنهم من الإنس فيمكن دفعهم كما يدفعون خصمهم من البشر، وقد ورد هذا عن بعض المشركين مُستخفاً بالعدد، ومُستعرضاً لقوته بين قومه، وهذا من جهلهم و حماقتهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتْهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليس عددهم هو الفتنة، فذلك من أحوال الآخرة ونواميسها، وإنما الإخبار عنهم، وقد مرّ قول المشركين فيهم وتعقيبهم على هذا الإخبار.

﴿لَيْسَتِغْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ لأنّ هذا موافق لما ورد عندهم في عدد خزنة النار.

﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ بتصديق أهل الكتاب، وقد وردت في هذا روايات لا يتسع لها المجال، ولا يبعد أن تكون زيادة الإيمان بما يُحدثه هذا الإخبار من ترهيب يدفع للحذر والورع والخشية المحمودة.

﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي: ليستنكر الكافرون هذا العدد ومعهم الذين في قلوبهم مرض، وهم هنا: المترددون من الذين التبس عليهم الأمر، ويبعد أن يكونوا المنافقين؛ لأنّ السورة من أوائل السور المكيّة، إلّا على القول الذي يستثني هذه الآية فيجعلها مدنيّة. وأمّا ذكر أهل الكتاب، فقد ورد كثيرًا في القرآن المكي؛ لأنهم كانوا موجودين، وكانت عقائدهم وأفكارهم موجودة، وكانت لهم صلات بأهل مكّة.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يُضِلُّ مَن يطلب الضلالة ويسعى لها، ويهدي مَن يستحق الهداية ويسعى لها.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ في إشارة إلى خزنة جهنم، والمعنى أوسع؛ لأنّ جنوده سبحانه وأعدادهم ووظائفهم من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله، فما علّمنا إياه بطريق الوحي علّمناه، وما أمسك جهنّاه.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ أي: ما هذه الآيات إلا تذكير وموعظة لهم.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ كلمة ﴿كَلَّا﴾ هنا أفادت الاستفتاح

وتأكيد القسم الذي بعدها، ثم أقسم الله بالقمر والليل في حالة إدباره، والنهار في حالة إسفاره؛ تنبيهًا إلى عظيم آيات الله ودلائل وحدانيته، ودقة صنعته وعنايته ولطفه بهذا الخلق.

﴿إِنَّمَا لِإِخْدَى الْكَبْرِ﴾ هذا هو الخبر المقسم عليه والمراد تأكيده والتنبيه لخطره، والإشارة في

﴿إِنَّمَا﴾ إلى سقر التي تقدّم ذكرها، و﴿إِخْدَى الْكَبْرِ﴾ أي: واحدة من الطامات الكبيرة.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشْرِ﴾ أي: إنّ الإخبار بها قُصِدَ به الإنذار؛ لكي يتّقوها الناس ويأخذوا حذرهم

منها.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: بعد هذا الإنذار البين لم يبق لكم عذر؛ فمن شاء أن

يتقدّم بالخير والعمل الصالح، ومن شاء أن يتقهّر بالظلم والعمل الطالح، بمعنى أنّ كلّ إنسان يتحمّل مسؤوليته ومسؤولية خياره وقراره.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ أي: كلّ نفس مرهونة ومحبوسة بعملها، وهذا تهديد لأصحاب

الباطل؛ لأنّهم هم الذين يُجَبِّسون بخطاياهم، أمّا أهل الحقّ فهم مُسْتَشْنُونَ.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هذا هو الاستثناء؛ فأصحاب اليمين لا يُجَبِّسون، بل هم مُطْلَقُونَ

وَمُسْتَبْشِرُونَ بنتائج أعمالهم.

﴿فِي جَنَّتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (١٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: وهم في الجنّات يتذكّرون المجرمين ممّن كانوا

يعرفونهم، فيسألونهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ما الذي أوردكم هذا المورد؟

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (١٢) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ (١١) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (١٥) وَكُنَّا

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هكذا يعترفون بخطاياهم؛ فمنها ما يتعلق بحقّ خالص الله؛ كالصلاة،

ومنها ما يشترك فيه حقّ الناس والمجتمع الذي يعيشون فيه؛ كإطعام المساكين، ثم يُبيّنون

أصل الخطايا كلّها، وهو التكذيب بيوم الحساب، مُشيرين إلى السبب الذي جعلهم في هذه

الدائرة الآتمة المغلقة، وهو أنهم كانوا يخوضون مع الخائضين دون تفكير ولا تمييز، وهذه لا شك إحدى أسباب الضلال والشلل الذي يُصيب العقل فلا يفكر إلا بما يرضي الجمهور ولو كان الجمهور جاهلاً ومنحرفاً.

﴿حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ أي: حتى تيقنا أننا كنا على الباطل بهذا الذي نحن فيه.

﴿فَنَاتَفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ إذ الشفاعة لا تكون لمشرك، ولا تكون إلا من بعد إذنه تعالى ورضاه.

﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) فَزَتْ مِنْ قَسَوَرَةٍ ﴿ شَبَّهَ حَالَهُمْ فِي نفورهم من القرآن بحال الحُمُر الوحشية التي تفرُّ مَنْ تظنُّ أَنَّهُ يطلبها مِنْ صَيَّادِي الْإِنْسِ أو ضواري الوحوش، و الحُمُر جمع حمار، والمقصود به الوحشي؛ لأنَّ الحُمُرَ الْأَهْلِيَّةَ ليست غرضاً للصيد، والقسورة جمع قَسَوَرٍ، وهو الرامي، وقيل: هو مفرد بمعنى الأسد، وهو من الكلمات المُعَرَّبَةِ، وكلاهما يشتركان في معنى الصيد، والله أعلم.

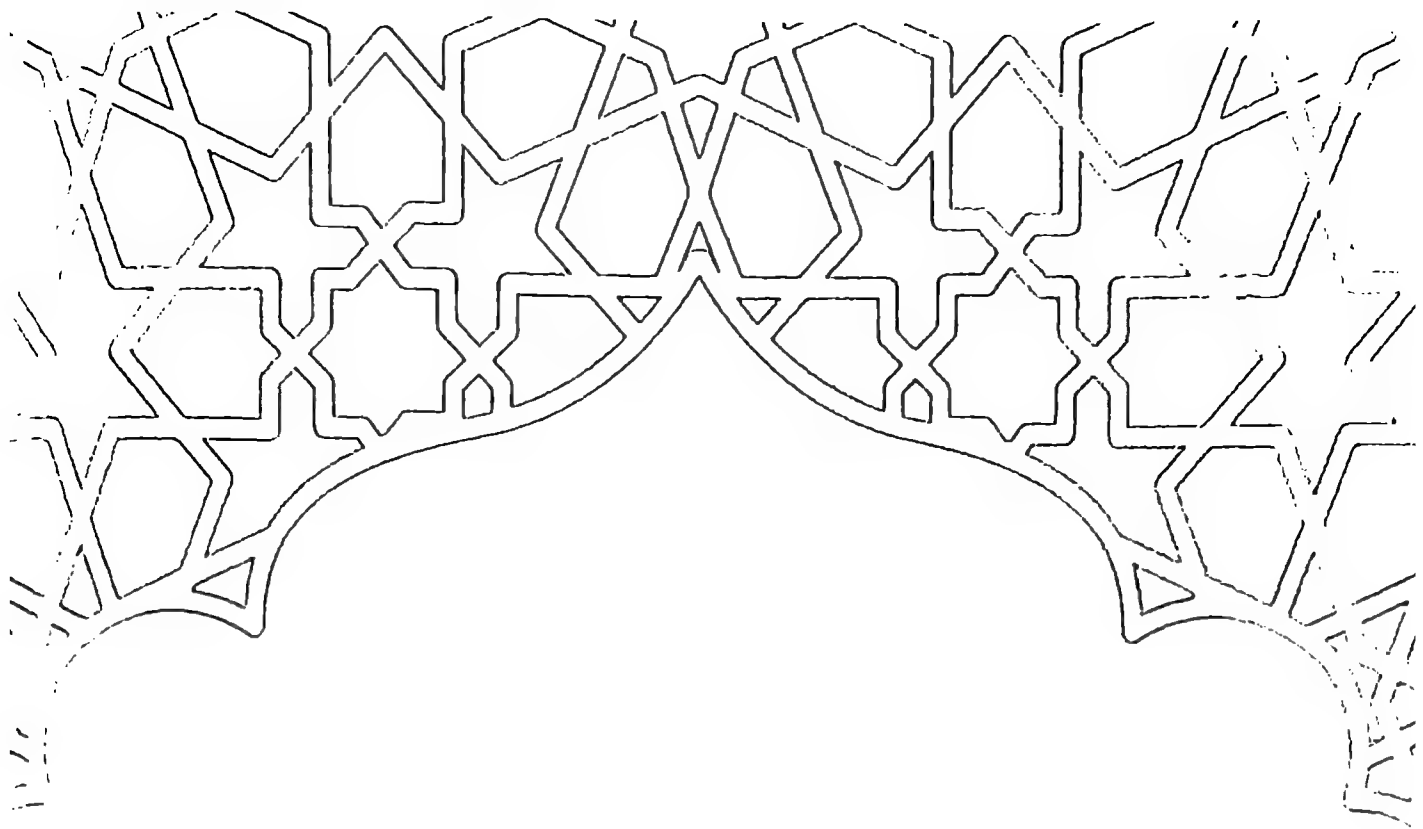
﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ هذا من عنادهم وبطهرهم وتفنُّنهم في طرائق تكذيبهم؛ فكل واحدٍ منهم يشترط أن يُنَزَّلَ اللهُ عَلَيْهِ صُحُفًا مَفْتُوحَةً وَمَفْصَّلَةً لينظر فيها، وبعد ذلك يُفَكِّرُ فِي الْإِيمَانِ، وهذا النَّمَطُ نراه اليوم في صورٍ أخرى من بعض المُتَعَالِمِينَ الَّذِينَ يرفضون الأخذ بالمنقول من الروايات ولو كانت بأعلى الأسانيد، بل ولو كانت مُتَوَاتِرَةً، ولا يُقِيمُونَ وَزْنَاً لِلْمَنَاجِجِ الْعِلْمِيَّةِ فِي التَّوْثِيقِ وَالتَّرْجِيحِ، وكأنَّه لا يريد أن يؤمن إلا بما تقع عليه حواسُّه من الأحداث، وهذا إبطالٌ للتاريخ كلاً، وتشكيكٌ في أحداثه، وهدمٌ للتراث والثروة الفكرية والعلمية المنقولة على مرِّ الأجيال، بل وفيه التشكيك بالسُّنَّةِ المُشْرِفَةِ مِنْ حَيْثُ إِنِّهَا رَوَايَاتٌ مَنْقُولَةٌ.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ هذا هو أصل الداء، ومبعث العناد والجرأة على الظلم والفساد.

﴿كَأَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ أي: إنَّ القرآن كافٍ للتذكُّر والاعتبار عن كلِّ تلك الصحف التي يريدونها لو كانوا يبحثون صدقاً عن طريق الهداية.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي: فمن شاء الهداية ذَكَرَ القرآن وتلا، وتدبره، وهذا ترغيب بالرجوع إلى القرآن وما فيه من أسباب الهداية، ودلائل الصدق.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا استثناء قُصِدَ به التنبيه إلى إرادة الله المطلقة، وسننه الحاكمة؛ فالله بمشيئته أنزل القرآن، وبمشيئته منح الإنسان القدرة على التفكير والتمييز، ومنحه القدرة على الاختيار، وقد اقْتَضَتْ إرادته وحكمته سبحانه ألا يمنع مُهْتَدِيًا يطلب الهداية، ولا يُكْرِه أَحَدًا على فعلٍ ما لا يرضاه، وهذا مُقْتَضَى الاختبار العادل والتمييز الحق الذي يَنْبِئُ عليه الثواب والعقاب، والله أعلم.



سُورَةُ الْقِيَامَةِ

المجلس التاسع والستون بعد المائتين: يوم القيامة

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ (٤) بَلَى يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا رُفِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَجَ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَفِرُ (١٢) يَلْبِثُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقَرْنَاهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَيْنَا نَرْجِعُ النَّاسَ كُلَّهُمْ (٢٣) لِنُبَيِّنَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢٤) تَطَّلُنُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّافِقُ (٢٦) وَقِيلَ مِنْ رَاقٍ (٢٧) وَطَنَّ أَنْهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْقَلْبُ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلَ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوَلَيْكَ لَكَ فَالَوُكُ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ لَكَ فَالَوُكُ (٣٥) ائْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَفْثَةٌ مِنْ مَنًى يُنْثَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُتَلَقًى فَسَوًى (٣٨) لِمَعْلَمٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَحْجِيَ الْمَوْتُ (٤٠) ﴿

يوم القيامة

سورة القيامة تدل باسمها على مضمونها؛ إنها السورة المختصة بأحوال يوم القيامة وما فيه من أحداث وانقلابات كونية هائلة، وما يعقبه من حساب جزاء وثواب وعقاب، ولا شك أن الحديث عن هذا اليوم لا يأتي للإخبار المعرفي المجرد، وإنما هو ركن في المنظومة العقدية التي يؤسس عليها المجتمع المسلم، وتبنى بها شخصية الإنسان المؤمن، وكما يأتي:

أولاً: أقسم الله قسماً مؤكداً بيوم القيامة ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ثم أقسم قسماً مؤكداً آخر بالنفس الإنسانية التي تلوم صاحبها، وتدفعه لمراجعة سلوكه، ووزن تصرفاته بميزان الحق والعدل ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾.

والعلاقة بين القسمين: أن النفس اللوامة هي التي تستفح بذكر الآخرة، وهي القادرة على تصحيح مسارها، وهي بالنهاية التي تفوز في ذلك اليوم.

ثانياً: بعد هذا القسم المؤكد، أكدت السورة عقيدة البعث، وأجابت الإنسان عن تساؤله:

﴿اِئْتَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٢) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ ﴿ مبينة أن الدافع لإنكار الآخرة

هو رغبة النفس الشريرة بالاستمرار في فجورها، والانغماس في شهواتها ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٥) ﴿يَنْتَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

ثالثاً: تعرضُ السورةُ مشاهدَ من ذلك اليوم الرهيب، مشاهدَ مما يصيب الأفلاك العلوية وانقلاب نظامها، ومشاهدَ من صدمة الإنسان وذهوله وحيرته ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (٧) ﴿وَحُفَّتِ الْقَمَرُ﴾ (٨) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٩) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

رابعاً: تؤكدُ السورةُ أنَّ ذلك اليوم هو يوم الحساب، الذي يرى فيه الإنسان صحيفته كاملة، كل ما قدّمه من عملٍ خيراً كان أو شراً، وما كان عليه أن يعملَه فتركه، كل ذلك مدوّن ومحفوظ، والإنسان في حقيقته بصيرٌ بحاله، وعارفٌ بعمله مهما قدّم من أعذارٍ ومسوغاتٍ ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٢) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَرَأَىٰ مَعَادِيرَهُ﴾.

خامساً: تنتقلُ السورةُ إلى موضوعٍ مُتعلّقٍ بالوحي وحرصه ﷺ على حفظه وتخوفه من أن ينسى منه حرفاً واحداً، فجاءت هذه الآيات لتطمئنه أنَّ الله تعالى سيجمع له القرآن كاملاً كما أنزل ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ هذه الالتفاتة تؤكد أنَّ كل هذه الأخبار إنما هي من الله الذي خلق هذه الأكوان، وأنزل هذا القرآن.

سادساً: تُقرّرُ السورةُ طبيعة بشرية وإن تفاوت فيها الناس بحسب إيمانهم وحضور هذا الإيمان في قلوبهم ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ فالناس يُفضّلون الشيء العاجل ولو كان زهيداً على الآجل ولو كان ثميناً، ومن ثمَّ يميلون إلى الدنيا العاجلة أكثر من الدار الآخرة، وأمّا الكافر فهو الذي يذر الآخرة بالكلية، وينكبُّ على الدنيا بالكلية أيضاً.

سابعاً: تُقسّمُ السورةُ الناس في ذلك اليوم بحسب نتائج أعمالهم على قسمين: ناجٍ مُستبشر، وهالك مُستحسر ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٣) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ﴾ (٢٤) ﴿تَكُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

ثامناً: تنقلُ السورةُ مشهداً من مشاهد الاحتضار عند دنو الآجل واقتراب الرحيل، وهو

المشهد المعهود في كل يوم وإن كان الناس عنه غافلين ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ﴾ (٦١) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٧) ﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨) ﴿وَالْقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩) ﴿إِلَىٰ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

تاسعاً: تتوعد السورة ذلك الذي لم يؤدِّ حقوق الله، ولم يؤدِّ حقوق عباد الله ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَعَاطَى (٣٣) أُولَٰئِكَ فَآوَىٰ (٣٤) ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَآوَىٰ (٣٥).
عاشراً: تُصحِّح السورة مفهوم الحياة والموت، وتبيِّن أنَّ الإنسان خُلِقَ لغاية عظيمة ولم يُخلَق عبثاً، وهذه الغاية العظيمة متصلة بأدائه وسلوكه وما ينتظره على هذا الأداء والسلوك من ثواب وعقاب ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَالِغٌ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَعْلِهِ فَسْوَىٰ (٣٨) ﴿فَجَعَلْنَاهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَن يُخَيَّرَ الْمَوْتَىٰ (٤٠).

دقائق التفسير

﴿لَا أُقْسِمُ﴾ صيغة من صيغ تأكيد القسم، بمعنى: أقسم قسمًا مؤكدًا.
﴿يَالنَّفْسَ اللَّوَّامَةَ﴾ بالنفس التي تلوم صاحبها على الخطأ والتقصير.
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: أيستبعد الإنسان قدرتنا على بعثه كما كان بعد أن تَفَتَّت عِظَامُهُ وَتَبَلَّى فِي التَّرَابِ؟
﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَن تُسَوَّىٰ بَنَاهُ﴾ والبَنَان: الأصابع، وهي أصغر العظام، فجمعها وتعديلها يعني أن جمع ما عداها أهون، وكل ذلك على الله هيِّن.
﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا مَّامَهُ﴾ أي: يريد الكافر أن يتهاذى في فجوره في قابل أيامه، ولا ينقطع عن ذلك بذكر الموت والاستعداد للآخرة؛ ولذلك فهو يُنكر الآخرة ويسأل عنها سؤال المنكر المستهزئ ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ أي: شخص لما يراه من أهوال القيامة.

﴿وَحُخِّفَ الْقَمَرُ﴾ طُمِسَ وذهب نوره.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: يلتصق القمر بالشمس، بمعنى أن الشمس تجذبه إليها، وهذا

حينما يختل النظام الكوني وتنتهي جاذبية الأرض، وعلم الفلك الآن لا يستبعد ارتطام القمر بالشمس في أي لحظة لو حصل أي خلل في مداره حول الأرض.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْزُ﴾ أي: يسأل الناس مع بداية تلك الأحداث عن أي مهرب أو ملجأ، وهو سؤال يأتي في سياق اليأس والإيقان بالهلاك، وليس في سياق البحث.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ تأكيد لحالة اليأس التي يشعر بها الناس يومئذ بالآلا وَزَرَ، والوزر: المكان الذي يلجأ إليه في العادة عند الشعور بالخطر، وهذه الجملة قد تكون من تمام قول الإنسان، كأنه يجيب نفسه، أو أنها من كلام الله تعالى لبيان حقيقة ذلك اليوم، والمؤدّي واحد.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إلى ربك المرجع وعنده الحياة المستقرة التي لا موت يقطعها ولا فناء.

﴿يُبْنَوُا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَآ قَدَمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يُخَبِّرُ الإنسان بكل أعماله صغيرها وكبيرها، أولها وآخرها، ما عمله فعلاً، وما كان مُكَلَّفًا بعمله فتركه ولم يعمل، والمقصود بالإنباء: المجازاة، لا مُجَرَّد الإخبار.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصير بما قدّم وأخّر، وإضافة التاء للمبالغة في الإبصار، كما تقول في علام: علامة، وفي فهام: فهامة.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ بمعنى أنه مهما يُقدّم من أعذارٍ عن كفره وتقصيره فهو بصيرٌ وعارفٌ أنه مُسْتَحِقٌّ للعقوبة.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وَرَدَ فِي نزول هذه الآية وما بعدها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحَرِّكُ لِسَانَهُ وَشَفْتَيْهِ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْوَحْيِ لِيَحْفَظَ عَنْهُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْهُ، فَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ تُطْمِئِنُّهُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ فِي صَدْرِهِ فَلَا يَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا^(١).

﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: جمعه في صدرك فتحفظه وتقرأه كما أنزل.

(١) الحديث الوارد في سبب نزول هذه الآية متفق عليه عن ابن عباس ؓ، وقد ورد بعدة صيغ. ينظر: صحيح البخاري

﴿إِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحَ مُرَّةً أَوْ مَرَّةً﴾ أي: إذا قرأ جبريل ﷺ عليك كلامنا المنزل فأنصت واستمع لقراءته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: مع التلاوة والحفظ يأتي البيان، و﴿ثُمَّ﴾ لا يصح أن تكون للتراخي الزمني؛ لأن المعنى سيكون أن النبي ﷺ كان يُصغي ويحفظ دون أن يتبين المعاني، بل الصحيح أن المعنى مُلازمٌ للفظ، وإنما يتأخر المعنى عن اللفظ تأخرًا اعتباريًا؛ لأنه بتمام الكلمة والعبارة يظهر المعنى، والله أعلم.

﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا؛ لأنها حاضرة عندكم.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: تتركون العمل لها؛ لأنها مؤجلة وغائبة عنكم.

﴿وَجُودٌ يَوْمَ نَاصِرَةٍ﴾ أي: حسنةٌ ومُستبشرةٌ بثواب الله والسعادة الدائمة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ظاهرٌ في أن المؤمنين يرون ربهم رؤيةً خاصةً تُناسب أحوال الآخرة ونواميسها، ولا يصح قياسها بما نألفه في الدنيا، ولا أن نُلزمها بلوازم الدنيا، ولا ينبغي التكلف في فهم الآية، فهي من النصوص الخبرية الغيبية التي لا مجال للعقل في تحصيل هياتها وكيفيتها، والله أعلم.

﴿وَجُودٌ يَوْمَ نَاصِرَةٍ﴾ أي: كالحلة يظهر عليها أثر الخزي والمهانة.

﴿نَظَرٌ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقرَةً﴾ أي: تنزل بها طامةٌ وداهية.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ وصفٌ لحالة الاحتضار وخروج الروح إلى الحنجرة، وتلجُّج

الأنفاس هناك، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، والترافي: جمع تُرقوة، وهي العظمة التي بين ثغرة النحر والعاتق من أعلى الصدر، ولكل امرئٍ تُرقوتان.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: قال أقرباؤه والحاضرون معه: من يرقيه ليرثه ممَّا أصابه، بمعنى أنهم يبحثون له عن طبيبٍ يُعالجه، أو داعٍ يدعو له.

﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفَرَّاقُ﴾ أي: غلبَ على ظنه أنه قد حان الفراق.

﴿وَالنَّفْسُ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي: جمعت ساقاً الميت وضممتا إلى بعضهما بعد أن أدرج الجسد كله بالأكفان.

﴿إِلَّا رَيْكَ يَوْمَئِذٍ السَّاقُ﴾ أي: فما هو بموتٍ على معنى الفناء، وإنما هو انتقالٌ من دارٍ إلى دار، والمساق: مصدر الفعل ساق، بمعنى أنه يُساق إلى مصيره عند ربّه.

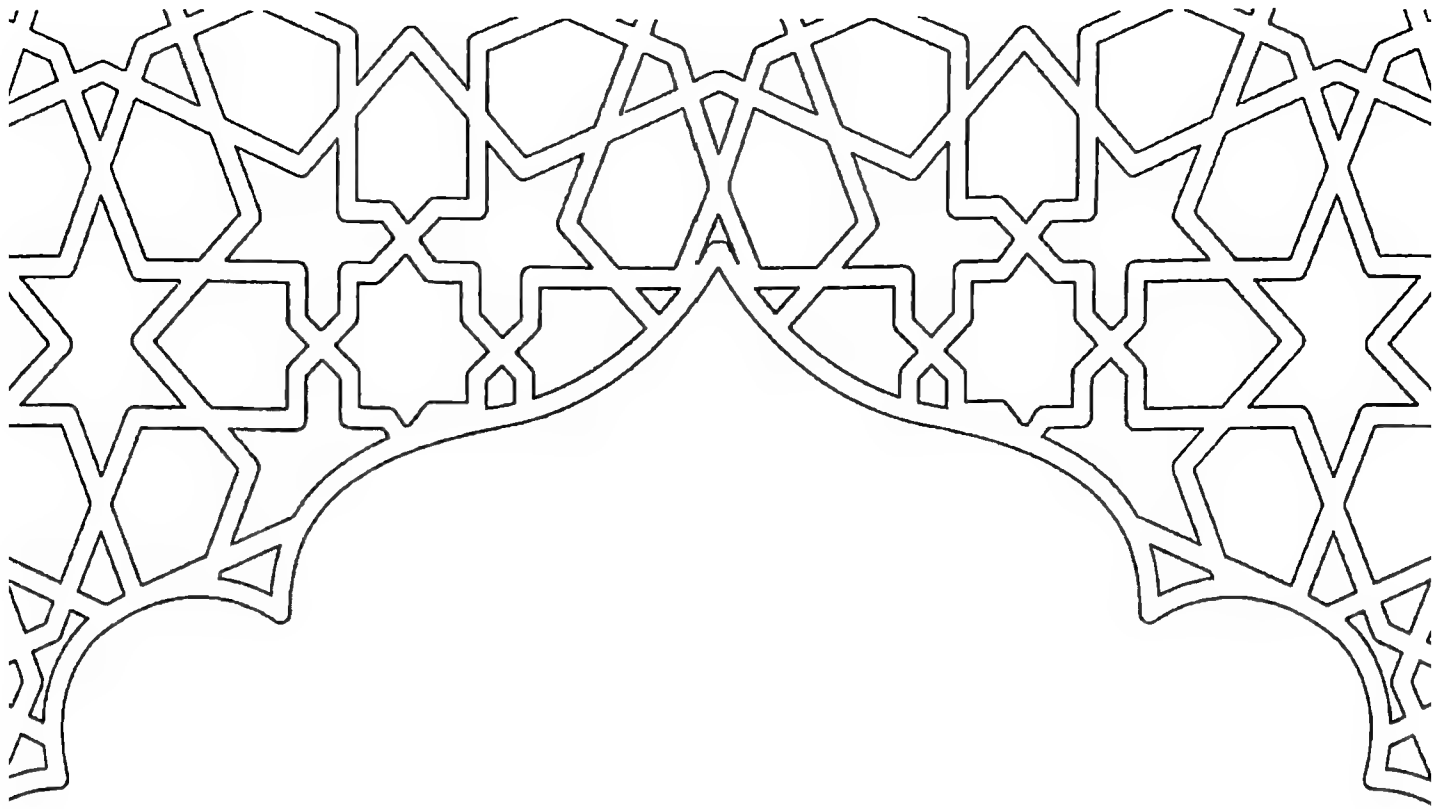
﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ هذا الإخبار عن الكافر أنه لم يؤمن بالله، ولم يؤدّ ما افترضه عليه. ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كَذَبَ بالقرآن وما فيه من إخبارٍ عن اليوم الآخر وعقيدة الحساب والجزاء، وتولّى أي: أعرض عن الحقّ.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: مزهواً مُتَبَخِّرًا غير مبالي ولا مُكْتَرِث. ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَى﴾ (٢٤) ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَى، و﴿أَوَّلَ لَكَ﴾ صيغةٌ من صيغ التهديد، والتكرار للتأكيد.

﴿أَتَحْسَبُ أَنَّنَا لَنُفْرِكَ سُدًى﴾ أي: مُهملاً بلا حسابٍ ولا جزاءٍ، فيستوي الظالم والمظلوم، والمصلح بالمُفسد.

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِن مَّيِّ يَمْنَى﴾ يُذكِّره بأصل خِلقته يوم كان نُطفةً من ماءٍ مهين. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: تدرّج في الخلق حتى استوى بقوامه وتمامه. ﴿فَجَعَلَ بَيْنَهُمُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ لتستمرّ الحياة وتتعاقب الأجيال، وليس هذا من فعل الذَّكَر ولا من فعل الأنثى، ولا من الصُّدفة العمياء؛ فالقصد الحكيم في هذا التنوع ضرورة عقلية لا مناص منها، وهي شهادةٌ على تقدير الخالق العليم سبحانه.

﴿إِنَّا إِنشَاءً لَّنَا قَدِيرٌ عَلَى أَنْ نَبْدِلَ أَلْوَانًا﴾ هذا هو الدليل العقلي الذي يُخاطب به القرآن العقول دائماً، فالخلق الأول دليلٌ بحدّ ذاته على إمكانية الخلق الثاني، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.



سُورَةُ الْاِنْسَانِ

المجلس السبعون بعد المائتين: وكان سعيكم مشكُورًا

سُورَةُ الْإِنشَانِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلًَا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْآبَرَارَ يُشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّلَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكَ جِزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا (١٠) فَوَقَّعْنَاهُم أَنَّهُ يَوْمَئِذٍ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ مَا فِيهِمْ مِّنْ شَيْءٍ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمُ الْغَسَقَاتُ الْغَاسِقَاتُ الَّتِي أَصْبَرُوا عَنْهَا حَتَّى إِذَا صَبَرُوا بِمَا صَبَرُوا جِئَتْ وَحَرِيرًا (١١) مُتَكَبِرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٢) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَوْدَانُهَا تُدْبِلِيلًا (١٣) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّنْ فَضْوَةٍ وَكَأَنَّهُمْ قَوَارِيرًا (١٤) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٥) وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٦) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا (١٧) وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ اللَّذَنُ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا (١٨) وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا (١٩) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَهَلْ أَسَاوِرٌ مِّنْ فَضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢٠) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢١) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٢) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَقْطَعْ مِنْهُمْ مَّا إِذَا أَكْفَرُوا (٢٣) وَادْكُرْ أَنَّمْ رَبُّكَ بِكُورَةٍ وَأَصِيلًا (٢٤) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٥) إِنَّكَ هَتَوَاءٌ مَّيْجُونُ الْعَاجِلَةِ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَّيْلًا (٢٦) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٧) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٩) يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٠)

وكان سعيكم مشكوراً

موضوع هذه السورة الأساس هو نعيم الجنة وما أعدّه الله فيها للمتقين من عباده، وقد قدّمت له السورة بالحديث عن الإنسان الذي تسمّت به السورة، واستعداده للسير في طريق الجنة أو طريق النار، ثم ختمته بتوجيهات لا تبعد عمّا قدّمت به، وكما يأتي:

أولاً: استهلّت السورة بالحديث عن خلق الإنسان، وعن الغاية الأساس من خلقه، وهي الابتلاء والاختبار ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣).

ثانيًا: بيّنت السورة أن هذا الاختبار سينقسم فيه الناس على قسمين، ويفترقون على فرقتين: فرقة ضالة خاسرة كافرة ﴿إِنَّا آَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَأَعْلَلْنَا وَسَعِيرًا﴾، وفرقة مهتدية فائزة برضوان الله والجنة ﴿إِنَّا الْآَبَرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

ثالثًا: توسّعت السورة في بيان صفات هؤلاء الفائزين وما قدّموه لأنفسهم في الحياة الدنيا ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطِيعُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ، مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾.

ويلحظ في هذه الصفات أنها قد جمعت بين خوفهم من الآخرة، وإحسانهم إلى الخلق، وهذه لازمة قرآنية مؤكدة ومكررة في كثير من المواضع؛ فخوف الآخرة لا بد أن يُثمر إحسانًا وعملاً طيبًا.

رابعًا: ثم توسّعت السورة في بيان نعيم الجنة، وهو توسّع يُناسبُ ذلك التوسّع في بيان صفاتهم الحميدة، فكانت النعمة الأولى أن وقاهم الله العذاب، ثم ما أبهجهم به من نضرة وسرور، ثم ما أعدّه لهم في الجنة من حرير وظلال، وثمار وشراب وأرائك، ومُلك كبير، وخدم كثير، وفوق ذاك وقبله رضا الله العليم القدير ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا نَقِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ خُضِرٌ لَّرَأْسِمْ بَرْقٌ وَحُلُوعٌ أَسَاوِرٌ مِّن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

خامسًا: انتقلت السورة للتذكير بالقرآن وأنه كلام الله المنزل، وأن المخالفين له إنما هم آثمون كافرون، ومُناسبة هذا التذكير: تأكيد صدق الآيات المُتقدّمة في وصف الجنة

ونعيمها، ومن يستحقها ومن هو المحروم منها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٢) فَأَصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ، إِنَّمَا أَزْكُرًا﴾.

سادسًا: دعت السورة إلى إخلاص العبادة لله، والمداومة على الذكر وقيام الليل، وأن
يتميز المؤمنون عن أولئك الغافلين المتشبثين بالدنيا واللاهئين وراءها ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾ (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

سابعًا: اختتمت السورة بتذكير الناس كافة، وحثهم على سلوك الطريق الأسلم والأقوم،
وأن الله تعالى بمشيئته وحكمته قد ميز بين الطريقين: طريق الرحمة، وطريق العذاب ﴿إِنَّ
هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذه الخاتمة تُذكر بمقدمة
السورة وتكملها.

دقائق التفسير

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ استفهامٌ تقريرِيٌّ قُصِدَ به إثبات
المستفهم عنه، فتكون ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد، وهذه حقيقةٌ بحقِّ كلِّ إنسانٍ أنه كان بعد أن لم
يكن، وحقيقةٌ أيضًا بالنسبة للجنس البشري؛ فإن سلسلة الأجيال المتعاقبة لا بُدَّ أن تكون لها
بداية، وباطلٌ في منطق العقل والعلم افتراض وجود آباء لا نهاية لهم، فتعيَّن أن تكون هناك
لحظة زمنية بدأ بها خلق الإنسان.

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: من نطفةٍ مختلطة، ومعنى الاختلاط هنا ظاهرٌ في اختلاط ماء
الرجل بماء المرأة، ولا يمنع أن يكون المقصود أيضًا اختلاط العناصر المختلفة في ماء الرجل
نفسه الذي يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية مع السائل الذي تسبح فيه، وهذا ما أثبتته
العلم، والله أعلم.

﴿تَبَتَّيْهِ﴾ بيان لحكمة الخلق وهي الابتلاء والاختبار.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أَوْضَحْنَا لَهُ طَرِيقَ الْحَقِّ بِالرَّسَالَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ، وَبِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالآيَاتِ الْمُبْتَوَّةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَبَعْدَ بَيَانِ الطَّرِيقِ أَمَامَهُ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ، يَتَحَمَّلُ هُوَ مَسْئُولِيَّتَهُ أَنْ يَكُونَ شَاكِرًا لِرَبِّهِ مُعْتَرِفًا بِفَضْلِهِ، أَوْ يَكُونَ كَثِيرَ الْكَفْرِ مُتَنَكِّرًا لِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

﴿إِنَّا آغْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَنًا مِّنْ آغْلَالٍ وَآغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ السَّلَاسِلُ: هِيَ حَلَقُ الْحَدِيدِ الْمُتَّصِلَةِ، وَالَّتِي تُلَفُّ عَلَى الْكَافِرِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَكُونُ فِي دَاخِلِهَا كَمَا بَيَّنَّتْ ذَلِكَ سُورَةُ الْحَاقَّةِ، وَالْأَغْلَالُ تِلْكَ الَّتِي يُطَوَّقُ بِهَا الْعُنُقُ وَتَكُونُ حَلَقَةً وَاحِدَةً لَكِنَهَا كَبِيرَةً، وَالسَّعِيرُ: النَّارُ الْمُسْتَعْرَةِ.

﴿الْأَنْبَرَارُ﴾ جَمْعٌ، مُفْرَدُهُ بَارٌّ، وَهُوَ مِنَ الْبِرِّ بِمَعْنَى الشُّكْرِ وَالْإِحْسَانِ.
﴿كَانَ مِرْآجُهَا كَأُفُورًا﴾ أَي: مَمْزُوجَةٌ بِالْكَافُورِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الطَّيِّبِ الَّذِي يُضَافُ إِلَى الشَّرَابِ لِتَطْيِيبِهِ.

﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أَي: هَذَا الْكَافُورُ يُؤْخَذُ مِنْ عَيْنٍ تَجْرِي بِهِ، وَ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أَي: يَشْرَبُونَ شَرَابَهُمْ مَمْزُوجًا بِهَا، فَالْبَاءُ لَيْسَتْ زَائِدَةً كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أَي: يُفَجِّرُونَ هَذِهِ الْعَيُونَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يُرِيدُونَ، وَالتَّفْجِيرُ هُنَا عَلَى سَبِيلِ الْإِبْتِهَاجِ وَالْإِحْتِفَالِ، وَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ النَّصَبِ وَبِذَلِ الْجُهْدِ، كَتَفْجِيرِ عَيُونَ الْأَرْضِ.

﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾ هَذِهِ أَوَّلُ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا صِفَةٌ أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ مِنْ مَفْهُومِ النَّذْرِ الْفَقْهِيِّ، بَلْ هِيَ صِفَةٌ تَعْنِي: الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ، وَبِمَتَطَلِّبَاتِ الْإِيمَانِ؛ كِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَالْإِتِمَامَ بِكُلِّ مَا أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِهِ؛ كَالنَّذْرِ الْمَعْرُوفَةِ، وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أَي: مُتَشِيرًا وَوَاسِعًا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَهَؤُلَاءِ الْأَبْرَارُ كَانُوا يُحْسِبُونَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ حِسَابَهُ، وَيَأْخُذُونَ لَهُ عِدَّتَهُ.

﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ أي: مع محبتهم له وحاجتهم إليه، ونظيرُ هذا قوله تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

﴿مُسْكِينًا وَبَيْنًا وَأَسِيرًا﴾ اختلف المفسرون في معنى الأسير هنا؛ لأنَّ السورة مكيَّة - على الأرجح - ولم يكن ثمة قتال، فحملوه على العبيد المسلمين الذين كان المشركون يُجوعونهم ويعذبونهم ويحبسونهم، والأظهر أنَّ العبيد داخلون في المساكين، وإطلاقُ اسم الأسير عليهم لا يخلو من تكلف؛ فالأسير هو أسير الحرب، والحرب كانت موجودة ومتوقَّعة بين القبائل وليس شرطاً أن يكون الأسير في معركة بين المسلمين وسواهم، وكثيرٌ من العبيد كانوا أحراراً، وإنَّما استرقوا بالأسر.

ثم إنَّ الحديث عن هذا الخُلُق يُظهر ميزة الإسلام حتى لو لم يكن هنالك أسرى في الواقع، كما أنَّه يُبيِّن المسلمين للمرحلة القادمة، وقد وردت الإشارة في السور المكيَّة إلى بعض العبادات التي لم تشرع إلَّا في المدينة؛ كالإشارة إلى الزكاة، والحج، بل ووردت الإشارة في مَكَّة إلى معركة بدر ومقتل بعض المشركين فيها، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الأظهر أنَّهم يقولون هذا في أنفسهم؛ إخلاصاً لله، ودفعاً لأي غرض دنيويٍّ، وفيه أنَّ انتظار الجزاء أو الشكر من المتصدِّق عليه يُنافي إخلاصَ العمل لوجه الله، مع التنبيه أنَّه من أدب المتصدِّق عليه أن يردَّ بالشكر والدعاء.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ جاء هذا في سياق التعليل، أي: إنَّهم إنَّما يتصدَّقون بتلك الصدقات الخالصة لوجهه تعالى؛ لأنَّهم يخافون الله، ويحسبون حساب الآخرة، والعبُّوس: الكالِح البائس، والقمطرير: الشديد.

﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا فَنَزَعُوهَا وَسُرُرًا﴾ جزاهم بالبُشرى التي تسرُّ القلب ويظهر أثرها المُبهِج على الوجه.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ مُتَّكِئِينَ في الجنة على الأُسرة.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ أي: لا يتأذون فيها بحرٍّ ولا ببردٍ.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ أي: ظلال أشجارها قريبة منهم، والمقصود لازم الظلِّ، وهي

الأغصان والأفنان بقرينة: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمًا﴾ وهم ليسوا بحاجة إلى الظل الذي يقيهم من الحر، والله أعلم.

﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ أي: هي مُسَخَّرَةٌ لهم وطُوع أيديهم يَجْنُونَ مِنْ ثَمَارِهَا متى شاءوا من غير جهد ولا تكلف، والقُطُوف: جمع قِطَاف؛ وهي الثمرة التي تُقطف.

﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ صفة للأكواب التي يشربون بها، والقوارير لا تكون إلا من الزجاج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ صَرَخٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ [النمل: ٤٤]، وكونها من فضة أيضًا فيه إشكال؛ ولذلك قال المفسرون: إنها من فضة صافية تُشبه الزجاج، والذي دعاهم إلى هذا التأويل استبعادهم لأن تكون الأكواب مصنوعة من العنصرين معًا؛ الزجاج والفضة، ولست أرى ذلك مُستبعدًا في الآخرة، بل ولا مُستحيلًا في الدنيا، والله أعلم.

﴿فَذَرَوْهَا نَقِيرًا﴾ أي: الذين يطوفون عليهم بهذه الأكواب يعرفون عددهم، ومقدار حاجتهم للشراب، فيقدّمون لهم بقدر ما يحتاجون ويستهون.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ هذا شراب آخر؛ فذاك يُمزج بالكافور، وهذا يُمزج بالزنجبيل، وليس الكافور ككافور الدنيا، وليس الزنجبيل كزنجبيلها.

﴿عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ أي: كما أن للكافور عَيْنًا، فإن للزنجبيل عَيْنًا كذلك، وزاد هنا ذكر اسمها، والسلسبيل عَلَمٌ على هذه العين، وهو يُوحى بالرقّة والسهولة، والله أعلم.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ الولدان جمع مُفْرَدَه وليد؛ وهو الصبي، وهؤلاء هم المكلفون بخدمة أهل الجنة، وهم مخلّدون لا يهرمون ولا يموتون.

﴿إِذَا رَأَوْهُمْ حَبَبُهُمْ تُؤَلُّوا مَثُورًا﴾ لحسنهم وانتشارهم بين أصحاب الجنة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: إذا رأيت ما هنالك ترى نعيمًا عظيمًا، ومُلَكًا كبيرًا، أي: إن الذي تقدّم من النعيم ما هو إلا جزءٌ في ذلك المُلْك الفخم الواسع.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: يعلوهم ويكسوهم ثيابٌ من سندسٍ وإستبرق، والسُنْدُس: رقيق الحرير، ويلبس مما يلي البدن، والإستبرق: سميك الحرير، وهو الظاهر من

اللباس، والخضر: جمع أخضر؛ وهو لون السندس.

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي: يتزيّنون بها، والإشارة هنا إلى قيمة التزيّن والتجمل.

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هذا شراب آخر لم يُفصّله القرآن، وإنّا اكتفى بإسناده إلى الله تبارك وتعالى، وهذا كافٍ عن ذكر ميزته وخيريته على كلّ الشراب، مع أنّ الغموض هنا في صفة الشراب يدعو إلى التشوّف له والتشوّق إليه، وشوق العارفين إلى ربّهم أعظم وأكبر.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ هذا من إكرام الله لهم وتلطفه بهم؛ فهذا النعيم العظيم سيتجلى سعادةً وهناءةً أكثر حينما يرى صاحبه أنّه كان بجهدٍ منه وبتعبٍ ونصبٍ، إنّهُ يرى نتيجة نجاحه في الابتلاء الطويل، وصبره على هذه الدعوة، وليله الذي كان يقضيه بالذكر والدعاء، ونهاره الذي كان يقضيه بالصوم والعمل، وصدقاته وصلاته، كلّها هنا، يراها أمامه نعيمًا ورضا كريماً.

اللهم فلا تحرّمنّا من ذلك النعيم، ومتّعنا برضاك والنظر إلى وجهك الكريم.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْكُفُّوا﴾ تذكيرٌ بذلك السعي المطلوب للوصول إلى هذا النعيم المحبوب.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في بداية اليوم استعدادًا للعمل، وفي نهايته استغفارًا من الزلل.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فهذا أرجى الأعمال الموصلة إلى تلك الجنان؛ لأنّه خالصٌ من شوائب الرياء، وحفظ النفس العاجلة.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: يُحبُّون الدنيا حبًّا يُلهيهم عن الآخرة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلقناهم وأحكمنا خلقتهم، وربطنا حياتهم بناموس هذا الكون، وقدّرنا عليهم حياتهم وموتهم، فأمرهم إلينا، وهم تحت حكمنا.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ تفريعٌ عما تقدم، أي: بما أنّهم تحت حكمنا وإرادتنا، فنحن

قادرين على أن يهلكهم ونأتي بخلق آخر مثلهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١).

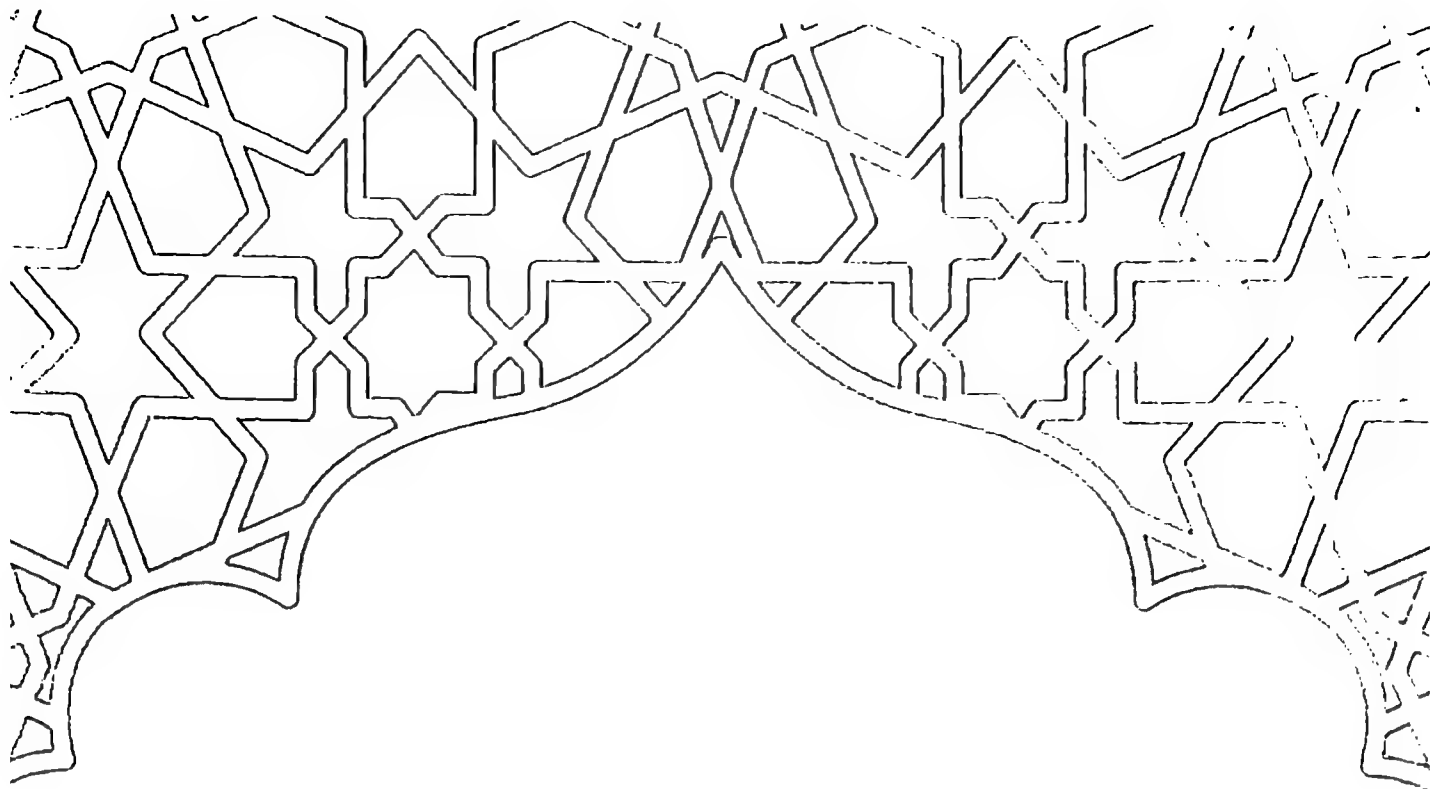
﴿إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾ أي: إن هذه الآيات تذكير للناس وموعظة لهم.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ حثٌ للمتذكر والمتعظ أن يُبادر إلى الطريق الموصول بالله، وهو طريق الإيمان والإسلام، وفيه إثباتٌ لمشيئة الإنسان وقدرته على الاختيار. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فمشيئة الإنسان لا تخرج عن مشيئة الله، بمعنى أن الله هو الذي أراد أن تكون للإنسان مشيئة، ولو شاء سبحانه لجعله خلقاً آخر لا يُريد ولا يختار، وهذه المشيئة التي خلقها الله في الإنسان هي مناطُ التكليف، وهي محل الثواب والعقاب، والله أعلم.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ورحمة الله واسعة، وقد سبقت رحمته غضبه.

﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بمعنى أنهم مُستحقُّون لهذا العذاب بظلمهم، وليس لسلب إرادة الخير عنهم، وهذا تأكيدٌ مُتكرِّرٌ لعقيدة العدل الإلهي؛ فلكلِّ جانٍ ما جنى، ولكلِّ عاملٍ ما عمل.

(١) تكرر هذا النصُّ الكريم في القرآن الكريم مرتين: في سورة إبراهيم / ١٩، وسورة فاطر / ١٦.



سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

المجلس الحادي والسبعون بعد المائتين: ويل يومئذ للمكذِبين

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤﴾ فَالْمَلَقَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ۝٧﴾ فَإِذَا الشُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْفِثَتْ ۝١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۝١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ أَلَمْ يَكُنْ أَلَّ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ۝٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾ أَحْبَاءَ وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَهِيجَةً وَاتَّخِذُوا مَاءَ قَرَارًا ۝٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ۝٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ۝٣١﴾ إِنَّمَا تَرْمُونَ بِشَرٍّ كَالْفَصْرِ ۝٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۝٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْلُهُمْ ۝٣٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ۝٣٩﴾ فَكِيدُوا ۝٤٠﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤١﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُمٍ وَعُيُونٍ ۝٤٢﴾ وَفَوَكَهَهُمَا بَايَسْتُهُنَّ ۝٤٣﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٥﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٦﴾ كَلُوا وَتَسْمَعُوا قِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ۝٤٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٥٠﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾﴾

ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

تَكَرَّرَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ آيَةُ: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَلَى قِصَرِ السُّورَةِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَوْضُوعَ السُّورَةِ الْمُحَوْرِي هُوَ: الرَّدُّ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ وَدَحْضُ شُبُهَاتِهِمْ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَتَحْذِيرُهُمْ مِنْ مَغَبَّةِ هَذَا التَّكْذِيبِ، وَيُمْكِنُ تَلْخِصُ ذَلِكَ فِي النِّقَاطِ الْآتِيَةِ:

أَوَّلًا: أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِصِنْفَيْنِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: الرِّيحُ الْمُرْسَلَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَالَّتِي تَتَّبَعُ فِي هُبُوبِهَا وَتَشْتَدُّ حَتَّى تَكُونَ عَاصِيفَةً، وَالْمَلَائِكَةُ الَّتِي تَأْتِي بِالْوَحْيِ الْمُنشُورِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ، وَالَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالَّذِي فِيهِ الْإِعْذَارُ وَالْإِنْذَارُ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْوَحْيِ، فَقَدْ اسْتَعَارَهَا الْقُرْآنُ اسْتِعَارَةً لِلْمَلَائِكَةِ النَّازِلَةِ بِهِ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾

فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤﴾ فَالْمَلَقَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾

وهنا نُكْتَةُ لطيفةٌ، وهي أنّ اقتران القسم بالملائكة بالقسم بالرياح يُشير إلى ما بينهما من الشَّبه في السرعة واللطافة، ومن حيث إنّ الرياح تحمل الماء الذي تحيّا به الأرض، وتحمل الصواعق المُهْلِكَة، فكذلك الملائكة التي تنزل بهذا الوحي رحمةً للمؤمنين، وعذاباً للمكذَّبين، والله أعلم.

ثانيًا: أما جواب القسم فكان تأكيد اليوم الآخر وآتٍ لا محالة ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ وفي ذلك اليوم سينقلب هذا النظام الكوني، وتتغير أحوال هذه الأفلاك والموجودات ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ وفي ذلك اليوم سيحين وقت الفصل بين الرسل وبين أقوامهم التي كذبتهُم ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْفَتَتْ﴾ (١١) ﴿لَا إِلَهَ يَوْمَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١٢) ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿.

ثالثًا: حذرت السورة هؤلاء المكذَّبين، وهم أهل مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ أن يصيهم مثل ما أصاب أسلافهم من الأمم السابقة ﴿أَلَمْ نُنْهِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦) ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (١٨) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿.

رابعًا: ثم بدأت بمُحَاجَجَتهم بتذكيرهم بخلقهم الأول؛ إذ أوجدهم الله من العدم، وخلقهم من ماء مهين، وهم ليس لهم شرك في ذلك ولا لأصنامهم، بل الله وحده هو القادر وهو المُقَدِّر سبحانه ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿ ثم يُذكِّرهم بالأرض التي احتوت أحياءهم، وضمت أمواتهم، وكانت مُهَدَّاة لِّعِيشهم بجبالها وأنهارها وما أودعه الله فيها، وهذه من دلائل خلق الله وآياته في عنايته بهذا الخلق ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شِجَابٍ وَأَمْشَيْتُكُم مَّاءَ فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿.

خامسًا: تتعلّق السورة لتتقل مشاهد من ذلك اليوم؛ يوم الحساب الذي يُكذَّب به المكذَّبون، لكنهم سيصطدمون به وبما يلقونه فيه ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى

ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٢٠) لَا ظَلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٢١) إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ (٢٢) كَانَتْ جَمَلَتْ صُفْرُ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٢٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٢٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٢٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٢٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿

سادساً: في مقابل أولئك المكذبين، تنقل السورة مشهداً لأولئك المؤمنين المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ (١١) وَفَوْقَهُمْ مَتَابِشُهُونَ (١٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

سابعاً: تؤكد السورة في الختام تهديدها للمكذبين بعد إقامة الحجة عليهم كاملة بيّنة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) كُلُوا وَتَمَنَعُوا فَلَيْلًا (١٦) وَإِنْكُمْ تُخْرَمُونَ (١٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٨) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (١٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢١) فَإِنِّي حَسِبُ بِقَدَمِهِ يَوْمُنَا﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا﴾ يُقْسِمُ اللهُ تعالى بالرياح التي تأتي مُتَابِعَةً كَعُرفِ الفرس.

﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ الرياح في حالة اشتدادها وسرعتها.

﴿وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا﴾ فَرَّقَ بينها وبين العاصفات بالواو، إشارة إلى مُقَسِّمٍ به مختلف عن الرياح، والناشرات: الملائكة التي تنزل بالوحي المنشور للعالمين وضوحاً وتبياناً.

﴿فَالْفَرِيقَتِ فَرَقًا﴾ تَفَرَّقَ الملائكة بهذا الوحي بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾ تأكيد أن النشْر والفرق مُرتبطان بهذا الذكر الذي هو الوحي.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي: إعداراً للناس لثلاً يعتذروا بالجهل وعدم وصول الرسالة إليهم، وإنذاراً للمعاندين والمكذبين.

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ذهب ضوءها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي: انشقت، كما قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾

[الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُفِثَتْ﴾ اقتلعت من أماكنها فصارت هباءً منبثًا.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَّتْ﴾ أي: وُضع لهم وقتٌ محدّدٌ للفصل بينهم وبين أقوامهم؛ ولذلك قال

بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُحِلَّتْ﴾ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ سؤالٌ قصد به التنبيه إلى هول ذلك اليوم وخطره.

﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦) ثُمَّ تُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي: أهلكنا أمّا مُتَقَدِّمَةً كقوم نوح، وأمّا

متأخرة كفرعون وجنده.

﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ للمجرمين المعاصرين لنزول هذه الآيات بأنّ هذا

الإهلاك سنة من سنن الله في الظالمين والمكذّبين.

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ هو المنيّ الذي يستقذر منه، كيف خلق الله منه إنساناً سوياً عقلاً

وجسماً، وروحاً وفكراً.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (٢١) إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ أي: فجعلناه في الرحم، وهو المكان المهيأ له،

ليستقرّ فيه إلى حين، فينمو ويقوى حتى يتكامل خلقه.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ هنا يُمَجِّدُ الله نفسه، وينبّه إلى آثار قدرته في هذا الخلق ۞

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ الاستفهام هنا تقريرى؛ بمعنى أنّه يُثَبِّت ما بعده،

فالله جعل الأرض كفاتاً؛ أي: محلاً ووعاءً للناس، يحمل أحياءهم ويضمّ أمواتهم، وتتعاقب

عليه الأجيال جيلاً بعد جيل.

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي: عذباً.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨) أَنْطَلِقُوا إِنْ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: انطلقوا إلى النار التي كنتم

تكذبون بها، ومعنى الانطلاق هنا: استجابتهم القسريّة لسوق الملائكة لهم.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ هذا الظلّ هو دخان جهنّم المنبعث عن جانبيها ومن

وسطها، وتسميته بالظلّ على سبيل التهكم، كاستعمال التبشير في التهديد الوارد في قوله

تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، فهم هناك كأثم ييحثون عن ظلّ يستظلّون به، فيقال لهم: انطلقوا إلى ذلك الظلّ.

﴿لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ﴾ أي: هذا الدخان المتصاعد فوقهم لا يظلمهم من حرّ، ولا يقيهم من اللهب.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ الشَّرَرُ: هو المتطاير من النار، ومفرده شَرَارَةٌ، وقد شبهه بمفرد وهو القصر، والظاهر أنّ القصر قُصِدَ به جنس القُصور، فيكون معناه جمعاً، كما نستعمل الكتاب بمعنى الكتب، والقصر: البناء الفخم العالي، فالشَّرَارَةُ الواحدة في جهنّم تكون بحجم القصر، والعياذ بالله.

﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ هذا تشبيه آخر يقربُ فيه صورة الشَّرَر المتطاير بالإبل، والصُّفْرُ قد يكون لوناً للمشبه، وقد يكون لوناً للمشبه به، والمؤدّى مُتقارب.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وهو يومٌ مخصوصٌ من أيام الآخرة، وإلا فقد ورد في آياتٍ أخرى أنّ أهل النار يتكلّمون ويتلاومون ويستغيثون، وفيه أنّ أحوال الآخرة ليست حالة واحدة، والله أعلم.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنَذِرُونَ﴾ فقد ذهب وقت الاعتذار والندم.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي: يوم الحكم الذي يفصل بين أهل الحقّ وأهل الباطل.

﴿جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ولذلك يُسمّى يوم الجمع؛ حيث تجتمع الأجيال كلّها على صعيد واحد، وفي يومٍ واحد.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ هذا على سبيل التعجيز والتهكّم، يُذكّرهم بكيدهم الذي كانوا يكيدون به المسلمين.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ ذكّر الظلال هنا مقصودٌ لتقريع المشركين وزيادة تحسّرهم

(١) تكرر هذا النصّ الكريم في القرآن الكريم ثلاث مرات: في سورة آل عمران/ ٢١، وسورة التوبة/ ٣٤، وسورة

حينما يقارنون بين ظلّهم ذي الشعب الثلاث المُنْبِعث من جهنّم، وبين ظلال الأنس والنعيم هذه.

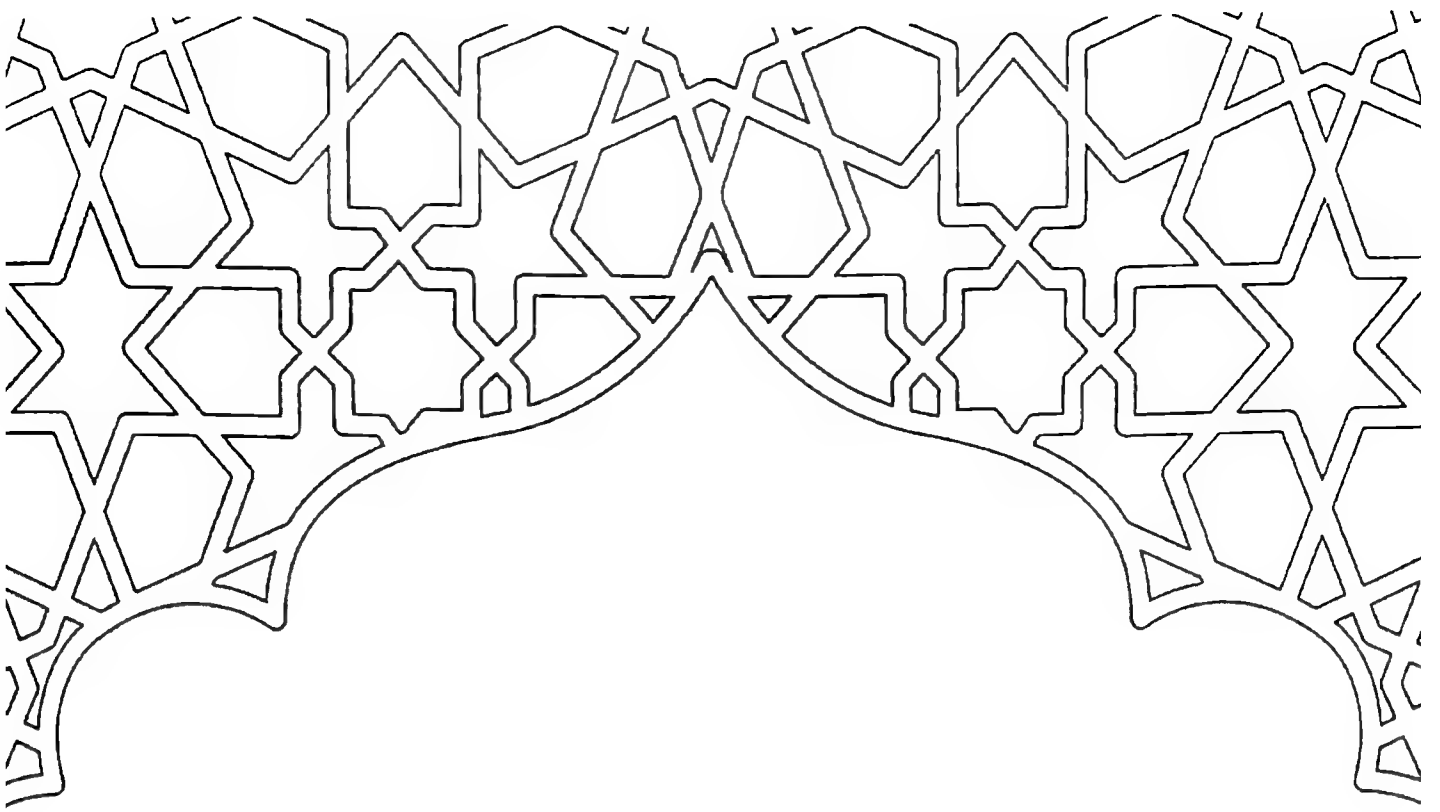
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي؛ إذ النعيم كان مقابل العمل، وليس مقابل اللون والجنس والنسب مما يتفاخر به الناس، وفيه أيضًا تعريض بالمشرّكين الذين أوردوا أنفسهم هذا المورد، وكان باستطاعتهم أن يعملوا كما عمل هؤلاء المتقون.

﴿وَلِيُؤْمِرَ الْمَكْذِبِينَ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَتَمَنَعُوا فَلِيلاً﴾ أي: إلى أن يحين الأجل المسمّى لكم، والأمر بالأكّل والتمنّع يُقصد به التهديد لا الطلب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ﴾ تفرّيع آخر لأولئك المكذّبين، بمعنى أنّهم لم يُطلب منهم ما يصعب فعله، ولا ما يصيبهم بالمشقة والضرر، فكلّ ما طُلب منهم لكي يتّقوا هذا العذاب الشديد أن يؤمنوا بالله ويعبدوه وحده.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى أنّ القرآن قد جاء بكلّ البراهين والأدلة القاطعة التي تقوم بها الحجة، فإذا لم يؤمنوا به فإنّهم لن يؤمنوا بأيّ حديثٍ آخر؛ لأنّه ليس هناك أسمى من القرآن ولا أقوى حجّة منه.

وفيه أنّ هؤلاء المكذّبين ليست مُشكلاتهم في الدليل، ولا في المعاني، ولا التّباس الأمور عليهم، بل هم مُعاندون وحاسدون ومُتكبرون.



سُورَةُ النَّبَاِ

المجلس الثاني والسبعون بعد المائتين: النبأ العظيم

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلَفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ قَنَاطُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا (٢٢) لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَيْمًا وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (٣٣) وَكَأْسَادِهَا قَافًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴿

النبا العظيم

سورة النبا من السور المكِّيَّة التي تُعالج مسائل الدعوة في عهدِها المكي، وقد ركزت السورة على عقيدة اليوم الآخر والاستدلال عليها، وبيان حال الناس في ذلك اليوم وما يلقونه من ثوابٍ أو عقابٍ، وكما يأتي:

أولاً: تستهلُّ السورة بسؤالٍ مشوّقٍ ومحفّزٍ للذهن ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ثم لا يكون الجواب إلا بما يزيد السامع تشوّقاً وتحفّزاً ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلَفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥).

ثانياً: ثم تأخذ السورة بسرِّد الشواهد على قدرة الله المطلقة، والتنبيه إلى ما في هذا الكون من آياتٍ ودلائل ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا

سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾.

ثالثًا: تؤكد السورة حتمية الساعة، وأنها لا تأتي إلا بوقتها المعلوم، ووصفها الموسوم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتَوْنَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾.﴾

رابعًا: تنقل السورة مشهدًا للمصير البائس الذي ينتظر أولئك الطاغين المكذبين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغِينَ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَيَبِثَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حِيمًا وَغَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾.﴾

خامسًا: ثم تنتقل إلى الصورة المقابلة: صورة أولئك المتقين وهم يفوزون برضا الله والجنة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسَادِهَا قَافًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾.﴾

سادسًا: تعود السورة إلى ذلك النبأ العظيم وما فيه من عظمة وهول، وما فيه من مظاهر الرحمة ومظاهر العذاب، تحتُّ الناس أن يحسبوا له حسابه، ويأخذوا له عدته قبل الندم الذي لا ينفع ولا يغني عن صاحبه شيئًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾.﴾

دهانق التفسير

﴿عَمَّ﴾ عن أي شيء؟ وأصلها: عن ما، فأدغمت النون بالميم، وحذفت الألف تمييزًا لما الاستفهامية عن ما الموصولة.

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ هم أهل مكة ومن حولها الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم عن القرآن الكريم، وما جاء فيه من إنباء بالبعث والحساب، والتساؤل كان لأغراضٍ

مختلفة؛ منها: الاستغراب، ومنها: الاستهزاء، ومنها: الاستفهام عن بعض التفاصيل.

﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ أي: مختلفون في وصفه، وطريقة تكذيبه، وتنفير الناس عنه.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ① ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعدٌ لهم أنهم سيلاقون ذلك اليوم، وسيرون فيه جزاءهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي: مُمهّدة للناس يعيشون عليها، وفيها رزقهم ومتاعهم وسكنهم.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: كأوتاد الخيمة التي تُدقُّ في أطرافها لتثبيتها، والوتد: عمودٌ غليظٌ قويٌّ مُدَقَّقٌ من أحد أطرافه، والجبال كأنها أعمدة مُثبتة في الأرض من حيث الصورة، ولا يبعد أن يكون لها دور في تثبيت الأرض أو حفظ توازن الغلاف الجوي، وتكوين السحب وتجميعها، والله أعلم.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكراً وأنثى، ولا تستمر الحياة ولا يكون تكاثر الخلق إلا بهذا التنوع.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: راحةً لأبدانكم، وقطعاً لوتيرة حياتكم وأشغالكم وتفكيركم، فيستيقظ الناس وهم أقدر على العمل وأكثر نشاطاً وتركيزاً، وهذه نعمة لا يمكن أن تستمر حياة الناس بدونها، وهي في الوقت نفسه تُذكّر بالموت، وما يعقبه من استيقاظٍ وبعثٍ جديد.

﴿وَجَعَلْنَا الْيَلَّ لِبَاسًا﴾ أي: ساتراً لكم، وظرفاً مناسباً لنومكم وسباتكم.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: ظرفاً مناسباً للعمل وطلب الرزق.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: السماوات السبع، والبناء فيه معنى الدقة والإحكام. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ شبه الشمس بالسراج؛ لأنَّ ضوءه مُنبعثٌ منه ومتوهِّجٌ في داخله وليس انعكاساً لضوءٍ آخر، وكذلك الشمس.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي: أنزلنا من الغيوم المطر، والثَّجَّاجُ: صفةٌ للمطر، من

ثَجَّ إِذَا انْصَبَّ بِقُوَّةٍ، وَوَصَفَ الْغُيُومَ بِالْمُعْصِرَاتِ؛ لِأَنَّهَا تَتَأَلَّفُ فِيهَا بَيْنَهَا فَتَتَرَاكُمُ وَتَتَكَثَّفُ، ثُمَّ تَضْرِبُهَا الرِّيحُ فَتَضْغُطُهَا فَيُخْرِجُ مَآوِهَا، فَكَأَنَّهَا عُصِرَتْ عَصْرًا، وَمَجِيءُ الْمَطَرِ بَعْدَ الشَّمْسِ إِشَارَةٌ إِلَى دَوْرِ الشَّمْسِ فِي صِنَاعَةِ هَذِهِ السُّحُبِ؛ حَيْثُ تَتَبَخَّرُ الْمُسَطَّحَاتُ الْمَائِيَّةُ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ فَتَكُونُ السُّحُبُ مِنْ هَذِهِ الْأَبْخَرَةِ.

﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ قَدَّمَ الْحَبَّ وَخَصَّهِ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُ نَبَاتٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ قُوَّةُ النَّاسِ، كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالرَّزِّ وَالذَّرَّةِ وَنَحْوِهَا.

﴿وَجَنَّتِ الْأَفَاقُ﴾ وَبَسَاتِينَ يَلْتَفُ شَجَرُهَا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يَوْمَ الْحُكْمِ الْعَدْلِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ.

﴿كَانَ مِيقَتًا﴾ أَي: كَانَ مَوْقُوتًا بِوَقْتٍ مُعَدَّدٍ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ تِلْكَ النِّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي تُعْلِنُ الْبَعْثَ وَبِدَايَةَ الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ.

﴿فَنَأْتِيَنَّ أَقْوَامًا﴾ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ حَيْثُ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْمَحْشَرِ لَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، فَيَسْلُمُونَ عَلَى

الْأَبْرَارِ وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى جَنَّاتِهِمْ، وَيَسُوقُونَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى سَعِيرِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى.

﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ بِمَعْنَى أَنَّ الْجِبَالَ لَمْ يَعُْدْ لَهَا وَجُودٌ؛ لِأَنَّهَا نُسِفَتْ نُسْفًا فَكَانَتْ

هَبَاءً مُنْبَثًّا.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أَي: مَعْدَةً وَمَهْيَاةً.

﴿لِلظَّالِمِينَ مَنَابًا﴾ أَي: مَقَرًّا وَمَسْكَنًا لَهُمْ.

﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ الْأَحْقَابُ: جَمْعٌ، مُفْرَدُهُ: حِقْبٌ أَوْ حِقْبَةٌ، وَهُوَ الزَّمَنُ الطَّوِيلُ.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أَي: لَا يَذُوقُونَ بَرْدًا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْحَرَّ، وَلَا شَرَابًا يُخَفِّفُ

عَنْهُمْ الْعَطَشَ.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النَّفْيِ؛ أَي: إِنَّمَا يَذُوقُونَ الْحَمِيمَ، وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ،

والغسَّاق: سائل كريمة، قيل: إنه يتجمّع من صديد أهل النار، والله أعلم.

﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ أي: جزاء مناسبًا لأعمالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لم يكونوا مؤمنين بيوم الحساب لكي يرجوا الفوز فيه، والخلاص مما ينتظرهم فيه.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أي: تكذّبوا، وهذه صيغة من صيغ التوكيد.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كلّ عملٍ من أعمال الناس أحصيناه وكتبناه في كتابٍ محفوظٍ.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي: ذوقوا جزاء أعمالكم وما قدّمتموه لأنفسكم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾
﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي: فوزًا ونجاحًا، ويُطلَقُ المَفَاز على مكان الفوز والظَّفَر بالمطلوب، فيكون معناه الجنة.

﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ وصفٌ لنساء المؤمنين في الجنة، والكواعب: جمع كاعب، وهي المرأة في أوّل بلوغها، أي: قرابة الخمسة عشر ربيعًا، والأتراب: هنّ المُستويات في السنّ؛ أي: كلهنّ بسن الكاعب.

﴿وَكَأْسَادٍ هَاقًا﴾ أي: مملوءة بالخمر، والمقصود أنّ خمر الجنة لا ينقطع ولا ينضب.
﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ بمعنى أنّ مجالس الشرب هناك في الجنة مُنزّهة عما في مجالس الدنيا من اللغو والكذب.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أي: عطاء كافٍ، كما وعد سبحانه أنّ الحسنه بعشر أمثالها، والله يُضَاعِف لمن يشاء، وجاء اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للدلالة على هذا العطاء الكريم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنهُ خِطَابًا﴾ أي: كلّ ما بين السماوات والأرض لا يملكون أن يُحَاطَبُوا الله في الشفاعة لأحدٍ من أولئك الكافرين.

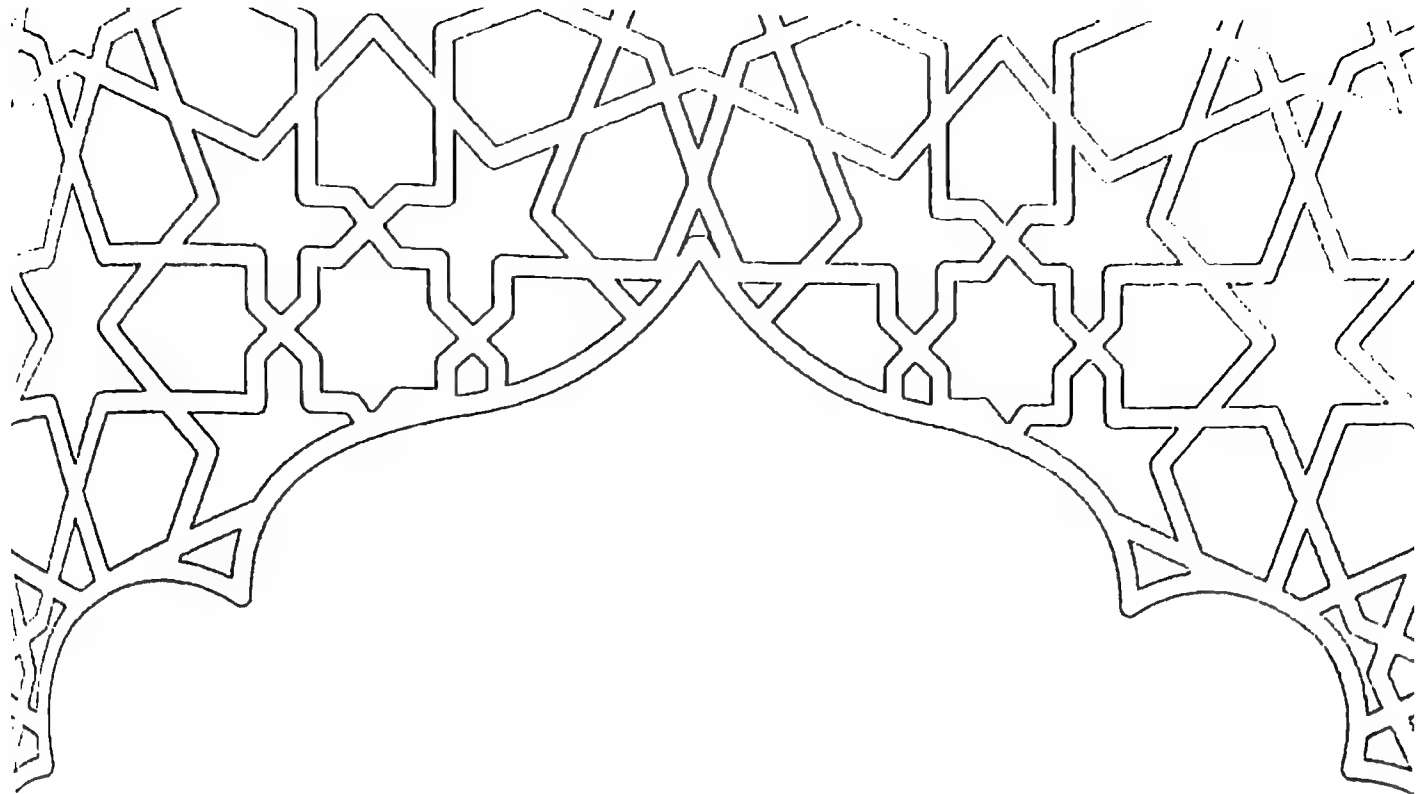
﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الروح هو جبريل عليه السلام، وهو المقدم في الملائكة، وصف الملائكة في ذلك اليوم مُشْعِرٌ بالرهبة، وكأنهم في أهبة الاستعداد لتنفيذ أمر الله وحكمه في الخلائق.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ هو تأكيد ألا أحد يتكلم في شفاعة ونحوها إلا بعد إذن من الرحمن تبارك وتعالى.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ هو يوم القيامة وما فيه من الوعد الحق، والحكم الحق بين الخلائق.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ ترغيب للناس وحث لهم على التوبة والأوبة إلى الله.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ هذه غاية الحسرة وغاية الندامة؛ أن يتمنى ذلك الإنسان الذي خلقه الله وميزه بالعقل أن لو كان ترابًا، بمعنى أنه يود لو أنه لم يُخلَق، وقد كان بمقدوره أن يجتاز هذه المحنة لو أنه فكّر في هذا اليوم، واستعدَّ له قبل ذلك.



سُورَةُ النَّازِعَاتِ

المجلس الثالث والسبعون بعد المائتين: فإذا جاءت الطامة الكبرى

سورة النازعات

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشَاطًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا (٣) فَالسَّيِّغَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَغَيَّرُ بِهَا (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِهْنَأْ لِمُرْدُوذُونَ فِي الْخَافِرَةِ (١٠) أَوِ دَاكُشَا عِظْمًا عِجْرَةً (١١) قَالُوا لَيْلًا إِذَا كَرِهْتَ حَسْرَةً (١٢) فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقُدْسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ نَعْيَ (٢٢) فَخَشَرَ قَادُوسٍ (٢٣) فَقَالَ تَا رَبِّكُمْ الْأَعْلَى (٢٤) فَآخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٢٦) أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَعْطَشَ لِبَنَاهَا فَأَخْرَجَ حُحْنَهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَّعَهَا لَكُمْ وَزَيَّنَّاكُمْ لَهَا آيَاتٍ (٣٣) فَإِذَا عَذَابَ الْكَاثِمَةِ الْكَبِيرِ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُورِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَبْوَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَتْلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّنُهَا أَلْزَمُوا إِلَّا عُشَّةً أَوْ صُحْحَهَا (٤٦) ﴿

فإذا جاءت الطامة الكبرى

لا تختلف سورة النازعات عن سابقتها في تأكيد عقيدة اليوم الآخر؛ فهو الموضوع المحوري في السورتين، مع فوارق في الأسلوب والصور والمشاهد بما يقتضيه السياق، مع استهلال النازعات بالقسم المؤكد، واستشهادها في مقام التحذير والتهديد بهلاك فرعون بعد أن طغى وبغى وأبى أن يستجيب لرسالة موسى ﷺ، وكما يأتي:

أولاً: أقسم الله تعالى في مستهل السورة بالملائكة التي تنزع أرواح البشر، وتستجيب لأمر ربها في كل ما يطلبه منها، وتجوّب في هذا الكون لتدبر أمره وفق سننه تعالى التي لا تتخلف ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشَاطًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا (٣) فَالسَّيِّغَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا (٥).

ثانياً: ثم تنقل السورة مشهداً من مشاهد الآخرة فيه حيرة أولئك الناس ودهشتهم وخوفهم الشديد، وتساؤلاتهم وهم يرون ذلك الانقلاب الكوني الهائل وما فيه من هزات

وزلازل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّاكِدَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾.

ثالثاً: ثم تنتقل السورة لتأخذ صورة من عذاب الله العاجل؛ حيث كان فرعون يُكذِّب برسالات الله ويُحارب أوليائه حتى بلغ في الغرور شأواً لم يبلغه سواه، فادَّعى الربوبية فأهلكه الله وجعله عبرة لكل معتبر، وجعل في قصته سلوى لكل دافع إلى الحق مُستمسك بدينه مهما بغى الباغون، وظلم الظالمون ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾.

رابعاً: ثم تلتفت السورة إلى آيات الله الماثلة في هذا الكون، والشاهدة على وحدانيته سبحانه وقدرته على خلقه، ورعايته لهم ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَآئِفِكُمْ ﴿٣٣﴾.

خامساً: ثم تعود السورة إلى موضوعها الأساس مركزة على عقيدة الحساب والحكم الإلهي الشامل والعدل الذي لا يظلم أحداً، ولا يُجابي أحداً، هناك تبرزُ الجحيم لأهلها؛ وهم الطغاة المارقون الآثمون، وتقرب الجنة لأهلها؛ وهم المؤمنون المتقون المتواضعون ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾.

سادساً: تتناول السورة في الختام تساؤل الناس عن موعد الساعة؛ فتوجههم إلى الجواب العملي الذي ينفعهم ويدهم على الطريق الذي فيه فوزهم ونجاتهم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ

مُرْسَهَا ﴿١٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿١٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَهَا ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴿١٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى.

دقائق التفسير

﴿وَالنَّزِعَتِ﴾ يُقَسِّمُ اللهُ تعالى بالنازعات، وهي صفةٌ تصلح للملائكة وتصلح لغيرهم، ومن هنا اختلف المُفسِّرون في تفسيرها وتعيين موصوفها، ومثلها النشاطات وبقية الصفات، إِلَّا أَنَّ الْأَظْهَرَ - والله أعلم - أَنَّ الْمَقْصُودَ بِكُلِّ ذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ؛ بِقَرِينَةِ الصِّفَةِ الْآخِرَةِ: ﴿فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ إضافة إلى أَنَّ صَلَةَ الْمَلَائِكَةِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِ اللهِ فِي الْكَوْنِ أَقْرَبَ لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَمَعْنَى النَّازِعَاتِ: الْمَلَائِكَةُ الَّتِي تَقُومُ بِنَزْعِ الْأَرْوَاحِ وَإِخْرَاجِهَا مِنْ أَجْسَادِهَا.

﴿غَرَقًا﴾ أي: تنزع الروح من كُلِّ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ؛ فَالْغَرَقُ هُنَا بِمَعْنَى الْاسْتِيفَاءِ وَالْإِتْمَامِ. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ صِفَةُ أُخْرَى مِنْ صِفَاتِ الْمَلَائِكَةِ تَحْتَمِلُ النَّشَاطَ فِي الْحَرَكَةِ وَتَنْفِيزَ مَا يُطَلَّبُ مِنْهُمْ، وَتَحْتَمِلُ نَشْطَ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ لِمُمَيِّزِهِمْ فِي طَرِيقَةِ إِخْرَاجِ أَرْوَاحِهِمْ عَنْ أَرْوَاحِ الْكَافِرِينَ، فَلِلْكَافِرِينَ النَّزْعُ، وَفِيهِ مَعْنَى الْكَرْهِ وَالْإِيلَامِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ النَّشْطُ، وَفِيهِ مَعْنَى الدَّقَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالْإِسْتِبْشَارِ.

﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ صِفَةُ ثَالِثَةٌ؛ أَي: أَنَّهُمْ يَعْمُومُونَ فِي هَذَا الْفَضَاءِ صُعُودًا وَنُزُولًا. ﴿فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا﴾ صِفَةُ رَابِعَةٌ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ الْمُبَادِرُونَ لِأَمْرِ اللهِ، وَالْمُسْرِعُونَ فِي تَنْفِيزِهِ. ﴿فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ صِفَةُ خَامِسَةٌ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ الْمُدَبِّرُونَ لَشُؤُونِ هَذَا الْكَوْنِ وَفَقْدِ أَمْرِ يَحْيَى لَهُمْ، وَسُنَّتُهُ الثَّابِتَةُ وَالْحَاكِمَةُ فِي هَذَا الْخَلْقِ.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وهي: الزَّلْزَلَةُ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ. ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: تَتَّبِعُ الزَّلْزَلَةُ زَلْزَلَةً أُخْرَى فَتَكُونُ رَدِيفَتَهَا وَتَالِيَةً لَهَا.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: مُضْطَرِبَةٌ خَائِفَةٌ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ، أَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَهُمْ فِي رَاحَةٍ وَاطْمَئْنَانٍ.

﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾ أي: ذليلة.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) أءِذَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً﴾ أي: كانوا قبل هذا اليوم يُنكرون الحياة الآخرة، ويسخرون من إمكانية إعادتهم للحياة وهم في قبورهم قد صاروا عظامًا نخرة.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: خائبة، وهذا في سياق الاستهزاء المستمر، وليس على سبيل الافتراض والتفكير فيما يمكن أن ينبني على هذا الافتراض، فهم أبعد ما يكونون عن الفكر والتفكير، ولو كانوا يفترضون ذلك - ولو على سبيل الاحتمال - لقادهم هذا إلى الاحتياط لأنفسهم، والتفكير في مصيرهم.

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي تُعلن بدء الحياة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ وهي الأرض المستوية التي ليس فيها مرتفعات ولا منخفضات، وليس فيها نبات، فهي أرض مكشوفة، والمقصود بها هنا: أرض المحشر.

﴿هَلْ أَلَمَكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ سؤال قصده به التشويق للجواب.

﴿بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ وطوى اسم الوادي، والمقدس صفته، ومعناه: المطهر.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فيه أن الداعية هو المكلف بالذهاب إلى الآخرين، وتبليغ رسالة الله لهم.

﴿قَتَلَ لَكَ الْإِنِّي أَن تَرَكْتَنِي﴾ على سبيل العرض وليس على سبيل الأمر، وهذا أسلوب لطيف من أساليب الدعوة؛ فإن الأمر تأباه النفوس في البداية، بخلاف العرض الذي يترك الأمر للمخاطب وهو الذي يتحمل مسؤولية خياره وقراره.

﴿وَأَهْدِيكَ﴾ أي: وأدلك.

﴿إِنِّي رِيَّانٌ﴾ تلعثنت آخر؛ إذ لو قال: إلى ربي لكان كأنه يدعو لنفسه.

﴿فَارْتَدَّ آلَافَةُ الْكِبَرَى﴾ أي: أقام الحجّة على صدقه بالآية الكبرى، وهي المعجزة التي

للمخاطب وهو الذي يتحمّل مسؤولية خياره وقراره.

﴿وَاهْدِيكَ﴾ أي: وأدلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تلطف آخر؛ إذ لو قال: إلى ربي لكان كأنه يدعو لنفسه.

﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾ أي: أقام الحجّة على صدقه بالآية الكبرى، وهي المعجزة التي

أظهرها الله على يده أمام فرعون، والآية اسم جنس لا يُقصد بها المعجزة الواحدة؛ فهو سي

﴿قَدَّمَ لِفِرْعَوْنَ أَكْثَرَ مِنْ مَّعْجَزَةٍ﴾ كما هو معلوم.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ هذه العبارة السريعة والمتعاقبة تشير إلى

سرعة تحرك فرعون واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة موسى ﷺ، وهكذا هو الباطل في كل زمان؛ لأنه يرى أن معركته مع الحق معركة وجود لا معركة حدود.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أراد بالأعلى: الصفة اللازمة له لا على سبيل التفضيل؛ لأنه لا

يعترف برّب آخر حتى لو كان أدنى منه؛ ولذلك قال في موضع آخر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

والملاحظ هنا ليس في جرأة فرعون على هذه الفرية الكافرة الآثمة فحسب، وإنما أيضًا

بطاعة الناس له وهم يعلمون أنه مخلوق مثلهم يأكل كما يأكلون، وينام كما ينامون، ويمرض كما يمرضون، ويقضي حاجته كما يقضون!

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ أي: فأهلكه الله.

﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: تحذيرًا وردعًا لأمثاله عمّا يُوجبُ عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: في هذا النكال عبرة لمن يتفكّر ويعتبر.

﴿أَن تَكُونُوا أَشَدَّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ﴾ استيفهاً تقريرياً قُصِدَ به التنبيه إلى آيات الله في الخلق وآيات

قدرته العلية، وفيه تهديد للمُشركين والمُكذّبين.

﴿بَنَاهَا﴾ أي: بإحكام وإتقان.

﴿رَفَعَ سَنَاهَا﴾ أي: رفع جرمها، وجعلها رغم عظمها وثقلها بهذا العلو.

﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ فعدّلها؛ فلا ترى فيها خللاً، ولا نتوءاً، ولا تشقّقاً.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعل ليلها مظلمًا.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أظهره بيزوغ الشمس، وفيه أنّ الظلمة أصل في هذا الكون، وأنّ النور طارئ؛ لأنّه لا يكون إلّا بسبب.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ الأظهر في معنى ﴿دَحَاهَا﴾ أنّه سَوَّاهَا وملاها بالماء وأنواع الطاقة، ومهدّها لعيش الناس وسكناهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾. ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: ثبّتها.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُرُّهُ﴾ والمتاع: ما يتنفع به، وقد جاء هذا في سياق الامتنان المستلزم للشكر، وفي مقام إثبات الغاية والقصد في هذا الخلق؛ فالله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً، وإنّا لكل خلق غاية المنسجمة والمتكاملة مع الغايات الأخرى ومع متطلبات الحياة كلّها.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ أصل الطامة التي تطم؛ أي: تغطي ما تحتها، وتُطْلَقُ على الحوادث الجسام، وهي هنا بمعنى الساعة التي هي الحدث الذي يغطي كلّ حدث، والنازلة التي تغطي كلّ نازلة، ثم سمّاها الكبرى تأكيداً لهذا المعنى.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ أي: في ذلك اليوم؛ يوم يتذكّر الإنسان سيرته الكاملة، وأعماله التي عملها في هذه الحياة؛ لأنّها ستكون مناط فوزه أو خسارته.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: غلب الدنيا على الآخرة، فنسي الآخرة ولم يعمل لها عملها.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: هي مأواه ومقرّه وسكناه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: وأمّا من خاف ربّه، وذكر المقام هنا إشارة إلى معرفة هؤلاء الصنفوة بمقام ربّهم وما يجب في حقّه سبحانه، بمعنى أنّه خوفٌ ناتج عن معرفة، وليس عن جهلٍ وتقليد.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: نهى نفسه عمّا تهواه من التماهي في الغفلة والباطل، والتخلي

عن المسؤولية، وشهوة التكبر والمراءاة، والمحافظة على الجاه، والظهور بالمظهر المرغوب بين الناس ولو كان على حساب الحق، وكلمة الحق، وهذا من شر أسباب الضلالة وأدومها، وقد يلبس الهوى بمظهر الحق خاصة عند المتحدثين باسم الله، الذين يُظاهرون الظالمين بتخريج الفتوى على مقاسهم ورغباتهم، والعياذ بالله.

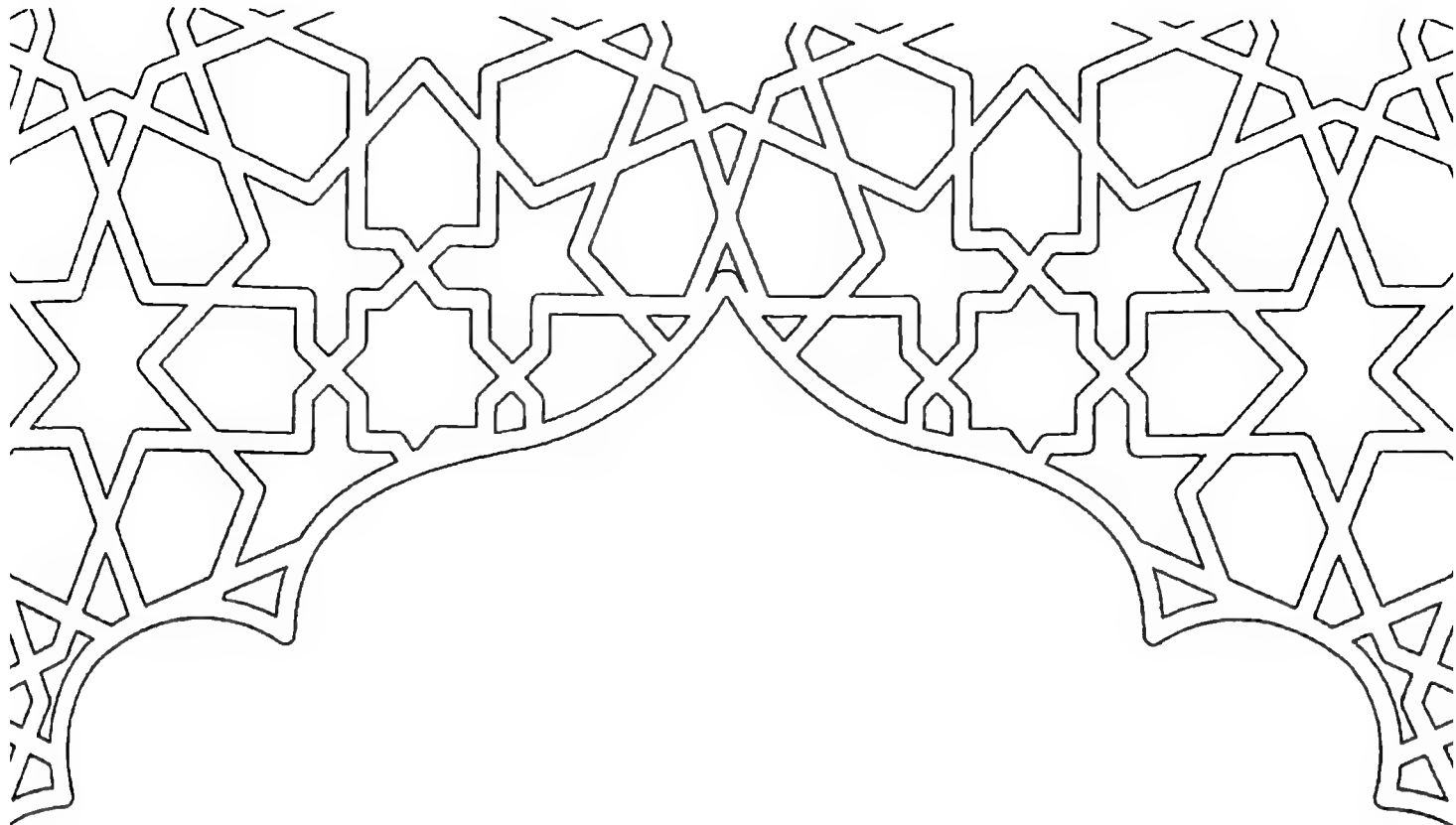
﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ أَلْمَأُوءَى﴾ أي: هي المقر والسكن الدائم لأولئك الخائفين من الله، الناهين أنفسهم عن هواها.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: يسألونك عن وقت الساعة، ومتى ترسو عندهم؟ كأنها سفينة قادمة نحوهم، ولا يعرفون وقت وصولها، وهذا السؤال إن كان من المؤمنين فلشدة خشيتهم منها، وإن كان من الكافرين المكذبين فهو على سبيل الاستهزاء والسخرية، ولا يبعد أن يصدر مثل هذا السؤال من الفريقين، والله أعلم.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي: ما لك ولذكرها! بمعنى أنه لا علاقة لك بذكر وقتها؛ لأن هذا علمه إلى الله وحده؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَهَا﴾ تأكيد أن مهمته ﷺ ليست إخبارهم بوقت الساعة، وإنما مهمته إنذارهم وتحذيرهم منها لكي يستعدوا لها، ويتأهبوا لملاقاتها.

﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ بمعنى أن الساعة آتية لا محالة في أجلها المحدد طالت الحياة أم قصرت، وأنهم عندما يرونها ستتضاءل في أعينهم هذه الحياة الدنيا حتى كأنها لم تكن سوى بعض يوم؛ ليلة أو ضحوة، وهذه هي حقيقة الدنيا أيضًا أمام الآخرة التي لا حد ولا نهاية لها.



سورة عيسى

المجلس الرابع والسبعون بعد المائتين: قصة الرجل الأعمى

سُورَةُ عَبَسَ

عَبَسَ رَبُّنَا ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ بِذِكْرِ فَتَنَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) تَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَسَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَغَلَا (٢٩) وَحَدَّائِقُ غُلَا (٣٠) وَفُكِّهَتْ وَأَبَا (٣١) مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلَاقِيَكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُنْفَرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُنْتَبِرَةٌ (٣٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٢﴾

قصة الرجل الأعمى

لا تختلف هذه السورة عن سابقتها من حيث تأكيدها لعقيدة اليوم الآخر وما فيه من أهوال وأحوال، وحسابٍ وجزاء، فهذا هو موضوعها الأساس، لكنها تميّزت باستهلالها بذكر موقفٍ للرسول ﷺ أثر فيه أن يتحدث إلى كبار قريش وأولئك المؤثرين في مجتمعهم عَوَضَ أن ينشغل برجلٍ أعمى جاء يسأله عن دينه ويتعلّم منه، ولا شك أن هذا الرجل سيجد في نفسه شيئاً، فجاء صدرُ هذه السورة مُحَصَّصاً له؛ ولتكون قيمة جديدة من القيم التي يرسخها الإسلام لبناء المجتمع الصحيح.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة المباركة بالنقاط الآتية:

أولاً: استهلّت السورة بقصة الرجل الأعمى؛ إذ جاء إلى النبي ﷺ قاصداً له يسأله في أمور دينه، فأعرَضَ عنه النبي ﷺ، وانشغل بغيره من كبراء القوم، وكان هذا اجتهداً منه ﷺ لعلَّ الله ينفع بهؤلاء الدعوة ويُقَوِّي من عُودها، وليدفع عن أصحابه شرَّ ما يتعرَّضون له على أيديهم من التعذيب والتنكيل، لكن الله ﷻ عاتبه على ذلك، مبيّناً لقاعدة مبدئية من

قواعد التعامل مع الناس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠).

ثانيًا: بيّنت السورة أنّ هذه الآيات التي عاتب الله بها نبيّه إنّما هي موعظة ودرس لكلّ مُصلِح وداع إلى الخير، وأنّ هذه الآيات من كلام الله المحفوظ والمنزّه عن الزيادة والنقص، والذي تنزل به الملائكة المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦).

ثالثًا: تظهر السورة التعجّب من كُفر الكافر بربه وهو الذي خلقه من نطفة مهينة حتى أمده بأسباب الحياة والقوّة، ثمّ يسلب منه هذه الحياة فيكون جثّة يُسارعون بها إلى القبر، ثمّ ينشره بعد ذلك، وهو عن كلّ هذا لاهٍ ساهٍ غافل، لا يعي ولا يفكر، ولا يؤدّي ما عليه، ولا يعمل لما خلق له ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ (٢٣).

رابعًا: تدعو السورة هذا الإنسان أن يفكر بآلاء الله ونعمائه التي أنعمها عليه، وما فيها من دلائل على قدرة الله ورحمته وعنايته بهذا الخلق ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَجْهًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلًّا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَّعْنَاكُمْ وَلَاقِنَّاكُمْ (٣٢).

خامسًا: تختتم السورة بذكر الآخرة وما فيها من أهوال؛ حيث يفرّ المرء من أقرب الناس إليه، وحيث ينقسم الناس إلى فائزين مُستبشرين، أو هالكين مُعذّبين ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ (٣٨) سَابِقَةٌ يُسْتَبْشَرُونَ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْغَابِرَةُ (٤٢).

دقائق التفسير

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي: تغير وجه النبي ﷺ، وأعرض لما جاءه الأعمى، والأعمى هو الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيَّ﴾ أي: ما يدريك يا محمد لعل هذا الرجل الأعمى الذي أقبل عليك سيتزكَّى بتعليمك له، ويزداد خيرًا وبركةً، فيكون أنفع لك من الالتفات إلى غيره.

﴿أَوْ يَذُكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: يتذكر فتفعله موعظتك.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ۖ (٥) فَأَنَّ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي: أمّا ذلك المُستَكبر الذي يرى نفسه مُستغنياً عن الدعوة وأهلها فأنت تتصدى له، وتهتم به.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَّ﴾ بمعنى أن هذا المُستَكبر الذي تحرص أنت على هدايته لا يضرك بقاؤه على كفره، فأنت لست مسؤولاً عن هدايته إذا بلغته كما تبلغ الناس.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ (٨) وَهُوَ يَخْتَصِي﴾ هذه تزكية لابن أم مكتوم، وشهادة له من ربِّ السماوات والأرض، فهنيئاً له.

﴿فَأَنَّ عَنهُ تَلَهَّى﴾ أي: تلهى عنه، وتهتم بغيره.

وهنا مسألة، وهي أن هذا العتاب لا يعني النهي عن الاهتمام بأولي الشأن ممن تكون هدايتهم سبباً في هداية غيرهم، وتعميم الخير في البلاد؛ فهداية الحاكم أنفع بلا شك للدعوة وللناس من هداية الأحاد من الناس، وقد أرسل الله موسى ﷺ إلى فرعون وخصه بالذكر لهذا الغرض، ولكن العتاب مُتَّجِهٌ للانتباه إلى مراعاة حال الأعمى ونحوه من المُعاقين أو المُعوزين، وفيه أيضاً التعريض بذلك الذي استغنى عن الدعوة وتكبر عليها، والله أعلم.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ أي: هذه الآيات إنما هي تذكيرٌ وموعظةٌ لمن شاء أن يتذكر ويتعظ.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: أن هذه الآيات موجودة في كتاب الله، وهي من كلامه سبحانه المحفوظ عنده تعالى، والمحفوظ في المصاحف العزيزة الكريمة.

﴿مَرْفُوعَةً مُطَهَّرَةً﴾ أي: عالية القدر، ومحفوظة من العبث بالزيادة أو النقص.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) ﴿كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ والسَّفَرَةُ تحتمل معنيين: أنهم الكُتَبَةُ الذين يكتبون الوحي، أو السفراء وهم الملائكة الذين ينزلون بهذا الوحي، وكلاهما كرامٌ بَرَرَةٌ.

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ﴾ هذه صيغةٌ من صيغ الدعاء، والمقصود بها إثارة الانتباه لخطورة ما بعده.

﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ صيغةٌ من صيغ التعجب، بمعنى أن كفره بالله يقتضي العجب.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: ألا يدري هذا الكافر المتكبر من أي شيء خلقه الله؟

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ هذا الجواب يقصد به تذكير الإنسان بحقيقة خلقه حتى لا يتمادى في كفره وتكبره.

﴿فَقَدَرَهُ﴾ أي: خلقه على مراحل، ولكل مرحلة ما يناسبها.

﴿ثُمَّ النَّبِيلَ يَرْمُهُ﴾ أي: جعله يشق طريقه في الحياة؛ فمنحه العقل للاختيار، ومنحه القوة على تحمل الأعباء.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: بعثه وأحياه بعد موته في الوقت الذي يشاء سبحانه.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ أي: لم يُوفَّ الإنسان بما عليه من حقوق، ولم يؤدِّ الواجبات التي افترضها الله عليه.

﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي: أنزلنا الماء من السماء، وهو ماء المطر.

﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ بالأنهار والجداول، وبالنبات الذي يخرج منها.

﴿فَأَبْتَلْنَا فِيهَا جَبًّا﴾ كالقمح والشعير والرز والذرة، وهذه هي قوت الناس وقوام غذائهم؛ ولذلك قدمها.

﴿وَعِنَّا﴾ معروف، وذكره نموذجًا للفاكهة التي تنبتها الأرض.

﴿وَقَسْبًا﴾ النبات الذي تقبض أعواده الرقيقة، فتجز فتؤكل بأعوادها وأوراقها، ثم تنمو من جديد، وهو نوعٌ من الغذاء مختلفٌ عن القوت، وعن الفاكهة.

﴿زَيْتُونَا﴾ الزيتون ثمرة معروفة، وهو نموذجٌ لنوعٍ آخر من الغذاء يخصُّ النبات الذي يُستخلص منه الزيت.

﴿وَنَخْلًا﴾ وهي الشجرة المعروفة التي تحمل الرطب؛ وهو غذاءٌ آخر يجمع بين معنى القوت ومعنى التفكه، وقد ذكر النخل لما فيها من فوائد أخرى غير التمر؛ إذ النخلة كلها فوائد؛ جذعها وسعفها، وليفها وجمارها.

﴿وَحَدَائِقَ غُلَابًا﴾ أي: عظمة الأشجار، مكتظة الأغصان.

﴿وَفَنَكِهِ﴾ إشارة إلى تنوع أشجار الفاكهة حتى لا تكاد تُحصى.

﴿وَأَنَّا﴾ النبات الذي تأكله الأنعام والبهائم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿مَتَّعَا لَكُمْ وَلَا تُنْعِمَكُمُ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ اسمٌ من أسماء يوم القيامة، ومعناه: الصيحة الشديدة التي تصخُّ الأسباع أي: تصمها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَجِيهِ، وَبَنِيهِ ﴿بدأ بالأخ؛ لأنه الذي يستنصر به في العادة، بإشارة أنه لا ينفع النصير نصيره، ولا العضيد عضيده، ولا ينفع الوالد ولده، ولا المولود والده، ولا الزوج زوجته، ولا الزوجة زوجها، والفرار ليس معناه الهروب، وإنما معناه: الإعراض والانشغال، فليس هناك مهربٌ ولا مفرٌّ.

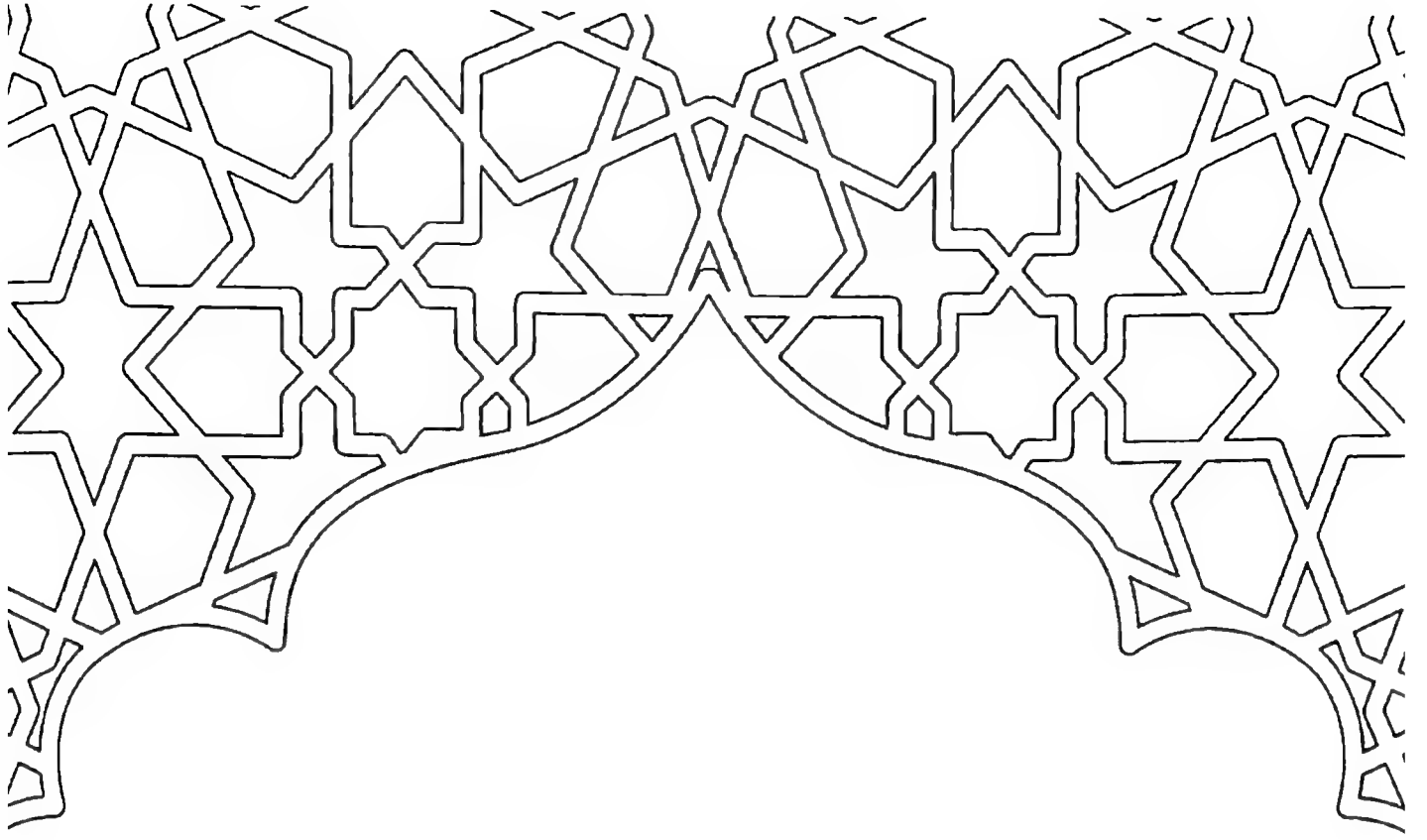
﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ تفسيرٌ لمعنى الفرار المتقدم، وتعليلٌ له.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مشرقة ومنورة بنور الإيمان والقبول والرضا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: يعلوها مثل الغبار من أثر الذلّة والمهانة.

﴿زَهَقَهَا فَفَرَّةٌ﴾ تغشاها غاشية من الدخان.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: أولئك هم الكافرون الفاجرون.



سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

المجلس الخامس والسبعون بعد المائتين: إن هو إلا ذكرٌ للعالمين

سُورَةُ التَّكْوِيْرِ

وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُيِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُيِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ (١٥) الْخَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلُ إِذَا عَنَسَتْ (١٧) وَالضُّحَى إِذَا تَنَفَّسَتْ (١٨) إِذْ يَقُولُ رَسُوْلٌ كَرِيْمٌ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِيْنٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِيْنٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِيْنٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيْمٍ (٢٥) قَائِنٌ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيْمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ (٢٩)

إن هو إلا ذكرٌ للعالمين

إذا كانت سورة عبس تميّزت بقصة الأعمى وما تضمّنته من تأكيد حقّ المعاقين وضمان مساواتهم بالأصحّاء، فإنّ سورة التكوير تميّزت بذكر قيمة أخرى، هي قيمة المساواة في حقّ الحياة بين الذكور والإناث، والتنديد بالظلم الواقع عليهنّ في المجتمع الجاهلي، إضافة إلى الموضوعين الإيمانيّين؛ الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالرسالة الخاتمة، وكما يأتي:

أولاً: استهلّت السورة بتناول أحداث اليوم الآخر والانقلابات الكونيّة التي تنهي هذه الحياة استعداداً لاستئناف حياة جديدة، وبنواميس وقوانين جديدة متصلة بعقيدة الجزاء والثواب والعقاب ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُيِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

ثانياً: في قلب تلك الآيات، جاء التنديد بالجاهليّة التي تُميّز في حقّ الحياة بين البين والبنات؛ لتجعل هذه المسألة في صلب الحديث عن عقيدة الحساب والجزاء؛ تنبيهاً على

خطرهما، وترهيباً من التماذي فيها ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

ثالثاً: ثم تؤكد السورة بالآتيان المغلظة أنَّ هذه الرسالة إنما هي وحيٌّ من الله نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ ليكون ذكراً للعالمين، وطريق هداية للمستهدين والباحثين عن الحق المبين، مع تزكيته ﷺ وتزكية الرسالة التي يحملها عن كل ما يتقوله المتقولون، ويفتره المفترون ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَنِّ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: أدرجت ولُفَّت وانكفأت على داخلها، وذهب ضوءها، وتحصيل صورة التكوير بالنسبة للشمس مُتَعَذِّرٌ؛ لأنه من الأخبار الغيبية التي ليس لها في الذهن صورة مُسَبَّقة، والغاية من الإخبار به معلومة، وهي انتهاء دور الشمس لانتهاى الحياة كلها.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ طُمِسَتْ وذهب ضوءها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: نُسِفَتْ وصارت هباءً.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: عطَّل الناس أشغالهم، وأهملوا نفائس أموالهم، والعِشَار: الثوق الحوامل التي تُوشك على الولادة، وكانت هذه محل عناية الناس في جزيرة العرب، لكنهم في ذلك اليوم سيتركونها مُهملة.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعَتْ في مكانٍ واحدٍ، قد يكون هو أرض المحشر، فهذا أقرب للمفهوم الحشر، وقد يكون في الدنيا عند الساعة، وهذا أقرب للسياق، وحشرها رُبَّما يكون بسبب ما ينزل في الأرض من كوارث، فتلجأ باحثة بغريزتها عن أي مكانٍ تظنُّ فيه مأمناً.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: تحولّت إلى نارٍ تضطّرِم، وهذه من عجائب ذلك اليوم.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ هنا انتقل إلى الحديث عن أحوال البعث والحساب، وأولها: تزويج النفوس، أي: تصنيفها إلى مجموعاتٍ بحسب درجاتها؛ فهناك السابقون السابقون، وهناك أصحاب اليمين، وهناك أصحاب الشمال، ثم هؤلاء أيضًا يُقسَّمون بحسب أنبيائهم وأممهم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ (٨) بآيِ ذَنْبٍ قُتِلَتْ والموءودة: هي البنت التي قُتِلَتْ بلا ذنب، أو دُفِنَتْ بالتراب وهي حيّة، وهذه عادةٌ جاهليّةٌ اجتمع على ترسيخها الجهلُ مع الخوف من العار، أو الخوف من الفقر، وسؤالها يوم القيامة إنّما هو سؤالٌ لوأئدها وتقريعٌ له، وهذه هي المسألة الوحيدة التي عرَضَتْها السورة من مسائل الحساب يومئذٍ؛ تنبيهًا لخطورها، وبشاعة جرمها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ هي صحف الأعمال، فهناك تُنشرُ للحساب، ويظهر كلّ ما هو مدوّن فيها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: تشقّقت، أو كُشِفَتْ وأزيلت.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أُضْهِمَتْ نيرانها استعدادًا لاستقبال أهلها.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قُرِبَتْ لأهلها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب الشرط الذي بدأ بقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ثم تكرّر في الآيات التالية، ومعناه أن كل نفس ستعلم ما قدّمته من عمل خيرًا كان أو شرًا.

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُسِ هو قَسَمٌ بالنجوم والكواكب على اختلاف أحوالها، فالخُنُس من الخُنُس، وهو خفوتها مع بداية النهار، والجَوَارِ من الجُرَي؛ أي: سيرها وانتقالها من جهةٍ إلى جهةٍ فيما يرى الناظر بحسب حركة الأرض ودورانها حول نفسها، أمّا حركتها الذاتية فلها شأنٌ آخر قد يُدركها النظر وقد لا يُدركها، والكُنُس من الكُنُس؛ أي: استتارها وحجبها ببعضها.

هذا وقد اكتشف العلم الحديث وجودَ نوعٍ من الأجرام لا تُرى وأطلق عليها (الثقوب السوداء)، وهذه في حالة خفوتٍ دائمٍ فلا ينبعث منها ضوء، وهي تلتهمُ الأجرام الصغيرة التي تمرُّ في مدارها وكأَنَّها تنظفُ الفضاء من بعض النيازك والشهب والأجزاء المنفلتة، فإن كان هذا حقًا فلا يبعد أن تكون هي المقصودة؛ لانطباق الصفات عليها أكثر من غيرها، والله أعلم.

﴿وَأَنزِلْ إِذَا عَسَسَ﴾ أي: إذا أقبل بظلامه.

﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: خرج ضوؤه وبدأ، وقد شَبَّهه بتنفس الكائن الحي؛ لأنَّ تنفس الصباح هو تنفس الحياة وبداية حركتها بعد سُبات الليل.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جواب القسم، ومعناه: تأكيد أن هذا القرآن إنما هو وحيٌ إلهيُّ نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: أعطاه الله القوة، ومنَحَه المكانة العلية عنده سبحانه.

﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ أي: تُطِيعه الملائكة هناك في العالم العلوي؛ لأنَّه المتقدِّم عليهم، وهو الأقرب فيهم إلى ربهم، وهو الأمين المؤتمن على أمر الله ووحيه.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ردُّ على شتم المشركين لرسول الله ﷺ، وتوبيخُ لهم على فريتهم هذه.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ﴾ هي رؤية سيدنا محمد ﷺ لملك الوحي جبريل عليه السلام بالصورة التي خلقه الله عليها.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ تأكيدٌ لأمانته ﷺ في تبليغه لرسالة الله كاملة دون نقص، والضنين: الشَّحِيح، وفي هذا تعريضٌ بالكهنة الذين كانوا يدعون الغيب ثم لا يؤخون به إلا بقدر ما يُعطيهم الناس عليه.

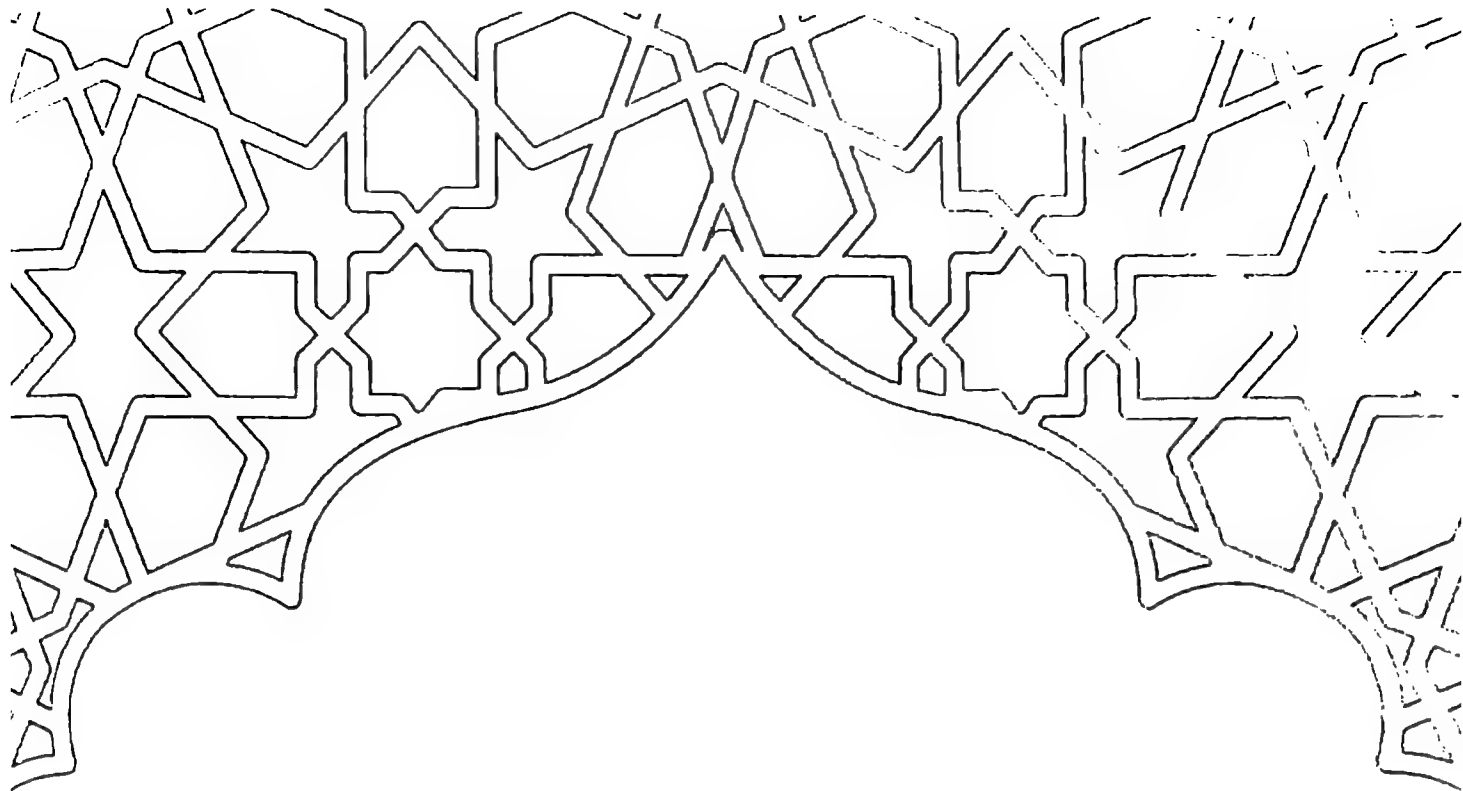
﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ تمييزٌ للوحي عما تقوم به الكهنة من ادِّعائها الاتصال بالغيب عن طريق الشياطين.

﴿فَإِنَّ تَذَهُبُونَ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به تعجيزهم، بمعنى أن كل ما قَلِّمُوهُ في مُحَمَّدٍ وفي رسالته ظهر بطلانه، فماذا تقولون بعد؟ وأي طريق تسلكون؟ ويحتمل أنه أراد توبيخهم بمعنى: أين تذهبون عن هذه الحقائق، وفي أي تيه تتيهون؟ والمعنيان مُتقاربان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ هذا إعلانٌ مبكّرٌ لعالمية الإسلام، والذكرُ بمعنى التذكير والموعظة، ويأتي أيضًا بمعنى الشرف والرفعة.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بمعنى أن السبيل قد وُضِّحَتْ بهذا القرآن، ثم الأمر متروكٌ لكم، وكلُّ مُحَاسِبٍ بخياره وقراره، ومجزئٌ بعمله.

﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فالله سبحانه بمشيئته المطلقة هو الذي منح الإنسان القدرة على الاختيار، ولو شاء سبحانه لخلقه خلقًا آخر لا يشاء ولا يختار، لكن حساب الإنسان وثوابه وعقابه كل ذلك مرتبطٌ بهذه المساحة من الاختيار، والله أعلم.



سُورَةُ الْاِنْشَادِ

المجلس السادس والسبعون بعد المائتين: يا أيها الإنسان!

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبُحُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٣) ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (٤) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٥) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ قَدَدَكَ﴾ (٦) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٧) ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٨) ﴿وَلَا عَلَيْكُمْ الْحَفَظِينَ﴾ (٩) ﴿كِرَامًا كَاشِينَ﴾ (١٠) ﴿يَعْمَلُونَ مِمَّا قَفَعْنَا لَكُمْ فِيهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٢) ﴿وَأِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١٣) ﴿يَصَافُونَ يَوْمَ الَّذِي﴾ (١٤) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٨)

يا أيها الإنسان!

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ هكذا تُنادي هذه السورة ذلك المخلوق الذي يعيش على هذه الأرض، والذي أعطاه الله القدرة على أن يسمع النداء ويفهمه، تُناديه لتقول له: إنه لم يُخلق سدى، وإنما جاء لغاية عظيمة أوسع من حياته التي يعيشها على الأرض وأبعد مدى، إنها تربط بين حياته الدنيا وحياته الأخرى، وتربط بين ما يُقدِّمه هنا من عملٍ، وما ينتظره هناك من جزاء، وكما يأتي:

أولاً: تستهلُّ السورة بالحديث عن الساعة وأهوالها؛ لتنبه هذا الإنسان إلى طبيعة هذه الحياة ونهايتها المحتومة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبُحُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٣).

ثانياً: ثم يأتي جواب الشرط ليضع الإنسان أمام مسؤوليته الكاملة؛ لتؤكد له أن كلَّ عملٍ يعملُه هنا سيلقاه هناك ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

ثالثاً: ثم تُنادي السورة هذا الإنسان أن ينتبه لنفسه، وأن يُفكِّر في وجوده ونشأته، والصورة التي خُلق عليها والتي تتناسب مع دوره المطلوب على هذه الأرض ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٥) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ قَدَدَكَ﴾ (٦) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

رابعاً: ثم تحذره من مغبة العناد والتكذيب بهذه الحقائق الكبيرة، فهو صائرٌ لا محالة إما إلى جنة، وإما إلى نار، إما إلى سعادة أبدية، وإما إلى الشقاء ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (١)﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (٢) كِرَامًا كُنُيِينَ (٣) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٥) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (٦) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ (٧) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (٩) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٠) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١١).

دقائق التفسير

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي: انشقت، كما جاء في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، والقرآن يُفسر بعضه بعضاً.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ﴾ لانفراط نظامها الذي كان يمسك بها في أفلاكها ومداراتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ أي: استعرت فيها النار، وقد تقدّم هذا المعنى في سورة التكوين السابقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوين: ٦]، وقد يكون التفجير بسبب البراكين الهائلة المنبثة من باطن الأرض، ثم يعقبه التسجير، هذا وقد صوّر كثيرٌ من المهتمين بعض البراكين الجزئية المنبثة من داخل الأرض في أعماق البحار، والله أعلم بما سيحدث في ذلك اليوم.

﴿وَإِذَا الْغُبُورُ بُعِثِرَتْ﴾ لخروج مَنْ فيها بعد عودة الأرواح إلى أصحابها، وهذا من الأخبار الغيبية التي لا تحصل صورتها في الذهن، وإنّما المطلوب الإيمان بها، وفهم المقصود من الإخبار بها، وهو الاستعداد لذلك اليوم.

﴿خَلِّتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي: ما قدّمته من عملٍ خيراً كان أو شراً، وما تخلّفت عنه فلم تُقدّمه وهو مطلوبٌ منها، ومفروضٌ عليها؛ كالصلاة، والصيام، ويحتمل أيضاً أن يكون ما أخرته أي: ما تركته من آثارٍ نافعةٍ أو ضارةٍ، فهذه تستمرُّ حسناتها أو سيئاتها ما دام الأثر موجوداً.

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ خطابٌ بجنسه العام دون تمييز بين أسود وأبيض، أو عربيٍّ وأعجميٍّ،

أو غنيّ وفقير، أو مأمور وأمير، أو رجل وامرأة، إنهم جميعًا أمام الله بعنوانٍ واحدٍ (الإنسان)؛ هكذا خلقه الله واحدًا، وأراده أن يبقى واحدًا، وخلقته، وواحدًا بفطرته، وواحدًا بعبوديته لرَبِّه.

﴿مَا غَرَّكَ رَبِّكَ أَكَرِيمٌ﴾ هذا سؤالٌ موجَّهٌ للإنسان المُشرك بالله، المُنكر للبعث، سؤالٌ على سبيل الإنكار والتعجُّب من أن يُقابل ربُّه الكريم بهذا الكفر والإعراض، يسأله عن الدافع الذي دفعه، وعن الذي زَيَّنَ له هذا الطريق الخاطيء.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ خَلَقَكَ أي: خَلَقَكَ من العدم، وسَوَّاكَ أي: أَتَمَّ خَلَقَكَ من غير نقصٍ ولا خللٍ، وَعَدَلَكَ أي: نَصَبَ قَامَتَكَ وجعل أعضائك كلها مُتناسقة ومُتوازنة، والمقصود بهذا الإخبار: إظهار الامتِنان على الناس بهذا التكریم والتميز، وتوبيخ المُشرك أن تنكَّر لهذا اللطف الإلهي، وهذه النعمة الظاهرة.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: في أي صورةٍ عظيمةٍ وبديعةٍ رَكَّبَكَ، والسياق سياق مدحٍ وتعظيمٍ لَمَنَّةِ الله على الناس.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي: تُكَذِّبُونَ بيوم الحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي: ملائكة يُحْصُونَ عليكم أعمالكم، ويحفظونها ليوم الحساب.

﴿كَرَامًا﴾ صفةٌ للملائكة وبيانٌ لمقامهم عند الله تعالى.

﴿كَاسِبِينَ﴾ صفةٌ أخرى متعلقة بوظيفتهم، بمعنى أنهم يُدَوِّنُونَ ما يأمرهم الله بتدوينه.

﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: يدَوِّنُونَ عن علمٍ ويقينٍ، لا عن ظنٍّ وتخمينٍ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ الأبرار هم: المؤمنون، والأبرار وصفٌ لهم، وهو من البرِّ بمعنى: الإحسان وعمل الخير، فهؤلاء يعدُّهم الله بنعيم الجنة الدائم.

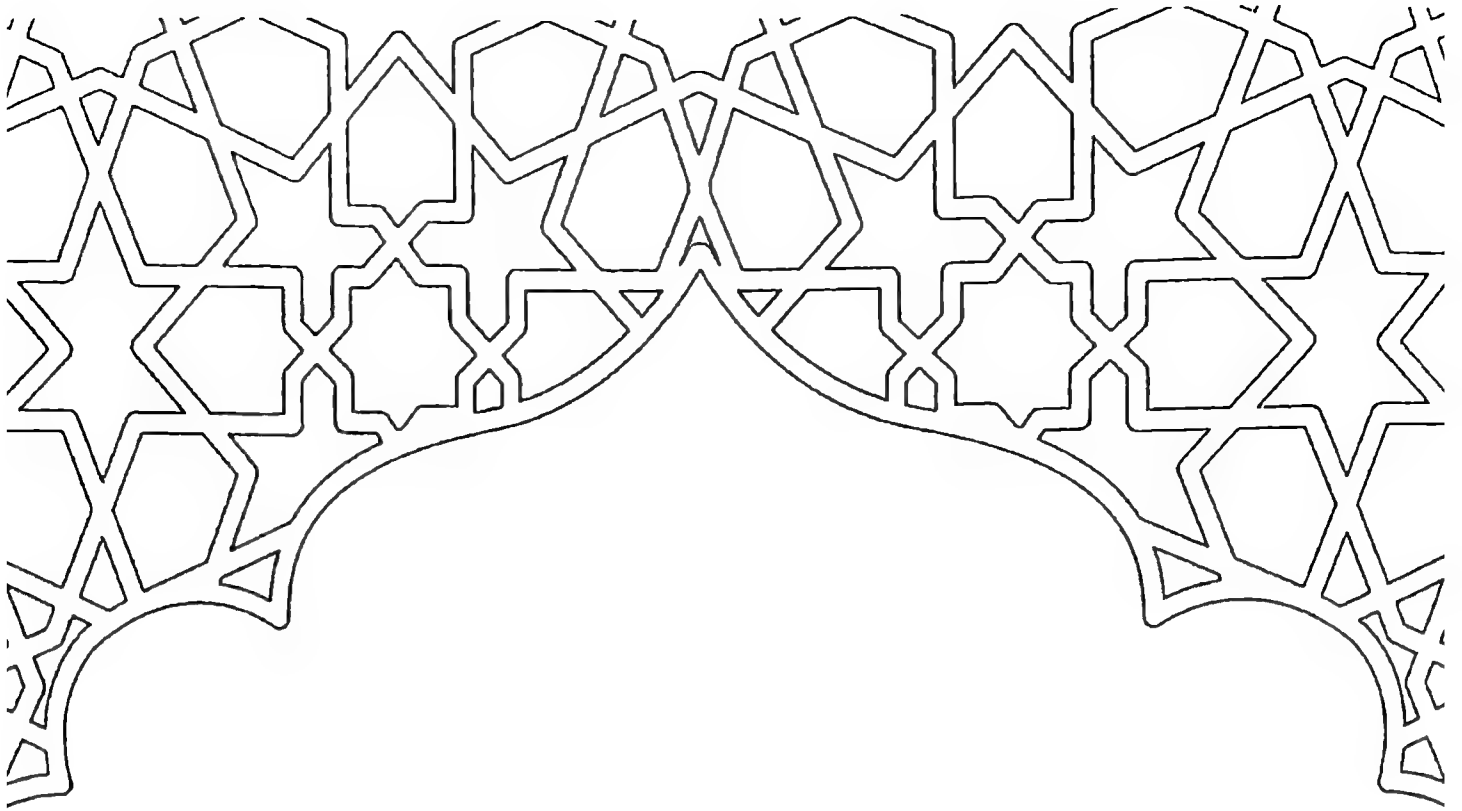
﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وهؤلاء هم المشركون ومُنكرو البعث، والفُجَّار وصفٌ لهم، وهو من الفجور الذي هو ضدُّ البرِّ، فهؤلاء يتوعَّدهم الله بالجحيم.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يصطلون بنارها ويُعدَّبون بها يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ لا يغيبون عنها؛ أي: لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به التهويل والتعظيم لشأنه وخطره.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ هذه صفةٌ من صفات يوم الدين، وحالةٌ من حالاته، وقد خصَّها بالذكر تنبيهًا عليها؛ لئلا يظنَّ ظانُّ أنَّه سينجو هناك بعمل غيره، فإنَّها لكلِّ امرئٍ ما عمل، وأنَّ ليس للإنسان إلا ما سعى.



سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

المجلس السابع والسبعون بعد المائتين: ويلٌ للمطففين

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٍ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُوجُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُمْ بِدِ تَكْذِبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيَّاتٌ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ (٢١) إِنَّ الْأَنْبَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتْمُهُ مِنسُكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلَتَاتُفَافِيسُ الْمُنْفُسُونَ (٢٦) وَمَرَاةٌ مِنْ تَنْبِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَفِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِثُّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴿

ويل للمطففين

لا تختلف هذه السورة عن السور السابقة من حيث موضوعها المحوري، وهو اليوم الآخر، سوى أن التركيز هنا جاء في الحساب والجزاء، وليس في الساعة وأهوالها، غير أن الذي تميّزت به السورة استهلالها بالحديث عن التطفيف في المكيال والميزان، وهذه هي قيمة العدل التي تضمن الحقوق المادية والمادية، ثم تتسع دلالتها لتشمل الحقوق جميعاً؛ إذ الحقوق المعنوية لها ميزانها المعنوي، كما أن للحقوق المادية ميزانها المادي، وهكذا نرى في هذه السور المكيّة اقتران القيم الحياتية والأخلاقية بالمسائل العقدية.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة بما يأتي:

أولاً: التنديد بالمُطففين، والتعريف بهم وببشاعة فعلهم، والتنبيه إلى أن هذا لا يكون إلا

من أولئك الذين لا يؤمنون بالبعث، ولا بيوم الحساب ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى

النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾.

ثانياً: بيان عاقبة أولئك الفجار الكاذبين، وما ينتظرهم من غضبٍ إلهيٍّ، وعذابٍ شديدٍ

﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا سِجِّينَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾.

ثالثاً: بيان عاقبة الأبرار المؤمنين وما أعدّه الله لهم من أنواع النعيم

﴿١٨﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِيسَكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾.

رابعاً: ثم عادت السورة إلى التنديد بأولئك الفجار الظالمين ومواقفهم المشينة من عباد الله

المؤمنين، والتذكير بما ينتظر الفريقين من جزاء يقين ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٤﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٥﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٦﴾ هَلْ تُؤَبُّوا الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهم الذين عرفتهم الآيات التالية: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ

﴿٢٩﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فهؤلاء يحبون أن يستوفوا آخر ما لهم من حقٍّ، ثم يميلون على حقوق الآخرين، وصورته المادية: التطفيف بالكيل والوزن، وحقيقته أوسع من ذلك؛ فهو صورةٌ للظلم المنتشر في العالم باضطراب المعايير، وخضوعها لرغبة الأقوياء على حساب الضعفاء.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا الاستفهام قُصِدَ به: تعليل هذه الظاهرة الأخلاقية المشينة، وإرجاعها إلى الكفر بيوم الحساب والجزاء، وفيه إشارة إلى أَنَّ المؤمن ينبغي أن يكون مُنْزَهاً عن الخُلُقِ المشين، وهذا الربط تَكَرَّرَ في القرآن كثيراً، كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴿١﴾ أَي: كتابهم الذي يُحْصِي أَعْمَالَهُمْ، والكتاب: اسم جنسٍ يعمُّ جميع كتبهم؛ إذ لكلِّ فاجر كتابه، والْفُجَّارُ وصفٌ لأولئك المُطَفِّفِينَ الذين لا يؤمنون بيوم الدين. ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ أَي: أَنَّ مصيرهم المُحدَّد لهم وفق ما هو محفوظ في كتبهم سيكون في مكانٍ يُقال له: سِجِّين، واللفظ يُوجِي بالضييق والحبس.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ سؤالٌ معترضٌ بين الكتاب وبين وصفه الآتي، ويُقَصِّدُ به: التهويل والتنبية إلى خطورة الأمر في ذلك المكان.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ هو وصفٌ لكتاب الْفُجَّارِ أَنَّهُ مَرْقُوم، والرَّقْمُ: الكتابة الظاهرة، بمعنى أَنَّهُ مكتوبٌ ومحفوظٌ ومفروغٌ منه، فلا تغيير ولا تعديل.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: ما سَطَّرَهُ الأولون من قصصٍ وحكاياتٍ لا تستندُ إلى علم، ولا دليل.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذه مسألةٌ دقيقةٌ، وقد وَرَدَتْ في سياق تعليل موقف المشركين المكذِبِينَ بالقرآن الكريم حتى وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ أساطير الأولين، وَخُلِصَتْهُ: أَنَّ هؤلاء قد اكتسبوا جرائم ومظالم كثيرة رَانَتْ على قلوبهم فطَمَسَتْهَا، فلم تُعَدِ تَنْتَفِعْ بنور القرآن، وهذا تحذيرٌ للغارقين في ظلمة الغفلة وحماة المعاصي أَنَّ قلوبهم ستصدأ، وَأَنَّهَا لن تستقبل الحقَّ الذي تستقبله الفطر السليمة، والرَّئِن: تراكم الصدأ.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ فهم أحقر من أن يسمح لهم برؤية ربِّهم، أو التقرب من كرامته، فهؤلاء الذين اعتادوا على الآثام والمعاصي، والكفر والظلم أبعد ما يكونون عن

ذلك المقام، لقد حَجَّبُوا قلوبهم بهذا الرَّان عن رؤية الحقِّ في الدنيا، فعاقَبَهُم الله بطردهم وحجبهم عن رؤيته في الآخرة، وهذا عذابٌ لا يقدِّرونه اليوم وهم في هذه الغفلة والحماة، لكنَّهم هناك سيروَنه أشدَّ عليهم من نار الجحيم.

﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْآبِرَارِ لِنِي عَلَيَيْنِ﴾ القول في الكتاب تقدّم، وخلاصته أنَّه اسم جنسٍ لا يعني كتابًا واحدًا، بل لكلِّ امرئٍ منهم كتابه، وكونه في عليّين ذكر الكتاب وأراد أصحابه الأبرار بأنَّهم سيرتقون إلى هذا المكان المُشعِر بالرفعة والعلو، بمعنى أنَّهم بما قدّموه من برٍّ وإحسانٍ مما هو محفوظٌ في هذا الكتاب قد استحقُّوا هذا الوعد الكريم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ﴾ سؤالٌ معترضٌ بين الكتاب ووصفه الآتي، ويُقصد به: تعظيم شأن هذا المكان الذي أعدّه الله للأبرار.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ هذا وصفٌ لكتاب الأبرار أنّه مكتوبٌ ومحفوظٌ، ومفروغٌ منه.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يحضره المُقَرَّبُونَ، وهم المُقَرَّبُونَ من الله تعالى، وهو وصفٌ للملائكة، وللصفوة من المؤمنين، وحضور هؤلاء الأكرمين كأنَّه لإظهار احتفائهم وتهنئتهم لهؤلاء الأبرار وهم يأخذون كتبهم مُستبشرين برضا الله تعالى والجنة.

﴿عَلَى الْأَرْآكِ﴾ الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: ترى في وجوههم أثر النعيم والرضا من الحُسْنِ والبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ ٢٥ خَتْمُهُ، مِسْكٌ﴾ والرحيق: شرابٌ من أشربة الجنة، وهو اسمٌ من أسماء الخمر، وقال: ﴿يُسْقَوْنَ﴾ بمعنى أنَّهم مخدمون ويُطاف عليهم بهذا الشراب، ومختوم أي: مسدود، فلا يُفتح إلَّا لشاربه كأنَّه مُعدٌّ له، وقد خُتِمَ بالمِسْك تطيبًا له، وإكرامًا لصاحبه.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ حثٌّ للمؤمنين وللناس أجمعين أن يتنافسوا في فعل الخير، وملء صفحاتهم بهذه الحسنات؛ فتلك طريقهم إلى ذلك النعيم، وقد جاءت هذه العِظة

اللطيفة اعتراضاً بين أحوال النعيم؛ لتكون أدعى للقبول بعد أن لانت القلوب، واشتاتت العيون.

﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أي: أن شرابهم المختوم قد خلط بشاربٍ آخر يُؤخذ من عينٍ في الجنة يُقال لها: تسنيم، واسمها يُوجي بعلوها ورقتها، فشرابهم رحيقٌ ممزوجٌ بتسنيم، وفي اللفظين كفايةٌ للتشويق قبل منظرها وتذوقها.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يحتمل أن المقربين يشربونها صرفاً، وأن الأبرار يشربونها مزجاً، وفي اسم تسنيم ما يُوجي أنها من السنام؛ أي: المكان المرتفع، كأنها تنزل على الأبرار من العلو، ويحتمل أن المقربين يشربونها مزجاً، بقرينة تعدّي الشرب بالباء الذي يُشير إلى أنهم يشربون بها شراباً آخر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١٩) وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿هذا من الرآن الذي ران على قلوب أولئك المجرمين؛ فقد كانوا يضحكون من أصحاب الحق، ويتغامزون فيما بينهم عليهم، إنهم هكذا دائماً لاهون عابثون مُستهزئون مُستكبرون، فمن أين يعرف الحق طريقاً إلى قلوبهم وهي مُغلقة بهذه الأغلفة، ومحجوبة بكل هذا الكدر والرآن.

﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: لم يكتفوا بذلك في مجالسهم وطرفاتهم، بل إنهم إذا رجعوا إلى بيوتهم وجلسوا مع أهلهم كانوا كذلك يضحكون في غفلة عما ينبغي أن يفكروا فيه، وكأنهم في مأمن من الحساب والعقاب.

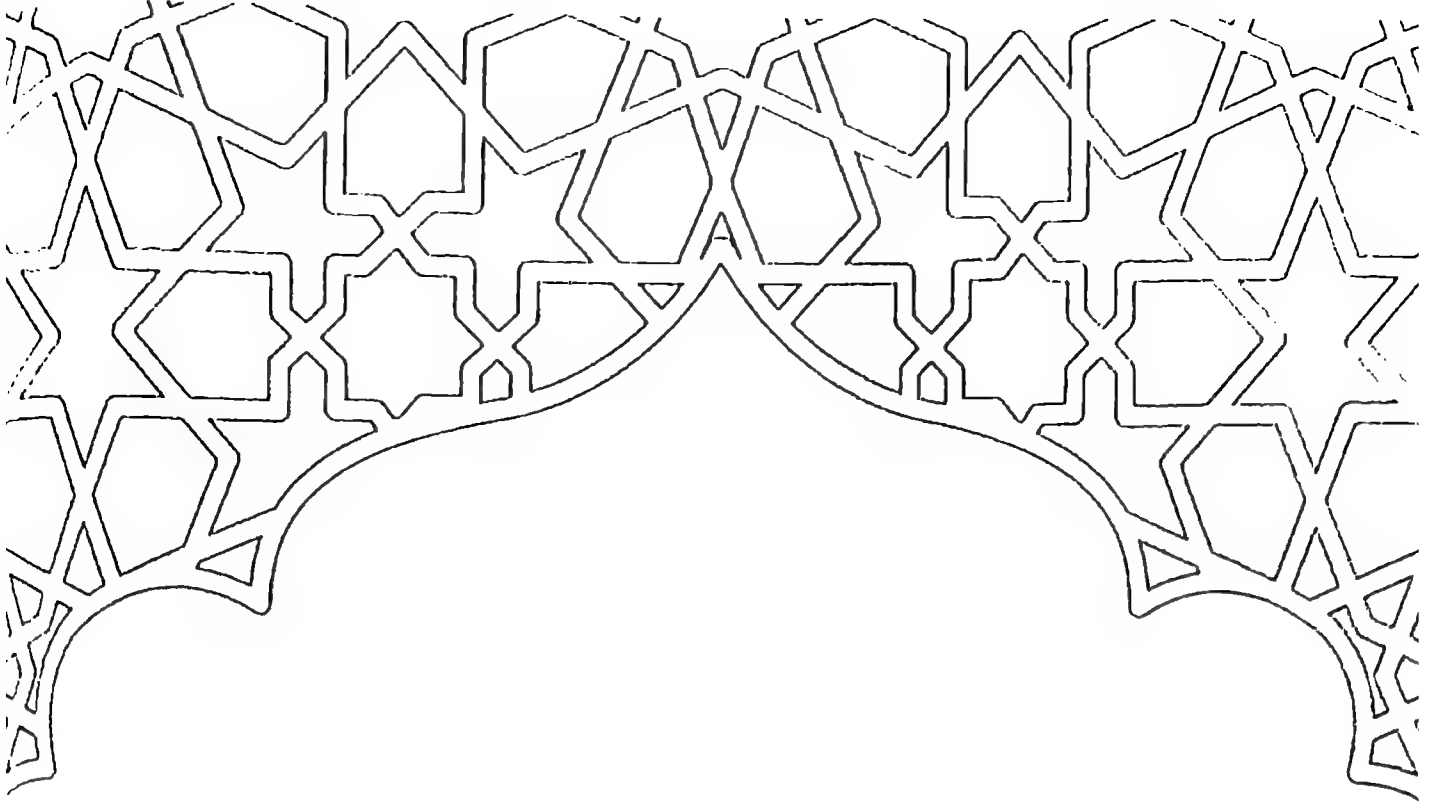
﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ أي: يتهمون المؤمنين بالضلال، ويقصدون به: الجهل والابتعاد عن طريق الآباء والأجداد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ بمعنى أن هؤلاء الفجار المجرمين كان بإمكانهم أن يدعوا الناس وشأنهم، فهم ليسوا مُكلفين بملاحقة الناس، وتسجيل أعمالهم والحكم عليهم.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ هذا جزاءٌ من جنس العمل، وهو من مُقتضى

العدل الإلهي.

﴿هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا سؤالٌ تقريرِيٌّ؛ معناه: تأكيدٌ أنَّ الكفار قد نالوا جزاءهم العادل، كما توعدَّهم الله تعالى، فلم يفلتُوا من قدرته، ولم يجدوا لهم من دونه مفرًّا ولا مهربًا.



سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

المجلس الثامن والسبعون بعد المائتين: يا أيها الإنسان!

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ بِتَأْيِهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَنُقِلَتْ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ۝ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝ فَلَا أُفْسِمْ بِالسَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾

يا أيها الإنسان

سِمَةُ من سمات القرآن المكِّي: التأكيد والتكرار؛ ذاك لأنه يهدف إلى ترسيخ القيم والمبادئ الكبرى، ومن نماذج هذا التكرار والتأكيد: التشابه الكبير بين سورتي الانفطار والانشقاق، في الاستهلال والمضمون والنداء الموجه إلى هذا الإنسان، الذي يُحمَّله المسؤولية التكليفية وما ينتج عنها من استحقاق للوعد أو الوعيد، مع بعض اللفَّات والمُشاهد الجزئية التي تُميز هذه السورة عن سابقتها، وكما يأتي:

أولاً: استهلَّت السورة بالتنبيه إلى الساعة وانتهاء هذه الحياة، وخضوع هذا الكون بسماؤه وأرضه إلى قَدَر الله المحتوم، وأجله المعلوم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾.

ثانياً: تُوجِّه السورة نداءها لهذا الإنسان وتنبيهه إلى الغاية من وجوده، وإلى مسؤوليته الكاملة عن سلوكه وتصرفاته ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

ثالثاً: تُبيِّن السورة انقسام الناس في ذلك اليوم إلى: فائزين بحُسن أعمالهم، أو هالِكين بسوء أعمالهم؛ فالفائزون يُعطون كتابهم بأيمانهم علامة على البشرى والنجاح ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ

كِتَابُهُ، بِمِيزَانِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾، وَأَمَّا الْخَاسِرُونَ فَيُعْطَوْنَ كِتَابَهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ؛ إِهَانَةً لَهُمْ، وَتَوْبِيخًا عَلَىٰ فِعْلِهِمْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا ﴿١٢﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٥﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٦﴾.

رابعًا: يُقَسِّمُ اللَّهُ ﷻ فِي وَسْطِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ النَّاسَ سَيَمُرُّونَ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَمِنْ مَسْتَوًى إِلَىٰ آخَرَ، فَلَا تَسْتَقِرُّ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ؛ بَلْ هُنَالِكَ أَحْوَالٌ، وَهُنَالِكَ أَهْوَالٌ، وَالْعَاقِلُ مِنْ رَأَىٰ خَطْوِ قَدَمَيْهِ، وَعَرَفَ طَرِيقَهُ وَعَاقِبَةَ سِيرِهِ ﴿١٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٨﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٩﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿٢٠﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿٢١﴾.

خامسًا: ثَمَّ تَوَجَّهَتْ السُّورَةُ إِلَىٰ أَوْلَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ، تَلُومُهُمْ وَتُهْدِيدُهُمْ بِسُوءِ الْعَذَابِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ ﴿٢٢﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٤﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٦﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٧﴾.

سادسًا: ثَمَّ خَتَمَتْ بِبَشَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٩﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ الانشقاق معروفٌ، وهو بمعنى: الانفطار الوارد بقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿وَأَذِنتَ لَهَا﴾ أي: سَمِعَتْ أَمْرَهُ وَاسْتَجَابَتْ لَهُ، بِمَعْنَى أَنَّ انشقاقها إنما كان بأمره تعالى، وليس لخللٍ في بنائها.

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وَحَقُّ عَلَيْهَا أَنْ تَسْمَعَ لِأَمْرِ رَبِّهَا وَتَخضع لَهُ، فَلَيْسَ لَهَا غَيْرُ ذَلِكَ بِحَكْمِ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةً وَمَرْبُوبَةً لَهُ سُبْحَانَهُ.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطَتْ وَعُدِّلَتْ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تُسَفَّ جِبَالُهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا

يكون بعد اختلال النظام الكوني، فتتحول الأرض من شكلها الكروي إلى شكلٍ مُستَوٍ ممدودٍ، وليست العبرة بتحصيل صورتها آنذاك، بل العبرة بأحوال الناس وما ينتظرهم.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أخرجت ما بداخلها مما لا يعلمه إلا الله، وكأنها كانت مُثْقَلَةً به، ولا شك أن الإنسان قد اكتشف داخل الأرض ما لا يُحصى من أنواع الطاقة؛ كالغاز والنفط والمعادن الثقيلة، إضافةً للطاقة البركانية التي تحتبس في داخلها، ورُبَّما هناك ما لم يتوصل إليه البشر، وهذه قرينةٌ على أن مدّها قد يكون معناه تغيّر في كرويتها، فتخرج هذه الأشياء التي كانت الأرض مكوّرة عليها، والله أعلم.

﴿وَأَذِنتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما السماء؛ فالأرض كذلك تسمع لأمر ربّها، وتخضع له، ولا يسعها غير ذلك.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾ هكذا يُنادي الله عباده، لا بأنسابهم ولا بألوانهم، وقد وقع هذا النداء جواباً للشرط في صدر السورة، بمعنى أنه نداءٌ ذو شأنٍ عظيمٍ وخطيرٍ.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأَيْتَهُ﴾ الكَدْحُ: العمل المصحوب بالجهد والتعب، والدنيا بطبيعتها دار كَدْحٍ، فالذي يسعى للرزق يكدح، والذي يسعى للسؤدد والمجد يكدح، والذي يسعى للآخرة يكدح، وكلّ هذا الكَدْح محفوظٌ على الإنسان وسيُواجه به ربّه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهذه علامةٌ على فوزه ونجاته.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ بأن تُعرض عليه أعماله عرضاً من غير نقاشٍ.

﴿وَنَقْلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي: يرجع إلى أهله مسروراً، والعبارة تُوحى وكأنّه ذهب إلى مكانٍ آخر ليرى أعماله ثمّ رجّع إليهم بهذه النتيجة المبهجة، وهذه لو تأملها المتأمل لتوسّعت مداركه، وعلم أنّ ذلك اليوم واسع الأفق، طويل المدى، مُتعدّد الأحوال، مُتنوع المشاهد والصور، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ تحقيراً له؛ فالملك الذي يُعطيه الكتاب لا يُواجهه، بل يُناولُه الكتاب من خلفه، ولا يبعد أيضاً أنّه هو مَنْ يُعرض عن المواجهة لشدة خوفه وخزيه، وعلى

كلا الاحتمالين فهو يُعطى كتابه بشأله، وهذه علامة شقائه وهلاكه، والعياذ بالله.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ أي: فسوف يصيح بالهلاك على نفسه.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ إشارة إلى انقلاب حاله، وما كان عليه من الغفلة والانشغال بالمتاع الزائل، وفيه إشارة أخرى تُعرض بأولئك الذين وصفتهم السورة السابقة سورة المطففين: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]؛ إذ كانوا يضحكون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي: ظنَّ أن لن يرجع إلى الحياة بعد الموت.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ هذه من الصيغ التي يُراد بها تأكيد القسم لا نفيه، والشَّفَق معروف، وهو: ما يتبقى من ضوء الشمس إثر غروبها، وهو حمرة مُمتدة في الأفق.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: والليل وما حَمَلَ، والليل بذاته لا يحمل شيئًا، وإنَّما المقصود: ما خفي على الناس فيه من أشياء وأحوال، وحوادث صغيرة أو كبيرة، ورُبَّما يكون المقصود به النجوم؛ لأنَّها تظهر للناظر في الليل، فكأنَّ الليل هو الذي يحملها إلينا، والله أعلم.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ إذا تكامل نوره فأصبح بدرًا مُستديرًا.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي: أحوالًا مُتعددة وأطوارًا مختلفة، فمراحل خلق الإنسان من بداية خلقه نطفة، حتى هرمه وموته هي أطوارٌ وأحوالٌ، ومسيرةُ البشر في حياتهم واكتشافاتهم وصناعاتهم، وتقدمهم في علومهم، واختراعاتهم، وما يُحققونه في كلِّ جيلٍ هي أطوارٌ وأحوالٌ أيضًا، وما ينتظر الحياة كلها من أشراط الساعة وأهوالها، وأحوال الآخرة؛ من بعثٍ وحشرٍ، وحسابٍ وجزاءٍ كذلك أطوارٌ وأحوالٌ، فالتغيرُ سِمَة هذا الخلق، ولن تستقرَّ الحياة في طورٍ واحدٍ، ولا حالةٍ واحدةٍ، ولن يتوقف الزمنُ عند أحدٍ منها كان.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ سؤال بصيغة التعجب، وقصده: لوُم هذه العقول التي تقرأ كلَّ هذه الدلائل في هذا الكون المنظور، وفي كتاب الله المسطور، فلا تنتفعُ منها، ولا تهتدي بها، مع أنَّ حياتهم التي تتغيرُ من طورٍ إلى طورٍ، ومن

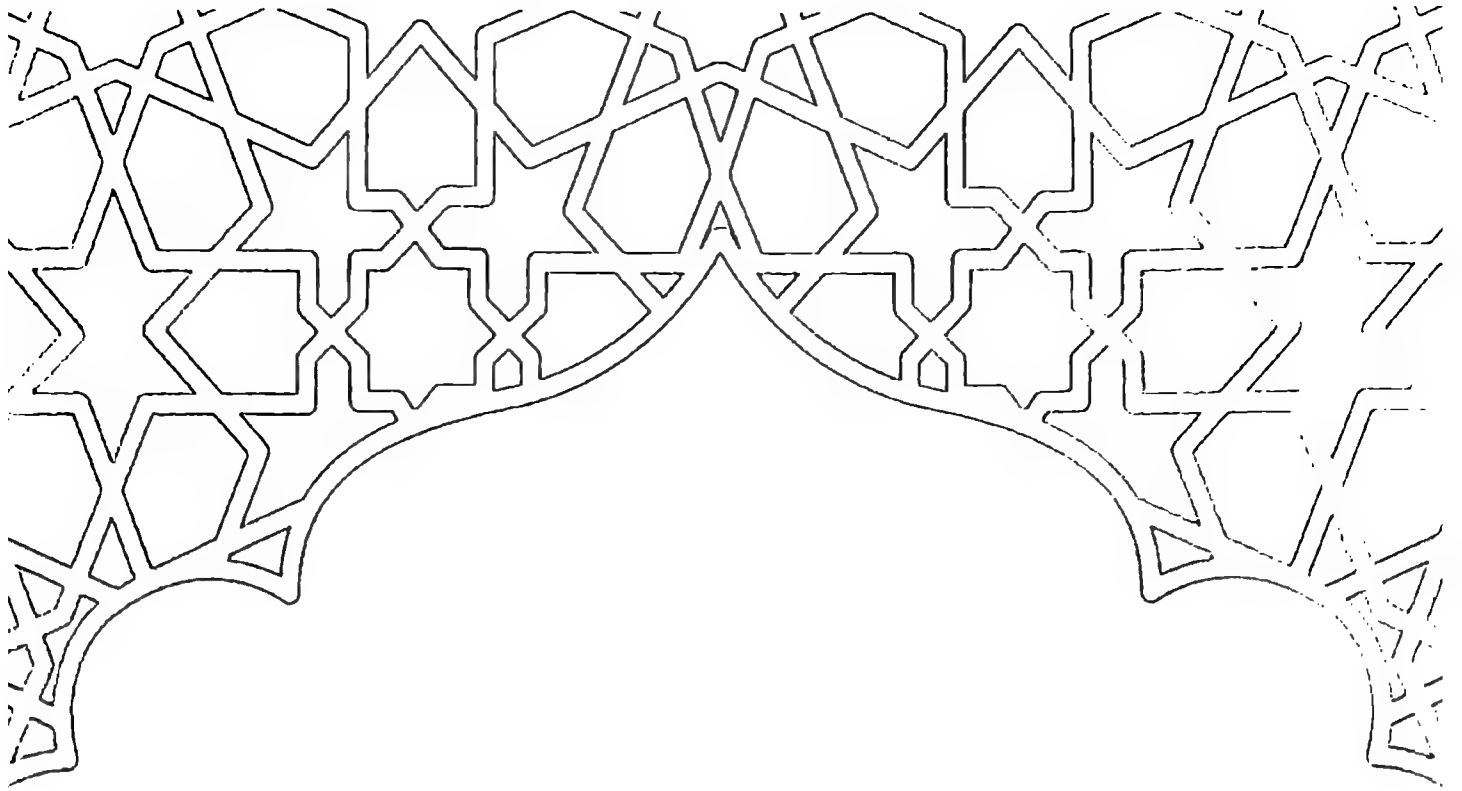
موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت تدعوهم بالضرورة للتفكير في مصائرهم، وما ينتظرهم في تلك الأطوار والأحوال، ومطالبتهم بالسجود مستلزمة لمطالبتهم بالإيمان أولاً، وما السجود إلا مظهر من مظاهره، وثمره من ثمراته.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ انتقل من السؤال إلى الإخبار ليقرر حقيقة أن هؤلاء الغافلين المعرضين قد كذبوا بالقرآن من غير مُستند، ولا حجة، ولا شبهة، وكفى بهذا إثماً وظلماً.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ هذه جملة مُعرضة بين جريمتهم في التكذيب، وبين استحقاقهم العذاب الأليم، والغرض منها: التعريض بما يُضمرُّونه في أنفسهم من كبرٍ وحسدٍ يدفعهم إلى ذلك التكذيب الآثم الظالم، و﴿يُوعُونَ﴾ أي: يُضمرُّون ما تنطوي عليه قلوبهم. وأصله: جعل الشيء في وعاء.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أصل التبشير: الإخبار بما يَسُرُّ، وقد استعير هنا في التهديد على سبيل التهكم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناء منقطع يفيد مقارنة حال أولئك المكذبين الهالكين هؤلاء المؤمنين الصالحين، وقد يُحمل على الاستثناء المتصل بمعنى أن أولئك الكافرين يستحقُّون العذاب الأليم، إلا مَنْ آمن منهم فيما بعد وعمل صالحاً - والله أعلم -، و﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرُ مقطوع؛ فهو دائمٌ بدوام الجنة ونعيمها.



سُورَةُ الْبُرُوجِ

المجلس التاسع والسبعون بعد المائتين: وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥﴾ قَالِ لِمَا يُرِيدُ ١٦﴾ هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ١٨﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَوْلٌ مَّجِيدٌ ٢١﴾ فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ٢٢﴾

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود

في خِصْمِ الصراع بين التوحيد والوثنية، وتعرُّض المستضعفين من المؤمنين؛ كبلال وخبَّاب وسميَّة وعمَّار لأنواع العذاب والاضطهاد، تنزل هذه الآيات الهاديات لتُخَفِّفَ عن هؤلاء المستضعفين بذكر نموذج مما تعرَّض له إخوانهم الأسبقون على طريق الدعوة؛ ليكون لهم أسوة حسنة في الثبات والصبر، مع التأكيد أنَّ الدنيا مهما طالَّت فهي ليست نهاية المطاف، بل هناك حياة أخرى أكبر وأدوم، هناك سيتصِّف المظلومون ممن ظلمهم، وسيندم الظالمون ويتمنَّون أن لو كانوا مكان هؤلاء المظلومين.

أولاً: يُقَسِّمُ اللهُ ﷻ في مُسْتَهْلٍ هذه السورة بالسَّاء وما فيها من بُرُوج، وبالآخرة وما فيها من وعدٍ ووعيد، وبالحساب وما فيه من شاهدٍ ومشهودٍ؛ لتأكيد أنَّ المُقَسِّم عليه أمرٌ عظيمٌ وخطيرٌ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾.

ثانياً: تعرِّض السورة جواباً على هذا القَسَم العظيم نموذجاً للفئة المؤمنة الصابرة والمحتسبة وهي تتعرَّض لأبشع أنواع التعذيب؛ حيث يقوم الطغاة المجرمون بخفر أخاديد النار، ثم يُحْضِرُون حولها المؤمنين رجالاً ونساءً فيرمونهم فيها، فيقضُّون حرقاً ولم يَنْجُ مِنْهُمْ

أحد، وتصعد أرواحهم الطاهرة تشكو إلى بارئها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ﴿قِيلَ أَصْحَابُ
الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ.﴾

ثالثاً: تُبينُ الصورة عاقبة أولئك المجرمين الظالمين وما ينتظرهم في ذلك اليوم الموعود
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

رابعاً: ثم تُبينُ عاقبة أولئك المؤمنين المظلومين ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

خامساً: تُذكرُ السورة بصفات الله العلية التي تُنذر الظالمين وتُبشِّر المظلومين ﴿إِنْ بَطَشَ
رَبُّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

سادساً: ثم تُذكرُ بعاقبة الطغاة الهالكين ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ﴾.
سابعاً: ثم تلتفتُ السورة إلى الواقع المكّي، وحال المشركين وهم يُكذِّبون بهذا القرآن
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ
مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ البروج: جمع بُرج، وهو: المنزل الكبير المشرف، والعرب تسمي
مواقع الأفلاك: بروجاً، وهذه البروج تتغير في الصيف والشتاء بحسب حركة الأفلاك
ودورانها.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الأقرب للسياق أنه على صلة باليوم الموعود؛ فالشاهد من يشهد على

الإنسان في ذلك اليوم، والمشهود كتابه الذي يُحْصِي عليه كل ما قَدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ، ثُمَّ إِنَّ التذكير بالحساب مناسبٌ لقصة الأخدود وما جرى فيها من بشاعةٍ وظلم.

﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأُخْدُودَ﴾ هذه صيغةٌ من صيغ التقرُّيع والتوبيخ، وقد جاءت جواباً للقسم؛ تهويلاً لها، وتنبهًا على خطرهما، وأصلها دعاءٌ بالهلاك، وليست خبراً، وأصحاب الأخدود هم: الطواغيت الذين قاموا بشقِّ الأرض وحفرها، وإضرار النيران فيها لحرق مجموعةٍ من المؤمنين مِمَّن كانوا على النصرانية، وكان ذلك قبل الإسلام، كما تنصُّ الأخبار والأحاديث الواردة^(١).

﴿الْأَنَارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ الوقود: ما توقد به النار من حطبٍ ونحوه، والمقصود أنَّها نارٌ مستعرةٌ بكثرة وقودها، وهي النار التي أضرَمَها الطغاة في الأخدود ليحرقوا بها المؤمنين.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ الضمير ﴿هُم﴾ يعود إلى أولئك الطغاة، والمعنى أنَّهم مُلَازِمون للأخدود حتى لا يكون هناك تهاوُنٌ في تنفيذ الجريمة، أو أنَّ واحداً من المُنفَّذين يرقُّ قلبه لكبيرٍ أو صغيرٍ، أو حاملٍ أو مُرضعٍ.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي: حضور، وفيه تأكيدٌ لإصرارهم على مُتابعة التنفيذ، ومُحاسبة من تُحدِّثه نفسه من الجنود بالتهاونِ أو التردُّد.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هذا لبيان فظاعة الجرم الذي ارتكبه أولئك الطغاة؛ فالمؤمنون الذين بين أيديهم لم يرتكبوا جنايةً تستوجبُ العقاب، ولم يصدر منهم ما يُسيءُ إليهم سِوَى أنَّهم مُوحِّدون لله، مُستمسكون برسالته، وفي هذا تعريضٌ بالظلم الواقع من قِبَل المشركين في مكَّة على المُستضعفين من المؤمنين، والقصة كلها بهذا السياق.

﴿الَّذِي لَهُ، مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيه تمجيدٌ لله تعالى، وتحقيرٌ لأولئك الطغاة الذين يظنون أنَّهم ملكوا الدنيا بجبروتهم وقوتهم، وفيه تهديدٌ لهم؛ فإذا كانوا

(١) الحديث الذي فيه قصة أصحاب الأخدود مع الملك الظالم، رواه الإمام مسلم في «صحيحه» عن صهيب الرومي رضي الله عنه، ينظر: صحيح مسلم (٨/ ٢٢٩) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

يشهدون عذاب المؤمنين، فالله شهيدٌ عليهم، وكفى به شهيدًا.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى أنَّ ما جرى للمؤمنين كان وفق سُنَّته سبحانه، وتحت علمه وحكمه، فحينما تختلُّ موازين القوى فيأكل القويُّ الضعيف، والغنيُّ الفقير، فإنَّ القَدَرَ لا يتدخل لدفع الظلم وتحقيق العدل؛ لأنَّ الدنيا ليست دارًا للعدل، بل هي دارُ الاختبار والامتحان، والعدل فيها مسؤوليَّة البشر التي سيُحاسَبون عليها، وليست مسؤوليَّة القَدَر، وفي هذا تعليمٌ للمؤمنين أن يعدُّوا عدَّتَهُم لحماية أنفسهم ودعوتهم وفق عالم الأسباب والسُّنن، وألا يُغرَّروا بأنفسهم باعتمادهم على المعجزات وخوارق العادات، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ بيان لعاقبة أولئك الأشرار، وأنَّهم سيُحرَّقون بالنار جزاءً وفاقًا على ما فعلوه بالمؤمنين، وهنا وفي وسط هذا التهديد والوعيد يفتح القرآن منفذًا للرحمة وللنجاة من هذه العاقبة البئيسة حتى لأولئك الأشقياء ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ فلو تابوا لكان لهم شأنٌ آخر، وهذا ترغيبٌ لأهل مَكَّة بالتوبة والإنابة إليه تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ هذه هي عاقبة المؤمنين الصابرين المحتسبين، هذا وعدُ الله الجميل لهم، الذي يُقابل ذلك الوعيد الشديد لأعدائهم، وهناك سيُرى الفائز من الخاسر، وسيكون الناس أمام هذه الحقيقة الكبرى التي يتضاءل أمامها كلُّ ما كان في الدنيا من عذابٍ أو نعيم.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إنَّ أخذه للظالمين إذا أخذهم سيكون قويًّا شديدًا.

﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ﴾ بمعنى أنَّه سبحانه هو المُتفرِّد في حُكم هذا الكون في مُبتداه وفي مُنتهاه، منه بدأ وإليه يعود، يغفرُ لمن يشاء، ويعذِّبُ من يشاء، وليس للظالمين في هذا الخلق وهذا الملك نصيب.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ صفتان من صفات الله تعالى، أمَّا الغفور: فكثيرُ المغفرة والستر على عباده، وأمَّا الودود: فكثير التودُّد لعباده؛ لأنَّهم صنعته، فالله يحبُّ خلقه ولا يكرهُهم، على خلاف ما يظنُّ بعض الذين يظنون بالله ظنَّ السوء.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: خالقه، وخصَّ العرش بالذكر؛ تنبيهاً لعظمته، وهو مُشْعِرٌ كذلك
بعظيم مُلكه تعالى وحكمه وسلطانه على خلقه.

﴿الْمَجِيدُ﴾ صفةٌ أخرى لله ﷻ، ومعناها: العظيم.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فله سبحانه الإرادة المطلقة، وله وحده حقُّ التصرف في هذا الخلق بحُكم
أنَّه المُتَفَرِّد في إنشائه من العدم، والمُتَفَرِّد في مُلكه، والمُتَفَرِّد برعايته والعناية به.

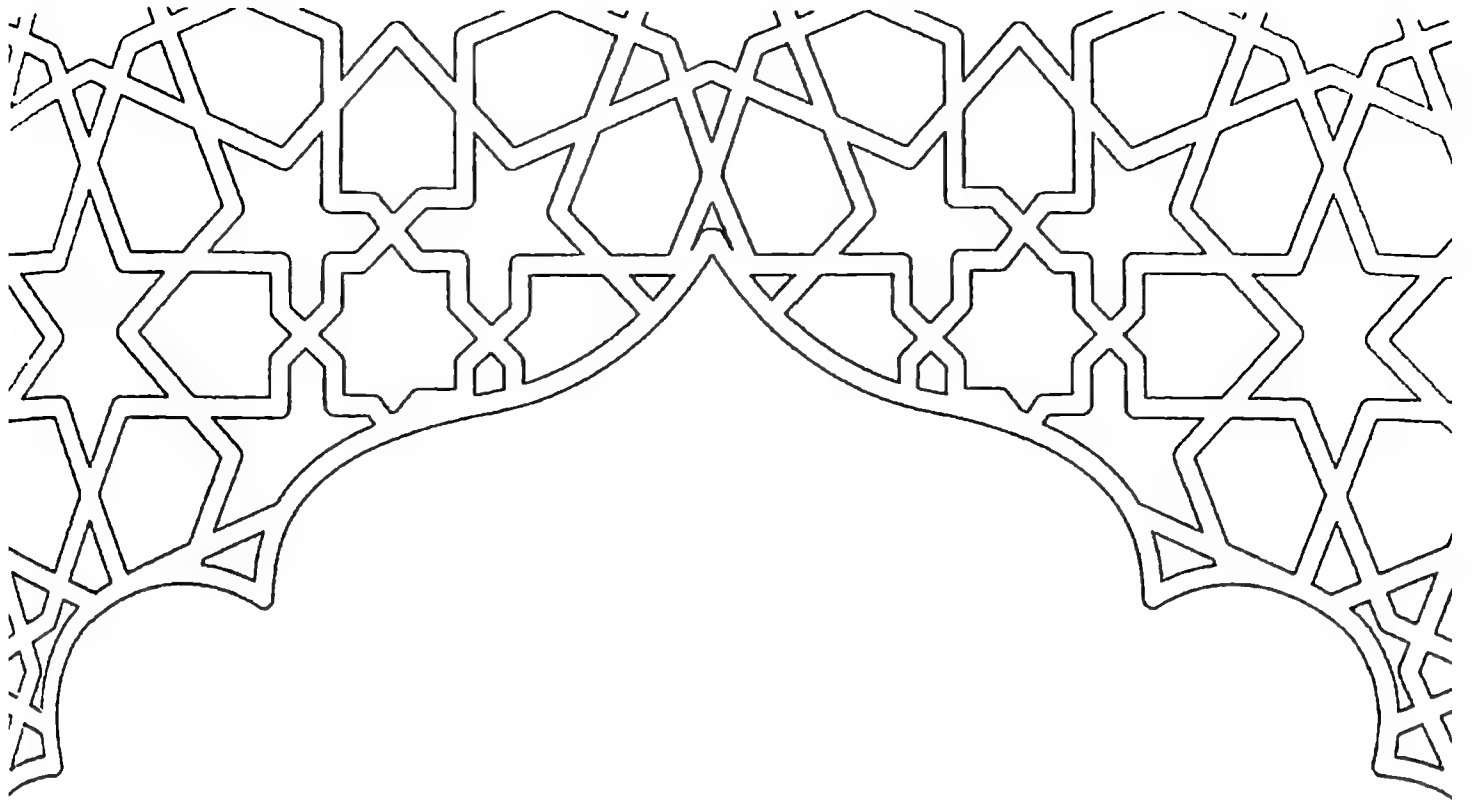
﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ هذا تذكيرٌ خاطفٌ بعاقبة الطغاة على اختلافهم
واختلاف أقوامهم، وقد ذكَّر نموذَجين: الدولة والقبيلة، لتتسع دائرة العبرة والاتعاظ.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ هؤلاء هم كفَّار مكَّة المُكذِّبون برسالة محمد ﷺ، وقد ربَّطهم
القرآن بنماذج الطغاة السابقين: فرعون، وثمود، وأصحاب الأخدود.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: هو العالم بهم سبحانه، والمُقْتَدِر عليهم، ولن يفلتوا من عذابه
الذي ينتظرهم مهما غرقوا في لهُومهم وغفلتهم، و﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى هذا العذاب الذي
ينتظرهم من بعد انتهاء مُهلَّتهم وأجلهم الذي قدَّره الله لهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: عظيم، وفيه ردٌّ على تكذيبهم المتقدِّم.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ ذاك من عالم الغيب الذي أودع فيه القرآن الكريم قبل نزوله على قلب
نبيِّنا محمد ﷺ، والإخبار عنه لتأكيد حفظ القرآن من كلِّ زيادةٍ أو نقصٍ، وللإشارة إلى
عظمته ورفعته وعلوِّ شأنه.



سُورَةُ الطَّارِقِ

المجلس الثمانون بعد المائتين: إنه لقولُ فصل وما هو بالهزل

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ بُلَى السَّرَافِرُ ⑨ فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ ⑩ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ⑭ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُودًا ⑰﴾

إنه لقول فصل وما هو بالهزل

تناولت سورة الطارق طرفاً من الصراع الدائر بين الوثنية والإسلام؛ فنبهت إلى ما في الكون وما في خلق الإنسان نفسه من دلائل على توحيد الله وقدرته على إعادة الحياة لهذا الإنسان، مؤكدة أن القرآن هو القول الفصل الذي لا يعرف الهزل، ومُحذرة أولئك الذين يريدون كيداً بهذه الدعوة بأن كيدهم راجع إليهم، وكما يأتي:

أولاً: يُقسِم الله تعالى في مستهل هذه السورة بالسماء، وبالنجم الثاقب الذي يظهر في قبتها حينما يعمُ الظلام ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وهذا القسم مع ما فيه من تأكيد للمقسم عليه، فيه أيضاً التنبيه إلى آيات الله الماثلة في هذا الكون.

ثانياً: ثم يأتي جواب القسم المؤكد لمسؤولية الإنسان عن أعماله، وأنها محفوظة عليه؛ ليجزى بها خيراً كانت أو شراً، وهذا هو مقصد الحياة الكُلِّي؛ فالإنسان لم يُخلق عبثاً، وأعماله لن تذهب سُدى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ثالثاً: ثم تدعو السورة هذا الإنسان ليفكر في خلقه وأصل نشأته؛ ليعلم أن مَنْ خَلَقَهُ أولاً قادرٌ على خلقه ثانياً، وأنه سيواجهه الله بأعماله كما هي، ولن تكون معه قوة تحميه، ولا ناصرٌ

ينصره ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ بُلَى السَّرَافِرُ ⑨ فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ ⑩﴾.

رابعاً: ثُمَّ يُقَسِّمُ اللَّهُ مَرَّةً أُخْرَى بِالسَّمَاءِ، وَيُقَسِّمُ بِالْأَرْضِ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْقَوْلُ
 الفصل والحق الذي ليس فيه هزل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝۱۱﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿۝۱۲﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿۝۱۳﴾
 وَمَاهُورٌ بِالْهَزْلِ.

خامساً: تختتم السورة بتهديد شديد لأولئك الذي يُكذِّبون بالقرآن، ويكيدون لهذه
 الدعوة ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝۱۴﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿۝۱۵﴾ فَيَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُودًا.

دقائق التفسير

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ استفهامٌ يَقْصُدُ به التنبيه إلى أهمية المستفهم عنه.
 ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ هو تفسيرُ القرآن للطارق، بمعنى أَنَّهُ نَجْمٌ ساطِعٌ يثقبُ الظلام بسطوعه،
 وكلمة الطارق عن الطرُوق، وهو: القدوم ليلاً، وهناك بعضُ الباحثين في علم الفلك
 يتكلمون عن اكتشاف نجمٍ يُصدِرُ صوتاً كصوت المطرقة، فإن صحَّ هذا كان معنى مضافاً
 إلى معنى الظهور ليلاً، لا نافعاً له.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ﴿لَمَّا﴾ هنا بمعنى: إلّا، وتفيد - مع تقدّم إن النافية - معنى
 الحصر، بمعنى أَنَّهُ ليس هنالك من نفسٍ إلّا عليها حافظ، ومعنى الحافظ هنا: الملك المكلف
 بإحصاء عمل الإنسان خيره وشرّه، كبيره وصغيره.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ هو ماء الرجل؛ وسمي دافقاً لأنّه يخرج بقوة وسرعة.
 ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ إذا كان فاعل ﴿يَخْرُجُ﴾ يعودُ إلى الماء، فمعناه أَنَّ الصُّلْبَ
 والترايب كلّها في الرجل، وهي الأماكن التي يتكوّن فيها المنيّ، ويمرُّ من خلالها، أمّا إذا كان
 يعودُ على الإنسان؛ فالإنسان يتكوّن من ماء الرجل وماء المرأة، فيكون الصُّلْبُ للرجل،
 والترايب للمرأة، وهذا الأشهر في لغة العرب، والله أعلم.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَائِرٌ﴾ أي: إِنَّ اللَّهَ تعالى قادرٌ على إرجاعه للحياة مرة ثانية كما خلقه أولاً.
 ﴿يَوْمَ تَبْلَى التَّرَائِبُ﴾ هو يوم الحساب الذي تُكشَفُ فيه الخبايا والنوايا بعد أن كانت مستورة

عن الخلق، وكشف السرائر يدلُّ بطريق الأولى على كشف ما سواها، ومحاسبة الإنسان على كل ذلك، ومعنى ﴿تُبْلَى﴾ أي: تُخْتَبَرُ وتُفَحَّصُ، وتظهر على حقيقتها.

﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: ليس لهذا الإنسان يوم الحساب من قوة يدفع بها عن نفسه، ولا ناصر يستنصر به.

﴿وَالْمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ هذا قسم آخر يُقْصَدُ به التنبيه إلى أهمية المُقْسَمِ عليه وخطورته، وقد أقسم الله بالسَّماء مرة ثانية مع إضافة معنى مُرتبط بحياة الناس، وهو المطر؛ وتفسير الرَّجْع بالمطر لأنَّ المطر يعود مرة بعد أخرى في كلِّ موسم.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ هذا قسم آخر يفيد تأكيد خطورة المُقْسَمِ عليه؛ حيث أقسم الله بالأرض وهي تشقُّق بالنبات بعد المطر، كما تقدَّم قوله تعالى في سورة عبس: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَأْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَّا وَقَضَبًّا﴾ [عبس: ٢٥ - ٢٨].

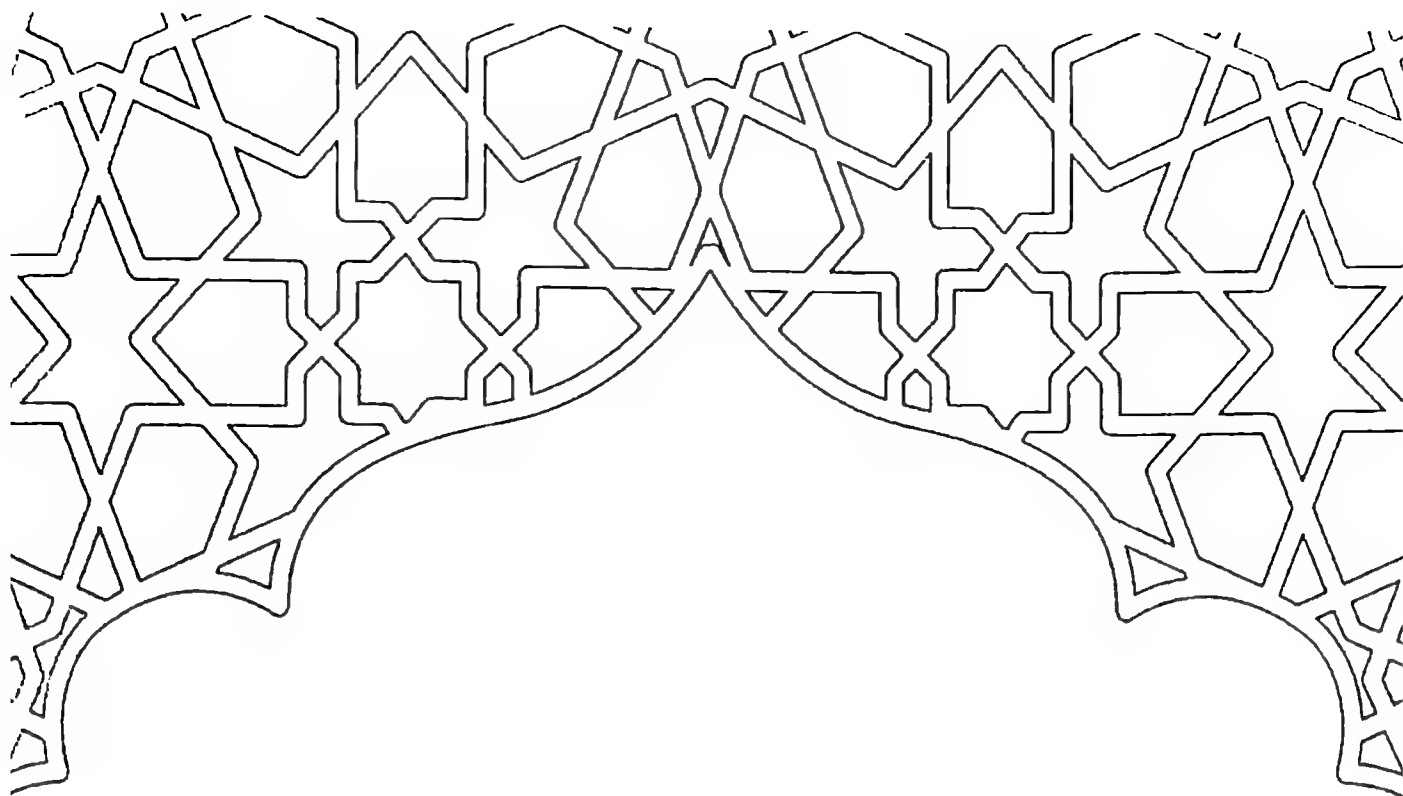
﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ هذا هو المُقْسَمِ عليه، والذي يراد تأكيده والتنبيه على خطورته، وهو أنَّ هذا القرآن العظيم هو الذي يفصل بين الحقِّ والباطل، فيُحقِّ الحقَّ، ويُبطل الباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: هو الأمر الجدُّ الذي لا يعرف الهزل، وفي هذا تعريضٌ بعقائد المشركين وتخريصاتهم، وهوهم وعبثهم في دينهم.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يَمْكُرُونَ برسول الله ﷺ، ويكيدون به وبدعوته، والكلام هنا عن كُفَّار مكَّة.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ هذا وعيدٌ من الله لهم، وهو على سبيل المشاكلة، بمعنى أنَّه تعالى سيقابل كيدهم بما يناسبه، وسوف يجزيهم به، فيكونون هم المكيدين.

﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤْدًا﴾ أي: انتظر ما يحلُّ بهم قريباً ولا تستعجل لهم، و﴿رُؤْدًا﴾ أي: وقتاً قصيراً.



سُورَةُ الْأَعْلَى

المجلس الحادي والثمانون بعد المائتين: قد أفلح من تزكى

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سِيَذَّرَكُم مِّنْ يَخْشَى (١٠) وَنَجِّنِيهَا الْاَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾

قد أفلح من تزكى

تتناول سورة الأعلى تنزيه الباري سبحانه الذي خلق هذا الكون فأبدعه، والذي أنزل هذا القرآن فجعله ذكرى لمن يتذكر، وتركية لمن يتزكى، وحجة على من كذب وتولى، وكما يأتي:

أولاً: تستهل السورة بتسبيح الله ﷻ الذي ظهرت دلائل وحدانيته وقدرته في هذا الخلق البديع ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سِيَذَّرَكُم مِّنْ يَخْشَى (١٠) وَنَجِّنِيهَا الْاَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾.

ثانياً: ثم يتعهد الله تعالى أن يحفظ هذا القرآن في صدر نبيه الكريم ﷺ ليذكر به الناس كما أنزله الله عليه، ويرشدهم إلى ما فيه الخير لهم، والتيسير عليهم ﴿سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)﴾.

ثالثاً: تشرحُ السورة اختلافَ الناس في هذه الدعوة بين تقيٍّ نقيٍّ مجتهدٍ في تفكيره وتركيبه لنفسه، مُطيعٍ لربه مؤثِّرٍ لآخرته، وبين شقيٍّ آثَرَ الدنيا وبهرجها، وتجنَّبَ طريق الهدى والصلاح؛ فأكبَّه الله في النار ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ ١٠ ﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ١١ ﴿الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ١٢ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ١٣ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

رابعاً: تُذكرُ السورة أن ما وردَ فيها من تعظيمِ الله، وتذكيرِ للناسِ ودَعَوَتِهِم للخير، وتحذيرِهِم من الشرِّ قد وردَ مثله في الرسائل السماويَّة السابقة، في إشارةٍ لوحدة هذه الرسائل في مصدرها ومبادئها وغاياتها الكلية ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٨ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أمرٌ بتنزيهِ الله تعالى عن كلِّ ما لا يليق به، والتسبيح مُتضمِّنُ التعظيم والإيمان بأسمائه تعالى الحسنَى وصفاته العليَّة، وقد شرَّعَ الله له ذِكْراً خاصّاً، وهو قول: (سبحان الله) أو (سبحان ربي الأعلى)، ونحوهما.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: هو سبحانه الذي خلق الخلق فأتمَّه وأتقَّنه.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي: هو سبحانه الذي قدَّرَ الأشياءَ بأشكالها وأحجامها وخصائصها، ثم هداها لما خلقها له؛ فالشمس لها وظيفتها في هذه الحياة، وكذلك القمر وسائر النجوم والكواكب، وفي الأرض كذلك الماء والهواء، والأنعام والنبات، وكلُّ شيءٍ صغيراً أو كبيراً، وخلق الإنسان أدقُّ وأكَمَل؛ فكلُّ عضوٍ فيه مُسَخَّرٌ لوظيفته حتى جفن العين ودقَّةُ شعيراته الصاعدة والنازلة، فهذه كلّها مُقدَّرةٌ في أصل النشأة، ومهديةٌ لوظيفتها ضمن الصورة الكلية المتكاملة والمتناسقة.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: هو الذي أنزل الماء من السماء فأنبث به أصنافَ النبات والعُشب الكثير الذي ترعاه الأنعام، وقد ذكر هذا على سبيل الامتِنان؛ إذ الماء والنبات والأنعام كلّها تشترك في خدمة هذا الإنسان وسدّ حاجاته، وهذه صورةٌ من صور التنسيق والتكامل العجيب في هذا الخلق.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي: ثم يتحوّل ذلك العُشب بعد أن يبس إلى غُثاءٍ وهشيمٍ لا نضرة فيه، ولا قيمة له، ويتغيّر لونه بعد أن كان زاهياً إلى لونٍ باهتٍ داكنٍ، وهذه صورةٌ قُصِدَ منها تقريب صورة انتهاء الحياة كلّها؛ فكلُّ ما نراه فيها من تكاملٍ وتنسيقٍ، وحُسنٍ وجمالٍ سيتحوّل إلى موتٍ وحطامٍ، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.

﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى﴾ هذا تطمينٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه سيجمع له القرآن في صدره فلا ينساه، وهو تأكيدٌ بتعهد الله السابق بحفظ هذا القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا استثناءٌ لا يستلزم أنّه ﷺ ينسى شيئاً من القرآن، بل هو استثناءٌ قُصِدَ منه تأكيد إرادة الله المطلقة، وأنّ الأمر لله أولاً وآخرًا؛ فلو شاء سبحانه لما أنزل القرآن أصلاً، ولو شاء لما خلقنا من العدم، لكن الله هو الذي شاء كلّ ذلك فكان، فلا ينبغي أن تكون مثل هذه الآية محلّ جدل في قضايا علميّة دقيقة، كالنسخ واحتمالاته وأنواعه؛ إذ السياق مختلف تماماً، والله أعلم.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ تأكيدٌ لعلمه الشامل سبحانه في ظواهر الأمور وبواطنها، وفائدة التذكير بهذه الصفة العزيزة من صفات الله تأكيد طمأنة الله لنبيه ﷺ بحفظ هذا القرآن، فالله عالمٌ بما يتذكره النبي ﷺ وبما ينساه.

﴿وَنُنِيرُكَ لِلنَّارِ﴾ في شؤونك كلّها، والمناسبة هنا أنّه لا يشقُّ على نفسه بتكليفٍ حفظ القرآن والمُسارعة فيه، وفي الآية إشارة منهجيّة إلى هذه الدعوة المباركة أنّها دعوة تيسير لا

تعسير، وتبشير لا تنفير؛ فهي الرحمة الشاملة والعامة لكل العالمين، ونبؤها هو نبي الرحمة ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ هذا أمرٌ إلهيُّ لرسولِ الله ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ من بعده أن يُذكِّرَ الناس بهذا القرآن ويدعوهم إليه.

وأما قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ فليس شرطاً احترازياً؛ إذ الداعية لا يُمكنه معرفة من ينتفع به ومن لا ينتفع، ثم الذي لا ينتفع لا بُدَّ أن تبُلِّغه الدعوة لتقوم عليه الحُجَّة، بل صيغة الشرط هذه قُصِدَ منها التنبيه إلى أنَّ هناك مَنْ لا ينتفع بالدعوة وأنَّه سيتجنَّبها، بل سيُواجهها؛ كلُّ ذلك ليكون الداعية مُستعدّاً لهذه الاحتمالات، فلا يُصدَم بطباع الناس واختلافاتهم.

وغاية ما في هذه الإشارة أنَّ الداعية عليه ألا ينشغل بالمُعاندين الذين بلَغَتْهم الدعوة فاتخذوا منها موقفاً معادياً، فهناك مَنْ هو أولى منهم، ثم إنَّ التعلُّق بهؤلاء المُعاندين والاستمرار بتذكيرهم قد يُوقِعُ في الشرِّ والصدام الذي لا تُحمدُ عقباه، والله أعلم.

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتِى﴾ فهؤلاء الذين ينتفعون بالذكرى، وهم الذين يحسبون العواقب، ويتفكرون بمصيرهم وعاقبة أمرهم.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ذلك الغافل الذي اتخذ حياته لهواً ولعباً؛ فلا يستمع لموعظةٍ، ولا يتنبه لآية، ولا تنفعه الذكرى.

﴿الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ هي نار الآخرة، وهذا وعيدٌ لأولئك الغافلين والمُعاندين.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ لا يموت فينتهي عذابه، ولا يحيا الحياة التي يُريدها ويطمع بها. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: قد فاز من انتفع بهذه الذكرى، وقوِّم نفسه وهذَّبهَا، وغَلَّب عناصر الخير فيها على شهواتها ونزواتها.

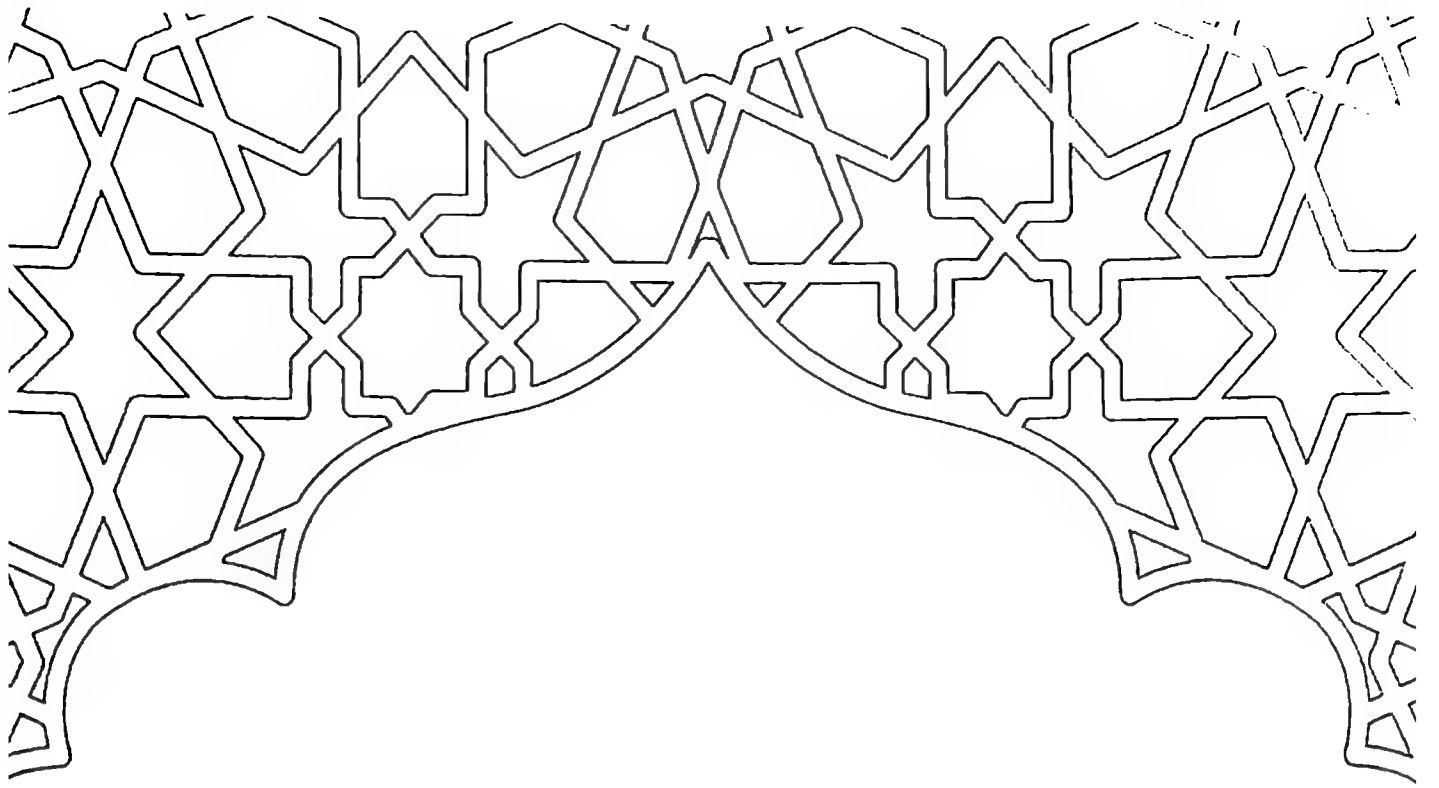
﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ إشارة إلى أهمية الذكر في تزكية النفس، وما الصلاة إلا ذكرٌ أيضاً

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرَى﴾ [طه: ١٤].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَّعِلَّقُ بِالْعَاجِلِ الْقَرِيبِ وَلَوْ كَانَ هُوَ الْأَدْنَى وَالْأَقْلَى، هَذِهِ طَبِيعَةٌ عَامَّةٌ فِي الْبَشَرِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يَتَّعِلَقُ بِالدُّنْيَا تَعَلُّقًا تَامًّا؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِغَيْرِهَا.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إِرْشَادٌ لِلْعِبَادِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهَا الْخَيْرُ الَّذِي لَا يُقَاسُ بِهِ خَيْرُ الدُّنْيَا؛ وَلِأَنَّهَا الْأَبْقَى الَّتِي لَا يُقَاسُ بِبَقَائِهَا عَمْرُ الدُّنْيَا.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿تَذَكِيرٌ بِعُمُقِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَصِلَتْهَا بِبَقِيَةِ الرِّسَالَاتِ، وَالتَّنْبِيهِ إِلَى أَفْضَلِيَّةِ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْكَرِيمَيْنِ، وَقُرْبِهِمَا مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَمُضْمُونِهَا عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.﴾



سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

المجلس الثاني والثمانون بعد المائتين: فذكرُ إنما أنت مُذكرُ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ آيِنَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزُرُرٌ مُبْتَوْنَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝٢٣ فَعَذَابُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ

تأتي هذه السورة لتذكير الناس بما ينتظرهم في ذلك اليوم؛ يوم الحساب والجزاء، ثم ترشد الناس إلى طريق النجاة والخلاص، وكما يأتي:

أولاً: تستهل السورة بالحديث عن غاشية العذاب التي تعم أولئك الضالين المكذبين، بالنار والحميم والضرير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ آيِنَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

ثانياً: ثم تنتقل إلى الوجوه الناعمة الراضية التي تنعم برضاه سبحانه، والجنة العالية التي أعدها الله لهم بعيونها وسررها وأكوابها ونمارقها ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزُرُرٌ مُبْتَوْنَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾.

ثالثاً: ثم تدعو الناس ليتفكروا في هذا الكون، وما أودعه الله فيه من آيات بيّنات تدل على وحدانية الخالق وعنايته بهذا الخلق ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾.

رابعاً: ثم تختتم بتأكيد مهمته ﷺ ومهمته كل مؤمن من بعده بأن يستمر في تذكير الناس، وإنذارهم يوم البعث والحساب ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ وقد جاء هذا التوجيه مُعَضِّداً بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُفيد الحصر؛ تأكيداً لأهمية التذكير حتى كأنها مهمته الوحيدة.

دقائق التفسير

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هذا الاستفهام يُقصدُ منه التنبيه إلى أهمية المُستفهم عنه وخطورته، والغاشية: القيامة؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تعمُّ الناس بأهوالها، وتعمُّ الظالمين بعذابها.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: خائفة ذليلة، وهي وجوه أهل النار.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ صفتان من صفات أهل النار مُقَيَّدَتَانِ بظرف الغاشية، بمعنى أنهم يتعبون وينصبون ويشقون في ذلك العذاب الشديد، وفيه تعريضٌ بما كانوا عليه من تعبٍ ونصبٍ في سبيل الصدِّ عن هذه الدعوة والكيد بأهلها.

﴿تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيرٍ﴾ أي: من عينٍ شديدة الحرارة، كما قال في سورة الرحمن: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: حار.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ هو طعامٌ خبيثٌ من أطعمة أهل النار لا ينفعهم، ولا يسدُّ شيئاً من جوعهم ﴿لَا يَسْمِنُونَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ جُوعٌ﴾.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ظهرت عليها نضرة النعيم، وهذه هي وجوه أهل الجنة.

﴿لَسَعَنَهَا رَاضِيَةٌ﴾ وهذا من تمام نعيمها؛ أن تكون سعيدة بما قدَّمته في حياتها.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغَوًى﴾ أي: لا تسمع في الجنة لغواً؛ فليس هناك إلا ما يُستحسن من الكلام.

﴿وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي: مهياة لهم وفيها ما يشتهون من شراهم.

﴿وَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد يتكئون عليها، وهذه صورة مشعرة بالأنس والراحة.

﴿وَزَرَائِي مَبْنُوتَةٌ﴾ الزرابي: هي البسط الناعمة المزينة، و﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ أي: كثيرة ومنتشرة في كل مكان داخل قصورهم.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فخلقها وما تمتلكه من خصائص في طبعها، وألفتها لصاحبها، وصبرها وتحملها وقوتها وثقل جسمها، وكثرة منافعها، وتذليلها للإنسان، كل ذلك يدعو للتفكر والتدبر.

﴿وَالِإِلَهِ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ حتى ترى كأنها قبة مضروبة فوق الأرض، منورة بشمسها، ومزينة بكواكبها.

﴿وَالِإِلَهِ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: كيف رُفِعَتْ بهذا العلو الشاهق، ثم هي راسخة ثابتة لا تتحرك، ولا تميل أو تميد.

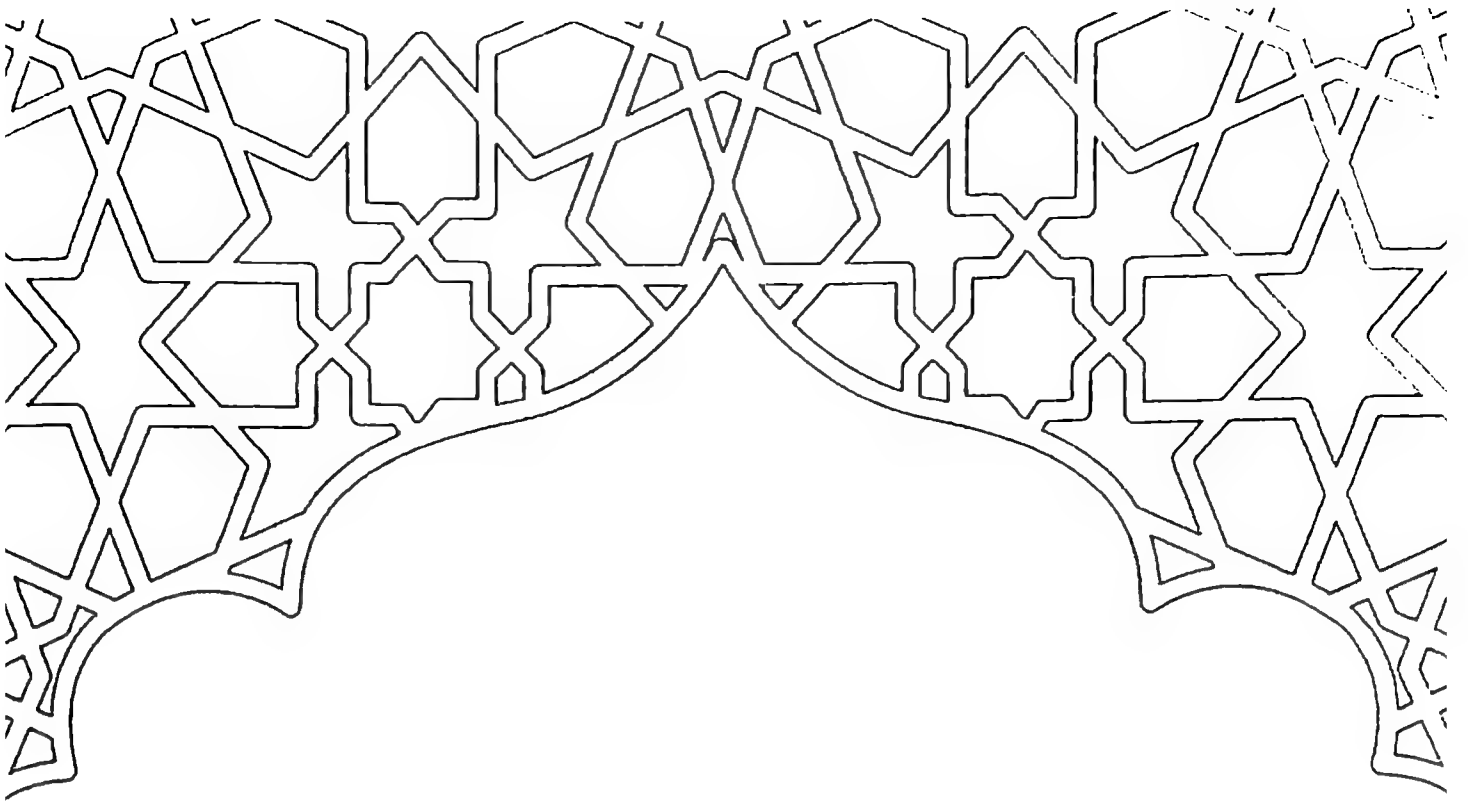
﴿وَالِإِلَهِ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فأصبحت مهيأة للعيش، صالحة للبناء، وللحرث والغرس، يسير عليها الناس وكأنها بساط ممدود لهم.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ هذا قصر إضافي قصد به الاحتراز عن كونه ﷺ وكيلاً عليهم، أو أنه بيده أمرهم ومصيرهم؛ وهذا معنى قوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ والصيغة بمجملها تؤكد أهمية الدعوة وعلو شأنها بالنسبة للنبي ﷺ، ثم لكل متبع له وسائر على طريقه.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ هو استثناء بمعنى الاستدراك، والمعنى أنك يا محمد لست مُصَيِّرًا عليهم، ولا مُوَكَّلًا بهم، لكن من تَوَلَّى عن دعوتك وكفر بها فنحن الذين نحاسبه؛ ولذلك قال بعدها: ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: مردهم ومرجعهم، وذلك يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم أن النبي ﷺ يُذَكِّرهم، وليس وكيلاً عليهم، أو نحاسباً لهم، وإنما الذي يحاسبهم هو الله وحده.



سُورَةُ الْفَجْرِ

المجلس الثالث والثمانون بعد المائتين: إِنَّ رَيْكَ لِبِالْمُرْصَادِ

سُورَةُ الْفَجْرِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عَشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ يَنْحَلَا فِي الْبَلَدِ ۝٨ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ۝٩ فَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبَلَدِ ۝١١ فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادُ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُحْكُمُونَ الْأَنِيمَ ۝١٧ وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۝٢٥ وَلَا يُؤْنِسُ وَفَاةً أَحَدًا ۝٢٦ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۝٢٨ فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَأَدْخِلْ جَنَّتِي ۝٣٠﴾

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

تتناول سورة الفجر نماذج مما أصاب المجتمعات السابقة بسبب طغيانهم وفسادهم، ثم تُبيِّن جانباً مما ينبغي مراعاته في بناء المجتمعات، وهو الجانب المتعلق بنظرة الناس إلى المال، وعلاقة الغني بالفقير، ثم تختتم ببيان العاقبة والنهاية لهذه الحياة، وما سيلقاه الناس في حياتهم الأخرى من ثوابٍ أو عقابٍ.

إنَّها سورةٌ من سور القرآن المكي التي تُعالج موضوع القيم الاجتماعية والأخلاقية في إطارها الإيماني والعقدي، وكما يأتي:

أولاً: يُقسِمُ الله تعالى في مُستهلِّ هذه السورة بالفجر الذي هو بداية الحياة وانطلاقها في كلِّ يومٍ، ثم ببعض الأيام الفضيلة لبيان أفضليَّتها وخصوصيَّتها، ثم يُختم بالليل الذي فيه سكَن الحياة وهدوءها، وسلسلة القسم هذه تؤكد أنَّ جواب القسم شيءٌ عظيمٌ وخطيرٌ ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عَشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ثم يُنبِّه إلى أهميَّة هذا القسم، ويدعو كلَّ صاحب عقلٍ إلى الوقوفِ عنده وتدبره ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾.

ثانياً: تُذكرُ السورة بعد ذلك القسم بما أصاب الأقوام السابقة من الهلاك والدمار بسبب

ظلمهم وطغيانهم، وانتشار الفساد فيهم؛ ليكون هذا التذكير تمهيداً لجواب القسم المؤكد: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ﴾.

وقد صُمِّتَ هذه الآيات نموذجاً من طغيان الدولة وفسادها، ونموذجين من طغيان القبيلة وفسادها، في إشارة إلى تنوع المجتمعات التي يمكن أن تُصاب بهذا الداء نتيجة لطغيان حُكَّامها، أو لطغيان أعرافها وتقاليدها.

ثالثاً: ثم يأتي جواب القسم بعبارة واحدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ هذا هو المقصود من القسم، والمقصود أيضاً بتذكُّر قصص السابقين، أن يستشعر الناس رقابة الله، وأنه تعالى معهم فيما يعلنون أو يُسرُّون، وأنه يُمهِّلُ الطغاة الفاسدين ولا يُهمِّلهم؛ فهم واقعون تحت علمه الشامل، وقدرته المحيطة بهم أينما كانوا، وكيفما كانوا.

رابعاً: ثم تُعْرَجُ السورة إلى بيان سبب من أسباب فساد المجتمعات وطغيان بعضهم على بعض: إِنَّهُ الْمَالُ؛ حيث ينظر للغنيَّ أنه إنسانٌ مكرمٌ، وينظر إلى الفقير أنه إنسانٌ مُهانٌ، هذا هو المعيارُ الذي يتمايز فيه الناس وينقسمون فيه إلى طبقاتٍ مُتباينةٍ، تتعالى الطبقة العليا على مَنْ دونها فتغيب الرحمة والمودة، ويسود الظلم والحسد والتفكُّك ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۖ﴾.

خامساً: ثم تختتم السورة بالعاقبة التي تنتظر الجميع: الظالمين والمظلومين، وهناك يكون التمايز الحق، وبالميزان الحق ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجَى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْتَبَةً (٢٨) فَأَدْخِلْ فِي عِلْدِي (٢٩) وَأَدْخِلْ جَنَّتِي ۖ﴾.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ يُقَسِّمُ الله تعالى بالفجر الذي هو أوّل النهار؛ تنبيهًا لفضل هذا الوقت، فهو بداية النهوض للأعمال والواجبات اليومية، وأوّلها صلاة الفجر، وحيثما كانت بداية العمل صحيحة كانت خاتمته كذلك.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي ليالٍ معظّمة ومتابعة، وليس في الإسلام عشر معظّمات ومتاليات إلا أواخر رمضان وأوائل ذي الحجة، ولا أرى مانعًا من إرادتهما معًا؛ فإنّ تعيينت إحداها فالأقرب عشر ذي الحجة؛ لأنّ سورة الفجر سورة مكّيّة، وهي من أوائل ما نزل من القرآن، ولم يكن ثمّة تشريع صوم ولا حجّ، إلا أنّ العرب كانوا يعرفون أيام الحجّ وكانوا يحجّون، وهذا بما بقي عندهم من الديانة الإبراهيميّة، فالقسّم بهذه الليالي يكون مفهوماً عندهم وإن كانوا قد غيروا وزادوا ونقصوا.

إضافةً إلى أنّ التنبيه المبكّر إلى الحجّ وما يتعلّق به يربط هذه الرسالة بجذورها الإبراهيميّة، ويرسّخ الارتباط بمكّة، فهنا تكون القضية قضيةً هويّة وانتماء، وليست شعائر تعبديّة مجرّدة، وذاك هو الأنسب مع بداية التنزيل والتكوين، أمّا أواخر رمضان فيكون القسّم بها تنبيهًا للمؤمنين فقط على ما سيأتي من تشريع يخصّ هذه الليالي، والله أعلم.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الأرجح وفق مقتضى السياق أنّها وقتان زمنيّان، وليس من وقتٍ يقال له: وتر وآخر يقال له: شفع - وهما على صِلَةٍ بعشر ذي الحجة - إلا يوم عرفة؛ فهو الوتر لأنّه التاسع من ذي الحجة، وعيد الأضحى فهو العاشر، وهما داخلان في العشر، إلا أنّ تخصيصهما بالقسّم يُنبّه إلى أهميتهما وأفضليتهما، والله أعلم.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ أي: توالّت ساعاته ومضى منها ما مضى، وهذا وقت عتمة الليل، وقد جاء القسّم به مكملًا للفجر؛ فالليل والنهار آيتان من آيات الله متكاملتان متناسقتان مع ما بينهما من اختلافٍ وتضادّ.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ الحِجْر: العقل؛ سُمّي به لأنّه يمنع صاحبه من الزلل، والمقصود: دعوة كلّ صاحب عقلٍ إلى أن يفكّر في هذا القسّم ويفهمه ويتدبّره.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وهم قوم هود عليه السلام.

﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إرم اسم آخر لعاد، والمعروف أنه اسم لجد من أجدادهم تنتسب إليه قبيلة عاد، وعاد اسم جدّهم الأدنى، وقد نصّ القرآن على الاسمَيْن معاً؛ تحرّزاً من أن ينصرف الذهن إلى قبيلة أخرى تُسمّى عاداً، وهي موجودة إلى اليوم، وهي غير عاد الأولى.

وقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: الأبنية العالية؛ من قصورٍ وحصونٍ ومصانع، كما أخبر عنهم في سورة الشعراء: ﴿اتَّبِنُونَ كُلٌّ رِيعَ آيَةٍ تَقْبِثُونَ﴾ (١٢٨) [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]، والرّيع هو: المكان المرتفع، وعلى هذا يُصبح معنى العماد واضحاً.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ اختلف أهل التفسير في عود الضمير الذي في ﴿مِثْلُهَا﴾؛ فقال الأكثرون إلى أنه يعود إلى (عادٍ)، بمعنى أن الله لم يخلق مثل هذه القبيلة في القوّة والشدّة، وقد مالوا إلى هذا احترازاً من نسبة الخلق لغير الله، والأقرب إلى السياق أنه وصفٌ للعماد، بمعنى أن عاداً بنت قصورها على المرتفعات الشاخبة بطريقة لم تكن معهودة في تلك البلاد، ومعنى الخلق هنا: الابتكار والاختراع، أمّا أن الله ميّزهم في خلقتهم عن غيرهم، فهذا بحاجة إلى دليل مستقلّ، أمّا التميّز بالبناء فهو الأقرب والأكثر شيوعاً، وكذلك هو الأنسب للفظة: ﴿الْبِلَادِ﴾ فإنما تميّز البلاد وتنافس بعمرانها لا بأشكال أفرادها.

وقد جرّ القول بتميّز خلقة عادٍ عن غيرهم إلى القول بخرافاتٍ وأساطير عن طولهم وقدراتهم الخارقة؛ مثل أن أحدهم كان يحمل الصخرة من الجبل فيهلك بها أمة من الناس، بما لا يستقيم في العقل، ولا دليل عليه من النقل.

﴿ثُمَّودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾ ثمود هم قوم صالح عليه السلام، وقد كان بناؤهم في الأرض المنبسطة السهلة على خلاف عاد التي كان بناؤها في المرتفعات، و﴿جَابُوا الصَّخَرَ﴾ أي: قطعوه ونحتوه، و﴿بِالْوَادِ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا أهل سقي وزرع ونعيم، كما أخبر عنهم في الشعراء: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنَيْنَا مِائِينَ﴾ (١٢٩) في جنّاتٍ وعيونٍ ﴿وَزُرُوعٍ﴾ (١٣٠) وَتَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٍ ﴿[الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨].

﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب الملك والسلطان المثبت بأسباب القوة، والأوتاد هنا مأخوذة على سبيل التشبيه والاستعارة من وتد الخيمة الذي تثبت به.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ١١ ﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ إشارة إلى التلازم بين الطغيان والفساد؛ فالطغيان لا يقوم إلا على فساد وتحلل في المجتمعات، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَّاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، ثم يعتمد الطغاة إلى زيادة هذا الفساد وتكثيره؛ لأن فيه أسباب دوام سلطانهم، وأخشى ما يخشاه الطغاة وجود مجتمع متعلم واع بحقوقه، وقوي بوحدته وتماسكه.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ صبُّ العذاب يعني: إفراغه عليهم بسرعة وقوة، وذكر السوط فيه إشارة إلى معنى الإذلال، وهو من باب التشبيه والاستعارة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ﴾ تشبيه مُرَكَّب بحالة من يتخذ مكاناً يرصد فيه حركة عدوه حتى يكون على علم تام به، والله تَعَالَى غني عن الرصد، وإننا أراد أنه عالم بحركاتهم وسكناتهم، وأنهم جميعاً تحت سمعه وبصره، وتحت حكمه وقدرته، لا يخفى منهم مُحْتَفٍ، ولا يفلت منهم هَارِبٌ.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ١٥ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ بمعنى أنه يرى المال والترفة في الدنيا هو معيار الإكرام، والمقياس الذي يتفاوت فيه الناس، وإذا ترسخ هذا المفهوم الخاطيء صار صاحب المال يرى أنه هو صاحب الحق، وأن الذين يخالفونه هم أهل الباطل مهما كان علمهم وأمانتهم وخلقهم، وبهذا المقياس كانت قريش ترى أنها أولى بالحق من الفقراء الذين اتبعوا محمداً ﷺ.

وقد تضمن النقد القرآني لهذا المعيار الظالم الآثم بيان حكمة الله في هذا التفاوت بتكرار قوله مع الغني ومع الفقير: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾؛ فالغني ابتلاءً، والفقير ابتلاءً، والغني مبتلى بالفقير، والفقير مبتلى بالغني، كابتلاء القوي بالضعيف، والضعيف بالقوي، والحاكم بالمحكوم، والمحكوم بالحاكم، فالدنيا كلها ابتلاء، وكل تفاوت فيها ابتلاء، وإنما العبرة بأداء

الواجب والاعتراف بالحق لأهله، وإبراء الذمة وتحقيق الأمانة والعدل في كل ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ لَا تَكَرِّمُونَ الْيَتِيمَ﴾ إشارة إلى أن اليتيم يستحق من مجتمعه الإكرام والرعاية والتلطف به، لا مجرد التصدق عليه؛ فحاجته إلى الرعاية المعنوية لا تقل عن حاجته إلى الرعاية المادية، إضافة إلى أن بعض الأيتام قد يكونون أغنياء فلا يحتاجون إلى الصدقة.

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ هذه هي المجتمعات المفككة، والتي تُعاني من الانعزال الطبقي؛ حيث يعيش الأثرياء في عالمهم الخاص وعلاقاتهم المحصورة فيما بينهم، بينما يعيش الفقراء في عالم آخر بعلاقاتهم وهمومهم ومشكلاتهم، من هنا جاء النقد القرآني موجهاً إلى هذه الصورة الطبقيّة، بمعنى أن أولئك الأثرياء لا ينتبهون إلى هؤلاء الفقراء؛ وبالتالي فهم لا يتواصون بهم ويتقدم العون لهم.

﴿وَتَخْضَوْنَ﴾ أي: يحضّ بعضكم بعضاً، والحضّ: الحثّ والمتابعة، و﴿طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: مُعاونة المسكين في كل ما يحتاج إليه من ملبس ومسكن، وعلاج وتعليم، وإنّا اكفى بذكر الطعام تمثيلاً لحاجة المسكين، وليس حصراً لها.

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: تستأثرون بالميراث وتأكلونه جميعاً، فتمنعون منه الضعاف؛ كالنساء والأيتام، و﴿لَمًّا﴾ أي: جمعاً، فلا تُفرّقون بين حلالٍ وحرام، ولا بين ما هو حقّ لكم وما هو حقّ لغيركم.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً، وحُبّ المال بذاته غريزة لا تُوصف بخير ولا بشر؛ فهي شهوة من الشهوات المغروسة في الإنسان لتأدية وظائفه على هذه الأرض، فكما أن شهوة الجنس سبب لاستمرار النوع، وتعاقب الأجيال، فشهوة المال سبب للعمل وإحياء الأرض وتعميرها، إلا أن السياق هنا متعلّق بأولئك الذين جعلوا المال معياراً للتفاضل، ولتنسيم المجتمع إلى طبقات متباينة ومعزولة، وجعلوه أداة للظلم، وسبباً لإهانة الآخرين وهضم حقوقهم.

﴿كَذَٰلِكَ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ بمعنى أن معاييركم تلك سترون بطلانها يوم تُدكُّ

الأرض دَكًا دَكًا، وذلك يوم القيامة، وتكرار لفظة ﴿دَكًا﴾ للتأكيد، وليست للتكرار؛ بقرينة قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، والله أعلم.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ هذه من الصفات الخبرية التي نؤمن بها كما جاءت، ولا يمكن للعقل إدراك صورتها على ما هي عليه؛ لأنها ليست مما يعهده الذهن، والمقصود منها: إضفاء الجلال الكبير على ذلك الموقف الرهيب، حتى يندفع الإنسان لتهيئه والاستعداد له.

﴿وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ أي: صفًا بعد صفٍّ، فالتكرار هنا للترتيب وليس للتأكيد، وهذه صورة أخرى من صور ذلك اليوم، وفيها إضافة لمعنى الجلال والرهبة.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: بُرِزَتْ لأهلها واستعدت لاستقبالهم، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ذلك الإنسان الخاسر الذي لم تنفعه الذكرى في حياته، حتى إذا صدمته الآخرة بأهوالها راح يتذكر ما فاتته، ويتذكر دعوة الرسل ولا تنفعه الذكرى، ويندم ولا ينفعه الندم.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَبَاتِي﴾ أي: لآخرتي؛ فالآخرة هي الحياة الباقية التي تستحق اسم الحياة أكثر من الدنيا، لكن الإنسان محجوبٌ عن هذه الحقيقة بهذا المتاع الزائل، فإذا زال زال الحجاب وانكشفت الحقائق كما هي.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ﴾ أي: ليس هناك عذابٌ كعذاب الله، وليس هناك وثاقٌ كوثاقه، والمقصود بالوثاق: أن المجرم خاضعٌ لحكم الله وسلطانه فلا يفلت منه، وهو موثوقٌ أيضًا بالسلاسل والأغلال، وهذا تهديدٌ لكل خارج عن طريق الله مُعلنٍ عداوته لأوليائه، وفيه أيضًا يتجلَّى وعيده تعالى الذي أقسم عليه في صدر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿يَتَأْتِنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بإيمانها وحسن عملها وثقتها برَّبِّها، وهذه الصورة الجميلة الرحيمة التي تُقابل صورة العذاب والوثاق تلك، وهكذا يقرن القرآن الوعد بالوعيد،

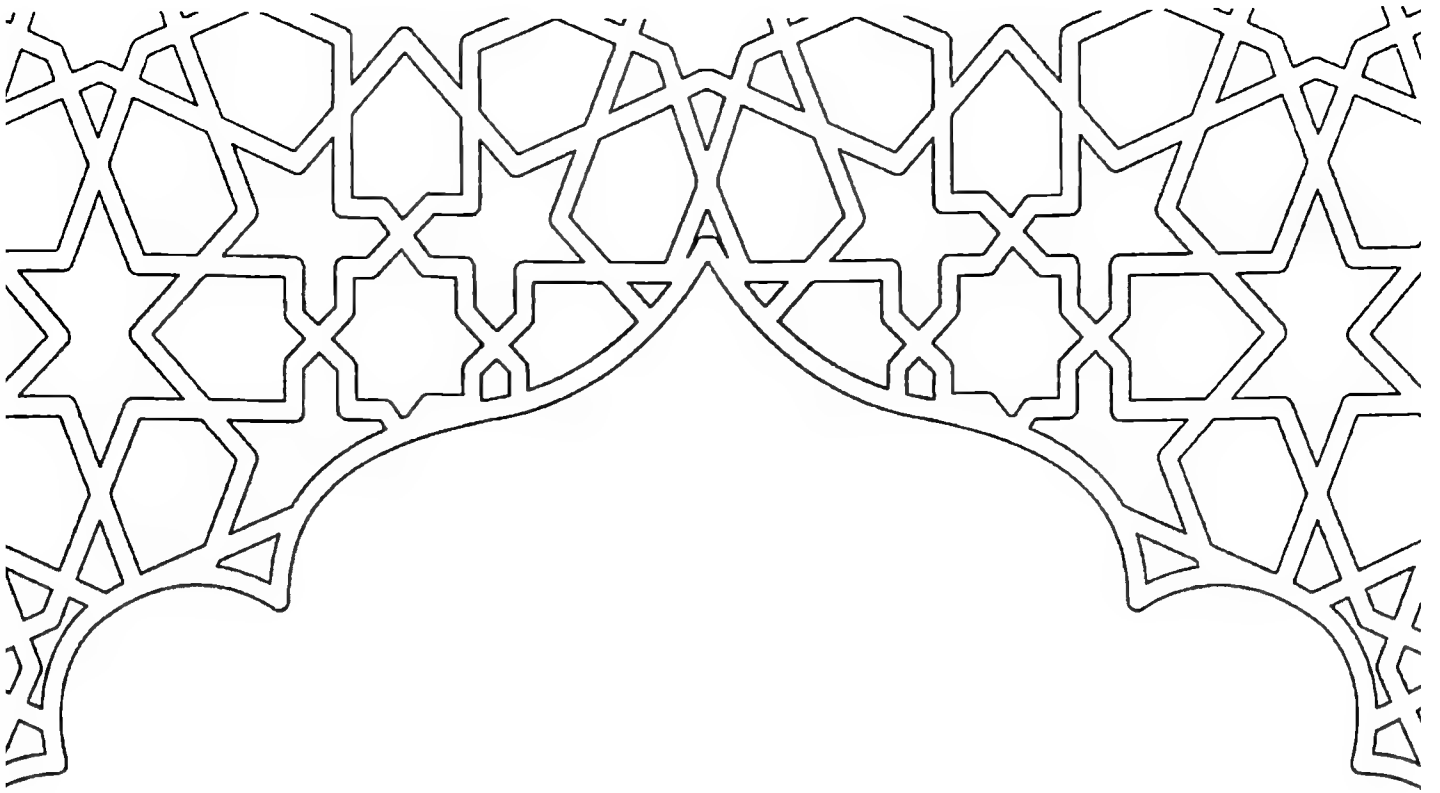
والترغيب بالترهيب.

﴿أَرْجِعْنِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ راضية بالله وثوابه، مرضية عند الله ثم عند الصفوة من عباده الأبرار وملائكته الأطهار.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: كوني معهم وفي عدادهم، وأضافهم تعالى إلى نفسه إكرامًا لهم.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أضاف الجنة أيضًا إلى نفسه؛ إعلاءً لشأنها، وتأكيده لإكرام عباده فيها، وتقديم الدخول في العباد على الدخول في الجنة إشارة إلى أن ولاء المؤمن لعباد الله الصالحين ومحبة لهم كان سببًا في دخوله الجنة معهم، والله أعلم.

وهو الذي نتضرع إليه سبحانه أن يُدْخِلَنَا في عباده، وأن يُدْخِلَنَا في جنته راضين مرضيين مطمئنين.



سُورَةُ الْبَلَدِ

المجلس الرابع والثمانون بعد المائتين: لقد خلقنا الإنسان في كبد

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْوَالِدَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيَّ أَحَدٌ (٥) يَقُولَ أَهْلَكَ مَا لَأُبْدَا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَنْجَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفْطَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

لقد خلقنا الإنسان في كبد

تتناول هذه السورة حياة الإنسان ومكابدته فيها، وما ينتظره بعدها، فترشده إلى طريق سعادته، وتحذره من أسباب شقاوته، مع تأكيد الصلة بين الإيمان بالله وعبادته وحده، وبين الإحسان إلى الخلق والرحمة بهم، وكما يأتي:

أولاً: يُقْسِمُ اللهُ ﷻ قَسَمًا مُؤَكَّدًا بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ، مع التنويه إلى مقام النبي الكريم ﷺ فيها، وقد زادها هذا المقام شرفاً على شرفها، وبركة على بركتها، ثم يُقْسِمُ تعالى بخلق هذا الإنسان وتوالده جيلاً عن جيل، إشارة إلى قدرته سبحانه وحكمته في استمرار الخلق، وتمهيداً لجواب القسم المتعلق بحياة هذا الإنسان وطبيعتها والغاية منها ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْوَالِدَمَا وَلَدَ (٣)﴾.

ثانياً: أمّا جواب القسم فهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ فالإنسان كُتِبَ عليه أن يعيش في هذه الدنيا حياة الكد والتعب؛ إذ الدنيا كلها ليست دار مقر، بل هي دار امتحان واختبار، وكفى بهذا مكابدة.

والأما غاية الرسائل ليس بقلب الدنيا إلى شيء آخر، بل تنبيه الناس إلى حقيقتها، وإعداد الغدة للنجاح في اختبارها، ولا شك أن الإيمان بهذه الغاية يجعل الإنسان أكثر طمأنينة، وأقدر على تحمل المسؤولية، وأقل طمعاً في المنافسة على متاعها الرخيص، وأكثر رحمة

بالآخرين، وهكذا تكون الرسائل سبباً في تخفيف هذا الكبد، والتقليل من آثاره السيئة، مع الدفع نحو السعادة الأخروية التي لا يشوبها كدر، ولا يُنغصها كبد.

ثالثاً: أمّا الذي لا يتصل بنور هذه الرسائل فإنّه سيُهلك نفسه في جمع حُطام الدنيا، ثم في تبذيره على شهواته بلا غاية ولا حكمة؛ لأنّه لا يؤمنُ بالله قادرٍ عليه يُراقبه ويُحاسبه، فهو لا يؤمن إلا بحياته المحدودة، ولا يرى شيئاً فوقها، ولا شيئاً بعدها ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

وهو لو فكّر قليلاً، لعلم أنّ في عينيه اللتين يبصر بهما آية على وجود الله وقدرته عليه، وكذلك في لسانه هذا الذي هو قطعة من اللحم لكنّه يتكلّم ويتذوّق، وفي شفّته كذلك، وأكبر من ذلك: هذا العقل الذي يُدرك به الأشياء، ويُميّز به بين ما ينفعه وما يضرّه، بين طريق السعادة وطريق الشقاء لو كان يُعْمِل عقله ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبّاً لَهُ﴾ (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠).

رابعاً: تُعبّرُ السورة عن غاية هذه الحياة ونهايتها الحتمية التي ينبغي على كلّ مُكلّف أن يجتازها ليصل إلى برّ الأمان، وهذا هو الامتحان ﴿فَلَا أَفْجَحِ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَبْسُماً ذَا مَقَرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَرْبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَنَةِ (١٨).

والملاحظ هنا أنّ شروط الاجتياز قد جمعت بين الإحسان إلى الخلق بعق العبيد، وإطعام اليتيم والمسكين، والأخلاق الفاضلة؛ كالصبر والرحمة، وبين الإيمان بالله، وهذه منهجية قرآنية عامة ومؤكدة؛ فالإيمان بالله لا ينفصل عن الأخلاق، وحقّ الله لا ينفصل عن حقّ العباد، أمّا الذي يفشل في تحقيق هذه الشروط فإنّه لن يجتاز العقبة، وسيلقى مصيراً آخر لا تُحمد عقباه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ هذه صيغة معهودة من صيغ القسم المؤكد، والبلد المقسم به هو مكة شرفها الله.

﴿وَأَنْتَ حَلٌّ لِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: وأنت يا محمد مُقيم في هذا البلد، فبك زاد الله هذا البلد تشریفًا وتعظيمًا، وفيه أن هذه الرسالة المحمدية مُرتبطة ارتباط هويّة وانتماء بهذه البقعة المباركة.

﴿وَوَالِدٍ وَمَوْلِدٍ﴾ هذا القسم يُشير إلى سنة الله في هذا الخلق؛ فكل إنسان هو مولود وله والد، والحياة في الحقيقة ليست سوى هذا؛ والد ومولود، أجيال تمضي وأجيال تأتي، وفائدة هذا القسم - مع التنبيه إلى سنة الله هذه وقدرته - أنه يُمهّد للمقسم عليه، وهو جواب القسم الآتي.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: يحيا حياته الدنيا في تعب ومشقة.

﴿يَحْسَبُ﴾ ذلك الإنسان الغافل المنهمك في متاعه الزائل وشهواته ﴿أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ أي: يُفاخر بكده وتعبه الذي جمع به مالا كثيرا ثم أنفقه على نفسه، و﴿لَبَدَأَ﴾ أي: مُتَلَبِّدًا بعضه فوق بعض، والمقصود به الكثرة.

﴿يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ هذا لوم وتقريع لكل من يبذر ماله في غير مصلحة دون حساب ليوم الحساب، ولا أداء لحق الله، أو حق عباده.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: أعطيناه العقل الذي يُميز به بين النافع والضار، وبين طريق النجاة وطريق الهلاك، ومعنى النجدتين: الطريقين.

﴿فَلَا اقْنَحَتْ الْعُقَبَةُ﴾ أي: لم يُفْلح في اجتياز الحائل الذي يحول بينه وبين سعادته الأبدية.

﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا الْعُقَبَةُ﴾ هذا استفهام يُقصد به التنبيه إلى خطورة المستفهم عنه وأهميته، والتشويق لمعرفة الجواب.

﴿فَأَرْقُبْ﴾ أي: الإنفاق من أجل عتق العبيد وتحريرهم، وقد عدل القرآن هنا عن تفسير

العقبة إلى بيان شروط اجتيازها، وهذه طريقة قرآنية؛ أنه يركز في المسائل العملية ولا يقف كثيراً عند الألفاظ ومدلولاتها المجردة.

﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي جوع، والإطعام في وقت الجوع أكثر برًا وإحسانًا من الإنفاق مع الشبع، الذي يتخذ في الغالب للسمعة والمباهاة.

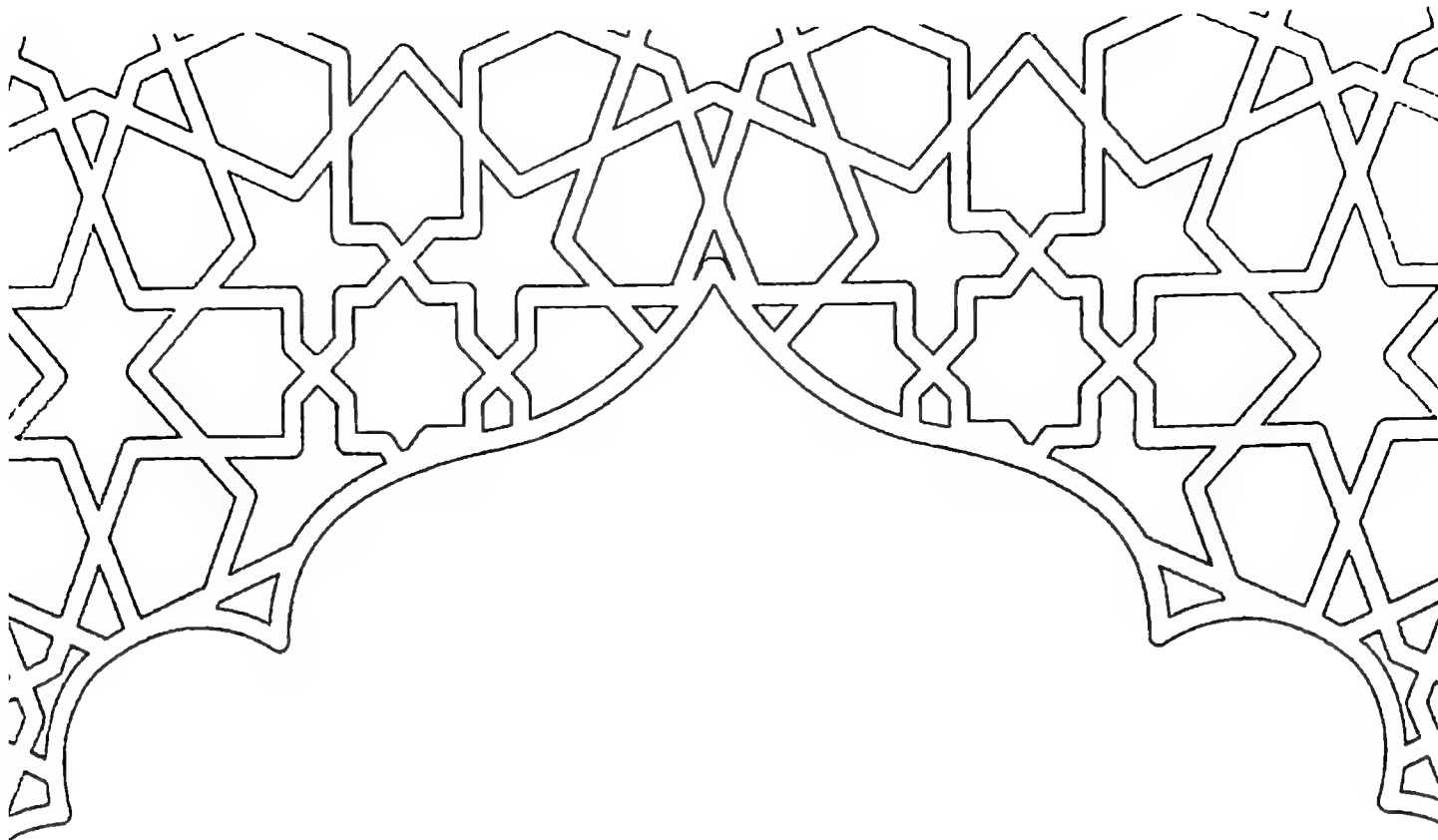
﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ إشارة إلى أن اليتيم بحاجة إلى أقربائه؛ لأنه يجد فيهم عوضًا عما فقد، إضافة إلى حاجته إلى الطعام إن كان فقيرًا.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا يجد إلا التراب، كناية عن أنه لا يملك شيئًا.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَنَّى﴾ أي: أصحاب اليمين الذين يُعطون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، علامة على نجاحهم وقبولهم عند الله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال ممن يُعطون كتابهم بشياهم، علامة على هلاكهم وطردهم من رحمة الله.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مُغلقة عليهم، فلا يجدون منها مهربًا.



سُورَةُ الشَّمْسِ

المجلس الخامس والثمانون بعد المائتين: قد أفلح من زكَّاهَا

سُورَةُ الشَّمْسِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَىٰهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮﴾

قد أفلح من رزَّها

محور هذه السورة: تزكية النفس، وتحمل المكلف مسؤوليته في ذلك؛ إذ هي عنوان فلاحه، وطريق سعادته، وقد أكدت السورة هذا المعنى بسلسلة من القسم المتضمن لآيات الله في هذا الوجود، ثم قدّمت نموذجاً من قصص السابقين الذين خيروا أنفسهم، واتبعوا شهواتهم، وكما يأتي:

أولاً: أقسم الله ﷻ في مستهل هذه السورة بثنائيات متقابلة: الشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، ثم أقسم بنفس الإنسان التي ألهمها الفجور والتقوى؛ ليمهّد بذلك لجواب القسم؛ وهو محور هذه السورة وموضوعها الأساس: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَىٰهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾.

ثانياً: ثم جاء جواب القسم بثنائية أيضاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑩﴾ ليحمل الإنسان مسؤوليته الكاملة في تزكية نفسه، وليضعه على مفترق الطريق؛ فإمّا ناج بعمله وفاتر بسعادة الدارين، وإمّا هالك وخاسر.

ثالثاً: ثم تعرض السورة قصة ثمود كفرت برّبها وكذّبت نبيّها، واتبعت أشقاها وأجرأها على الله، فهلكت في الدنيا، وهلكها في الآخرة أشدّ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪﴾ إذ

أَتَّبَعَتْ أَشْقَانَهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ أقسم الله بالشمس؛ تنبيهًا إلى ما فيها من آيات، ثم أتبعها بالضحي؛ لأنه وقت العمل وشدة الحركة، بإشارة إلى أهمية الشمس في حياة الإنسان.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا لَلَّتْهَا﴾ أي: إذا تلا الشمس بعد غروبها، والقسم بالقمر تنبيه إلى آيات أخرى، فإذا كانت الشمس عنوانًا للعمل والكد، فإن القمر عنوانٌ للأنس والصفاء والراحة.

﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ أي: والنهار إذا جلى الشمس؛ أي: أظهرها، وهذا على سبيل المجاز الظرفي؛ لأنَّ النهار وقت تجلية الشمس وظهورها، ولا يبعد أن يكون الضمير في ﴿جَلَّتْهَا﴾ يعود إلى المعهود في الذهن، وهو هنا الأرض، والله أعلم.

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: والليل إذا يحجب الشمس، ويجوز أيضًا عود الضمير في ﴿يَغْشَاهَا﴾ إلى الأرض، بمعنى أن الليل يُغطي الأرض، وذكر النهار والليل بعد الشمس يُشير إلى دورها في تكوينهما، وهذه من آيات الله التي تُنظم حياة الناس، بل تُنظم الحياة كلها. ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَتْهَا﴾ أي: والسماء وبنائها العظيم والمتناسك، و﴿وَمَا﴾ هنا مصدرية، ويبعد أن تكون بمعنى (من) كما يرى بعض المفسرين؛ لأنَّ القسم بالله تعالى لا يُناسب أن يكون بعد القسم بمخلوقاته، وهكذا القول في: ﴿وَمَا طَحَّهَا﴾، وفي: ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾.

ومناسبة ذكر السماء هنا: أنها الأفق الذي تتحرك فيه الشمس والقمر، والتنبيه إليها تنبيهًا أيضًا إلى نجومها وكواكبها التي لا تُحصى.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ أي: والأرض وطحَّوها، بمعنى: بسطها وتهيئتها لعيش الناس وحرکتهم.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: ونفس الإنسان وخلقها بهذا الشكل السوي، والقسم بالنفس

توطئة لجواب القسم، والذي هو محور هذه السورة.

﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الإلهام هنا يعني: ما أودعه الله في هذه النفس؛ من استعداد للفجور، أو للتقوى، وهذا مناط الاختبار الذي هو المقصد الأساس لخلق الإنسان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

ومن هذا الإلهام أيضًا: ما ميّز الله به الإنسان من قدرة عقلية يُميّز بها بين الخير والشر، والصحيح والخطأ، ثم أتم الله نعمته على هذا الإنسان برسالته السماوية الهادية التي تُرشده إلى طريق الحق، وتُحذّره من طريق الباطل، فكلّ هذه المعاني داخلّة في مدلول هذه الآية، وبينها تعاضد وتكامل، فلا حاجة لسُلوكم مسلك الترجيح فيما بينها، والله أعلم.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٢) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم، وهذا هو محور السورة، بل محور الرسالة كلّها، وتركبة النفس يعني: تطهيرها وتهذيبها، وتربيتها التربية السليمة التي تغلب عناصر الخير فيها على عناصر الشر، وإنّا نتحصّل هذه التزكية بالتقوى؛ أي: بتحمّل الإنسان مسؤوليته، ومراقبته لنفسه، وخشيته الدائمة من ربه، والاستعداد ليوم الحساب، فهذا هو الذي يستحقّ الفلاح في دنياه وآخره.

وأما ذلك الذي أهمل نفسه وأتبعها هواها حتى استغلّظت فيها عناصر الشر، واضمحلت فيها نبتة الخير، فقد دسّ نفسه؛ أي: حال بينها وبين الخير، كأنه دسّ شيئًا بينها وبين الخير فلا تصل إليه، فهذا ليس له إلا الخيبة والخسران الدائم في دنياه وآخره.

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي: بسبب طغيانها، بمعنى أنّهم لم يكونوا قد كذبوا نبيهم لشبهة قابلة للنظر، بل كذبوه طغيانًا واستكبارًا على الحقّ وأهله، وقد تقدّمت قصة هؤلاء القوم وتكرّرت كثيرًا في القرآن الكريم.

﴿إِذْ أَتَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ أي: بعثوا أشقاهم فأطاعهم، بل هو من أبدى لهم عن سفاوته وجرائته على ما بعثوه له، كما سيأتي.

(١) تكرر هذا النصّ الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة هود/ ٧، وفي سورة الملك/ ٢.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ ﷺ﴾.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا ﷻ﴾ أي: يُحذِّرُهُمْ من الاعتداء على الناقة التي أرسلها الله لهم آيةً، ويُذَكِّرُهُمْ بحَقِّهَا من الشرب؛ حيث كان لها وقتٌ مخصوصٌ لسقيها.

﴿فَكَذَّبُوهُ ﷻ﴾ أي: كَذَّبُوا تحذيره لهم وما توعدهم به من العذاب، وهذا تكذيبٌ ثانٍ؛ لأنَّ تكذيبهم الأوَّل كان برسالته ونبوته.

﴿فَعَقَرُوهَا ﷻ﴾ أي: ضربوها بالسيف ثم نَحَرُوهَا، والذي عَقَرَهَا هو أَشَقَاهُمْ الذي بعَثُوهُ، ونسب الفعل إليهم جميعاً؛ لأنَّهم كانوا راضين به، ومُشَجَّعين عليه.

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﷻ﴾ أي: أَرْسَلَ عليهم الصيحة التي أَهْلَكَتَهُمْ، والدَمَدَمَةُ: صوت الدمار، وهو الصوت المُعَبَّرُ عن الغضب أيضاً كالزَّجَرَةِ، والله أعلم.

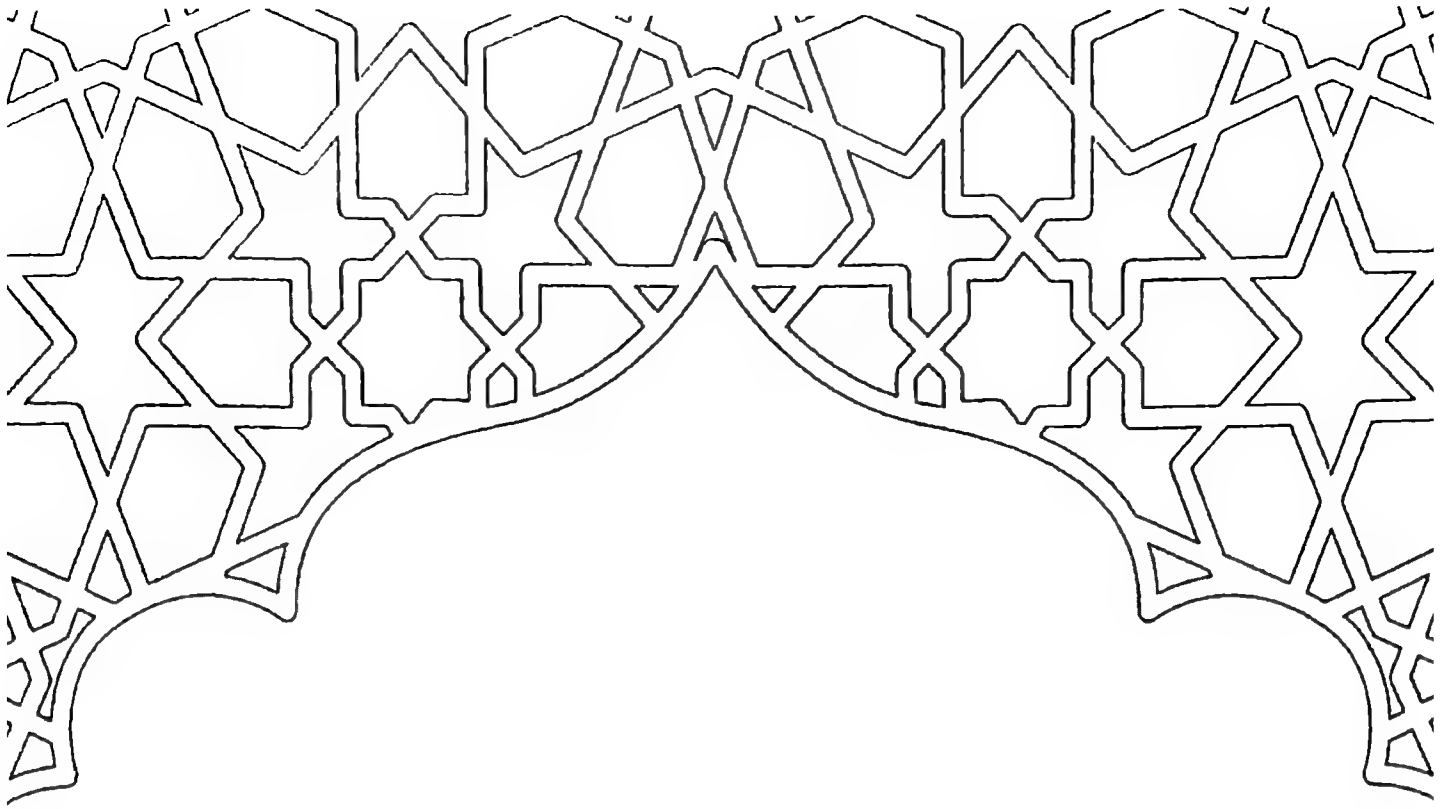
﴿بِذُنُوبِهِمْ ﷻ﴾ أي: بسبب ذنوبهم؛ فالله ﷻ لا يظلم أحداً.

﴿فَسَوَّيْنَاهَا ﷻ﴾ أي: عَمَّ أَرْضَهُمْ بعذابه، وجعلها مستوية خاليةً كأن لم يكن فيها أحدٌ.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﷻ﴾ بمعنى أَنَّ الله لا يَخْشَى عَاقِبَةَ فعله بهم، وكيف يَخْشَى وهو خالق

الخلق، ومالك الملك ﷻ؟

وإنَّما المقصود: إظهار قدرة الله عليهم ومحو أثرهم؛ فلا أحد يسأل عنهم، ولا أحد يسعى بثأرهم، ويحتمل أن يكون ذلك عائداً على الذي عَقَرَهَا؛ بمعنى أَنَّهُ ما كان يحسب حساب هذه العاقبة البائسة؛ لأنَّه كان كافراً بالله مكذِّباً لنبيه، جاهلاً بالمآلات والعواقب، والله أعلم.



سُورَةُ الْيُنَّا

المجلس السادس والثمانون بعد المائتين: إِنَّ سَعِيَكُمْ لَشَتَّى

سُورَةُ اللَّيْلِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ⑬ فَأَنْذَرْنَاهُ نَارًا تَلْظَىٰ ⑭ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَقَتَلَ ⑯ وَسِجْظًا يَلْأَنفَىٰ ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ⑳ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ㉑﴾

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ

هذه السورة كأنها مُكمّلة للسورة السابقة سورة الشمس؛ حيث تناول اختلاف الناس في توجّهاهم ومشاربهم؛ بين من ظهرت عليه آثار التزكية، فأعطى واتقى وصدق بالحسنى، وبين ذلك الذي أشقى نفسه، فبخل واستغنى وكذب بالحسنى، ثم تُبين السورة عاقبة الفريقين، وكما يأتي:

أولاً: يُقسم الله تعالى في مُستهلّ هذه السورة بالليل والنهار، وخلقه سبحانه للذكر والأنثى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③﴾ وهذا القسم كأنه تنمّة للقسم الوارد في سورة الشمس.

ثانياً: أمّا جواب القسم فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ وهذا الجواب كأنه أيضاً تنمّة لجواب القسم في سورة الشمس؛ فالناس الذين يُزكّون أنفسهم ستكون أعمالهم مختلفة عن أولئك الذين أهملوا أنفسهم، واتبعوا شهواتهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪﴾.

ثالثاً: يُنذِرُ الله ﷻ أولئك الغافلين المكذّبين بسوء العاقبة، مؤكّداً لهم أنّه تعالى وحده الذي يملك الدنيا والآخرة، فلن يفلت من عقابه من استوجب العقاب، وأنّه تعالى قد أقام الحجة

على الناس؛ إذ بين لهم طريق الهدى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٣) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٤).

رابعاً: يُبَشِّرُ الله سبحانه أولئك الأتقياء الذين زكّوا أنفسهم، فظهرت آثار هذه التزكية في سلوكهم التقى، وإنفاقهم السخي الذي لا يريدون به إلا وجهه سبحانه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ (١٨) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (١٩).

دقائق التفسير

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ يُقْسِمُ اللهُ ﷻ بالليل حينما يُغْطِي الأرض بسكونه وهدوئه.

﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ إذا ظهر وبانت فيه الأشياء، وتحركت به الحياة.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: وخلق الله ﷻ الذكر والأنثى، ف (ما) هنا مصدرية، تسبك مع ما بعدها فتكون مصدرًا، والإشارة هنا إلى أن تقسيم الناس إلى ذكّر وأنثى ليتكاملاً في وظيفتهما، فلا يستغني الذكر عن الأنثى، ولا الأنثى عن الذكر، وهذا يُشَبِّهُ تقسيم اليوم إلى ليل ونهار؛ فالليل للسكن والأنس والراحة، والنهار للعمل والسعي وطلب الرزق، فالحياة كلها تقوم على التنوع وتوزيع المهام، وليس على التماثل والتشابه.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو جواب القسم، وهو محور السورة؛ فاختلاف البشر غايةً من غايات هذا الخلق، وهو النتيجة المرتبطة بمقصد الابتلاء والاختبار: ﴿لِيَبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢٠).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٢١) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿هذا تفريعٌ عن قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ وقد بدأ بذكر الثمرة ثم فرعها ثم أصلها؛ فالتصدق ثمرة التقوى، والتقوى فرعُ الإيمان، والتصدق بالحسنى معناه: التصديق بوعد الله وثوابه وجنته.

(١) تكرر هذا النص الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة هود / ٧، وفي سورة الملك / ٢

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ هذا تفریع عن قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ وقد بدأ بذكر الثمرة ثم فرعها ثم أصلها؛ فالتصدق ثمرة التقوى، والتقوى فرع الإيمان، والتصدق بالحسنى معناه: التصديق بوعده الله وثوابه وجنته.

﴿فَسَيِّئِرُهُ لَلْئِسَرَى﴾ أي: يُيسر له فعل الخير؛ لأنَّ الحسنة تُثمر الحسنة وتؤدي إليها، حتى تكون الطاعات كلها مُيسرة له، خفيفة عليه، لا يرى فيها مشقة ولا كلفة، وتلك هي طريق الصالحين، وأولياء الله المتقين.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ هذا هو الفريق الثاني، وقد بدأ بالثمرة السيئة ثم بفرعها ثم بأصلها، فالبخل ثمرة الاستغناء عن طلب الثواب، والاكتفاء بمتاع الدنيا، والاستغناء فرع عن الكفر بالله والدار الآخرة، والتكذيب بالحسنى أي: التكذيب بوعده الله وثوابه وجنته.

﴿فَسَيِّئِرُهُ لَلْعُسْرَى﴾ أي: يُيسره للطريق الصعب؛ فلا يُبصر نور الدعوة، ولا يتيسر له التفكير في مصيره وعاقبة أمره حتى يهلك مع الهالكين، وهذا مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وهذا كله إنما المقصود به: تأكيد سنن الله في الخلق، وليس أن الله تعالى يمنع الهداية عن أحد، بل الإنسان هو الذي يمنعها عن نفسه؛ فمن رغب بالهداية وخطأ خطواته الأولى استبان له طريقها، وكلما تقدم استبان له الطريق أكثر، ومن تولى عنها وأعرض عن طريقها ضلَّ في تيهه، وتعسر عليه الرجوع إليها.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: ذلك المال الذي بخل به واستغنى به عن الله ماذا سينفعه إذا لقي مصيره هناك، وتردَّى في هاوية العذاب؟

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي: إن علينا تبين طريق الهدى، وهذا التعهد منه سبحانه إنما هو بمحض فضله وكرمه.

﴿وَلَا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ تأكيد للحقيقة الكبرى: أن الله خالق الدنيا والآخرة، وبيده

مُلْكُهَا، وفيه التعريضُ بذلك الذي استغنى عن ربِّه، وظنَّ أنَّ ما عنده من مالٍ ومتاعٍ كافٍه ومُغْنِيه.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ هذا تفرُّيعٌ عن الآية السابقة، بمعنى أنَّ الله الذي بيده الدنيا والآخرة هو الذي يُنذركم عذاب الآخرة وجحيمها، و﴿تَلَظَّى﴾ أي: تستعر وتلتهب، وأصلها: تَلَظَّى، وحذف هذه التاء في مثل هذا الفعل شائع في اللغة.

﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْآثَقَى﴾ (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى وهو الذي بخل واستغنى وكذب بالحسنى، ثم يَسِّرُه الله للعسرى حتى ورد هذا المورد، والعياذ بالله.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ وهو الذي امتدحه الله أنفًا بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ، والذي يَسِّرُه الله له طريق الهداية، وثبَّتَه عليها حتى نجَّاه الله في ذلك اليوم مع الناجين.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ، يَتَزَكَّى﴾ تأكيدٌ لأهمية الصدقة ودورها في تزكية النفس؛ إذ فيها تخليصها من التعلُّق بالمتاع الزائل، وتطهيرها من البخل والشُّح والطمع، وفيه أيضًا تحسين النية وإخلاص القصد؛ فهو يؤتي لا رياء، ولا سمعة، ولا منَّة على الفقراء، ولا مُباهاة بين الأغنياء.

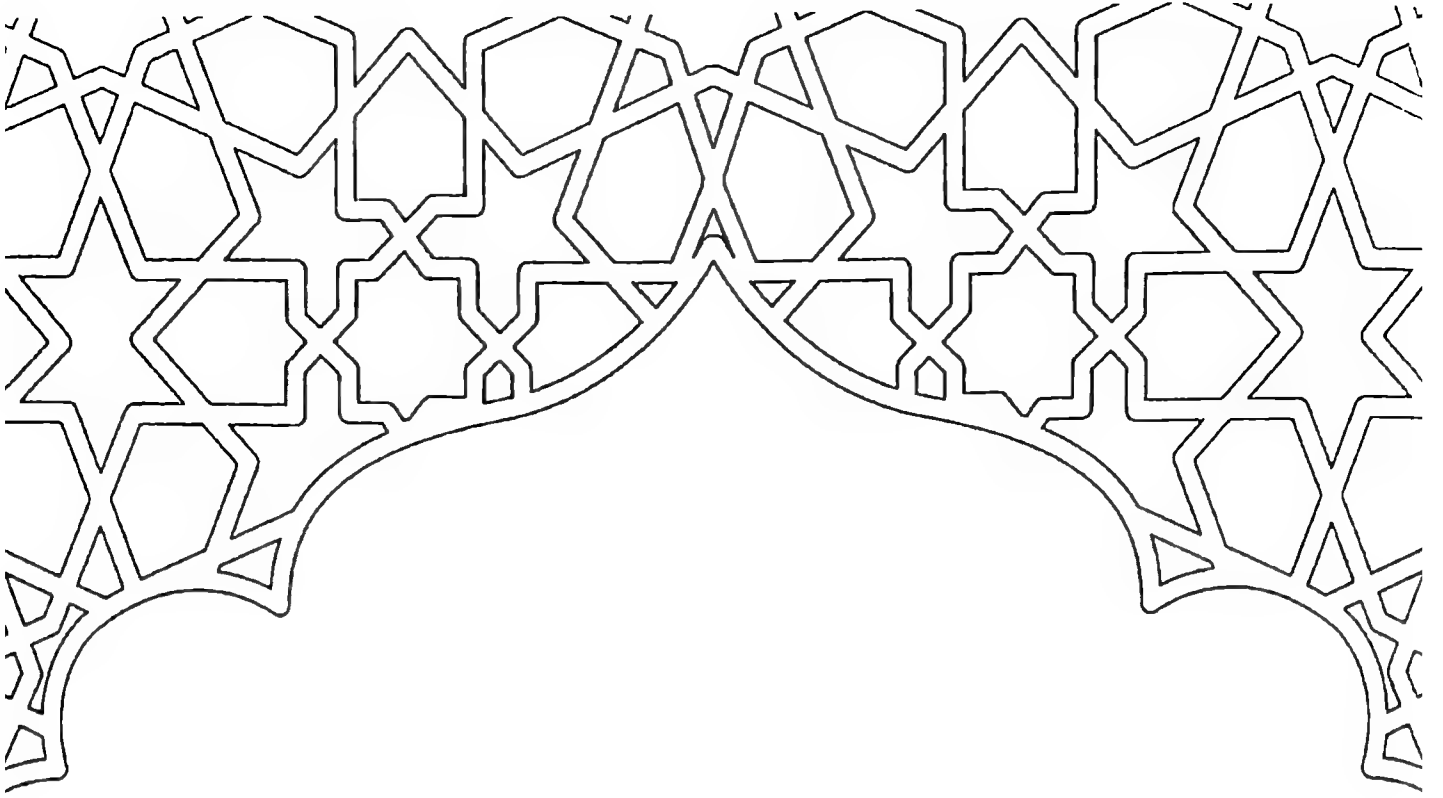
﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ، مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي: لا يُنفق ردًّا لجميل أُسدي إليه، أو جزاء لصاحب فضلٍ سابقٍ عليه، والمفسِّرون متفقون على أنها نزلت في أبي بكر الصديق (رضي الله عنه). وفي الآية ردٌّ على اتهام المشركين له بأنَّه اعتق بلائًا ليدَّ كانت له عنده، فكافأه بإعتاقه، والآية لا شكَّ عامَّة في كلِّ مُتصدِّقٍ يبتغي وجه الله؛ لأنَّ العبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

وهنا ملحوظةٌ أيضًا، وهي أنَّ مكافأة صاحب الفضل ليست عيبًا ولا إثمًا، وليس المقصود بهذا الاحتراز النهي عنها، وإنَّما المقصود الانتباه إلى الفقراء وسدِّ حاجاتهم من غير المنَّة عليهم، ولا انتظار ردِّهم، فهؤلاء قد يغفل عنهم كثيرٌ من الناس، فناسبَ التنبيه لحالهم، ثُمَّ إِنَّ الْمُتصدِّقَ على هؤلاء يكون أبعدَ عن حظوظ النفس بخلاف الصورة الأولى، والله

ثُمَّ إِنَّ الْمُتَصَدِّقَ عَلَى هَؤُلَاءِ يَكُونُ أَبْعَدَ عَنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ بِخِلَافِ الصُّورَةِ الْأُولَى، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ فَهَذِهِ صَدَقَةٌ لَا يُبْتَغَى بِهَا إِلَّا وَجْهُ اللَّهِ وَطَلَبُ رِضَا، وَهَذِهِ أَمَارَةُ
التَّزْكِيَةِ الصَّادِقَةِ لِلنَّفْسِ، وَالْيَقِينِ الْكَامِلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَحَسَنِ ثَوَابِهِ.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ هَذَا وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى لِلصَّدِيقِ ﷺ بِأَنْ يُعْطِيَهُ مَا يُرْضِيهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ وَعْدٌ
كَذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَوَعْدُ اللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ.



سُورَةُ الضُّحَى

المجلس السابع والثمانون بعد المائتين: ولسوف يعطيك ربك فترضى

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

ولسوف يعطيك ربك فترضى

محور هذه السورة تأكيد عناية الله بنبيه سيدنا محمد ﷺ وإتمام نعمته عليه باستمرار الوحي، وبلوغ كمالات الرضا، ودحض تحرُّص مُبْغِضِيهِ وشائِئِيهِ، وكما يأتي:

أولاً: يُقَسِّمُ الله تعالى في مُسْتَهْلٍ هذه السورة بالضحي وبالليل إذا سَجَى، وهو تأكيدٌ للقسَم المُتَكَرِّر في السورتين السابقتين: سورة الشمس، وسورة الليل، وتنبيةٌ إلى آيات الله تعالى في هذا الكون وما فيه من تنوُّع وتكاملٍ ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴿﴾.

ثانياً: أما جواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ فهو ردٌّ على تحرُّص المشركين بانقطاع الوحي، وتلك مقولةٌ يبدو أنَّها شاعت عندهم بعد فترة الوحي وتأخره، فكانت مُناسبة لبيان مكانة رسول الله ﷺ عند ربِّه، وقُربِه منه، وحظوَّته عنده بالمقام الأسنى والأسمى.

ثالثاً: ثم أكَّد الله تعالى لنبيه وحبَّيْهِ ﷺ أنَّ مقامه في الدنيا مهما بلغ من الشرف والرفعة فإنَّ مقامه في الآخرة أرفع وأعلى، فلا زال الله يصطَفِيهِ ويرفعه في درجات الكمال عنده، حتى إذا جاء ذلك اليوم الموعود تجلَّى بمقامه المحمود أمام الخلائق أجمعين، وتقدَّم به على كافة النبيين والمرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴿﴾.

رابعاً: ثم بين الله تعالى اصطفاءه لنبِيِّهِ ﷺ وعنايته به منذ نشأته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ
 وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ وفي هذا إتمام الردِّ على أولئك
 المُتَحَرِّصِينَ، بمعنى أن الله لم يتركك في صباك وشبابك حينما كنت يتيمًا وفقيرًا، وحائرًا في
 أمرِكَ وأمرِ قومك، لا تعرفُ وحياً ولا شريعةً، فأغدقَ الله عليك نعمه، وتولّاك بعنايته،
 فكيف يتركك الآن؟

خامساً: ثم يوجّهُ الله نبِيَّه في ختام هذه السورة العزيزة لتقتدي به أمته من بعده أن يُحْسِنَ
 إلى اليتيم وإلى السائل المسكين، وأن يُحدِّث الناس بنعمة الله عليه شُكْرًا له سبحانه، وتبليغًا
 لدينه ودعوته، وإسكاتًا لكل مُفترٍ مُتَقَوِّلٍ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ ﴿٦﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا
 بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالضُّحَىٰ ۖ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: إذا أظلمَ وادهمَ، وهاتان صورتان تُبرز إحداهما
 الأخرى: إشراق الضحى، وعتمة الليل.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾ أي: ما ودَّعَكَ توديعَ مُفَارِقٍ، وما جفاكَ جفاء كاره.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: في الآخرة؛ ولذلك كانت الآخرة خيرًا له ﷺ من
 الدنيا.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ هذا الاستفهام التقريري يُقصدُ به بيان عناية الله تعالى به ﷺ،
 فهو الذي آواه رغم يُتمه ورباه وكمّله، والمعهود في اليتيم أنه لا يجدُ مَنْ يُربيّه ولا مَنْ يعتني
 به فينشأ على طريقةٍ غير مرضيةٍ، لكنّه ﷺ نشأ على الخُلُق العظيم، وسماه قومه الصادق
 الأمين، فهذه آية إيواء الله له وعنايته به منذ نشأته.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الضلال هنا ليس ذاك الذي هو ضدُّ الهدى، بل هو الحيرة ممّا
 يرى قومه فيه من الشرك والوثنية، وما يراه في سائر الناس من اضطرابٍ في تصوّراتهم

الدينية، فكان يُنكر ذلك بفطرته السليمة وما حباه الله من رعاية وعناية، لكنه لم يكن يعرف شريعة، ولا وحياً، أو كتاباً، فاعتزل قومه حتى هداه الله بهذه الرسالة الشاملة؛ فكان الهادي المهدي ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أي: وجدك فقيراً، ففتح لك باباً من الرزق من تجارة خديجة رضي الله عنها، فأغناك عن الحاجة لأحد، ولم يكن ﷺ غنياً بالمعنى المعروف لا قبل النبوة ولا بعدها، وقد وهم من فسر هذا بالقيء والغنائم؛ لأن هذه لم تكن إلا بعد الهجرة وإقامة الدولة، بينما هذه السورة مكّية ومن أوائل ما نزل، كما هو بيّن من السياق.

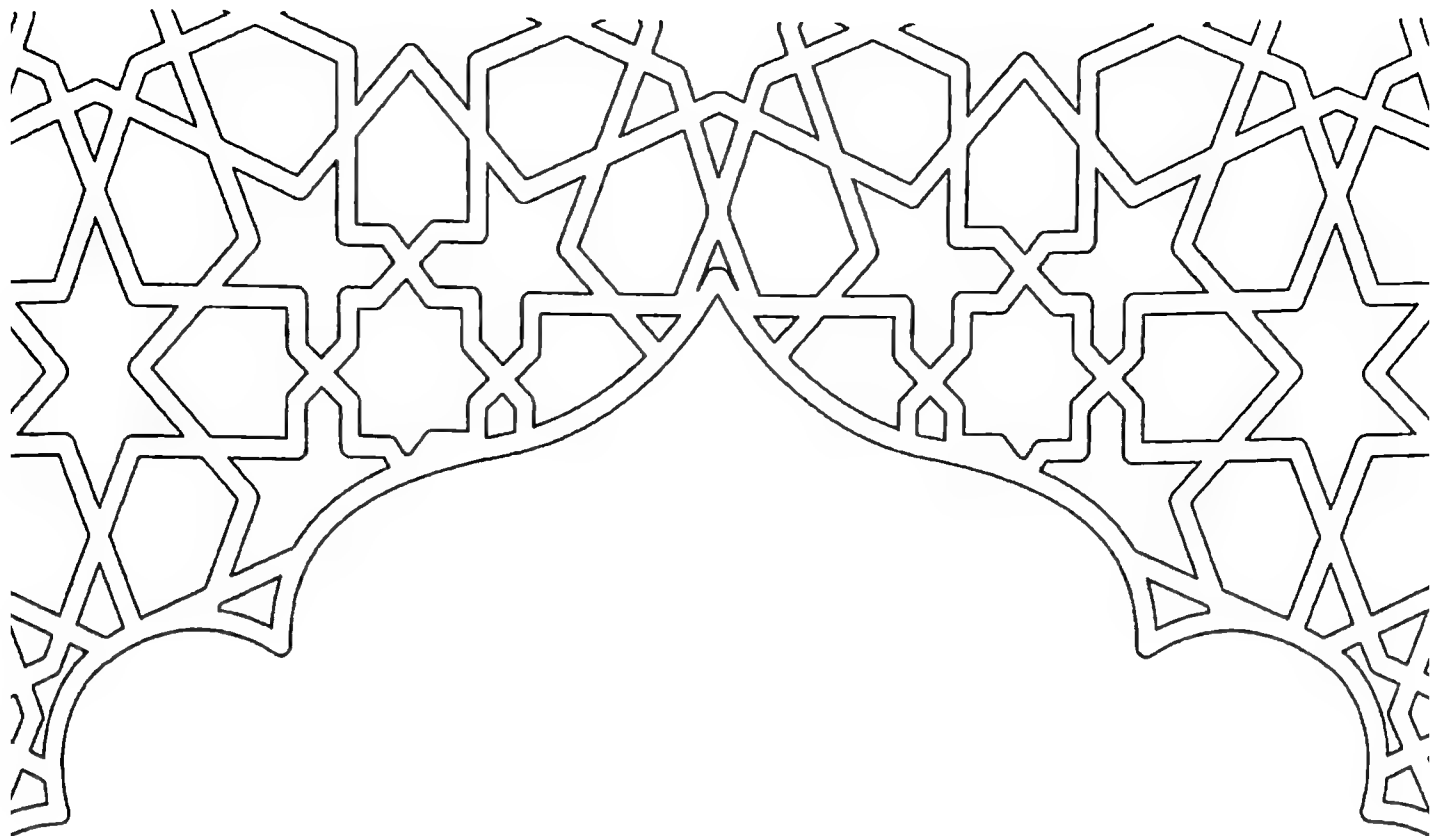
﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ هذا توجيه عملي لكل مسلم وإن كانت صورة الخطاب له ﷺ؛ إذ هو المبلغ عن الله، ومضمون هذا التوجيه الاحتياط الشديد في التعامل مع اليتيم فلا ينبغي جرحه ولو بعبارة أو إشارة، ومجيء هذا التوجيه في بدايات العهد المكّي دليل على أن القرآن ربط من بداية نزوله بين المنظومتين: الإيمانية، والقيمية.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهذا توجيه كسابقه، ويُقصد به الاحتياط في التعامل مع المساكين والفقراء، ولو كان المسؤول لا يملك شيئاً للسائل، فلا أقل من أن يتلطّف له بالقول، والأظهر أن هذا هو المقصود بالسائل؛ إذ هو المعرض للنهر، أمّا السائل عن العلم والدين فليس مُعرّضاً لذلك، والله أعلم.

ومجدّر التنبيه هنا أن هذا هو أدب المسؤول، أمّا السائل فقد وردت بحقه آداب تُناسبه؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ١٧٣]، أمّا إذا استشرت ظاهرة التسؤل واتّخذت مهنة فلا بُد من وقفة حازمة تجاهها من الدولة، ومن المجتمع، مع تأكيد ضرورة توفير فرص العمل، وسدّ حاجة الفقراء بالصدقة، أو من المال العام.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ التحدّث بالنعمة يعني: إظهارها وإظهار شكرها، فإن كانت النعمة من العلم أو الدين كان إظهارها من الدعوة المطلوبة، وأمّا الأنبياء ﷺ فنعمتهم إنّما هي نبوتهم ووحى الله لهم؛ ومن ثمّ كان إظهارها والتحدّث بها جزءاً من وظيفتهم.

وهذا التوجيهُ الربَّانيُّ يَدْحَضُ ما يَشِيعُ عند بعض الناس اليوم من عدم إظهار نعمةِ الله عليه، فيَدَّعي المرضَ وهو مُعافٍ، ويدَّعي الفقرَ وهو غنيٌّ؛ ظَنًّا منه أنَّ هذا يدفعُ عنه الحَسَدَ وشبهه، وهذا وَهْمٌ؛ فالْحَسَدُ إِنَّمَا يُدْفَعُ بالتوكُّلِ على الله، وفِعْلِ الخَيْرِ مع الناس، والله أعلم.



سُورَةُ الشَّرْحِ

المجلس الثامن والثمانون بعد المائتين: ورفعنا لك ذكرك

سُورَةُ الشَّرْحِ

﴿الَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

ورفعنا لك ذكرك

تكاد تكون هذه السورة مُتَمِّمَةً لسابقتها، فبعد قول الله تعالى هناك: ﴿الَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَافُوا﴾ ﴿١﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ عاد هنا ليقول له: ﴿الَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾؛ ولذلك فإنَّ محور السورة لا يختلف عن سورة الضحى؛ حيث تأكيد عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، وكما يأتي:

أولاً: في مُسْتَهْلِ السورة، عَدَّدَ اللهُ ﷻ نِعَمَهُ على نبيه ﷺ بأنَّ شَرَحَ صدره بنور الوحي، وأزال عنه ما كان يُشْغِلُهُ وَيُقْلِقُهُ في أمر هذه الدعوة ومُستقبلها، ثُمَّ رفع ذِكْرَهُ في العالمين؛ إِيذَانًا أيضًا برفع منار هذه الدعوة وانتشارها ورسوخها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿الَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾.

ثانيًا: ثُمَّ بَشَّرَهُ اللهُ ﷻ بأنَّه سَيُسِّرُ له كُلَّ عُسْرٍ، فلا يعرض له عُسْرٌ إِلَّا وأعقبه اليُسْرُ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولقد كان له ذلك ﷻ في كُلِّ مراحل دعوته المباركة؛ قبل الهجرة، وفي الهجرة، وبعد الهجرة، فما مرَّت به مِحْنَةٌ إِلَّا وأعقبَتْها مَنَحَةٌ، ولا عَرَضَ له عُسْرٌ إِلَّا وأعقبَهُ يُسْرٌ، والظنُّ أنَّ هذا لَأُمَّتُهُ من بعده إنَّ هي أَخَذَتْ بهِديهِ، وتمسَّكَت بِسُنَّتِهِ.

ثالثًا: ثُمَّ رَغَّبَهُ بالتزوُّد من الطاعات شكرًا له سبحانه، وطلبًا لمزيد فضله وعطائه ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ تقريرِيٌّ يُقْصَدُ به تأكيد الفعل الواقع بعده، فيكون بمعنى: لقد شَرَحْنَا لك صدرَكَ، مع إضافة معنى الامتِنانِ المستوجب للشكر، وشرح الصدر معناه: إزالة الضيق عنه بما نوره الله به من نور الوحي، وإتمام النعمة برفع الدرجات، وبلوغ الكمالات، وكثرة البشارات.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يطلق الوزر على معنيين: الثقل، والذنب، والأول أنسب مع قوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾، وقوله: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله، والمعتاد اقتران المغفرة أو العفو مع الذنب وليس الوضع.

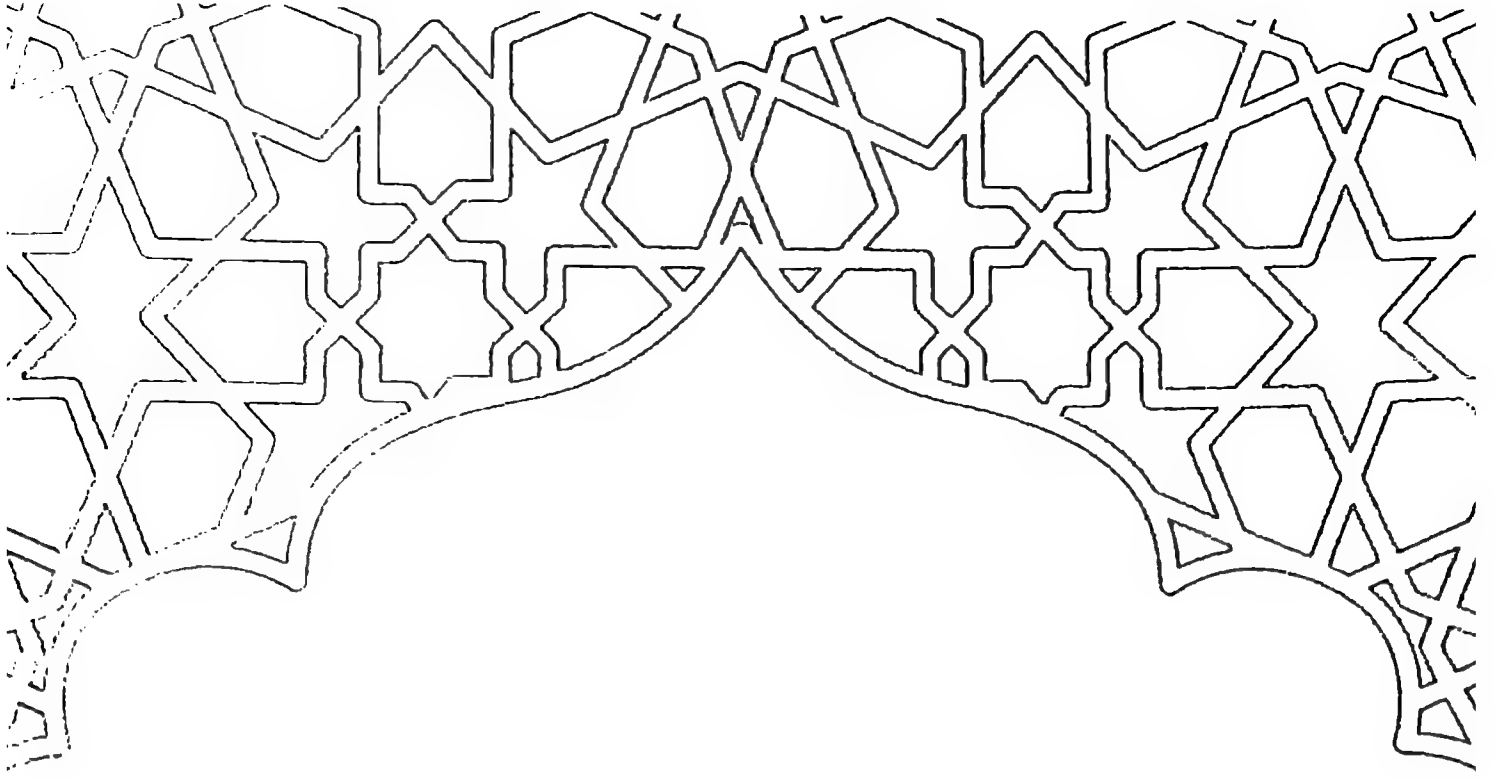
ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ لم يُعَرَفْ عنه أَنَّهُ كان مهمومًا كُلَّ هذا الهم بسبب ذنب ارتكبه، بل المعروف اهتمامه بأمر هذا الدين وما يُواجهه من عقبات؛ ولذلك جاءت البشارة المؤكدة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وهذه قرينة ثالثة أَنَّ الوزر الذي كان يثقل ظهره ﷺ إنما هو ما يراه من إعراض قومه عنه، ووقوفهم بوجه دعوته، وتعذيبهم لأصحابه، حتى كأنَّ الطُّرُق قد أُقْفِلَتْ كُلُّهَا أمامه، فيكون وضع هذا الوزر بالبشارات المؤكدة بانتشار هذا الدين والتمكين للمؤمنين، والله أعلم.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في الملأ الأعلى، وفي أرجاء هذه الأرض؛ فلا يُؤذَنُ مُؤذَّنٌ إِلَّا ذَكَرَ اسمه الشريف مقرونا باسم ربِّه الكريم، ولا صَلَّى مُصَلٍّ، أو دَعَا دَاعٍ، أو ذَكَرَ ذَاكِرٌ إِلَّا ذَكَرَهُ وَصَلَّى وَسَلَّم عليه، فعليه أفضل الصلاة والسلام، وفي هذا إعلامٌ أيضًا بانتشار هذا الدين وبلوغه أرجاء العالمين.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا تأكيدٌ لفظيٌّ بتكرار العبارة، ومُفَادَه تأكيد ورود اليسر على كل عسر.

﴿فَرِحْتَ فَأَنْسَبَ﴾ أي: إذا أنهيتَ ما كنت مُسْتَغْلَا به، فاشتغل بعملٍ آخر؛ فليس عند السائرين إلى الله فراغ، فهم في عملٍ ذَوُوبٍ ومُسَارعةٍ إلى الطاعات لا تفترو.

﴿وَالِى رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أَي: أَلِى حَاجَاتِكَ كُلِّهَا بَبَابِ مَوْلَاكَ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِيمَا يَهْمُكَ
أَمْرُهُ، أَوْ تَرْجُو نَوَالَهُ.



سُورَةُ التِّينِ

المجلس التاسع والثمانون بعد المائتين: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٦ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِاللَّيْنِ﴾ ٧ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ٨ ﴿

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

تتناول السورة خلق الإنسان، والفطرة السليمة التي أنشأ الله عليها، وانسجام هذه الفطرة وصلتها بالرسالات السماوية المعلّمة والهادية، ثم بيان حال الناس بين هالكيين بكفرهم وانتكاسة فطرتهم، وبين ناجين فائزين بإيمانهم وصلاحتهم، وسلامة فطرتهم، وكما يأتي:

أولاً: يُقَسِّمُ الله تعالى في مُسْتَهْلٍ السورة بثلاثة أماكن مقدّسة، تُثَلُّ مهبط الرسالات السماوية، وهي الأرض المباركة في فلسطين؛ أرض التين والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٣.

ثانياً: أما المُقَسِّم عليه فهو هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى على الفطرة السليمة، والعقل المُمَيِّز، والقوام المعتدل، والصورة الحسنّة، وهذه هي مؤهلات الاستخلاف والتمكين، والسيادة على هذه الأرض ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤.

ثالثاً: غير أنّ هذا الإنسان في كثير من الأحيان لم ينهض بمتطلبات هذا الاستخلاف، بل انتكس في فطرته، وأغلق منافذ التفكير والمعرفة في عقله؛ فنزل عن محلّ الكرامة والسيادة، وارتكس في حمأة الشهوة الهابطة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٥ أي: بما اقترفت يده وبما جناه هو على نفسه.

رابعاً: ثم يستثني الله أولئك الأخيار الذين لم ينتكسوا كما انتكس الآخرون، بل ثبّتوا على الجادة، وعلّت بهم همّهم إيماناً وعملاً صالحاً حتى فازوا بالرضا والسعادة الدائمة ﴿إِلَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥٠﴾

خامساً: ثم تعودُ السورة في خاتمتها إلى ما استهلَّت به، لتؤكد أنَّ رسالات الله التي أنزلها على أنبيائه هي الدين الحق الذي لا ينبغي التكذيب به، ولا الشك فيه، وأنَّ ما أخبرت به من البعث والحساب والجزاء هو الحق الذي قامت الشواهد والأدلة عليه، وأنَّ تعالى هو أحكم الحاكمين في عدله وإحسانه ﴿٥١﴾ ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ ثمرتان معروفتان، والقسم بهما محتمل لما فيهما من نفع كبير للناس، غير أنَّ عطف المكانين المقدسين عليهما يرجح أنَّ المقصود منبتهما في الأرض المباركة التي عاش فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحكم فيها داود وسليمان، وولد فيها عيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، وذكر التين والزيتون عنواناً لتلك الأرض المباركة يُشير إلى ما تتميز به تلك الأرض من زروع وثمار.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الطور الذي في صحراء سيناء، والذي تلقى فيه موسى ﷺ رسالة ربه. ﴿وَهَذَا أَلْبَلَدُ الْأَمِينِ﴾ وهو مكة المشرفة، وقد ميزها الله بالأمن كما ميز الأولى بالتين والزيتون.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو جواب القسم؛ فالإنسان أفضل مخلوق على الأرض من حيث خلقته التي جاءت بأحسن تقويم في عقله وجسمه، وروحه وفطرته؛ وما ذاك إلا لأنه مُكرَّم عند الله، ومُعَدُّ ليكون سيِّد هذه الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: أرجعناه بعد هذا التفضيل والتكريم إلى السفلى والدون، وهذا ليس عامّاً في كلِّ الناس، بل هو فيمن اختار بنفسه الانحطاط على العلو، والإهانة على الكرامة، والخبَل على العقل، وليس أدلَّ على هذا من أولئك الذين اتخذوا من الحجارة آلهة، ومن السحرة والمشعوذين ناصحين ومعلمين.

وهذا المعنى للآية أولى من اقتصراره على الهَرَم الجسدي الذي لا يملك له الإنسان دفعاً،

والذي لا علاقة له بالرسالات السماوية وهي محل القسم، ثم لا معنى للاستثناء الوارد بعدها، بمعنى أن التفسير الجسدي لهذه الآية سيقطعها عن صدر السورة وعن خاتمتها ويُخرجها من السياق.

ثم إن وصف ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ مُشْعِرٌ بالذم، ويصعب إطلاقه على كبير السن، وأمّا نسبة الفعل إلى الله، فهذا جار مجرى السنن الإلهية الحاكمة، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) فمن طلب الضلالة ضلّ، ومن طلب الهداية هُدي، ومن طلب الرفعة ارتفع، ومن طلب المهانة هان، والله لا يُكرِهنا على شيءٍ من ذلك؛ فالله لا يظلم أحداً، ولا يُجافي أحداً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هؤلاء هم المُسْتَتُونَ من تلك الانتكاسة، وهم أهل الهَمَم العالية الذين لم يرتكسوا في حماة الوثنية، ولم يُدنسوا أنفسهم بأخلاق الجاهلية. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع؛ فهم أهل الكرامة والسعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ﴾ أيها الإنسان بعد أن رأيت الآيات الدالة على قدرة الله تعالى ظاهرة عياناً.

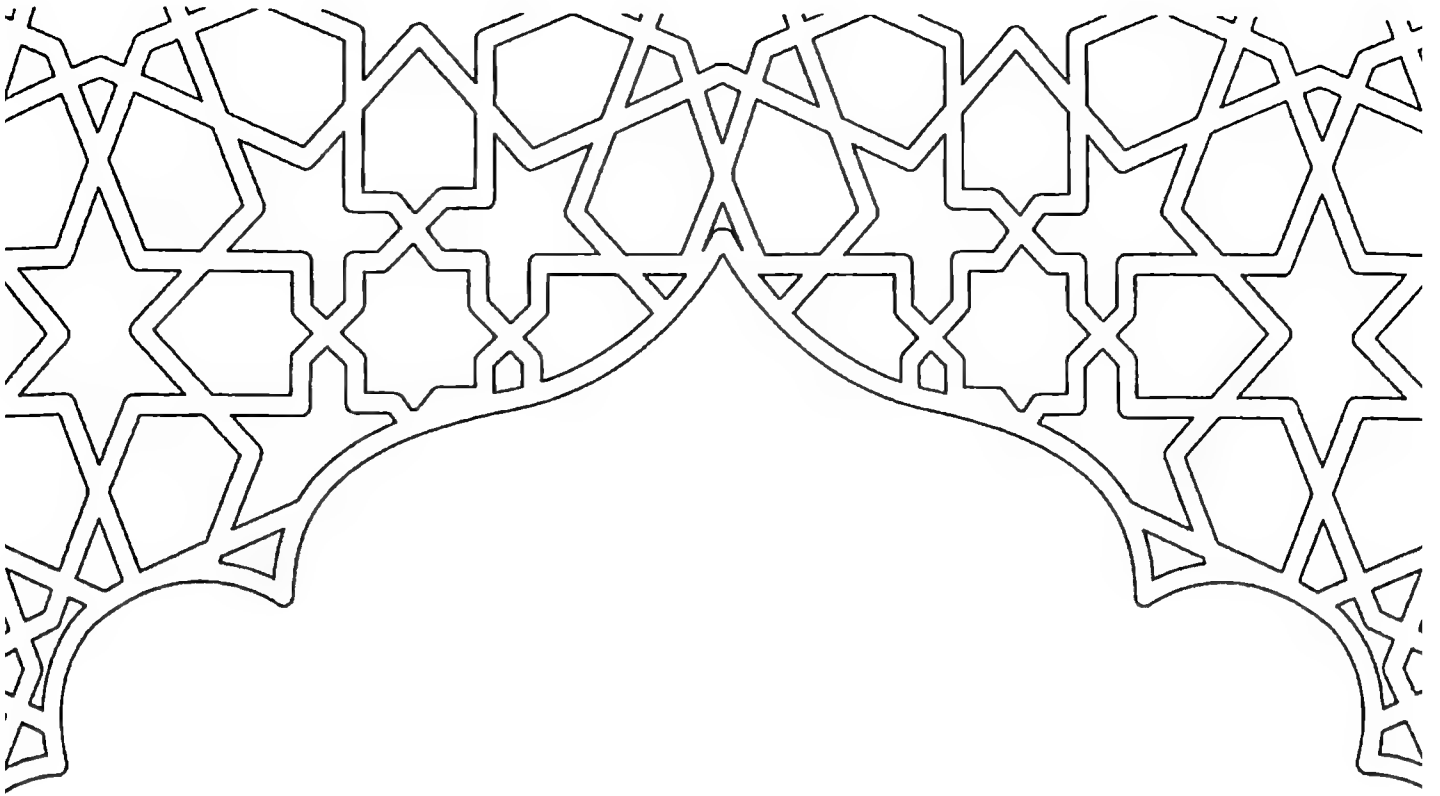
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ بأحكمهم في عدله.

وكان ابن عباس ؓ إذا قرأها قال: (سبحانك اللهم وبلى)^(٢)، وروي نحو ذلك في أحاديث ضعيفة عن النبي ﷺ^(٣).

(١) تكرر هذا النص الكريم ثلاث مرات في كتاب الله تعالى: في سورة الرعد/ ٢٧، وسورة النحل/ ٩٣، وسورة فاطر/ ٨.

(٢) ينظر: تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (٢٤/ ٥١٦ / مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية - دار هجر، ط. ١، ١٤٢٢-٢٠٠١م، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي).

(٣) من ذلك: حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ فَأَنْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَأَنْتَهَى إِلَى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فَلْيَقُلْ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ، رواه أبو داود (١/ ٢٣٤ / دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/ ٤٤٣ / دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وأحمد (٢/ ٢٤٩ / المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي) بإسنادٍ ضعيف.



سُورَةُ الْعَلَقِ

المجلس التسعون بعد المائتين: اقرأ باسم ربك

سُورَةُ الْعَلَقِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ كَلَّا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيً ⑥ أَن رَّاهُ اسْتَفْعَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ⑪ أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَى ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑬ أَرَضِيَ اللَّهُ بِمَا يَكْفُرُ ⑭ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰
سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ⑱ كَلَّا لَا تَطَعُهُ ⑲ وَأَسْجُدْ وَقْتَرَب ⑳

اقرأ باسم ربك

سورة العلق أول سور القرآن نزولاً، وبها بدأت النبوة واستهلّت الرسالة، وأشرقت هذه الأرض بنور ربها، وكانت الإشارة الأولى أن هذه الرسالة إنما هي رسالة القراءة والكتابة، رسالة العلم والتعليم، رسالة الهدى والتقوى، لا ينجيد عنها إلا هالك، هذه هي سورة العلق أو سورة (اقرأ)، والتي يمكن أن نُلخص معانيها فيما يأتي:

أولاً: استهلّت السورة بفعل الأمر: (اقرأ)؛ للدلالة على أن هذه الرسالة رسالة علم وقراءة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ ثم تأكد هذا المعنى بتكرار فعل القراءة مقروناً بالعلم، وبأداة تدوين العلم وتوثيقه، وهي القلم ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

ويلحظ هنا أيضًا ارتباط الأمر بالقراءة، مع التنويه بخلق الإنسان إشارة إلى أن هذا الإنسان إنما يسمو بالعلم، مع التأكيد أن مصدر العلم هو نفسه مصدر الخلق؛ فالذي خلق هو الذي علّم، وهذا منطق العقل والفطرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ⑥﴾ [الملك: ١٤]، فكما أن الخلق كله قد صدر عنه سبحانه، فالعلم كذلك، وهل العقل الذي هو وعاء العلم إلا خلق من خالقٍ سبحانه؟

﴿الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق الإنسان من علقه لا تعبي ولا تعلم شيئاً، ثم علمه ما لم يكن يعلم، فالله هو مصدر الخلق ومصدر العلم.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: اقرأ وأنت تستشعر فضل الله عليك ولطفه وكرمه.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي: علم الإنسان الكتابة بالقلم، وهياًه لإتقان هذه الوسيلة في توثيق معلوماته، ولو فكّر الإنسان في كفه وتوزيع أصابعه عليها وطول كل إصبع، لعلم أنها مهياة بالفعل للكتابة ونحوها من أسباب التعلم، والأمور الدقيقة في الصناعة والعمران، فلا يوجد مخلوق على الأرض يملك مثل هذه الأداة، كما أنه لا يوجد مخلوق غير الإنسان يملك هذا العقل الذي يستقبل فيه المعلومات ويحلّلها، ويحفظها ويبنى عليها؛ ولذلك أتم الله هذا المعنى بإطاره الأعم فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمَ﴾.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ۝٦ أَن رَّأَاهُ اسْتَفْتَىٰ﴾ بمعنى أن الإنسان يجنح إلى الطغيان حينما يرى نفسه مُستغنياً بهاله وجاهه وقوته، وهذا من تمام غروره وجهله؛ فلو فكّر في خلقه من علقه مهينة، ثم موته الذي لا يملك له دفعا، لاعتَرَف بضعفه وعرف قدر نفسه، وهذا ما دعا القرآن إلى التنبيه له ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ أي: الرجوع يوم القيامة.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝١١ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ هذا مظهر من مظاهر الطغيان؛ أن ينهى من يظن في نفسه القوة غيره عن الصلاة، وكأنه يُريد أن يستعبد الناس، وقد جاء الاستفهام لغرض التشنيع على هذا الظلم. والذي يظهر هنا أن هذه الآيات التي تتحدث عن الطغيان ومنع الصلاة، جاءت متأخرة في النزول عن صدر السورة؛ لأنها تتكلم عن موقف من مواقف قريش في صدّها عن هذه الدعوة، ولا شك أن هذا إنَّما كان بعد أن ذاع خبر الدعوة وانتشر بين الناس، والله أعلم.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ﴾ أي: أرايت لو كان ذلك المصلي على الهدى وأمر بالتحوى - والإشارة هنا إلى رسول الله ﷺ -، أي: كيف يتجرأ عليه ذلك الذي ينهاه عن صلاته، والمقصود أن ذلك الطاغية لو فكّر ملياً، لوضع في حسابه احتمال كون هذا المصلي

على الحق، وأن ما عنده نافع له، فلماذا يُسارع بالصدّ والمنع؟

﴿أَزَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: أرايتَ إلى مُسارعته هذه بالتكذيب والإعراض؟ وجوابه مُتضمّن في قوله تعالى الآتي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ بمعنى أنّه لو آمَنَ بالله، لما كَذَّبَ ذلك التكذيب، ولا طغى ذلك الطغيان، وهذا الجوابُ فيه توطئة للتهديد الآتي:

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لئن لم ينته عن طغيانه وعدوانه، لنأخذنَّ بناصيته أخذًا شديدًا عنيفًا، والناصية: مُقدّمة الرأس.

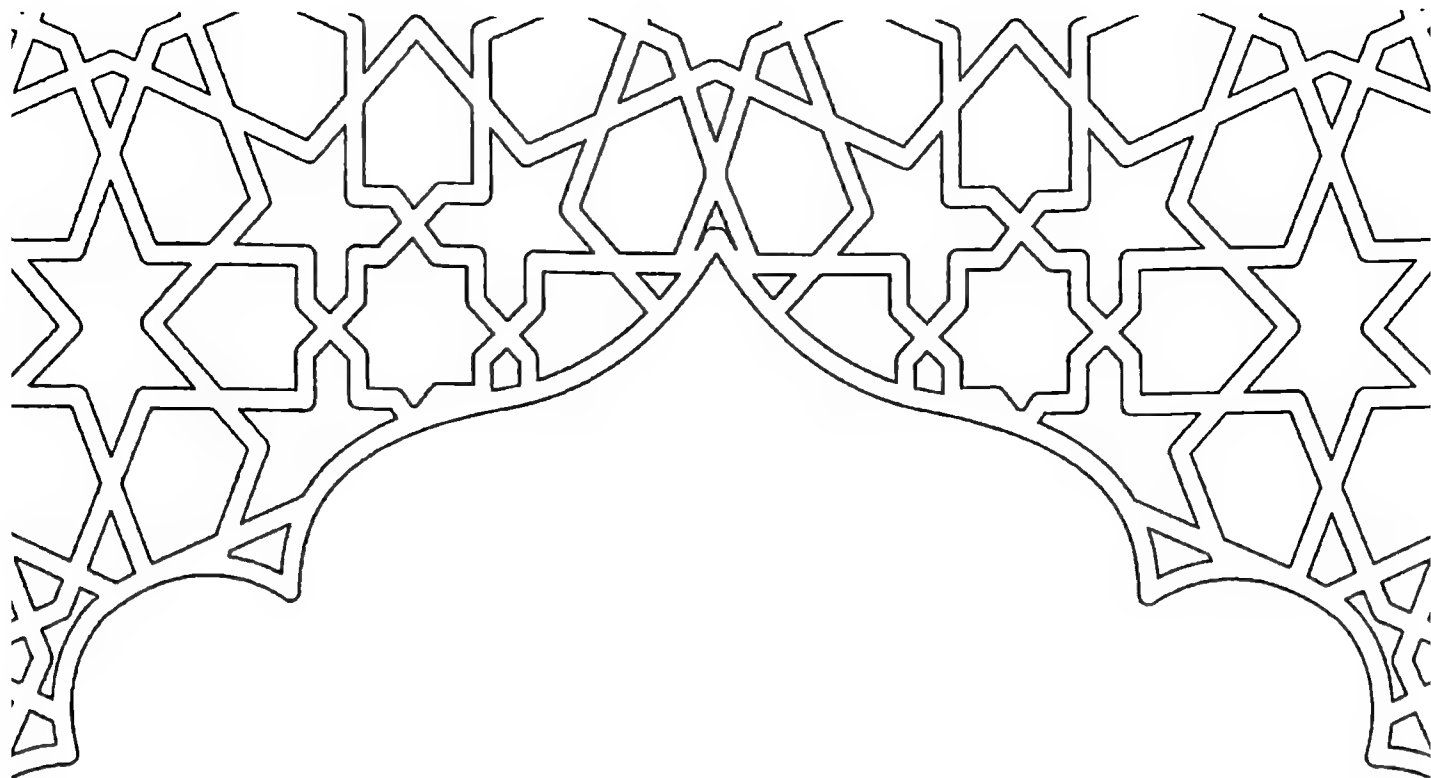
﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها، وعبرَ بالناصية هنا عن ذات الشخص كلّها، ولا يبعد أن تكون الناصية هي محلّ القرار واتخاذ المواقف؛ حيث ثبتَ علميًا أن خلايا المخ موزّعة إلى مجموعات؛ كلّ مجموعة مسؤولة عن وظيفة معيّنة، والله أعلم.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: ليستنصر بأصحابه وأعدوانه، وهذا على سبيل التعجيز والتهكُّم به وبناديه، والمقصود بالنادي هنا: نادي قريش الذي كانت تجتمع فيه لبحث شؤونها، وتدبير أمورها.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: سنكلّف به الزبانية، وهم ملائكة العذاب، وأصل اللفظة: من الزّبن، وهو الدفع بقوة.

﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ بعد أن نهاه أبو جهل عن الصلاة.

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أي: اسجد طاعةً وتقربًا لربك، وإرغامًا لأنفِ عدوك.



سُورَةُ الْقَدْرِ

المجلس الحادي والتسعون بعد المائتين: ليلة القدر

سُورَةُ الْقَدْرِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٢) نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٥)

ليلة القدر

سورة القدر سورة فريدة في موضوعها؛ لأنها مخصصة لبيان فضل الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم، وهي ليلة القدر، ومنها جاء اسم هذه السورة، ويمكن تلخيص ما ورد فيها بالآتي:

أولاً: تأكيد أن هذا القرآن قد نزل في هذه الليلة التي أسماها القرآن ليلة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وهي الليلة المباركة التي ورد ذكرها في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ومن المقطوع به أن هذه الليلة هي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك؛ لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثانياً: بيان أن هذه الليلة عظيمة عند الله، لا تُشبهها ولا تُدانيها ليلة أخرى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

ثالثاً: ثم تتأكد عظمتها بنزول جبريل مع وفد من الملائكة بإذن الله ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.

رابعاً: وتختتم السورة ببيان أنها ليلة السلام من مغيب شمسها حتى طلوع فجرها ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن الكريم، وأتى بالضمير الدال عليه؛ تنويهاً على أنه معلوم وحاضر في الذهن، فلا يتبادر إلى الذهن غيره.

﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ سُمِّيَتْ بذلك تعظيماً لها؛ لأنَّ القَدْر هو المنزلة العظيمة، والمكانة الرفيعة، وَكَوْن القرآن أنزل فيها يعني أنه بدأ نزوله فيها؛ لأنَّه من المقطوع به أنَّ القرآن لم ينزل جملةً واحدةً، بل نزل مُفَرَّقًا بحسب الحوادث والنوازل، ومراحل الدعوة المختلفة، ففي هذه الليلة بدأت نبوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا سرُّ تعظيمها، وهذا أولى من قول مَنْ يقول: إنَّ النزول يعني نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

والصحيح: أنَّها ليلةٌ مكررةٌ في كلِّ سنةٍ؛ إذ لا معنى لتحريها إلا هذا، ولأنَّها ليلةٌ مُحدَّدةٌ بحدثٍ معينٍ، وهو نزول القرآن، فالأرجح أنَّها ليلةٌ ثابتةٌ من ليالي رمضان، وليست مُتنقِّلةً في لياليه، وأنَّها في عُشره الآخر؛ لورود الأحاديث بذلك، وأمَّا إخفاؤها فذلك لحكمةٍ تربويَّةٍ حتى يتشوّف الناس لها، ويحتاطون في تحريها، فتعمَّ الأعمال الصالحة على مساحةٍ أوسع من الزمن.

ويُضاف إلى ذلك حكمةٌ أخرى، وهي أنَّ إثبات دخول الشهر لا يكون بوحىٍ من الله، وإنَّما باعتماد رؤية الهلال، وهذه قضيةٌ بشريَّةٌ لا يمكن الجزم بها، ورُبَّما اختلفت باختلاف المطالع، وحالة الصَّحو أو الغيم؛ ولذلك تختلفُ البلاد فيه، وأمَّا ليلةُ القدر التي هي عند الله فهي ليلةٌ مُحدَّدةٌ، ومن ثمَّ كان هذا الأمر بتحريها في أكثر من ليلةٍ، والله أعلم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هذا استفهامٌ يُقصدُ به تعظيم المُستفهم عنه، وتشويق السامع لمعرفة جوابه.

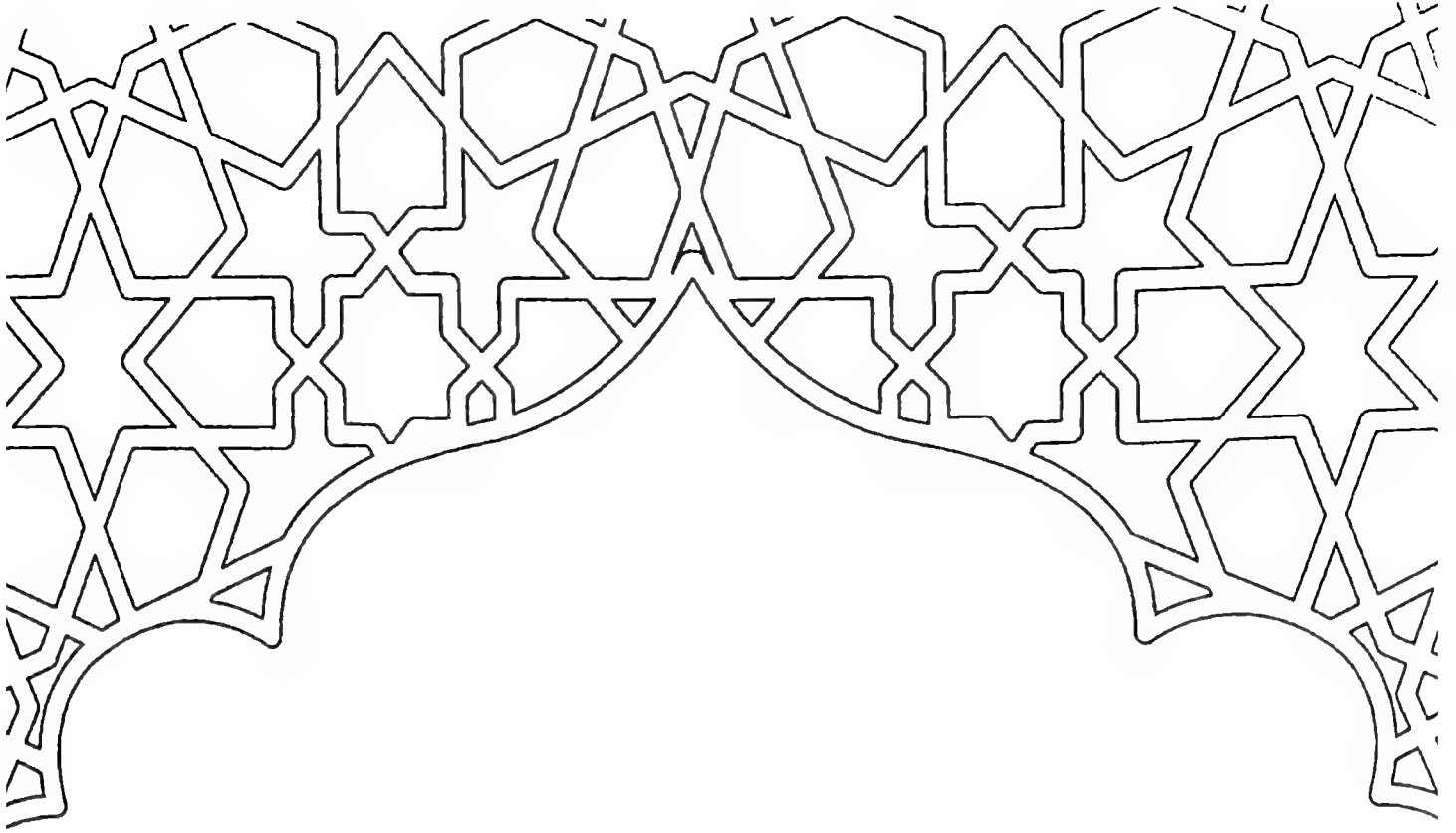
﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بفضلها ومنزلتها عند الله، وكذلك ببركتها على الأرض من حيث مضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ولو لم يكن ذلك، لما كان لتحريها في كلِّ عامٍ مغزى، بل هذه هبةُ المولى الجليل لعباده الموفِّقين لطاعته، وهي تعظيمٌ لهذا القرآن، وتنبيهٌ

للناس أن يعتنوا به تلاوة وتدبراً وعملاً، وهي كذلك إكراماً لرسول الله ﷺ؛ لأنها مبتدأ نبوته، وذكرى اصطفائه على الناس بهذا الوحي وهذه الرسالة العظيمة.

﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ هذا مظهر عظيم من مظاهر تعظيم الله لهذه الليلة المباركة؛ حيث تنزل الملائكة ومعهم جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض يُباركون المؤمنين ويدعون لهم، وهذا النزول إنما هو بإذن من الله السميع العليم.

﴿مَنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: إنَّ نزول الملائكة مع ما فيه من تعظيمٍ لذكرى نزول القرآن، واتصال الأرض بالسماء، فيه أيضاً تنفيذٌ لأوامر الله العلية التي كتب أن يقضيها في هذه الليلة المباركة، والتي قال عنها في سورة الدخان: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (١) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴿ [الدخان: ٣، ٤].

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ فالليلة هذه كلها سلامٌ وخيرٌ وبركةٌ، وقد جاء تأكيدُ هذا المعنى احترازاً؛ لأنَّ الملائكة حينما تنزل بأمر الله قد يكون نزولها لإهلاك قومٍ وتدميرهم، فكان هذا الاحتراز أن ليلة القدر سلامٌ كلها، ولن تنزل ملائكة الله فيها إلا بالسلام، والإشارة هنا إلى أنَّ القرآن هو رسالة السلام؛ ولذلك كانت ليلة نزوله هي ليلة السلام.



سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

المجلس الثاني والتسعون بعد المائتين: حتى تأتيهم البينة

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾

حتى تأتيهم البينة

تتناول هذه السورة موقفَ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون من هذه الرسالة المباركة، وكيف أنها إنما جاءت لتبين الحق لهم، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، لكنهم أضلّتهم أنفسهم فكفروا بها، فكان عاقبتهم النار، ثم قارنت السورة حال هؤلاء الكافرين بحال المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله وعملوا الصالحات، فأدخلهم الله في رضوانه، ووعدهم بجنّاته، وكما يأتي:

أولاً: تذكر السورة حال الضلال والتيه الذي كان عليه الناس قبل البعثة المحمّدية المباركة؛ إذ كانوا بين مشركٍ عابِدٍ لصنمٍ، وبين كتابيّ مُتَّبِعٍ لأهواء الكهنة والأخبار والرهبان بعد أن زادوا ونقصوا في كتاب ربّهم، فلم يكن الله ليرتّبهم على هذه الحال، حتى يبعث لهم مَنْ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ بِالْحُجَّةِ الظَّاهِرَةِ، والكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣).

ثانيًا: ثم نددت السورة بموقف أهل الكتاب خاصة من هذه البعثة المحمدية؛ لأنهم كانوا على علم بها، وكانوا ينتظرون النبي الذي بشر به أنبيائهم، وكانوا يستفتحون به على المشركين، لكنهم حينما ظهر في غيرهم طبق عليهم حسدهم، فكذبوه وكفروا برسالته، مع أنه لم يكن يدعوهم إلى شيء يخالف أصل رسالتهم وما دعاهم إليه أنبيائهم ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثالثًا: ثم بينت السورة عاقبة هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة وكذبوا بها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾. رابعًا: ثم ختمت ببيان حال أهل الإيمان وما وعدهم الله به ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: الرسالة التي تُبين لهم الحق من الباطل، وهي رسالة المصطفى ﷺ والتي كان يتلوها عليهم ويبلغهم بها ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وهي مطهرة؛ أي: محفوظة ومصونة من دس الداسين، وتحريف المحرفين.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: في هذه الصحف كُتبت آيات الله القيمة التي أنزلها على نبيه، والقيمة معناها: العظيمة عند الله بألفاظها ومعانيها، وما حوته من أخبارٍ وتشريعاتٍ تحقق الخير والعدل والرحمة لهذه البشرية.

﴿حُنَفَاءَ﴾ جمع حَنِيف، وهو: الْمُتَمَسِّكُ بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الْمَفَارِقِ لِلشَّرِكِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ.

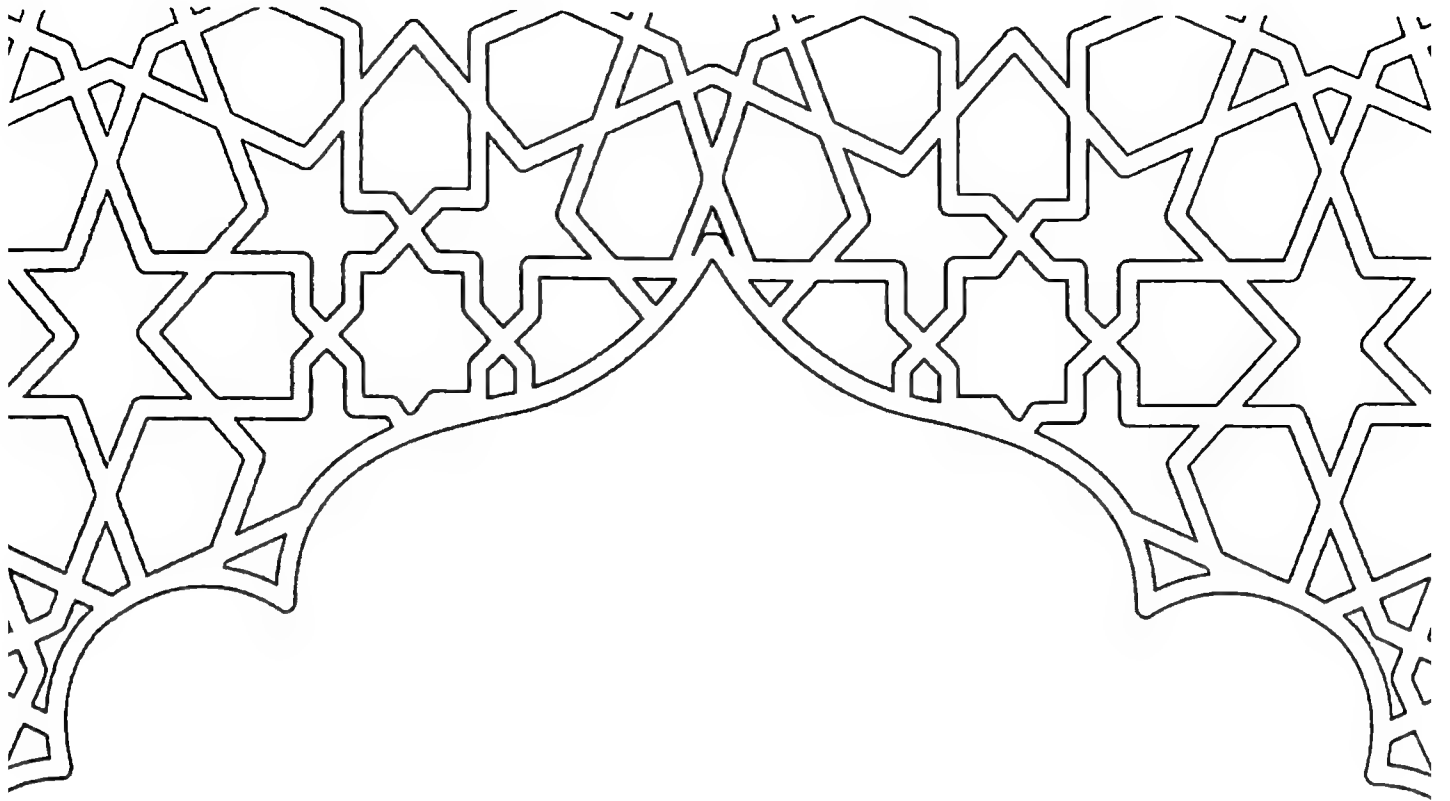
﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: دِينُ الشَّرْعِ والطَّرِيقَةِ الْقَيِّمَةِ، أي: الْعَظِيمَةِ وَالْمُسْتَقِيمَةِ.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شَرُّ النَّاسِ.

﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: خَيْرُ النَّاسِ، وَأَصْلُ الْبَرِيَّةِ: الْبَرِيَّةُ مَفْعُولٌ بِرَأً بِمَعْنَى: خَلَقَ،

وَمِنْهُ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى الْبَارِئِ بِمَعْنَى الْخَالِقِ.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ.



سُورَةُ النَّازِعَاتِ

المجلس الثالث والتسعون بعد المائتين: لِيُرُوا أَعْمَالَهُمْ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۝٤ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّیُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

لِیُرَوْا أَعْمَالَهُمْ

موضوع هذه السورة هو اليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ وأحوالٍ، وثوابٍ وعقابٍ، ويتلخّص في الآتي:

أولاً: تستهلّ السورة بذلك الحدث العظيم الذي تُزلزل فيه الأرض زلزالاً شديداً حتى يُخرج كلّ ما في داخلها من مياه ومعادن وغيرها ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

ثانياً: يقف الإنسان آنئذٍ حائراً مُتسائلاً عن هذا الذي يحدث في الأرض ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾.

ثالثاً: تنتقل السورة إلى الغرض الرئيس، وهو إعلام الناس أنّ كلّ ما عملوه على الأرض سيُظهره الله، وستشهد الأرض على ذلك، وسيرى الناس أعمالهم هناك محفوظة لهم محصية عليهم ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۝٤ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّیُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾.

رابعاً: آنذاك يكون الجزاء الشامل والعاقل؛ فليس من كبيرة أو صغيرة إلا كان لها وزنها في ميزان الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ تكرر هذا المعنى بألفاظٍ أخرى في القرآن الكريم؛ مثل: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الواقعة: ٤]، و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، وكلمة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ مفعولٌ مطلقٌ يُفيد التأكيد، وإضافته إلى الأرض يُفيد اختصاصه بها وتمكُّنه منها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: كل ما في باطنها، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

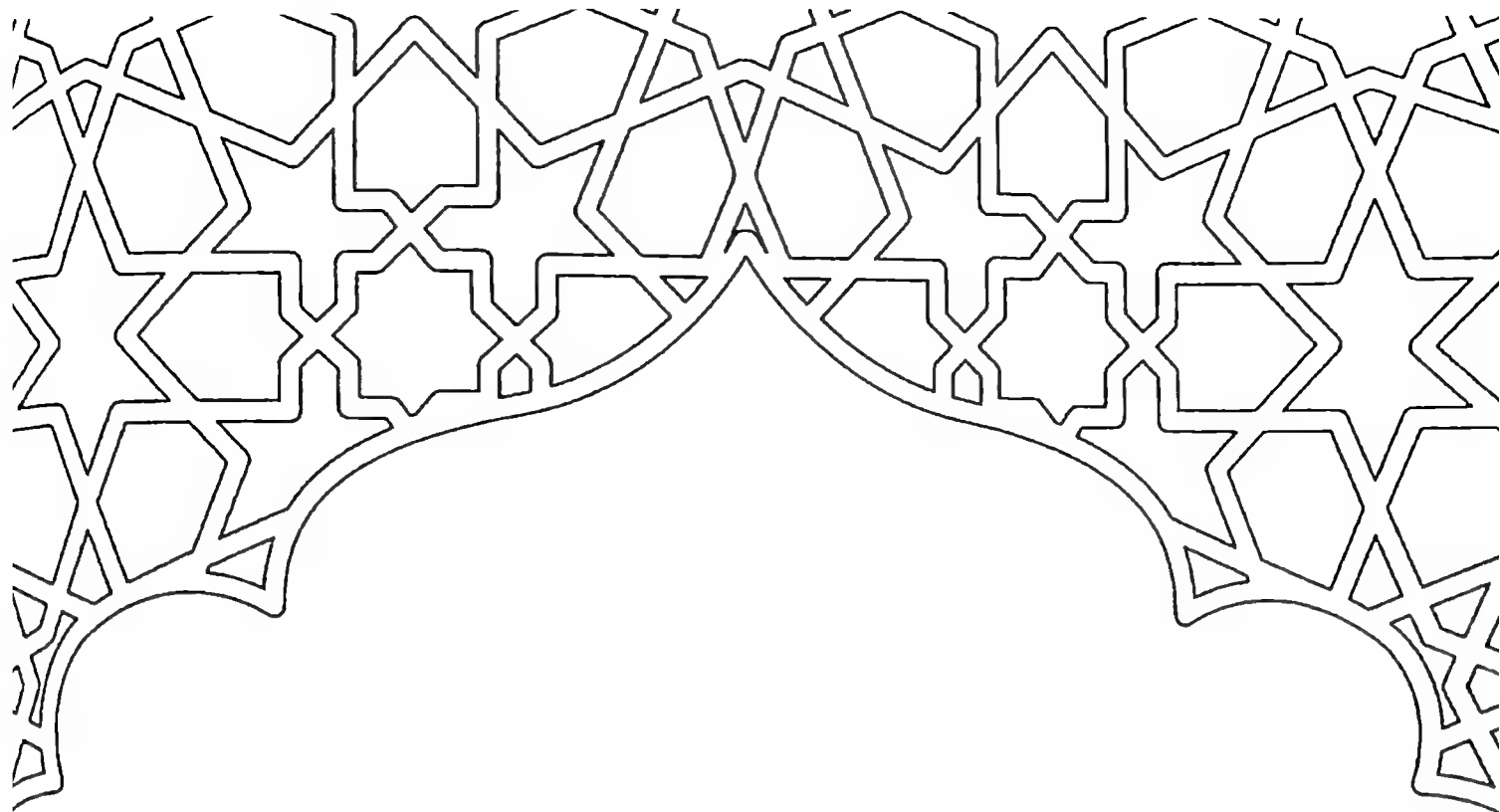
﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أي: ما الذي حدث لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿١﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ ذاك يوم الحساب؛ حيث يأمرها الله تعالى أن تشهد على أهلها بما فعلوه على ظهرها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: ينصرفون بعد الحشر مختلفين على حسب أعمالهم؛ فأهل الخير فريق، وأهل الشر فريق.

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليرَوْا نتائج أعمالهم، ولا يبعد أنهم سيرَوْنَ أعمالهم أيضًا؛ فالناس الآن يتداولون التسجيلات المصورة والموثقة لبعض أنشطتهم بهذه الأجهزة الحديثة، فما بالك بذلك اليوم!

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ذكرُ مِثْقَالِ الذرة هنا يعني: دقة التوثيق، ودقة الحساب، ودلالته على عظام الأعمال وكبائرها أولى.



سُورَةُ الْحَآدِثَاتِ

المجلس الرابع والتسعون بعد المائتين: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

﴿وَالْعَادِيَّاتِ صَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

إن الإنسان لرببه لکنود

تتناول سورة العاديات علاقة الإنسان بربه، ذلك الإنسان الذي ينعم بهذا الخير الذي سخره الله له، ثم ينسى الله وينسى حسابه، وثوابه وعقابه، وقد مهّدت السورة لهذا الموضوع بقسم مؤكّد ومُتسلسلٍ يحمل دلالاتٍ أخرى تتّصل بحركة الإنسان وما سخره الله له، وكما يأتي:

أولاً: يُقسمُ الله تعالى في مُستهلٍّ هذه السورة بالتحليل التي سخرها الله لهذا الإنسان، يُقسمُ بها، ويبيّن صفاتها وهي تعدّو وتضرب الأرض بسنابكها وتثير الغبار من خلفها ﴿وَالْعَادِيَّتِ صَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾.

ثانياً: أمّا جواب القسم فكان عن ذلك الإنسان الكنود الحريص على المال والمتاع والحطام ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

ثالثاً: ثمّ تختتم السورة بتحذير هذا الإنسان؛ فإن وراءه يوماً سيخرج فيه من قبره، وسيظهر ما كان يُخفيه في صدره، وسيقف أمام ربه العليم الخبير ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

﴿وَالْعَدِيْبَتِ ضَبْحًا﴾ يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِأَحْيَلِ الَّتِي تَعْدُو سَرِيعًا، فَيَكُونُ لَهَا فِي صَدْرِهَا صَوْتُ لَتَسَارِعِ نَفْسِهَا. وفائدة القسم - مع ما فيه من تأكيد القسم عليه - التنبيه إلى ما في أَحْيَلِ من مزايا، وأنها من أهم وسائل القتال في ذلك الوقت.

والإشارة إلى هذا المعنى مع أَنَّ السورة مَكِّيَّة - على الأرجح - يُؤكِّدُ أَنَّ الإعداد النفسي والتربوي للمراحل القادمة بدأ مُبَكَّرًا، على خلاف ما يُظنُّ أَنَّ القرآن المكي لم يكن يتناول إلا الموضوعات الإيمانية والعقدية.

﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ أي: التي تضرب الحصى بحوافرها وهي مُسْرِعَةٌ في عَدْوِهَا، فينقُدُ الشرر منه إشارة إلى قَرَّتْهَا وَشِدَّةَ عَدْوِهَا.

﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ وهذا هو الغالب في الغارات أن تكون صُبْحًا؛ لمباغطة العدو من ناحية، ولإتاحة الوقت الكافي من النهار قبل أن يُقْبَلَ الظلام فيختلط العدو بالصديق.

﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي: أَثَرُنَ بَعْدَ وَهْنِ الْغِبَارِ.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي: أَوْصَلْنَ رَاكِبَهُنَّ إِلَى وَسْطِ الْمَجْمَعَةِ وَشِدَّةِ الْقِتَالِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا هو جواب القسم، وهو الغرض الرئيس من السورة، والكنود: الكفور الجحود.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: يشهد على نفسه بحاله ومقاله؛ لَأَنَّهُ مُعْلِنٌ لِكُفْرِهِ، مُنَكِّرٌ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ، مغرورٌ بنفسه وبقوته.

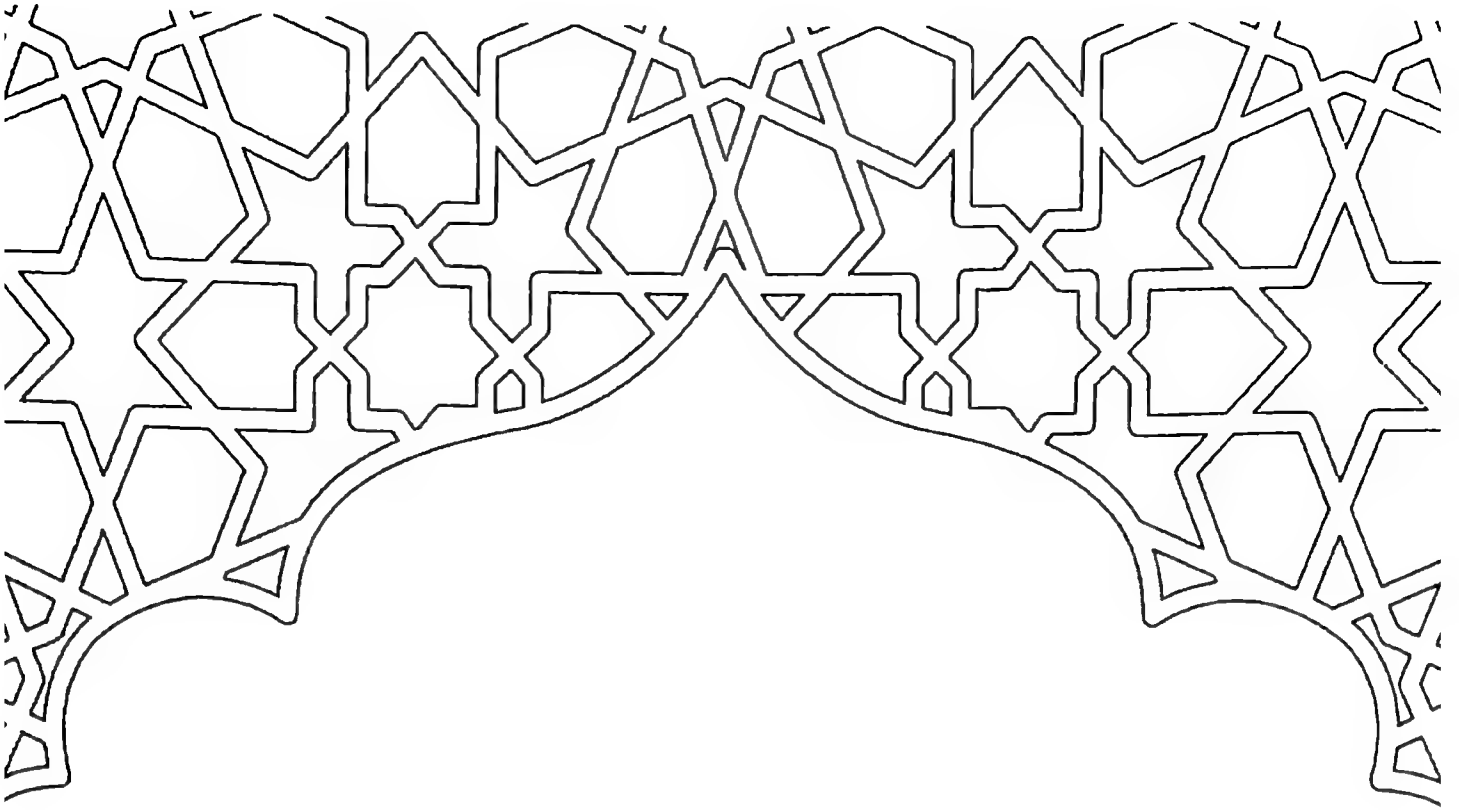
﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والخير هنا: المال والمتاع الزائل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَتُحْبَوْنَ أَلْمَالِ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ومحبَّة المال بذاتها ليست نقصًا، لكن اقترانها بالكفر والبخل والظلم هو الذي يجعلها في موقع الذم.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أَلَا يَعْلَمُ مَاذَا سَيَحْصُلُ لَهُ يَوْمَ الْبَعْثِ؟ حين

يُخْرِجُ النَّاسَ مِنْ قُبُورِهِمْ اسْتِعْدَادًا لِلْحِسَابِ، وَصُورَةُ الْقُبُورِ الْمُبْعَثَةِ تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ الرُّعْبَ وَالْهَلَعَ، وَهِيَ صُورَةٌ تَدْفَعُ الْإِنْسَانَ لِلتَّفَكِيرِ فِي مَصِيرِهِ وَعَاقِبَةِ أَمْرِهِ.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أَي: كُشِفَ مَا كَانَ يُخْفِيهِ فِي صَدْرِهِ مِنْ نَوَايَا وَخَفَايَا؛ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يُكْتَمُ أَوْ يُخْفَى، وَفِي الْعِبَارَةِ تَهْدِيدٌ لَا يُخْفَى.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَبِيرُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي هَذَا الْيَوْمِ، لَكِنَّ تَخْصِيصَ يَوْمِ الْحِسَابِ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ الْمَجَازَاةِ، فَنَاسَبَ التَّذْكِيرَ بِهِ وَالتَّحْذِيرَ مِنْهُ.



سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

المجلس الخامس والتسعون بعد المائتين: وما أدراك ما القارعة

ألهاكم التكاثر

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴿
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴿

وما أدراك ما القارعة

سورة القارعة لها موضوع واحد فقط، وهو التذكير بالآخرة وما فيها من أهوال وأحوال، وحسابٍ وجزاء، فتستهل استهلالاً مباشراً كأنه يُنذر بمداهمة الساعة ومجيئها على غفلةٍ من الخلق: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ وهي هنا مبتدأ ينتظر الخبر، فيأتي خبرها سؤالاً سريعاً ومفاجئاً ليزيدها إبهاماً، ويزيد السامع تشويقاً: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، ثم يتبع السؤال سؤال آخر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، ثم يأتي الجواب وقد شخّصت الأنظار والأسماع لمعرفة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ١﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٢﴾.

هذه هي القارعة؛ أن تُفَتَّتَ الجبال حتى تصير هباءً، فما بالك بما هو دُونُ الجبال! وبعد هذا الخراب الشامل، يأتي الحساب على ما قدّمه الإنسان في حياته على هذه الأرض، ويأتي مع الحساب الجزاء ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴿.

دقائق التفسير

﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسمٌ من أسماء القيامة؛ سُمِّيَتْ به لأنها تَقْرَعُ الناس وتصدّمهم بأهوالها وشدائدها.

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ سؤالان فُصِدَ بهما تنبيه السامع إلى خطورة الأمر، وأنه مما يستوجب السؤال عنه والاهتمام به.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ صورةٌ لدهشة الناس وخيرتهم، والفراش: حشرات صغيرة طيّارة، وقد يُطْلَقُ على الجراد أيضًا، والمبثوث أي: المنتشر.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ صورةٌ للخراب الذي يعمُّ الأرض؛ بحيث تكون الجبال كالصوف المنفوش المتطاير الذي لا يستقرُّ في مكان.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالطاعات والحسنات حتى غلبت ورجحت على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: عيشة يرضى عنها، والمقصود بها: الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿ فلم يكن له عمل يرجوه ويثقل ميزانه؛ إمّا لكونه مُفَرِّطًا في الواجبات مُنْهَمِكًا في المنكرات، وإمّا لكونه مَحْبَطَ العمل بكفره وشركه.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ الهاوية هي ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ وقد التبس على بعضهم معنى

﴿فَأُمُّهُ﴾، والأقرب - والله أعلم - أنه شبه النار بالنسبة لهذا الشقيِّ بأُمِّه التي تحتضنه ولا

تودُّ فراقه، وهذا على سبيل التوبيخ والتنكيل.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكْوِيْنَ﴾ ١ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ٢ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ﴾
 الْيَقِيْنَ ٥ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ﴾ ٦ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنَ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ﴾ ٨ ﴿

أحكام التكاثر

على صِلَةٍ بالقارعة، تأتي سورة التكاثر لتعالج حالة الغفلة التي يعيشها الناس في هذه الدنيا بسبب انهماكهم بجمع المال والتنافس في تكثيره والمباهاة به ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكْوِيْنَ﴾ ويُقاس على المال: كل متاع دُنْيَوِيٍّ؛ من نساء وأولاد، وأنصارٍ وأتباع، وجاهٍ وسلطانٍ، ثُمَّ لَمَّا يَحِينُ الأجل وينتقل إلى دارٍ ثانيةٍ ليس فيها سوى التراب، آنذاك سيعلم علمَ اليقين أنه كان غافلاً ومغروراً، وليت مسيرته تنتهي عند ذلك التراب، بل سيصطدم بما هو أشدُّ وأدهى؛ لأنَّ القبر لم يكن دار مقامة بل طريق زيارة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، ثم تكون الجحيم داره وقراره، أعاذنا الله منها ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنَ﴾ ٥ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ﴾ ٦ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنَ﴾، ثم تعود السورة إلى تحذير هؤلاء المتكاثرين والمنافسين ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ﴾.

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: أشغلكم التكاثر والتنافس في جمع المال ونحوه عن ذكر الآخرة والاستعداد لها.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: استمر تكاثركم وتنافسكم إلى الساعة التي تحين فيها آجالكم، فتنتقلون إلى مقابركم، وقد شبه الذهاب إلى المقابر بالزيارة؛ لأن المقابر ليست دار مقام، بل هي مرحلة محدودة ثم ينفذ منها الناس إلى مقامهم الحق في جنة، أو في نار.

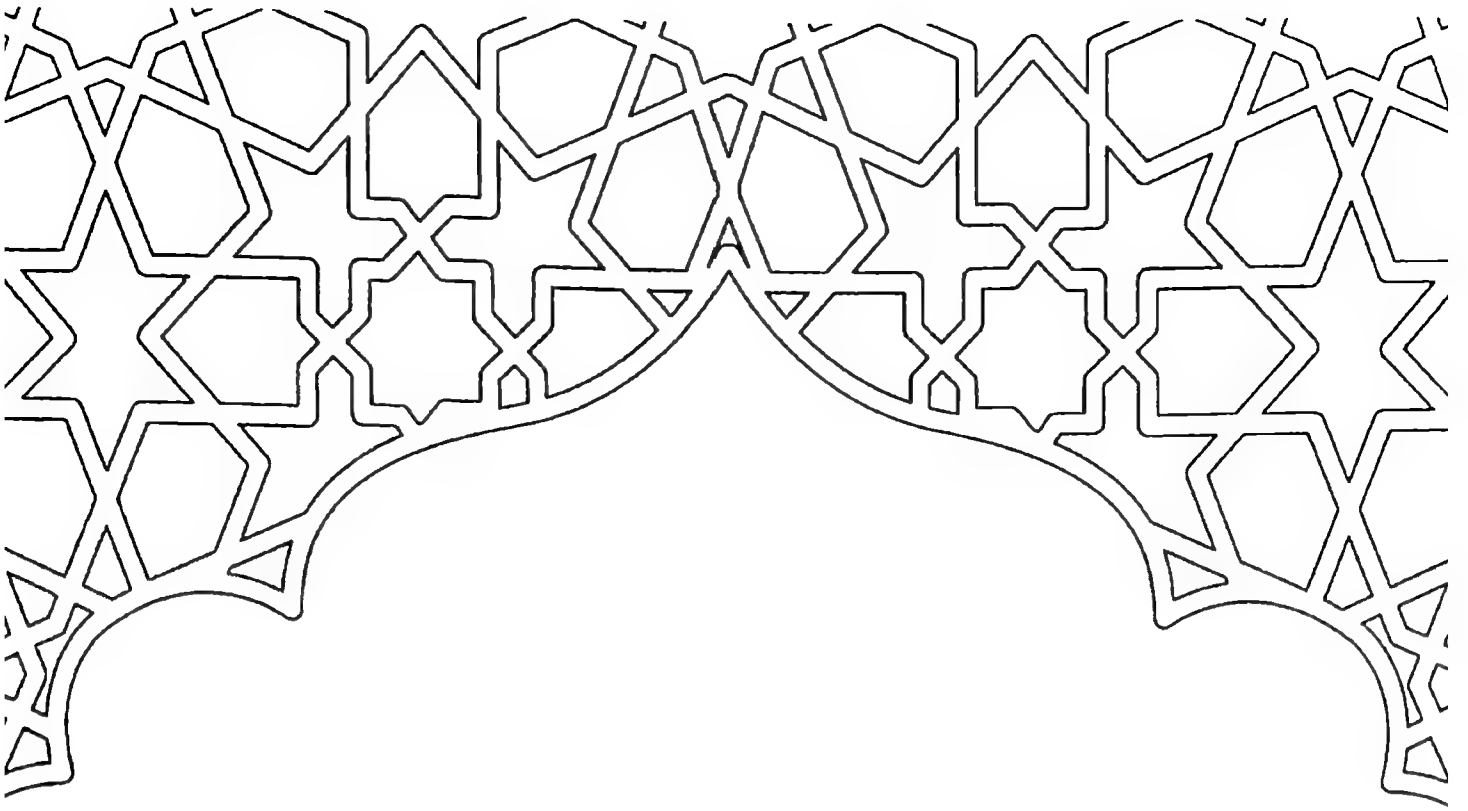
﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ تأكيد متكرر أن الناس سيعلمون الحقيقة هناك كما هي دون شك ولا غفلة؛ لأنها ستكون مصيرهم ومقرهم.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هذا شرط اعتراض جيء به دون جواب حتى تذهب الأذهان فيه كل مذهب؛ مما يزيد في حالة القلق والاضطراب الملجئ إلى التفكير الجاد، والبحث عن طريق الخلاص.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا تأكيد ثالث لقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو تأكيد معنوي، وليس جواباً لـ ﴿لَوْ﴾؛ لأن الرؤية هي من العلم الذي هو فعل الشرط، فلا تصح جواباً له إلا بتأويل بعيد.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا تأكيد رابع، وهذه المؤكّدات لها غاية واحدة، وهي أن تنتزع هذه القلوب من رققتها وغفلتها لتنبيهها إلى تلك الحقيقة القادمة والآية في الطريق طالت الأيام والساعات أم قصرت.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: لتسألن ولتحاسبن عن هذا الذي تكاثرتن به وتنافستم عليه.



سُورَةُ الْهُمَزَةِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

المجلس السادس والتسعون بعد المائتين: شروط النجاة

يحسب أن ماله أخلده

سُورَةُ الْعَصْرِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

شروط النجاة

تناول سورة العصر شروط النجاة بعد أن حذرت الإنسان من مصيره الخاسر إن لم ينتبه لنفسه ويسع بخلاصها، هذا هو موضوع هذه السورة، فهي تستهل بهذا التحذير الشديد: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ ثم تضع شروط النجاة كما يأتي:

أولاً: الإيمان ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ومعناه: التصديق الجازم بأركان الإيمان المعروفة؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره^(١).

ثانياً: العمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأقله: إبراء الذمة بفعل الواجبات، وترك المحرمات، ثم فوق ذلك درجات من الترقى في سلم القربات والمندوبات، والتحلي بأكرم الصفات، والتزهد عن الدناءات والمكروهات.

ثالثاً: التواصي بالحق ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وأقله: أمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر بقدر المستطاع، وتعليم لمن تحت ولايته على الدين وحسن الاتباع، وفوق ذلك درجات ترتقي إلى وراثه الوظيفة النبوية في العلم وتبليغه، وحل مشاكل الحياة في ضوئه، وإرشاد السائرين ودعوة الغافلين.

(١) وذلك للحديث المعروف بحديث جبريل ﷺ، وفيه: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ، واللفظ له، ينظر: صحيح البخاري ٢٧/١، وصحيح مسلم ٢٩/١.

رابعاً: التواصي بالصبر ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وأقلُّه: حمل النفس، ونُصح من يلزم نُصحه بالصبر على الواجبات، بمعنى: الثبات عليها، والصبر عن المحرّمات، بمعنى: الابتعاد عنها وعدم التشوّف لها، والصبر على المقدّورات، بمعنى: ضبط النفس عن الجزع المُفْضي إلى السخط والكفران، ثمّ فوق ذلك تكون الدرجات العُلا في الصبر على مجاهدة النفس، وتحمل محن الدعوة، وتكلفة الجهاد، وكلّ ما يتّصل بالشأن العام؛ من دفع الظلم، وإقامة العدل، فكلّ ذلك بحاجة إلى العزم والصبر.

خامساً: وقد تضمّنت الآيات شرطاً ضمّنيّاً، وهو التعاون والتكاتف والتكافل بين أهل الحقّ؛ فكلّ الشروط الأربعة جاءت مسندةً إلى واو الجماعة، والجماعة هي الأُمّة المؤمنة، فلا بُدّ من إعلان الانتماء لها، والعمل معها وفي صالحها، إضافةً إلى أنّ فعل التواصي لا يتحقّق إلّا بالمشاركة والتفاعل مع الناس، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَالْعَصْرِ﴾ يُقَسِّمُ الله تعالى بوقت العصر، وهو الوقت المعروف بين انتهاء وقت الظهر إلى غروب الشمس، وهو الوقت الذي يتهيأ الناس فيه للانتهاء من أعمالهم والتوجّه إلى سكّنتهم وراحتهم، فهو بين وقت العمل ووقت الخلود إلى النوم، وهو الوقت الأنسب للزيارات، وتوطيد العلاقات، ومن ثمّ كان مُناسِباً للتذكير بالتواصي والتناصح بالحقّ وبالصبر.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسم، وقد اجتمع في تأكيد معناه عدّة مؤكّدات: أولها: القسم، وثانيها: حرف إنّ، وثالثها: (أل) التعريف، وهي للاستغراق؛ بمعنى أنّها تُقيد العموم لكلّ أفراد الإنسان إلّا من استثنّتهم السورة فيما بعد، ورابعها: حرف اللام في ﴿لَفِي﴾ فهي للتأكيد أيضاً، واجتماع هذه المؤكّدات تحفيزٌ للعاقل أن يفكر بجِدٍّ في مصيره وعاقبة أمره، وسبيل خلاصه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَدَّمَ الْإِيمَانَ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ، فَلَا يَتَصَوَّرُ الْعَمَلُ الصَّالِحَ الْمَقْبُولَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ دُونِ إِيْمَانٍ، وَأَخَّرَ الْعَمَلَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ ثَمَرَتُهُ، وَعَطْفُ الْعَمَلِ عَلَى الْإِيمَانِ يُفِيدُ أَنَّ الْعَمَلَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَثَمَرَاتِهِ، وَلَيْسَ مِنْ أَرْكَانِهِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمَغَايِرَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ مَهْمَا بَلَغَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَمَلٌ لِنَشْرِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَتَثْبِيتِ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ سَيُحَاصِرُ وَيُضَعِّفُ وَيَغْلِبُهُ الْبَاطِلُ.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لِأَنَّ التَّوَاصِيَّ بِالْحَقِّ يُعَرِّضُ الْمُتَوَاصِينَ لِعِدَاوَةِ أَهْلِ الْهَوَى وَالضَّلَالِ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّدَرُّعِ بِالصَّبْرِ وَالتَّوَاصِي بِهِ أَيْضًا.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝٨ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ۝٩﴾

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ

على صِلَةٍ بموضع سورة العصر، تأتي هذه السورة لتقدّم نموذجًا من أولئك الخاسرين الهالكين الذين يقفون عقبةً بوجه المؤمنين الصالحين المتواصين بالحق، والمتواصين بالصبر، إنّه النموذج الذي لا يكفُّ عن همز المؤمنين ولمزهم ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. من أولئك الذين يظنون أنّ معيار النجاح والنجاة إنّما هو بجمع المال والحطام الزائل، وتعداده والتفاخر به ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ٢ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ٣ أولئك هم الذين يتوعدّهم الله بعذابه الشديد ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ٤ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٨ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ٩.

دقائق التفسير

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذا وعيدٌ من الله لكلّ مَنْ يُكثِرُ من الهمز، ومعناه: الإشارة الخفية بالانتقاص من الآخرين، وقد نزلت في مجموعة من مشركي مكّة كانوا يلُمّزون رسول الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: كثير اللّمز، ومعناه: الانتقاص أيضًا؛ وجيء به لتنويع اللفظ، وترسيخ المعنى، والفرق الذي يذكره المختصّون في دقائق اللغة ليس بمؤثّر في النتيجة، ولا في المعنى العام.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ إحصاء له، وحرصًا عليه، ومباهاة به، وصيغة ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ تُوحي بأنه يعدّ ماله مرة بعد مرة، كناية عن شدة ولّعه به.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ هذا على سبيل التوبيخ له، بمعنى أن من يرى حرصه وكثرة عدّه لماله يظنّ فيه أنّه يرى في ماله سببًا في خلوده وإبعاد الموت عنه.

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: أنّه لن يُخلد، بل سيموت وسيُلقي في جهنم، والحطمة اسم من أسائها؛ لأنّها تُحطّم كلّ داخلٍ فيها، والتحطيم هنا هو العقوبة المناسبة لتكثيره وهمزه بالمؤمنين ولمزه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ استفهام يقصد به تعظيم ما يُستفهم عنه، والتهويل من شأنه وخطره.

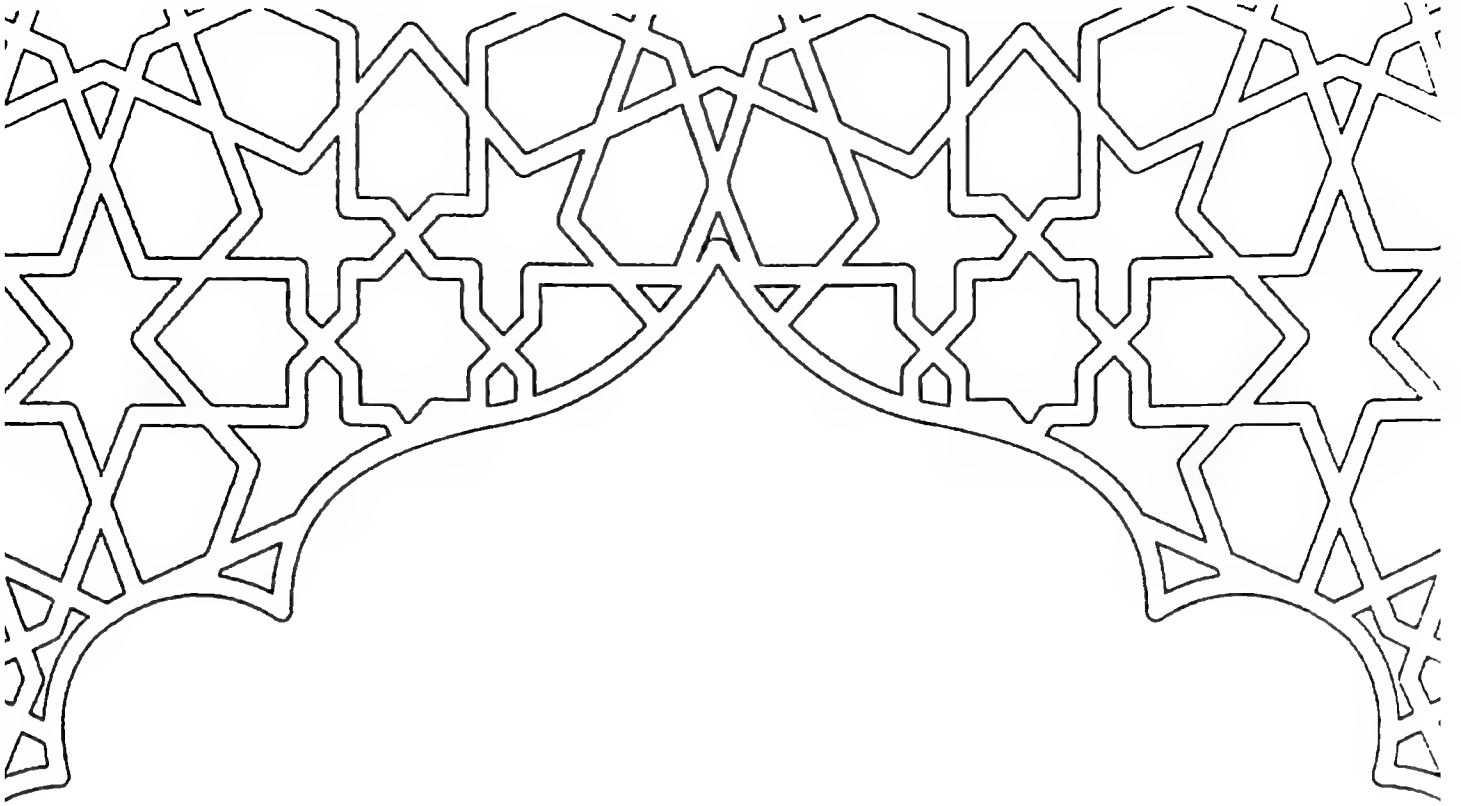
﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي: المسعرة، وهذا هو جواب الاستفهام، وهذا هو معنى الحطمة.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفِتَنِ﴾ بمعنى أنّ لظاها ينقذ إلى أفئدتهم وأجوافهم.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾ أي: مغلقة فلا مخرج منها ولا مفرّ.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ والعمد جمع، مفردة عمود، وهو معروف، وموقعها في صورة جهنم -

أعاذنا الله منها - ربّما له علاقة بأبواب جهنم وأسوارها الموصدة عليهم، فتكون مُمدّدة على طول جهنم ومُحيطها، وربّما تكون لغرض آخر لا تتحصّل لنا صورته وغايته، لكن الإخبار به يزيد من حالة الرّهبة، وهذا هو المقصود؛ إذ الغاية الكبرى لهذه الأخبار إنّما هو الترهيب منها، ودفع الناس للنأي بأنفسهم عن أسبابها وطرقها، والله أعلم.



سُورَةُ قُرَيْشٍ

سُورَةُ الْفِيلِ

المجلس السابع والتسعون بعد المائتين: أصحاب الفيل

أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

سُورَةُ الْفِيلِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ
بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

أصحاب الفيل

تناول هذه السورة حدثًا عظيمًا وقع قبل البعثة المحمدية؛ يتلخص في أن أبرهة الحبشي كان قصد الكعبة المشرفة بجيش كبير، بقصد هدمها وتحويل العرب عنها إلى دار أخرى بناها ليجمع العرب حوله، ويفرض عليهم سلطانه، ولم يكن في قريش وقبائل العرب من يقوى على صدّه ومنعه، فتولّى الله أمر حماية بيته الحرام، فنزلت هذه السورة تُذكر الناس بذلك الحَدَث العظيم، وآياته الدالة على وحدانيّة الخالق وعظمته وقدرته ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾.

وكان ممّا سلّطه الله على جيش أبرهة طيورٌ رَمَت جُنْدَه بحجارةٍ مخصوصةٍ حتى أهلكتهم عن آخرهم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

لقد جاء التذكير بهذا الحَدَث؛ تنبيهًا لعقول أهل مكّة أن أصنامهم هذه التي يعبدونها من دون الله لم تكن لتدفع عنهم عدوان أبرهة وفيله وجنده، وأن الله الذي حمى بيته الحرام قادرٌ على أن يحيي دينه ونبيّه وعبادته المؤمنين، وفيه أيضًا تأكيد ارتباط هذه الأمة المحمدية بهذه البعثة المباركة؛ فهي جزءٌ من هويتهم وعقيدتهم، وشعائر دينهم.

ويلحظ هنا أيضًا أن تعليق القرآن على هذا الحدث قد خلا من الإشارة إلى أن الكعبة في ذلك الوقت كانت تُعجُّ بالأصنام، وفي هذا تعليمٌ للأمة بطريق الإشارة أن دفع العدو الصائل الذي يُريد مسح معالم الأرض وتغيير هويتها مُقدِّمٌ على معالجة الأمور الداخلية مهما كان خطرهما؛ فالحفاظ على الأرض والناس ضرورةٌ حتى تأتي الفرصة المناسبة للإصلاح، وهكذا كان أمر مكة، فالله حماها رغم ما فيها من أصنامٍ وجاهليَّةٍ جهلاء حتى جاء وقت البعثة المحمَّديَّة.

ويُشبهُ هذا: موقف هارون مع بني إسرائيل لما عبدوا العجل، فلم يُفارقهم، وحينما عاتبه أخوه موسى ﷺ ردَّ عليه بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [طه: ٩٤]، بمعنى أنه أراد الحفاظ عليهم حتى يرجع إليهم موسى؛ فهو الأقدر على إصلاحهم، وقد سكَّت موسى، وأقرَّ الله هارون على حكمته هذه، وهذا درسٌ دقيقٌ ونفيسٌ في إدارة المجتمعات، وترتيب الأولويات، وربط الغايات بالمقدمات، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الاستفهام هنا تقريرٌ لتواتر القصَّة ومعرفة أهل مكة بها من حضر ومن لم يحضر، فنزل ذلك العلم منزلة الرؤية، وأصحابُ الفيل: هم جيش أبرهة الحبشي، واستعمال الفيل في القتال لم تعهده العرب، بل هو من صنيع الفرس والأحباش؛ ولذلك اشتهرت الواقعة باسم الفيل.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في ضلالٍ وضياحٍ، رغم كثرتهم، وقوَّة جيشهم، واستسلام العرب لهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ كلمة طير تُطلق على المفرد، وعلى الجمع، والمقصود بها هنا الجمع، والأبابل اسم جمع لا مفرد له، وهو بمعنى: جماعات، والأصل فيها أنها طيور على الحقيقة، ومن تأولها بالأمراض والجراثيم فقد أغرب وتكلَّف التأويل بلا مسوِّغٍ إلَّا

الاستبعاد، والاستبعاد لا محل له هنا؛ لأنَّ المقام مقام بيان آيات الله وإعجازه لخلقه، وقدرةُ الله لا يحدُّها حدٌّ ولا سدٌّ.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ مَخَصَّصَةٌ لَهُمْ، وقد وردَ ذِكْرُ هَذِهِ الْحِجَارَةِ فِي قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ [هود: ٨٢]، فدلَّ أنَّهَا مِنَ الْحِجَارَةِ الْمُعَدَّةِ لِإِهْلَاكِ الْمُفْسِدِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُوِلٍ﴾ أَي: كَبَقَايَا الزَّرْعِ الَّتِي دَاسَتْهُ الدَّوَابُّ وَأَكَلَتْهُ حَتَّى تَرَكَّتْهُ مُهَشَّمًا مُبَعَثَرًا، وَهِيَ صُورَةٌ لِجَيْشٍ أَبْرَهَةَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَتْهُ هَذِهِ الْحِجَارَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

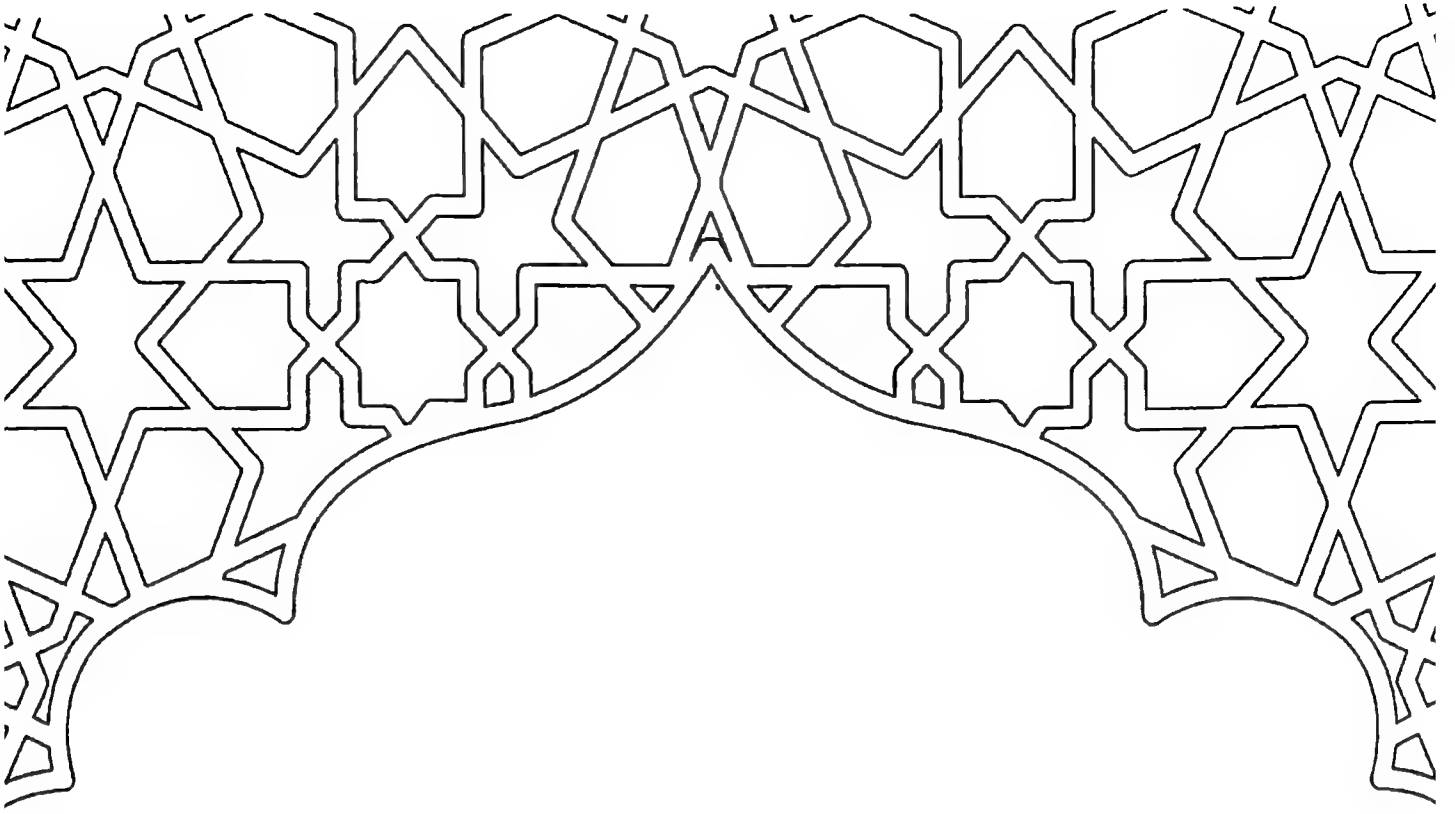
على صِلةِ بسورة الفيل والحديث عن مكّة وأمنها وحمايتها، تأتي هذه السورة لتذكّر قريشاً بنعمة الله عليهم في أمنهم، وفي أسباب رزقهم، فبعد هلاك أبرهة وجيشه، زادت هيبة البيت في نفوس العرب، وزاد تعظيمهم له، وأصبحت قريش آمنة في إقامتها، وفي ظعنها، وطرق تجارتها لا يتعرّض لهم أحدٌ، ولا يُنافسهم أحدٌ، وقد ذكّرهم القرآن بكلّ هذا ليشكروا الله على نعمائه، وليعبدوه وحده دون شريك أو وسيطٍ ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

ويلحظ هنا ربط القرآن بين الأمن وبين الغذاء، وهذه معادلةٌ علميّةٌ دقيقةٌ يُشير إليها القرآن الكريم لضمان استقرار المجتمع؛ فالشعوب الجائعة التي لا تقدّر على سدّ حاجاتها الضرورية تكون مؤهلة للفوضى، وانتشار الجريمة، وشيوع الرشوات والسرقات، والمجتمع المضطرب والفوضوي لا يمكن أن يُنتج ما يسدّ به حاجة أفرادهِ، وهكذا يُغذي الجوع الخوف، ويُغذي الخوف الجوع.

﴿لَا يَلْفِ قَرْنِشٌ ۝١﴾ إِلَفِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿١﴾ أي: لما تألفه قريش في شأن تجارتها من رحلة في كل شتاء إلى اليمن، وأخرى في كل صيف إلى الشام، وعدّ كثير من المفسرين اللام التي في صدر السورة لام تعليل مُتعلّقة بقصة الفيل، أي: أن الله أهلك جيش الاستبعاد، والاستبعاد لا محلّ له هنا؛ لأنّ المقام مقام بيان آيات الله وإعجازه لخلقه، وقدرة الله لا يحدها حد ولا سدّ.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ مَخْصَصَةٌ لَهُمْ، وقد ورد ذكر هذه الحجارة في قصة لوط عليه السلام: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ [هود: ٨٢]، فدَلَّ أنّها من الحجارة المُعدّة لإهلاك المُفْسِدين، والله أعلم.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كبقايا الزرع الذي داسته الدواب وأكلته حتى تركته مُهَشَّمًا مُبْعَثَرًا، وهي صورة لجيش أبرهة بعد أن أهلكته هذه الحجارة، والله أعلم.



سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

المجلس الثامن والتسعون بعد المائتين: علاقة الدين بالأخلاق

فصلٌ لربِّك وانحر

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ﴾

علاقة الدين بالأخلاق

تناول هذه السورة طرفاً من القيم الدينية والأخلاقية؛ لتأكيد صلة الدين الحق بالأخلاق الفاضلة، وقد جاء هذا أولاً في سياق تنديد القرآن بسلوك المشركين وطريقة تعاملهم مع الضعفاء والمساكين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾؛ حيث جعل كفرهم بالدين وبعقيدة البعث والجزاء سبباً فيما هم عليه من قسوة وفظاظة، وسوء خلق.

وعليه فإنَّ المؤمن الصادق الإيمان لا بُدَّ أن يُقْبَلَ على الطاعات، وكلُّ وجوه الخير والبرِّ، ولأنَّ هذا المفهوم هو المُتبادِر إلى الذهن، استدرك القرآنُ استدراكاً دقيقاً مُنبِّهاً إلى أنَّه ليس كلُّ مَنْ يدَّعي الإيمان صادقاً في دعواه، وليس كلُّ مَنْ يُصَلِّي تُنْتَظَر منه هذه الأخلاق الحميدة؛ فهناك أقوامٌ اتَّخذوا الدين مراءاةً ومباهاةً، فهؤلاء لا تختلف أخلاقهم في النتيجة عن أولئك المشركين، بل هؤلاء جريمتهم أشنع؛ لأنَّهم جمعوا إلى سوء أخلاقهم أن شوَّهوا دينَ الله، وأسَاءوا إلى الصلاة والمُصلِّين ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ ٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾ هو الذي يُكذِّبُ بالبعث وما فيه من حسابٍ وجزاءٍ، وهو تكذيبٌ بالدين كله؛ لأنَّ مَنْ كَذَّبَ بِالْآخِرَةِ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْإِسْلَامِ كُلِّهِ، وجمله ﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهامٌ يُقصدُ به تنبيه السامع إلى أهميَّة ما بعده، وتشويقه لمعرفة.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بقوة وشِدَّة.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحضُّ غيره، ومن باب أولى أَنَّهُ لَا يَطْعَمُ هُوَ، وكونه لَا يَحْضُ فِيهِ إِشَارَةٌ أَنَّهُ يَأْتِفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّكَبُّرِ، فيعدُّ الاهتمام بالضعفاء والمساكين مما لَا يَلِيقُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِهِ، وهذه صِفَةٌ موجودةٌ عند كثيرٍ من أمثال هؤلاء، فتراه يُبذِّرُ مَالَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فإذا دُعِيَ إِلَى الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ أَعْرَضَ وَاسْتَكْبَرَ.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ هذا صِنْفٌ آخَرُ، يُثَبِّتُ الْقُرْآنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ، لكن صلاتهم هذه لَا يَقْصِدُونَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ؛ إِنَّمَا يَرَاءُونَ بِهَا النَّاسَ، وبالتالي فهم سَاهُونَ عَنْ حَقِيقَةِ الصَّلَاةِ، غَافِلُونَ عَنْ غَايَتِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ فتشابهت أفعالهم مع أفعال المشركين.

وقد وهم مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِؤَلَاءِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ، بدعوى أَن قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني أَنَّهُمْ تَارِكُونَ لَهَا لِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ؛ فَالسهو عن الصَّلَاةِ لَا يَعْنِي نَفْيَهَا جُمْلَةً، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَعَادَ عَلَى وَصْفِهِمُ الْأَوَّلُ بِالْإِبْطَالِ؛ إِذْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ثُمَّ إِنَّ تَأْوِيلَ الْمُصَلِّينَ هُنَا بِالْمُشْرِكِينَ مُسْتَبْعَدٌ غَايَةُ الْإِسْتِبْعَادِ، وَمُسْتَغْرَبٌ غَايَةُ الْغَرَابَةِ.

كما أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ أَهْلُ الْإِيْمَانِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُمُ السَّهْوُ الَّذِي لَا يَتَنَزَّهُ عَنْهُ فِي الْعَادَةِ أَيُّ مَكْلَفٍ، وَلَوْ قَصِدَ هَذَا الْمَعْنَى لَقَالَ: (فِي صَلَاتِهِمْ)، فَتَحْصُلُ مِنْ كُلِّ هَذَا أَنَّ

القرآن يتكلّم عن صنفٍ آخر يُصلُّون مع المصلين، لكنّهم مُهمِلون لصلاتهم ولا يعتنُّون بها في خلواتهم، ولا يسعون لتحقيق غاياتها في حياتهم.

وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمتنعون المعونة عن المحتاج إليها؛ لشدة بُخلهم، وابتعادهم عن طريق الخير.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

فصلُ لربِّك وانحر

هذه السورة ترتبط بما قبلها؛ من حيث تأكيد الصلة بين الدين والأخلاق ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فالصلاة لله وهي عبادة خالصة له، والنحر عبادة أيضًا، لكنها مرتبطة بمساعدة الآخرين، وتقديم الخير لهم، فالمُصَلِّي الحق هو مَنْ يحرص على إعانة الآخرين ومحبة الخير في كل وجه.

وفي السورة ميزة استهلَّت بها تنبيهاً لأهميتها؛ لأنها تخص الحبيب المصطفى ﷺ، وهي إكرامُ الله له بالكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وفي مُقابل هذا الاستهلال جاء الختام إكراماً له ﷺ أيضاً، وحمايةً لمقامه الشريف، وإرغاماً لمُبْغِضِهِ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو نهرٌ في الجنة حصَّ الله به نبيُّه ومُصطفاه ﷺ، واسمه يُوجي بالخير العميم، والفضل المُستديم.

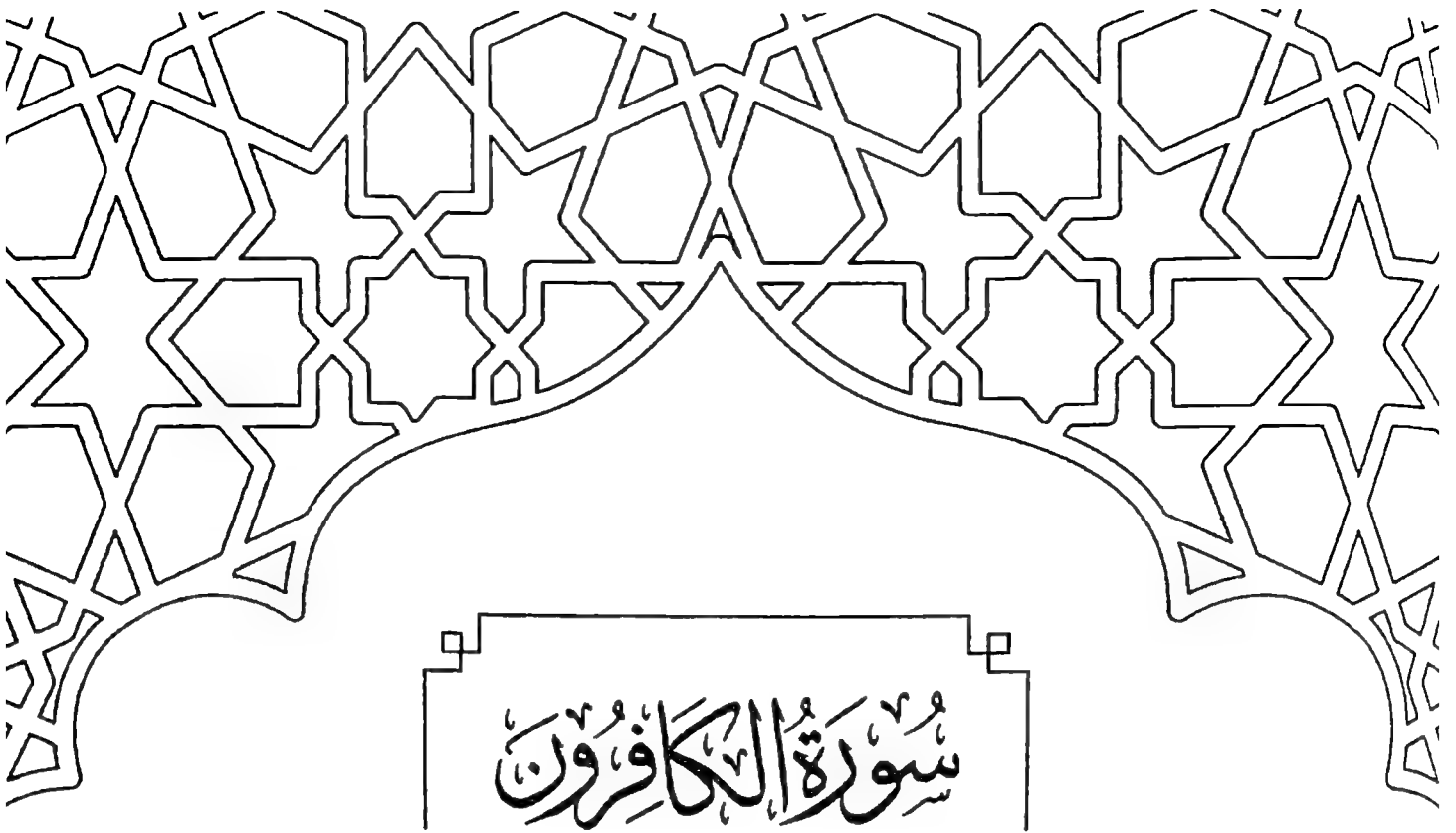
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: أقم الصلاة شُكراً لله على ما حَبَّاك به من الاصطفاء والإكرام، وفيه إشارة إلى المبادرة بالطاعة إزاء كلِّ نعمة، فذلك من شكرها، وهذه نفيسة تربويَّة لكلِّ مسلم، وبالشكر تزيد النعم وتدوم.

﴿وَانْحَرْ﴾ أمرٌ بنحر الأضاحي، وهي من الشكر أيضاً، وفيها تعزيزُ روح التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع المسلم، وإشاعة المحبة والودِّ فيما بينهم.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: عدوك ومُبْغِضَكَ.

﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع عن الخير، والمحروم من البركة في دنياه وآخرها.

وفيه إشارة هنا إلى أنَّ فعل الخير وشُكر الله على نعمه يُقَرِّب المؤمنين من النصر، ويدفع عنهم شرَّ عدوهم.



سُورَةُ الْمَسِيكِ

سُورَةُ النَّصْرِ

المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين: لكم دينكم ولي دين

نهاية الصراع مع قريش

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

موضوعُ هذه السورة هو إعلان المفاصلة مع الكفر، والتمايز بين طريق الحق وطريق الباطل، ولقد كان هذا في بداية الدعوة المكيّة وبعد محاولاتٍ من زعماء مكّة لاسترضاء النبيّ محمد ﷺ أن يعبد آلهتهم يوماً، ويعبدوا إلهه يوماً، ورُبّما كان هذا خِداً عنهم واستدراجاً لإبطال نبوّته أمام الناس لو ساوَمَهم على ذلك، وأيّاً ما كانت نواياهم، فإنّ هذه السورة تُؤسّس لمبدأ عظيم، وهو أنّ المساومة على الدين مرفوضةٌ مهما كان ضعفُ المسلمين وقلةُ عددهم وحيلتهم، من هنا جاء هذا النداء الصريح والواضح ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②.

ولقد كان في هذا تيسُّسٌ للمشركين، وتثبيتٌ للمؤمنين، وتبيينٌ للناس أجمعين أن يختاروا لأنفسهم هذا الطريق أو ذاك، فلا مجال للجمع بين الطريقين أو الوقوف بينَ بين. ثمّ أكّدت السورة أن زعماء قريش هؤلاء الذين ساوَمُوا رسولَ الله ﷺ لن يؤمنوا ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهذه نبوءةٌ بسوء الخاتمة لهم، وهؤلاء وأمثالهم هم المقصودون بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وليس عاتة الكافرين.

ثم أكد هذه المفاصلة: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، وقد جاءت الجملة المؤكدة هذه بصيغة الجمل الاسمية؛ لإفادة الثبوت واستقرار الحال بعد أن كانت الجملة الأولى فعلية تُفيد نفي الاستقبال.

ثم جاء توضيح المقصود بهذه المفاصلة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ فهي مُفاصلة بين دينين، وليست مُفاصلة في العلاقات الاجتماعية والمشاركات الحياتية العامة؛ من بيع وشراء، وجوار، وتعاون في مجالات النفع العام؛ كإغاثة الملهوف، ومساعدة الضعيف، فضلاً عن صلة الأرحام، وأداء الحقوق والأمانات.

دقائق التفسير

﴿قُلْ يَتَّابِعُونَ الْكَافِرُونَ﴾ سَمَّاهُمْ بِمَا يُحَقِّقُ التَّمَايُزَ عَنْهُمْ، وَلَيْسَ هَذَا شَرْطًا فِي مَخَاطَبَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ نَدَاؤُهُمْ بِـ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ)، وَ (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ)، وَ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)، وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي مَخَاطَبَتَهُمْ بِالاسْمِ الَّذِي يُنَاسِبُ الْحَالِ وَالْمَقَامَ.

﴿لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ﴾ أَي: لَا أَعْبُدُ أَصْنَامَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أَي: وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ اللَّهِ الَّذِي أَعْبُدُهُ؛ لِأَنَّكُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ﴿مَّا﴾ لَا يَقْتَصِرُ إِطْلَاقُهَا عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ، فَإِطْلَاقُهَا عَلَى الْعَاقِلِ وَارِدٌ وَصَحِيحٌ إِذَا أُمِّنَ اللَّبْسُ.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أَي: وَلِيَ دِينِي، وَحُذِفَتِ الْبَاءُ تَخْفِيفًا، وَقَدْ بَقِيََتِ الْكُسْرَةُ عَلَامَةً عَلَيْهَا، وَفِيهِ جَوَازُ إِطْلَاقِ لَفْظِ الدِّينِ عَلَى مَا يَعْتَقِدُهُ النَّاسُ دِينًا وَلَوْ كَانَ بَاطِلًا.

سُورَةُ النَّصْرِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

نهاية الصراع مع قريش

في سورة الكافرون كان إعلان المفاصلة بين الإسلام والوثنية، وكانت بداية الصراع الفعلي بين الفريقين؛ حيث رفضت سورة الكافرون نهج المساومة والحلول الوسط، وفي هذه السورة يتم الإعلان عن نهاية ذلك الصراع المرير باستسلام الوثنية، ودخول المسلمين مكة فاتحين مُنتصرين ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وهو فتح لم تُرق به الدماء، بل فُتحت به القلوب حتى دخلت قريش ثم القبائل العربية الأخرى في هذا الدين ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

ثم تختم السورة بتسبيح الله وحمده واستغفاره؛ فهذا من دلائل الشكر على نعمة الله بنصره وفتحه المبين ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ هو فتح مكة، والفتح أكبر من النصر، ولا يكون الفتح إلا بعد نصر؛ إذ النصر غلبة جيش على جيش، والفتح استسلام البلاد للجيش المنتصر، وقد جاء فتح مكة ثمرة لسلسلة من الانتصارات التي حققها المسلمون على مشركي مكة.
﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ إشارة إلى أن الناس يُقبلون على

النجاح الظاهر والإنجاز المشهود أكبر من إقبالهم على ظهور الأدلة المعرفية، وسطوع
البراهين العقلية، فالقرآن الذي رفّضته قريش فكانت المفاصلة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هو
نفسه القرآن الذي آمنوا به أفواجاً بعد الفتح، وفي هذا درسٌ بليغٌ للدعاة والعاملين للإسلام
أنَّ صناعة النموذج الناجح هو الذي يجعل الناس يُقبلون على الدعوة ويحتضنونها، أمّا
الاعتماد على النقاش والاستدلال المنطقي فقد ينفع المهتمين بهذا الشأن، لكن أفواج الناس
لا تنتبه لهذه المناقشات ولا الحوارات.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: سَبِّحْهُ تَسْبِيحًا مُصَاحِبًا لِلْحَمْدِ.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ وأنت في حالة النصر، وهذا درسٌ تربويٌّ آخر للأمة؛ فنجاحها لا يُعفيها
من مراجعة مواقفها وتقويم أخطائها، والنصر لا يُعفيها من استذكّار ذنوبها، واستغفار الله
منها، بل هذا من الشكر الواجب، وهو ضمانٌ ألا ينقلب النصر إلى حالةٍ من الاغترار بالقوة،
 وإهمال العهود، وتضييع الحقوق.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: يقبلُ التوبة عن عباده كلما تابوا إليه، وهذا من رحمته تعالى
بعباده، وعِلْمِهِ بحاجتهم إلى بابه الواسع هذا.

سُورَةُ الْمَسِّدِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَأَمْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

نموذجٌ يعرضه القرآن الكريم لأولئك النفَر الذين تصدّوا لهذه الدعوة من يومها الأوّل، وهو الوحيد الذي سمّاه القرآن باسمه الذي عُرِفَ به، وقد توعدّه الله بالخسران المؤكّد:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ②﴾.

وقد كان عمّ رسول الله ﷺ فلم تشفع له قرابته، وفي هذا آيةٌ على عدل الإسلام، وأنّه لا يُحابي أحداً على الحقّ، وآيةٌ على صدقه ﷺ وأمانته في تبليغ هذا الدين.

وفيه آيةٌ أخرى؛ أنّه تعالى توعدّ أبا لهبٍ بالنار ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ بمعنى أنّه يموت على الكُفْرِ، وقد نزلت السورة وهو حيٌّ، وكان باستِطاعته أن يتظاهر بالإيمان لتكذيب هذا الإخبار، لكنّه خاب وخسر، وقد أشرك القرآن معه زوجته، وكانت من أشدّ النساء عداوةً لهذا الدين، فتبّت كما تبّ، وخسرت كما خسر ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾.

دقائق التفسير

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ دعاءٌ عليه بالخسران، وهو أسلوبٌ من أساليب التنديد والتشنيع، ومثله: ﴿قَبِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وهو متضمّن الإخبار بسوء حاله أيضاً، وهذا هو محل التشنيع.

وأبو لهب هو عمُّ رسول الله ﷺ، واسمُه عبد العُزَّى بن عبد المطلب؛ وكانوا يسمونه أبا لهبٍ لشدةِ وضاعة وجهه وإشراقته، وقد اختارَ له القرآن هذا الاسم؛ تفاديًا لذكر اسمه (عبد العُزَّى) وهو اسمٌ صريحٌ في الشرك - والعياذ بالله -، ولمناسبة اللهب للهَب جهنم التي توعده الله بها، ولمناسبتها أيضًا لمعنى الخطب الذي تحمله امرأته، وهذا من بديع الإشارات القرآنية، وكل القرآن بديع.

﴿وَتَبَّ﴾ تحتمل التأكيد، وتحتمل الإخبار على معنى أنه قد تحقق بالفعل ما توعده الله به آنفًا.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ﴾ دلالة أنه كان من أصحاب الأموال، لكن ماله هذا وكل ما كسبه لم يُغن عنه من عذاب الله شيئًا.

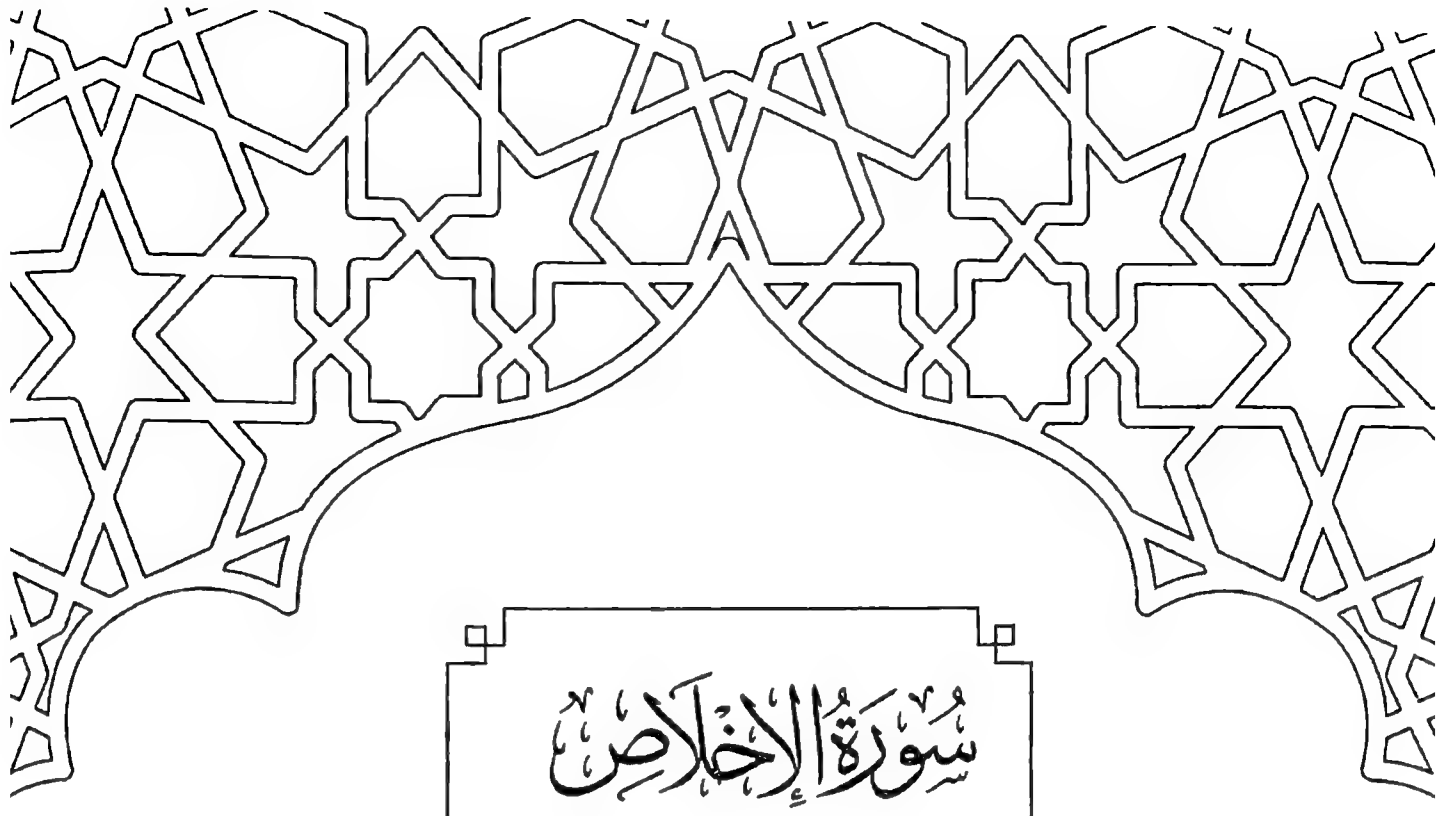
﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وعيدٌ شديدٌ مُتضمِّنُ الإخبار الجازم بسوء خاتمته وهلاكه على الكفر، فمات على ذلك، وهذه من معجزات القرآن الظاهرة والخالدة.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ أي: مشتركة معه في هذا الوعيد؛ لاشتراكها معه، ومعاونتها له في عداوته لرسول الله ﷺ ولدعوته.

﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ هذا جزءٌ من وعيدها الذي توعدها الله به، بمعنى أنها ستحملُ عذاب النار ووقودها المُستعر كما كانت تحملُ وزرَ عداوتها وبُغضها وتأليبها على رسول الله ﷺ، وحملها الحطب في الدنيا قد يكون على حقيقته، وقد يكون كناية عن حملها الفتنة والنميمة وتأليب الناس على هذه الدعوة، وهذا المعنى أقرب وأنسب لها، ولمكانتها في قومها، وقد جُوزيت في النار بما يُناسب فعلها.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ﴾ استكمالًا لصورتها البشعة في عداوتها، وحملها لأوزار الكراهية والعدوان والتأليب، وسعيها الخبيث في ذلك، ولصورة جزائها الذي ستُخزى به في جهنم.

والجيد: العنق، والمسد: الليف الذي تُصنع منه الحبال في العادة.



سُورَةُ الْبَنَاسِ

سُورَةُ الْفَلَقِ

المجلس المُتَمَّم ثلاثمائة: حقيقة التوحيد

التعوذ من الشر والحسد

التعوذ بالله من شياطين الإنس والجن

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾

حقيقة التوحيد

التوحيد أساس الإسلام، وقاعدته التي يُبنى عليها، وقد جاءت هذه السورة العزيزة مخصصة لبيان معنى التوحيد وتخليصه عن أي شائبة؛ فبدأت بإثبات وحدانيته تعالى المطلقة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو الذي لا رب سواه، ولا معبود بحق عداه.

ثم بينت صفة عظمة الله تعالى، وهي من أسس التوحيد ومعانيه الرئيسة: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، والصمد: هو سيد هذا الكون الذي يُديره ويُدبر أمره؛ فهو مُقدر المقادير، ومُشرع الأحكام، وكل حاجات الخلق بيده، فلا ينبغي أن يُقصد غيره.

ثم عرّجت السورة لنفي بعض المعاني الفاسدة التي علقت بأهل الكتاب وغيرهم في تصوّراتهم الخاطئة والجاهلة عن الله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فالله سبحانه خلق الوالد والولد، وليس محتاجاً لأحدهما، فهو المتفرد سبحانه بالجلال والكمال، ونسبة الولد إلى الله كما تقول النصارى في المسيح ﷺ، أو كما يقول المشركون في الملائكة ﷺ مُنافٍ لعقيدة التوحيد، وداخلٌ في حقيقة الشرك.

ثم تختتم السورة ببيان معنى آخر من معاني التوحيد، وهو تفرّده سبحانه في ذاته العلية وفي أسمائه وصفاته، وهو المعنى المُقتضي بالضرورة إبطال الشبيه والنَدِّ والمُماثل من كل الرجوه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأمر بالقول هنا يُفيد معنى التعليم، وتأكيد أن هذا إنما هو وحي من الله تعالى، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى ما استقرَّ في الأذهان من المعنى المُجَمَّل عن الإله الذي خلق هذا الكون، والذي هو محلَّ السؤال والجدال بين المؤمنين والمُشركين.

﴿أَحَدٌ﴾ صفة لله تعالى تعني أنه المُتفَرِّد في كلِّ وجه، فلا شريك له، ولا ند، ولا مثيل. ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾ أي: هو السيّد الذي بيده أمرُ الخلائق ومصيرُها، وهو سنَدُها في وجودها، واستمرار حياتها، وقضاء حوائجها.

﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ليس له ولد، كما أنه ليس له والد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: لم يكن له أحدٌ يُماثلُه ويُكافئُه، تبارك ربُّنا وتعالى وتقدَّس وتعظَّم.

سُورَةُ الْفَلَقِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

التعوذ من الشر والحسد

الجنوح نحو الحسد وكرهية المحسود والعمل على إيذائه وإلحاق الشر به مظهر من مظاهر الخروج عن جادة التوحيد والتسليم لحكم الله وقضائه وقدره، وهذا الجنوح على الحقيقة حالة من السخط على ما قسمه الله لعباده، وقد يُقابل هذا الجنوح جنوح آخر؛ حيث يلجأ المحسود إلى أهل السحر والعرافة والشعوذة ليدفع عنه الحسد، وهذه الظاهرة بمبتدأها ومنتهاها غريبة عن المجتمع المؤمن الموحد لله، بل هي من عمل الشيطان وحزبه، والشرك وجنده.

ومعلوم أن عداوة إبليس لآدم وذريته إنما كانت مُنبِئَةً من الحسد، من هنا جاءت هذه السورة لتعالج هذه الظاهرة وعلى أساس متين من التوحيد؛ حيث يلجأ العبد إلى الله وحده ليحتمي به من شر كل ذي شر، وحسد كل حاسد، وشعوذة كل مُشعوذ.

دقائق التفسير

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أمر من الله تعالى لنبِيِّهِ ﷺ ثُمَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَطْلُبَ الْحِمَايَةَ مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْفَلَقِ، وَالْفَلَقُ: الصُّبْحُ، وَاللَّهُ هُوَ رَبُّ الصُّبْحِ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنْ ذَكَرَ الصُّبْحَ مُشِيرًا بِالْأَمَلِ وَالْفَرَجِ.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عام في التعوذ من كل ذي شر؛ من الجن، والإنس، والهوام، وكل ما

خلق الله.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: وأعوذ بالله من شرِّ الليل إذا اشتدَّت ظلمته، وهذا من إضافة الاسم إلى ظرفه؛ فالشرُّ ليس من الليل، وإنما ممَّا يقع في الليل، ومعلوم أنَّ ظلمة الليل مناسبة للصوص، وأهل الغدر، والدعارة والمنكر، وغير ذلك مما يُخشى منه ومن شرِّه.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وهنَّ النساء اللواتي يتعاملن بالسحر والشعوذة؛ وخصَّ النساء لانتشار ذلك بينهنَّ أكثر من الرجال، والنَّفْثُ: النَّفْخُ، والعُقْد: خيوط كُنَّ يعقدنها وينفثن فيها مُعتقدات أنَّ أثرهن في المسحور سارٍ ما دامت العقدة على حالها، فإذا حُلَّت بطلَّ أثرها.

والتعوذ من شرِّهن لا يلزم منه الإقرار بتأثير هذه العقْد في حياة الناس، بل هو تعوُّذ من شرِّهن؛ لأنَّهنَّ بؤرة من بؤر الفتنة والنميمة، وزراعة الأحقاد والأضغان، ونشر الخرافة والجهل، وكفى بذلك شرًّا.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحسد: تمنِّي زوال النعمة عن الغير، وقد يتبعه سعيٌ عمليٌّ؛ كالوشاية عند ذي سلطان، ونشر الإشاعة المشوَّهة للسمعة، ونحو ذلك، والتعوذ بالله منه لا ينبغي أن يصلَّ إلى حدِّ الوسواس، وكأنَّ عين الحاسد تفعل ما تريد - حاشا لله -؛ فالله سبحانه هو مالك الملك، وهو مُقدِّر المقادير والأرزاق والآجال، والحاسد لا يملك طاقةً فوق طاقة البشر، وليس له صلة بعالم الغيب، غاية ما في الأمر أنَّ الحسد قد يُصيرُه إلى عدوٍّ.

وأما اتهام الناس بالحسد وتعيين مُعيَّن منهم بلا بيِّنة ولا عداوة ظاهرة، فهذا من البُهتان الذي لا يقبلُ إنَّه وضرُّه عن الحسد نفسه، ورُبَّما يكون فيه شيءٌ من ادِّعاء الغيب، والعياذ بالله من كلِّ ذلك.

سُورَةُ النَّاسِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

التعوذ بالله من شياطين الإنس والجن

إذا كانت سورة الفلق قد خُصِّصَتْ لدفع الشرِّ والحسد، فإن سورة الناس قد خُصِّصَتْ لدفع أصل هذا الشرِّ، وأصل ذلك الحسد، وهو وسوسة الشيطان التي تُزَيِّنُ الباطل، وتغري بالمنكر، وقد استهلَّت هذه السورة بتأكيد معاني التوحيد؛ إذ هي العقيدة التي تحمي المسلم من وسوسة الشيطان، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ فأكد توحيد الله في ربوبيَّته؛ فالله هو خالق الناس، وهو سيدهم، وهو الذي بيده أمرهم.

ثم أكد توحيدة سبحانه في مُلكِه لهذا الخلق؛ إذ الذي يخلُق هو الذي يملك، ثم أكد توحيدة سبحانه في ألوهيَّته؛ فهو المستحقُّ للعبادة وحده، بحكم أنَّه لا ربَّ غيره، ولا مالكٌ لهذا الكون سواه، ومن مُقتضيات ألوهيَّته تعالى: اللُّجوءُ إليه وحده، والضَّراعة بين يديه لدفع شرِّ الشيطان ووسوسته ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾.

ولكي لا يتوهَّم مُتوهمٌ أنَّ الشرَّ والوسوسة محصوران في شياطين الجنِّ، جاءت الآية الأخيرة في السورة لتبيِّن أنَّ هناك شياطين الإنس الذين يُوسِّسون أيضًا، ويعملون الشرَّ، ويدعون إليه.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ﴾ تخصيصُ الناس هنا مع أن الله سبحانه هو ربُّ الخلق أجمعين؛ لأنهم هم المقصودون بهذا التعليم، وهم المقصودون أيضًا بوسوسة الشيطان، وفي هذا الاختصاص معنى آخر، وهو معنى ودود؛ إذ جاء في مُقابل كيد الشيطان، كأنه تَطْمِينٌ من الله يقول لهم: أنا الله ربُّكم ومَلِكُكم وإلهُكم، وأنا معكم، فلا تخافوا من الشيطان.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ هو الشيطان الذي يُوجي بالخفاء إلى الناس بالأفكار الخبيثة التي تدعو إلى الشرِّ، وتُزيِّنُ المنكر.

﴿الْخَنَاسِ﴾ هو الشيطان أيضًا، وهذه صِفَةٌ من صفاته أنه خَائِسٌ مُحْتَفٍ لا تراه العيون، وهذا بطبيعة خِلْقَتِهِ، لكن اقترانها بالوسوسة أعطاها معنى مُضافًا، وهو أنه مُتَرَبِّصٌ يَتَحَيَّنُ الفرصة والثغرة المناسبة لبدأ في وسوسته.

﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي: يُلقِي فيها الشبهات، ويُزيِّن لها المنكرات.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بمعنى أن الوسواس الخناس ليس من الجن فقط، بل هناك من الإنس من يقوم بعمل الشيطان فيترَبَّص ولا يُظهر عداوته، ثم يتحَيَّن الفرصة لإشعال الفتن، وإثارة الشبهات، والترويج للمنكرات، وإيقاع الناس في مهاوي الضلال والفساد، وهذا المعنى يؤكده القرآن في سورة الأنعام: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

أعاذنا الله وقارئ هذه الكلمات من شياطين الجن وشياطين الإنس، وختمَ لنا بالصالحات، إنه قريبٌ سميعٌ مجيبٌ.

تم بفضل الله تعالى ليلة الجمعة لخمسٍ خلّون من شهر ذي القعدة الحرام، وهي أوّل جمعة في الأشهر الحرم المتواليات في سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة وألفٍ من هجرة خاتم المرسلين ﷺ، والله وحده أسأل أن يكون مقبولاً عنده، ونافعاً لعباده، وأن يجزي بالخير العميم كلّ من بذل فيه جهداً، أو رأياً، أو نصحاً، أو سعىً بنشره والتعريف به.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الفهرس

المجلد الأول

٦	- المحتويات
١٠	- مقدمة
١٢	- المقدمات العشر

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

٣٠	- المجلس الأول	المنظومة القيمية
----	----------------	------------------

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤١	- المجلس الثاني	بناء المجتمع المسلم وتمييزه عن المجتمعات الأخرى
٥٧	- المجلس الثالث	استخلاف الإنسان على هذه الأرض
٦٢	- المجلس الرابع	العهد الإلهي لبني إسرائيل
٦٧	- المجلس الخامس	بنو إسرائيل في خضم التجربة
٧٧	- المجلس السادس	محاكمة ومحاجة
٨٥	- المجلس السابع	دروس ومسائل من وحي التجربة
٩٣	- المجلس الثامن	معالم في هوية الأمة الجديدة
٩٩	- المجلس التاسع	تمييز الهوية
١٠٥	- المجلس العاشر	أسباب الضلال
١١٠	- المجلس الحادي عشر	بناء المجتمع
١١٥	- المجلس الثاني عشر	رسالة الصوم
١٢٢	- المجلس الثالث عشر	رسالة الجهاد
١٢٦	- المجلس الرابع عشر	رسالة الحج
١٣٠	- المجلس الخامس عشر	جبهة اللهاق
١٣٥	- المجلس السادس عشر	يسألوك
١٤٢	- المجلس السابع عشر	لقد الطلاق

١٥٣	التربية العسكرية	المجلس الثامن عشر
١٥٧	مجادلات في مسائل الإيمان	المجلس التاسع عشر
١٦٢	فقه الإنفاق	المجلس العشرون
١٦٩	فقه العلاقات المالية	المجلس الحادي والعشرون
١٧٦	مُوجَّهات ختامية	المجلس الثاني والعشرون

سُورَةُ الْعَجَبَاتِ

١٧٩	المحكم والمتشابه	المجلس الثالث والعشرون
١٨٥	التمييز بين أهل الحق وأهل الباطل	المجلس الرابع والعشرون
١٩٠	التجربة الإصلاحية الكبرى في تاريخ الأنبياء ﷺ	المجلس الخامس والعشرون
١٩٨	حوارات مع أهل الكتاب	المجلس السادس والعشرون
٢٠٧	حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية	المجلس السابع والعشرون
٢١٣	مقومات بناء الأمة المسلمة	المجلس الثامن والعشرون
٢١٩	في الطريق إلى أخذ	المجلس التاسع والعشرون
٢٢٤	بيان المعركة	المجلس الثلاثون
٢٣٣	دروس المعركة	المجلس الحادي والثلاثون
٢٤٠	الرد السريع	المجلس الثاني والثلاثون
٢٤٢	العلاقة بأهل الكتاب	المجلس الثالث والثلاثون

سُورَةُ النَّبَاِ

٢٥١	وحدة الأصل البشري	المجلس الرابع والثلاثون
٢٥٨	نظام الإرث	المجلس الخامس والثلاثون
٢٦٢	المجتمع الطاهر	المجلس السادس والثلاثون
٢٦٨	تنظيم شؤون المجتمع	المجلس السابع والثلاثون
٢٧٦	اليهود وعداوتهم للمؤمنين	المجلس الثامن والثلاثون
٢٨٠	التشريع ومرجعية الحكم	المجلس التاسع والثلاثون
٢٨٥	التربية العسكرية	المجلس الأربعون
٢٩٣	العلاقات العسكرية	المجلس الحادي والأربعون

٣٠١	توجيهات قريوية للمقاتلين	المجلس الثاني والأربعون
٣٠٧	العلاقات الأسرية	المجلس الثالث والأربعون
٣١١	المنافقون	المجلس الرابع والأربعون
٣١٦	أهل الكتاب	المجلس الخامس والأربعون

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

٣٢٢	إكمال الدين وإتمام النعمة	المجلس السادس والأربعون
٣٣١	ميثاق الله السابق لأهل الكتاب	المجلس السابع والأربعون
٣٣٦	الأمن والحياة	المجلس الثامن والأربعون
٣٤٢	أهل الكتاب واختبار الحكم	المجلس التاسع والأربعون
٣٤٦	الولاء والبراء	المجلس الخمسون
٣٥١	حوار مع أهل الكتاب	المجلس الحادي والخمسون
٣٥٧	بناء المجتمع المسلم	المجلس الثاني والخمسون
٣٦٣	معجزات النبي عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام	المجلس الثالث والخمسون

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٦٩	القرآن في مواجهة الكُذِّبِينَ	المجلس الرابع والخمسون
٣٧٧	حوار مع المشركين	المجلس الخامس والخمسون
٣٨٢	التكوين الإيماني للمجتمع المسلم	المجلس السادس والخمسون
٣٨٩	الهدى الإبراهيمي	المجلس السابع والخمسون
٣٩٤	الوحي والحياة	المجلس الثامن والخمسون
٤٠١	طرقُ الفِوَايَةِ والضلال	المجلس التاسع والخمسون
٤٠٧	نماذج من القَمَّةِ والضلال	المجلس الستون
٤١٢	الشرعة السُّمُحَة	المجلس الحادي والستون
٤١٦	وصايا عشر وتوجيهات ختامية	المجلس الثاني والستون

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

٤٢٣	درس الحياة الأول	المجلس الثالث والستون
٤٣٠	يا بني آدم .. خطاب الإنسانية والفطرة	المجلس الرابع والستون
٤٣٥	حوارات في دار الجزاء	المجلس الخامس والستون
٤٤١	دعوة المرسلين من محمد إلى نوح ﷺ	المجلس السادس والستون
٤٤٦	هود وصالح ﷺ	المجلس السابع والستون
٤٥٠	لوط وشعيب ﷺ	المجلس الثامن والستون
٤٥٨	النبوة في مواجهة السحر	المجلس التاسع والستون
٤٦٣	الصراع المفتوح مع فرعون وملئه	المجلس السبعون
٤٦٧	قيادة موسى ﷺ لقومه بعد هلاك فرعون	المجلس الحادي والسبعون
٤٧٥	الخطاب القرآني لليهود	المجلس الثاني والسبعون
٤٨١	سبيل الهداية وأسباب الضلال	المجلس الثالث والسبعون
٤٨٦	تلخيص وتوجيهات ختامية	المجلس الرابع والسبعون

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

٤٩٢	يوم الفرقان	المجلس الخامس والسبعون
٥٠٠	تمايز الصفوف	المجلس السادس والسبعون
٥٠٦	بيان المعركة	المجلس السابع والسبعون
٥١١	فقه الجهاد	المجلس الثامن والسبعون

المجلد الثاني

٥٢٣	المحتويات
-----	-----------

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٣٠	بيان إنهاء العقود المبرمة مع المشركين	المجلس التاسع والسبعون
٥٣٨	الموقف من أهل الكتاب	المجلس الثمانون

٥١١	الموقف من المنافقين	المجلس الحادي والثمانون
٥٥٣	الموقف من المتخلفين عن المعركة	المجلس الثاني والثمانون
٥٥٨	أهل الإيمان	المجلس الثالث والثمانون

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٦٨	معالم الإيمان الحق	المجلس الرابع والثمانون
٥٦٣	حوار مع المشركين	المجلس الخامس والثمانون
٥٨٣	عاقبة الفريقين	المجلس السادس والثمانون
٥٨٩	الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم	المجلس السابع والثمانون
٥٩٧	توجيهات ختامية	المجلس الثامن والثمانون

سُورَةُ هُودٍ

٦٠٢	الإيمان والإنسان	المجلس التاسع والثمانون
٦٠٩	نوح ﷺ	المجلس التسعون
٦١٧	هود وصالح ﷺ	المجلس الحادي التسعون
٦٢٠	إبراهيم ولوط ﷺ	المجلس الثاني والتسعون
٦٢٥	شعيب ﷺ	المجلس الثالث والتسعون
٦٢٩	موسى ﷺ وخاتمة القصص النبوي	المجلس الرابع والتسعون
٦٣٢	توجيهات ختامية	المجلس الخامس والتسعون

سُورَةُ يُؤُسُفَ

٦٣٦	فتنة الحسد	المجلس السادس والتسعون
٦٤٠	فتنة النساء	المجلس السابع والتسعون
٦٤٦	فتنة السجن	المجلس الثامن والتسعون
٦٥٤	فتنة الملك	المجلس التاسع والتسعون
٦٦٤	اللقاء بعد الفراق	المجلس المائة
٦٧١	توجيهات ختامية	المجلس الأول بعد المائة

سُورَةُ النُّورِ

٦٧٥	سبيل الهداية	المجلس الثاني بعد المائة
٦٨٠	التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل	المجلس الثالث بعد المائة
٦٨٥	خاتمة وتذكير بالحقائق الكبرى	المجلس الرابع بعد المائة

سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ

٦٨٩	ومضات من سيرة النبيين ﷺ مع أقوامهم	المجلس الخامس بعد المائة
٦٩٤	توجيهات إيمانية وتربوية	المجلس السادس بعد المائة

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٠١	معركة القرآن مع المكذبين	المجلس السابع بعد المائة
٧٠٤	معركة الإنسان مع الشيطان	المجلس الثامن بعد المائة
٧٠٧	عاقبة الصراع	المجلس التاسع بعد المائة
٧١٠	توجيهات ختامية	المجلس العاشر بعد المائة

سُورَةُ الْجَحَلِّ

٧١٣	دلائل التوحيد	المجلس الحادي عشر بعد المائة
٧١٨	عقيدة الجزاء	المجلس الثاني عشر بعد المائة
٧٢٢	النبوة والرسالة	المجلس الثالث عشر بعد المائة
٧٢٥	حوار مع المشركين	المجلس الرابع عشر بعد المائة
٧٢٨	تتمة الحوار مع المشركين	المجلس الخامس عشر بعد المائة
٧٣٣	بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم	المجلس السادس عشر بعد المائة
٧٣٧	تتمة بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم	المجلس السابع عشر بعد المائة

سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ

٧٤٢	المسجد الأقصى	المجلس الثامن عشر بعد المائة
٧٤٦	المسؤولية الشخصية	المجلس التاسع عشر بعد المائة

٧٥٠	بناء المجتمع المسلم	المجلس العشرون بعد المائة
٧٥٥	حوار مع المشركين	المجلس الحادي والعشرون بعد المائة
٧٦٢	معركة الإنسان مع الشيطان	المجلس الثاني والعشرون بعد المائة
٧٦٦	معركة الحق والباطل	المجلس الثالث والعشرون بعد المائة

سُورَةُ الْكَهْفِ

٧٧٧	أصحاب الكهف	المجلس الرابع والعشرون بعد المائة
٧٨٦	قصة المؤمن مع صاحبه الكافر	المجلس الخامس والعشرون بعد المائة
٧٩٢	قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل	المجلس السادس والعشرون بعد المائة
٧٩٦	قصة النبي موسى مع الرجل الصالح ﷺ	المجلس السابع والعشرون بعد المائة
٨٠٣	قصة ذي القرنين	المجلس الثامن والعشرون بعد المائة
٨٠٧	وقفات ختامية	المجلس التاسع والعشرون بعد المائة

سُورَةُ مَرْيَمَ

٨١٢	قصة زكريا ويحيى ﷺ	المجلس الثلاثون بعد المائة
٨١٧	قصة مريم وابنها المسيح ﷺ	المجلس الحادي والثلاثون بعد المائة
٨٢٣	شذرات من سيرة النبيين ﷺ	المجلس الثاني والثلاثون بعد المائة
٨٢٧	حال الخلف بعد أولئك النبيين	المجلس الثالث والثلاثون بعد المائة

سُورَةُ طه

٨٣٤	موسى ﷺ : الإعداد والتهيئة الربانية	المجلس الرابع والثلاثون بعد المائة
٨٤١	موسى ﷺ في مواجهة فرعون	المجلس الخامس والثلاثون بعد المائة
٨٤٨	موسى ﷺ مع بني إسرائيل	المجلس السادس والثلاثون بعد المائة
٨٥٥	يوم الحساب والجزاء	المجلس السابع والثلاثون بعد المائة
٨٥٩	التذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية	المجلس الثامن والثلاثون بعد المائة

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٨٦٤	تنبيه الغافلين	المجلس التاسع والثلاثون بعد المائة
٨٧٠	حوار مع المشركين	المجلس الأربعون بعد المائة
٨٧٧	إبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على بطلان الأوثان	المجلس الحادي والأربعون بعد المائة
٨٨٢	شذرات من قصص النبيين عليه السلام	مجلس الثاني والأربعون بعد المائة
٨٨٧	العاقبة ونهاية الصراع	المجلس الثالث والأربعون بعد المائة

سُورَةُ الْحَجِّ

٨٩٣	عقيدة البعث والجزاء	المجلس الرابع والأربعون بعد المائة
٨٩٩	رسالة الحج	المجلس الخامس والأربعون بعد المائة
٩٠٥	الصراع مع المشركين	المجلس السادس والأربعون بعد المائة
٩١٢	عقيدة التوحيد	المجلس السابع والأربعون بعد المائة

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٩١٩	صفات المؤمنين	المجلس الثامن والأربعون بعد المائة
٩٢٣	دعوة النبيين السابقين	المجلس التاسع والأربعون بعد المائة
٩٢٨	دعوة النبي الخاتم ﷺ	المجلس الخمسون بعد المائة
٩٣٢	حوار مع المشركين	المجلس الحادي والخمسون بعد المائة
٩٣٦	عاقبة المكذِبين	المجلس الثاني والخمسون بعد المائة

سُورَةُ النُّورِ

٩٤٠	حماية المجتمع من الرذيلة	المجلس الثالث والخمسون بعد المائة
٩٥٣	مجتمع النور	المجلس الرابع والخمسون بعد المائة
٩٦١	مجتمع الرحمة والأخلاق والانضباط	المجلس الخامس والخمسون بعد المائة

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٩٦٨	الفرقان بين الحق والباطل	المجلس السادس والخمسون بعد المائة
٩٧٥	اسباب الغواية والضلال	المجلس السابع والخمسون بعد المائة
٩٨٠	دلائل الهدى المبثوثة في هذا الكون	المجلس الثامن والخمسون بعد المائة
٩٨٦	عباد الرحمن	المجلس التاسع والخمسون بعد المائة

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٩٩١	مقدمة في دعوة نبينا ﷺ	المجلس الستون بعد المائة
٩٩٥	موسى وهارون ﷺ	المجلس الحادي والستون بعد المائة
١٠٠٣	إبراهيم ونوح ﷺ	المجلس الثاني والستون بعد المائة
١٠٠٩	هود وصالح ﷺ	المجلس الثالث والستون بعد المائة
١٠١٣	لوط وشعيب ﷺ	المجلس الرابع والستون بعد المائة
١٠١٧	دعوة نبينا محمد ﷺ	المجلس الخامس والستون بعد المائة

المجلد الثالث

١٠٢٧	المحتويات
------	-----------

سُورَةُ الْبَنَاتِ

١٠٣٣	ومضات من الدعوتين الحمديّة والمُوسويّة	المجلس السادس والستون بعد المائة
١٠٣٧	سليمان ﷺ وتجربة الملك	المجلس السابع والستون بعد المائة
١٠٤٩	صالح ولوط ﷺ	المجلس الثامن والستون بعد المائة
١٠٥٤	الإيمان بالله ﷻ	المجلس التاسع والستون بعد المائة
١٠٥٧	الإيمان باليوم الآخر	المجلس السبعون بعد المائة

سُورَةُ الْقَصَصِ

١٠٦٤	موسى ﷺ الهدف الكبير والعناية الإلهية المبكرة	المجلس الحادي والسبعون بعد المائة
١٠٧٠	موسى ﷺ بعد أن بلغ أشده	المجلس الثاني والسبعون بعد المائة
١٠٧٦	موسى ﷺ والمهمة الكبيرة	المجلس الثالث والسبعون بعد المائة
١٠٨٢	الدعوة المحمدية	المجلس الرابع والسبعون بعد المائة
١٠٨٨	وعد المؤمنين ووعد المكذبين	المجلس الخامس والسبعون بعد المائة
١٠٩٣	دروس من قصة قارون وتوجيهات ختامية	المجلس السادس والسبعون بعد المائة

سُورَةُ الْغَنَاقِ

١١٠١	فتنة الاختبار والتمحيص	المجلس السابع والسبعون بعد المائة
١١٠٥	ومضات من قصص النبيين ﷺ	المجلس الثامن والسبعون بعد المائة
١١١٣	حوار مع المخالفين والمكذبين	المجلس التاسع والسبعون بعد المائة
١١١٨	العاقبة والمصير المحتوم	المجلس الثمانون بعد المائة

سُورَةُ الرُّومِ

١١٢٥	صراع الحق والباطل	المجلس الحادي والثمانون بعد المائة
١١٣٠	آيات الله في الكون والإنسان	المجلس الثاني والثمانون بعد المائة
١١٣٧	المنظومة القيمية لبناء الإنسان والمجتمع المسلم	المجلس الثالث والثمانون بعد المائة
١١٤٧	قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره	المجلس الرابع والثمانون بعد المائة

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

١١٥٢	المنظومة القيمية والتربوية	المجلس الخامس والثمانون بعد المائة
١١٦١	أهل الهداية وأهل الضلال	المجلس السادس والثمانون بعد المائة

سُورَةُ الشُّرَاةِ

١١٦٨	حوار في مسائل العقيدة	المجلس السابع والثمانون بعد المائة
------	-----------------------	------------------------------------

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١١٧٩	النبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ	المجلس الثامن والثمانون بعد المائة
١١٨٥	وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ	المجلس التاسع والثمانون بعد المائة
١١٩٤	إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا	المجلس التسعون بعد المائة
١٢٠٦	وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ	المجلس الحادي والتسعون بعد المائة

سُورَةُ سَبَأٍ

١٢١٥	عِمَارَةُ الْأَرْضِ وَخَرَابُهَا بِمَنْظُورٍ إِيْمَانِيٍّ وَيُعَدُّ تَارِيخِيٍّ	المجلس الثاني والتسعون بعد المائة
١٢٢٦	فَقَّهَ الْحَوَارِ	المجلس الثالث والتسعون بعد المائة

سُورَةُ فَاطِمَاتٍ

١٢٣٥	طَرِيقُ الْإِيْمَانِ	المجلس الرابع والتسعون بعد المائة
١٢٤١	مَعَايِيرُ التَّمَايِزِ وَالتَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ	المجلس الخامس والتسعون بعد المائة

سُورَةُ قُلُوبٍ

١٢٥٠	الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ	المجلس السادس والتسعون بعد المائة
١٢٦٠	عَقِيدَةُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ	المجلس السابع والتسعون بعد المائة

سُورَةُ الصَّنَاقَاتِ

١٢٦٨	حَوَارِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ	المجلس الثامن والتسعون بعد المائة
١٢٧٧	وَمُضَاتٌ مِّنْ قِصَصِ النَّبِيِّينَ	المجلس التاسع والتسعون بعد المائة
١٢٨٦	تَتَمُّةُ الْحَوَارِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ	المجلس المائتان

سُورَةُ جَنَّةٍ

١٢٩٢	عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ	المجلس الأول بعد المائتين
١٢٩٦	وَمُضَاتٌ مِّنْ قِصَصِ النَّبِيِّينَ	المجلس الثاني بعد المائتين
١٣٠٨	لِهَآئِةِ الْحَيَاةِ وَالْمَصِيرِ الْمَحْتَمِ	المجلس الثالث بعد المائتين

سُورَةُ النُّورِ

١٣١٤	الدين الخالص	المجلس الرابع بعد المائتين
١٣٢٤	التمايز بين الحق والباطل	المجلس الخامس بعد المائتين
١٣٣٢	أصحاب الجنة وأصحاب النار	المجلس السادس بعد المائتين

سُورَةُ غَافِرٍ

١٣٣٧	الذين آمنوا والذين كفروا	المجلس السابع بعد المائتين
١٣٤٤	مؤمن آل فرعون	المجلس الثامن بعد المائتين
١٣٥٤	الذين يُجادلون في آيات الله	المجلس التاسع بعد المائتين
١٣٥٩	قاصبر إن وعد الله حق	المجلس العاشر بعد المائتين

سُورَةُ فُصِّلَتْ

١٣٦٣	فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ	المجلس الحادي عشر بعد المائتين
١٣٧٢	الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	المجلس الثاني عشر بعد المائتين

سُورَةُ الشُّورَى

١٣٨٢	الوحي الإلهي لمحمد وللأنبياء السابقين ﷺ	المجلس الثالث عشر بعد المائتين
١٣٨٨	الذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ وَيُكْفِّرُونَ بِأَنْبِيََاءِ اللَّهِ	المجلس الرابع عشر بعد المائتين
١٣٩٤	الذين استجابوا لربهم وآمنوا بهذا الوحي	المجلس الخامس عشر بعد المائتين

سُورَةُ الزُّحُرُفِ

١٤٠٢	إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	المجلس السادس عشر بعد المائتين
١٤٠٩	وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ	المجلس السابع عشر بعد المائتين
١٤١٤	وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا	المجلس الثامن عشر بعد المائتين
١٤٢١	هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ	المجلس التاسع عشر بعد المائتين

سُورَةُ الدُّخَانِ

١٤٢٨	بل هم في شك يلعبون	المجلس العشرون بعد المائتين
١٤٣٣	ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون	المجلس الحادي والعشرون بعد المائتين
١٤٣٧	إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين	المجلس الثاني والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

١٤٤٢	هذا بصائر للناس وهدى ورحمة	المجلس الثالث والعشرون بعد المائتين
١٤٤٧	هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق	المجلس الرابع والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

١٤٥٣	أم يقولون افتراه	المجلس الخامس والعشرون بعد المائتين
١٤٥٨	الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	المجلس السادس والعشرون بعد المائتين
١٤٦٢	واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف	المجلس السابع والعشرون بعد المائتين
١٤٦٥	يا قومنا أجيئوا داعي الله	المجلس الثامن والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

١٤٧٠	إن تنصروا الله ينصركم	المجلس التاسع والعشرون بعد المائتين
١٤٧٦	الذين في قلوبهم مرض	المجلس الثلاثون بعد المائتين
١٤٨٣	ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين	المجلس الحادي والثلاثون بعد المائتين

سُورَةُ الْفَتْحِ

١٤٨٩	إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً	المجلس الثاني والثلاثون بعد المائتين
١٤٩٧	إذ يبايعونك تحت الشجرة	المجلس الثالث والثلاثون بعد المائتين

سُورَةُ الْمُلْكِ

١٥٠٥	منظومة القيم الإسلامية	المجلس الرابع والثلاثون بعد المائتين
------	------------------------	--------------------------------------

١٥١٩	المجلس الخامس والثلاثون بعد المائتين	بل كذبوا بالحق لما جاءهم
١٥٢٥	المجلس السادس والثلاثون بعد المائتين	وجاءت سكرة الموت بالحق

المجلد الرابع

١٥٣٥	المحتويات
------	-----------

سُورَةُ الْأَزْيَاتِ

١٥٤٤	المجلس السابع والثلاثون بعد المائتين	إنما توعدون لصادق
١٥٤٨	المجلس الثامن والثلاثون بعد المائتين	من قصص النبيين
١٥٥٢	المجلس التاسع والثلاثون بعد المائتين	ففرُّوا إلى الله

سُورَةُ الْأَطْوَرِ

١٥٥٧	المجلس الأربعون بعد المائتين	إن عذاب ريك لواقع
١٥٦١	المجلس الحادي والأربعون بعد المائتين	أم خلِّقوا من غير شيء أم هم الخالقون

سُورَةُ النَّجْمِ

١٥٦٧	المجلس الثاني والأربعون بعد المائتين	وما ينطق عن الهوى
١٥٧٣	المجلس الثالث والأربعون بعد المائتين	وان ليس للإنسان إلا ما سقى

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

١٥٧٩	المجلس الرابع والأربعون بعد المائتين	هكيف كان عذابي ونذر
------	--------------------------------------	---------------------

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

١٥٨٩	المجلس الخامس والأربعون بعد المائتين	هباي الاء ريكما تكذبان
------	--------------------------------------	------------------------

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

١٥٩٩	المجلس السادس والأربعون بعد المائتين	إذا وقعت الواقعة
١٦٠٥	المجلس السابع والأربعون بعد المائتين	نحن خلقناكم فلولا تُصدّقون

سُورَةُ الْحَزَنِ

١٦١٣	المجلس الثامن والأربعون بعد المائتين	وانفقوا مما جعلكم مُستخلفين فيه
١٦٢٥	المجلس التاسع والأربعون بعد المائتين	ليقوم الناس بالقسط

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

١٦٣٠	المجلس الخمسون بعد المائتين	من فقه الأسرة والمجتمع المسلم
١٦٣٨	المجلس الحادي والخمسون بعد المائتين	التحذير من النفاق والمنافقين

سُورَةُ الْخُبَرِ

١٦٤٢	المجلس الثاني والخمسون بعد المائتين	وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله
١٦٥٢	المجلس الثالث والخمسون بعد المائتين	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ

١٦٥٨	المجلس الرابع والخمسون بعد المائتين	فقه الولاء والبراء
------	-------------------------------------	--------------------

سُورَةُ الصَّفِّ

١٦٦٨	المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين	والله مُتم نوره ولو كره الكافرون
------	-------------------------------------	----------------------------------

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

١٦٧٦	المجلس السادس والخمسون بعد المائتين	هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم
------	-------------------------------------	-----------------------------------

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

١٦٨٤

إن المنافقين لَكَاذِبُونَ

المجلس السابع والخمسون بعد المائتين

سُورَةُ التَّغَابُنِ

١٦٩١

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ

المجلس الثامن والخمسون بعد المائتين

سُورَةُ الطَّلَاقِ

١٦٩٨

فَقَّه الطَّلَاقِ

المجلس التاسع والخمسون بعد المائتين

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

١٧٠٨

لَمْ تُحْرَمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

المجلس الستون بعد المائتين

سُورَةُ الْمُلْكِ

١٧١٧

لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

المجلس الحادي والستون بعد المائتين

سُورَةُ الْفَتَنِ

١٧٢٧

وَأَنْكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ

المجلس الثاني والستون بعد المائتين

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

١٧٣٨

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ

المجلس الثالث والستون بعد المائتين

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

١٧٤٦

مَعَارِجُ الْقِيَمِ الْإِيمَانِيَةِ وَالتَّرْبِيَةِ

المجلس الرابع والستون بعد المائتين

سُورَةُ نُوحٍ

١٧٥٥

نُوحٌ

المجلس الخامس والستون بعد المائتين

سُورَةُ الْجِنِّ

١٧٦٣	علاقة الإنس بالجن	المجلس السادس والستون بعد المائتين
------	-------------------	------------------------------------

سُورَةُ الْمُرْكَاتِ

١٧٧٢	حاجة الدعاة إلى قيام الليل	المجلس السابع والستون بعد المائتين
------	----------------------------	------------------------------------

سُورَةُ الْمَدَّيْنِ

١٧٧٩	قم فأنذر	المجلس الثامن والستون بعد المائتين
------	----------	------------------------------------

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

١٧٨٩	يوم القيامة	المجلس التاسع والستون بعد المائتين
------	-------------	------------------------------------

سُورَةُ الْاِنشَادِ

١٧٩٦	وكان سعيكم مشكوراً	المجلس السبعون بعد المائتين
------	--------------------	-----------------------------

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

١٨٠٥	ويل يومئذ للمكذِبِينَ	المجلس الحادي والسبعون بعد المائتين
------	-----------------------	-------------------------------------

سُورَةُ النَّبَاِ

١٨١٢	النبا العظيم	المجلس الثاني والسبعون بعد المائتين
------	--------------	-------------------------------------

سُورَةُ الْبَارَاِئَاتِ

١٨١٩	لهذا جاءت الطامة الكبرى	المجلس الثالث والسبعون بعد المائتين
------	-------------------------	-------------------------------------

سُورَةُ عَبَسَ

١٨٢٧	قصة الرجل الأعمى	المجلس الرابع والسبعون بعد المائتين
------	------------------	-------------------------------------

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

١٨٣٣

المجلس الخامس والسبعون بعد المائتين

إن هو إلا ذكر للعالمين

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

١٨٣٩

المجلس السادس والسبعون بعد المائتين

يا أيها الإنسان!

سُورَةُ الْمَطْفِيْنِ

١٨٤٤

المجلس السابع والسبعون بعد المائتين

ويل للمطففين

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

١٨٥١

المجلس الثامن والسبعون بعد المائتين

يا أيها الإنسان!

سُورَةُ الْبُرُوجِ

١٨٥٧

المجلس التاسع والسبعون بعد المائتين

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود

سُورَةُ الطَّارِقِ

١٨٦٣

المجلس الثمانون بعد المائتين

إنه لقول فصل وما هو بالهزل

سُورَةُ الْاَغْلَاقِ

١٨٦٧

المجلس الحادي والثمانون بعد المائتين

قد افلح من قرأ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

١٨٧٣

المجلس الثاني والثمانون بعد المائتين

فذكر إنما أنت مذكر

سُورَةُ الْفَجْرِ

١٨٧٧

المجلس الثالث والثمانون بعد المائتين

إن ربك لبالمرصاد

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

١٨٨٦

لقد خلقنا الإنسان في كبد

المجلس الرابع والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ الشَّمْسِ

١٨٩١

قد افلح من زكّاه

المجلس الخامس والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

١٨٩٦

إن سعيكم لشتى

المجلس السادس والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ الصُّحُحِ

١٩٠٢

ولسوف يعطيك ربك فترضى

المجلس السابع والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ الشُّرَحِ

١٩٠٧

ورفعنا لك ذكرك

المجلس الثامن والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ التِّينِ

١٩١١

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم

المجلس التاسع والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ الْعَنَّاكِ

١٩١٥

اقرأ باسم ربك

المجلس التسعون بعد المائتين

سُورَةُ الْقَدَرِ

١٩٢٠

ليلة القدر

المجلس الحادي والتسعون بعد المائتين

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

١٩٢٤

حتى تأتيهم البينة

المجلس الثاني والتسعون بعد المائتين

سُورَةُ الزُّلْفِ

الجلس الثالث والتسعون بعد المائتين ليرُوا اعمالهم ١٩٢٨

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

الجلس الرابع والتسعون بعد المائتين إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ١٩٣١

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

الجلس الخامس والتسعون بعد المائتين وما أدراك ما القارعة ١٩٣٥

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الجلس الخامس والتسعون بعد المائتين الْهَٰكِمُ التَّكَاثُرُ ١٩٣٧

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

الجلس السادس والتسعون بعد المائتين شروط النجاة ١٩٤٠

سُورَةُ الْحَٰجِّراتِ

الجلس السادس والتسعون بعد المائتين يحسب أن ماله أخذه ١٩٤٣

سُورَةُ الْفَجْرِ

الجلس السابع والتسعون بعد المائتين أصحاب الفيل ١٩٤٦

سُورَةُ الْبُرُوجِ

الجلس السابع والتسعون بعد المائتين اطعمهم من جوع وأمنهم من خوف ١٩٤٩

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

الجلس الثامن والتسعون بعد المائتين علاقة الدين بالأخلاق ١٩٥٢

سُورَةُ الزُّكُرِ

١٩٥٥	المجلس الثامن والتسعون بعد المائتين	فصل لربك وانحر
------	-------------------------------------	----------------

سُورَةُ الْبَكَارُونَ

١٩٥٨	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	لكم دينكم ولي دين
------	-------------------------------------	-------------------

سُورَةُ الْبَصَرِ

١٩٦٠	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	نهاية الصراع مع قريش
------	-------------------------------------	----------------------

سُورَةُ الْمَسَدِ

١٩٦٢	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	قُبْتُ يدا أبي لهب
------	-------------------------------------	--------------------

سُورَةُ الْإِخْلَاقِ

١٩٦٥	المجلس المُتَمِّم ثلاثمائة	حقيقة التوحيد
------	----------------------------	---------------

سُورَةُ الْفَلَقِ

١٩٦٧	المجلس المُتَمِّم ثلاثمائة	التعوذ من الشر والحسد
------	----------------------------	-----------------------

سُورَةُ النَّاسِ

١٩٦٩	المجلس المُتَمِّم ثلاثمائة	التعوذ بالله من شياطين الإنس والجن
------	----------------------------	------------------------------------